

سلسلة الترجمات -٢٣

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

جناية النسوية
على المرأة والمجتمع

فصول مُترجمة عن الفرنسية في نقد الفكر النسوي

ترجمة وتعليق :

د. البشير عصام المراكشي

جناية النسوية

على المرأة والمجتمع

فصول مترجمة عن الفرنسية في نقد الفكر النسوي

جناية النسوية

على المرأة والمجتمع

فصول مُترجمة عن الفرنسية في نقد الفكر النسوي

ترجمة وتعليق :

د. البشير عصام المراكشي

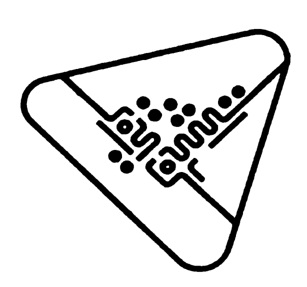
ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

جناية النسوية : على المرأة والمجتمع
د. البشير عصام المراكشي
٣٦٠ ص، ١٧×٢٤سم.
ترقيم دولي : ٧ - ٣ - ٨٥٥٤١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م



مركز دلائل
DALA'IL CENTRE
Dalailcentre@gmail.com
الرياض - المملكة العربية السعودية
ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥
Dalailcentre@
+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠



دار تشويق للنشر والتوزيع
مصر - +٢٠١٠٦٨٤٣١٧٧٠
DarTashweek@gmail.com

تصدير

لا شك أن الترجمة هي من أوسع أبواب الاستزادة المعرفية والعلمية وتبادل الخبرات بين البلدان والأمم والثقافات والشعوب، ومن هنا كان لسلسلة (الترجمات) لدى مركز دلائل عناية خاصة في انتقاء أفضلها وأكثرها ملاءمةً، مع الوضع في الاعتبار عدم تبني المركز لكل مكتوب أو منقول بالضرورة.

وفي هذا الكتاب يعرض لنا د. البشير عصام المراكشي عرضًا دقيقا لوضع النسوية في الخارج (أو الأنثوية كما اختار ترجمتها لمرونتها أكثر في الاشتقاقات اللغوية كما سنلاحظ)، وذلك عن طريق الاختيار المنتقى لترجمة 5 من الكتب الفرنسية مع تعليقاته عليها، والتي يسبقها بمقدمةٍ رائعة تجري في جسد النسوية (قديمها وحديثها) مجرى مبضع التشريح لجراح ماهر، ليبين لنا أن الجناية الحقيقية وأن الخاسر الأكبر للحركات النسوية كان دومـًا المرأة نفسها (والكل خاسر في هذا الصراع المحموم ضد الفطرة والطبيعة والأسرة والمجتمع).
لن نطيل عليكم.. لنتركم مع الدكتور ومع قوة عرضه، وسعة اطلاعة، ودقة اختياراته، وتمكنه من اللغة الفرنسية، واطلاعه على الثقافة الغربية، ومع علمه الشرعي الوافي.

بقي تنبيهٌ أخير سنكرره في كل كتبنا عن النسوية، وهو اللغة الجريئة والألفاظ الفاحشة أو الخادشة للحياء أحيانا، والتي تلاصق كل كتابات هذا التيار للأسف، مما يصعب على المترجم الأمين فصله للحصول على الفوائد المستهدفة دونه. فليعذرنا قراؤنا ومتابعونا على ذلك، وليعدوه من باب الشهادة على القوم لبيان أحوالهم بغير تجميل.

مركز دلائل



المحتويات

المحور الأول:

المحور الثاني:

المحور الثالث

المحور الرابع

المحور الخامس

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه.

ما أكثر الشعارات الكاذبة في هذه الحضارة الغربية الحديثة! وما أكثر المفاهيم التي يقع تنزيلها على وجه يناقض معانيها الأصلية!

باسم الحرية تُستعبد الأمم «المارقة»، وباسم الديمقراطية يُنشر الظلم بين الشعوب، وباسم حقوق الإنسان تنتزع إنسانية الإنسان ..

وباسم الأنثوية[1] تدمّر الأنثى .. ويدمّر معها الرجل والأسرة والمجتمع، والحضارة كلها.

إن الأنثوية ليست حركة حقوقية، ولا فكرة فلسفية تجريدية، بل هي «إيديولوجيا شمولية».

ومثل جميع الإيديولوجيات فإنها تنطلق من منطق داخلي متسق مع نفسه، ولكنه ليس بالضرورة متسقا مع ما حوله (سيأتينا أن الأنثوية تناقض الطبيعة، وترفض بدهيات الواقع)، وهي تسعى إلى فرض هذا المنطق على المجتمع كله، ليصبح شبكة القراءة الوحيدة الممكنة في الفكر والثقافة (سيأتينا أيضا أن الأنثوية الحديثة تتميز بقدر هائل من رفض الآخر، الذي تعده دائما خارج التاريخ)، وتعمل على تكييف الواقع الاجتماعي - ولو بقوة القانون - ليلائم مقتضيات الوعي الذي تفرضه - وإن كان زائفا (سيأتينا كذلك أن الأنثوية تتحكم في الإعلام والتعليم والسياسة، وتستثمر ذلك في النشر الأفقي والعمودي لأفكارها).

ولأنها شمولية فهي تتمدد في جميع المجالات، من الاقتصاد والسياسة والفن والثقافة والتعليم والإعلام واللغة؛ وعلى جميع المستويات، من الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والتجمعات الدولية (وجميع ذلك سيأتي - بإذن الله تعالى - شرح بعض تفاصيله في محاور هذا الكتاب

---

(1) (Féminisme) وتسمى «النسوية» أيضا، وعلى الرغم من صعوبة الترجيح بين اللفظين، فقد اخترنا مصطلح الأنثوية في هذا الكتاب لاعتبارات لغوية واشتقاقية متعددة (كما سنرى في الفصول اللاحقة). وأصل اللفظ في اللغات الغربية غير واضح، كما في الدراسة الرصينة لكارن أوفن Karen Offen Sur l'origine des mots féminisme et féministe، مجلة «التاريخ الحديث والمعاصر Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine»، ج34رقم3، يوليوز - شتنبر 1987، ص492 - 496. [المترجم].

المختلفة). ثم هي تستعمل أساليب الأنظمة الشمولية، فتحتكر الخطاب الثقافي والسياسي، وترفض النقد والمعارضة، وتضطهد المخالِف بل تُشيطنه (فالذي ينتقد الأنثوية هو بالضرورة «ذكوري ماضوي رجعي متخلف معادٍ للمرأة»، ومن ينتقد زواج المثليين مثلا عدوّ للحرية؛ كما أن من ينتقد الصهيونية معاد للسامية، ومن كان ينتقد الشيوعية معاد لحقوق العمال والفقراء ..!).

لقد أصبحت الأنثوية من أبرز المذاهب الفكرية المؤسِّسة للحضارة الغربية الحديثة. وقد بلغ تأثيرها الفكري إلى درجة تغيير صورة المجتمع الغربي، وتدمير العلاقات التقليدية داخل الأسرة، وتغيير لغة الخطاب الإعلامي والسياسي، بل إلى تغيير القوانين والأعراف السياسية الحاكمة في الغرب. ثم لا تزال هذه الأنثوية تغيّر جلدها مرارا، من أنثوية تطالب بحقوق المرأة، إلى أنثوية تطالب بالمساواة التامة مع الرجل، إلى نيو - أنثوية تلغي الرجل وتشَيطنه وتدمر الأسرة وتضع يدها في يد الأقليات الجنسية، التي يراد لها أن تكون مستقبل الإنسان الحديث. ولا تزال الأنثوية مع ذلك كله، تطلب المزيد!

ولنا أن نتساءل: كيف وصل الغرب - ونحن في دربه سائرون - إلى هذا التغول الأنثوي الرهيب؟

***

بدأت القضية بالمطالبة بالمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة، وكان ذلك بعد استقرار الحداثة في أوروبا، وانتشار ثقافة حقوقَ الإنسان التي أُعلن عنها رمزيا من طرف الثورة الفرنسية في ما سمّي «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» عام 1789، وذلك بعد عقود من المخاض التأصيلي عند فلاسفة الأنوار.

إلا أن الحداثة الظافرة المتشبعة بحقوق الإنسان، كانت مع ذلك متوجسة من حقوق «المرأة»، لأن الغالب على النساء كان الالتزام الديني والمحافظة على القيم التقليدية، فكان وجود المرأة في أعلى هرم السلطة السياسية مهدِّدا لقيم الحداثة المصادمة للدين. ولذلك لم تقبل الحداثة بسهولة منح الحقوق السياسية للمرأة، فاضطرت الأنثوية الأولى إلى النضال من أجل حصول المرأة على الحقوق المدنية والسياسية التي حصل الرجال عليها بعد الثورة.

كانت الأنثوية في أصلها إذن حركةً حقوقية، تتبنى مطالب واضحة متعلقة بالحقوق السياسية للمرأة. ثم حدثت ظروف اقتصادية وسياسية متعددة في أوروبا، أدت إلى ظهور كتاب «الجنس الثاني» لسيمون دو بوفوار. في كتابها هذا، تضع المؤلفة البذرة الأولى لكثير من الانحرافات

الأنثوية التي ستأتي في العقود التالية (معاداة الرجل وفي الوقت نفسه احتقار المرأة، مطالب المساواة التامة إلى درجة الهوس في ملاحقة التنميط الجنسوي، الربط بين الأنثوية والمثلية، تضخيم جانب التربية في التفريق بين الجنسين على حساب جانب الطبيعة، ..).

ولكن لم يكن لهذه البذرة أن تنمو، ولم يكن لأفكار سيمون دو بوفوار أن تعرف هذا الانتشار الجماهيري الواسع، ولا أن تتحول المؤلفة إلى أيقونة النضال الأنثوي بامتياز، لولا انتفاضة ماي 1968.

لقد كانت ثورة ماي 1968، اللحظةَ الثالثة لتخلُّص أوروبا من الدين المسيحي في العصر الحديث، وذلك بعد لحظتَي الثورة الفرنسية في نهاية القرن 18، والثورة البلشفية في بداية القرن 20؛ فقد مارس الثوار خلال الانتفاضة، والفلاسفةُ التفكيكيون المنبثقون منها فيما بعد، جميع آليات التفكيك والهدم للبقية الباقية من القيم الدينية التقليدية في العقليات الأوروبية. وكان على رأس القيم التي تمّ إسقاطها: السلطة، كيفما كانت. سلطة رجل الدين على أتباعه، والبرجوازي على البروليتاري، والأستاذ على تلاميذه، والأب على الأسرة، والزوج على زوجته، والرجل على المرأة. وبالمقابل مُجّدت المساواة، ورفعت فوق القيم جميعها: المساواة بين الرجال والنساء، بين الآباء والأبناء، بين المثليين والمتغايرين، إلخ. والشيء الوحيد الذي سلِم من هذا الجهد التفكيكي هو السوق، والنزعة الاستهلاكية الطاغية.

في هذا الإطار – أي ما بعد 68 – طورت الأنثويةُ مطالبها إلى مجال تحرير الجسد، عبر السعي القانوني إلى إباحة تحديد النسل، ورفع تجريم الإجهاض، وتيسير إجراءات الطلاق، وصولا إلى تحرير الجنس، وإشراع أبواب المتعة الجنسية الليبرتارية.

في سنوات التسعينيات، أخذت الولايات المتحدة المشعل الأنثوي من أوروبا، مع إضافة بُعدَين اثنين:

أولهما: تكنولوجي، بفتح أبواب النيابة في الحمل، والرحم الاصطناعية، وتقنيات تخزين البويضة، وغير ذلك مما عدّته الأنثويات نصرا عظيما في مجال تحرر المرأة من «معاناة» الأمومة، لتصبح مساويةً للرجل فعلا، وفي كل شيء.

والثاني: فلسفي نظري، وهو منطلِق من كلام سيمون دو بوفوار عن أثر البيئة في تشكيل الجنسين، لكنه ذهب في ذلك إلى أبعد الحدود، فأنشأ ما يسمى نظريةَ النوع (الجندر)، التي

تفرق بين الجنس (البيولوجي) والنوع (الثقافي)، وتضيف لذلك أيضا التوجه، أي الميل أو الاختيار الجنسي.

وقد وضعت الأنثويةُ - مسلحةً بهذه الترسانة النظرية - يدها في يد الأقليات الجنسية المختلفة، وانطلقت تمارس عن طريق التعليم والإعلام والفن والأدب، مهمّةَ إعادة تشكيل الوعي الإنساني وفق فلسفتها الخاصة.

***

وكما أثّرَ المنطق الصوري الأرسطي قديما على جميع ميادين العلم، فقلّ أن يسلم مجال معرفي من استعمال مكثف لآليات الخطاب المنطقي؛ فإن الأنثوية - كما أشرنا لذلك سابقا وكما سيأتي تفصيلا في طيات هذا الكتاب - أثرت على مجالات فكرية وحضارية متعددة ومختلفة، فلم يعد بالإمكان التنصل من الخطاب الأنثوي ومن شبكة التأويل الأنثوية في أي ميدان حضاري في الغرب المعاصر.

ففي مجال القيم العامة، يلاحظ - خلال العقود الأخيرة - تحول تدريجي للمجتمع نحو قيم الأنوثة، وشيطنة لقيم الذكورة، في ما صار يسمّى في بعض الأدبيات المحافظة بـ«تأنيث المجتمع»؛ وذلك كله تحت القصف الأنثوي المنهجي والمتواصل، الذي استغل اندحار المنظومات القيمية الصلبة، في الحضارة الغربية الحديثة. (ينظر محور تأنيث المجتمع والحضارة من هذا الكتاب).

وقد كان لهذا التأنيث أثره البالغ على الفرد أولا، سواء في ذلك الرجل الذي صار مطالبا بإبراز الجانب المؤنث فيه، والذي سترتْه عن الأنظار قرون متطاولة من الذكورية المتطرفة التي تحتقر الأنثى؛ أو المرأة نفسها، التي فقدت أنوثتها في معترك العمل خارج البيت، وفقدت استنادها الفطري على الرجل، الذي صار - بمقتضى الإيديولوجيا الأنثوية - خصما منافسا في أفضل الأحوال، وعدوا لدودا يجب إسقاطه والانتصار عليه في معركة لا ترحم، في أسوئها!

ثم كان الأثر على الأسرة ثانيا، التي أرادت لها الأنثوية أن تنفصل عن النظام «الباطرياركي» التقليدي، الذي تقسم فيه الأدوار بين الأب والأم والأطفال، بما يوافق الفطرة والواقع البيولوجي والاستعداد النفسي. ولكن الأنثوية الظافرة - المتخصصة في التفكيك والهدم فقط - لم تقدم بديلا لهذا النظام سوى أسر مهشّمة:

- يغيب فيها الأب فعليا (في الأسر أحادية الوالد إما بسبب هروب الرجل من مسؤولياته المادية والمعنوية، وإما بسبب الطلاق واحتفاظ الأم بحضانة الأطفال) أو رمزيا (حين يقتصر حضور الأب على تكرار دور الأم بطريقة فرعية ثانوية، دون أدنى تقديم للمكمّل الذكوري الضروري لتربية الأطفال)؛

- ويُطلب فيها من الأم أن تكون امرأة ورجلا في الآن ذاته، فتسيطر على قرارات الأسرة، وتسيّرها وفق تصور الأنثى، وإن كان ذلك مخالفا لاستعدادها الفطري، وعلى حساب راحتها البدنية والنفسية؛

- وينشأ فيها الأطفال عمليا بوالدٍ واحد هو الأم، وفي ضمن ذلك تدليل مبالغ فيه، وصعوبة في التعامل مع الحرمان، وعسر في الانضباط بالقوانين، ونبذ لقيم الجهد والعمل، وغير ذلك. (يراجع فصل: «مجتمع دون آباء ولا معالم» من هذا الكتاب).

ووصل الأثر إلى المدرسة ثالثا، فصار التلميذ فيها - بمقتضي قيم التأنيث - سيدا متحررا من الواجبات، تُلتمس له الأعذار، وتعمل المنظومة التربوية كلها في خدمته، ولا يُطالب باحترام المدرّس ولا طاعته، لانتماء تلك المعاني للثقافة «الباطرياركية» البائدة. (يراجع مبحث «أطفال عاجزون عن التعلم» من هذا الكتاب).

وسيطرت الإيديولوجيا الأنثوية على الفن والإعلام، ففرضت جميع تصوراتها بالقوة الناعمة، التي تلاحق الناس في كل مكان، حتى إنها لتدخل معهم إلى مخادع نومهم، لتشكل أفكارهم، وتبني آراءهم، وتحصنهم ضد أي رأي مضاد مهما تكن قوة حجته.

وانتقلت الأنثويةُ إلى محاولة تغييرِ اللغة لتصبح ملائمةً للتوجه المساواتي الجديد بين الجنسين، وتتخلى عن غبار الذكورية التي سيطرت عليها لقرون عديدة؛ وإلى نخل الأدب القديم، لاستئصال الجراثيم الذكورية المتغلغلة فيه، ونصب مشانق معنوية للأدباء الذين لم يتفطِنوا في زمنهم إلى وجوب موافقة هذه الإيديولوجيا الحادثة اليوم!

وفي مجال الاقتصاد، وضعت الأنثوية يدها في يد الرأسمالية المسيطرة، ولعبت لعبة السوق فأخضعت المرأةَ له في مجالات ما كان يحلم بها من قبل (يراجع مثلا فصل «المرأة الاقتصادية - الأنثوية الرأسمالية» من هذا الكتاب). وهكذا التقى - في مفارقة فكرية عجيبة تفرد بها عصرنا - : اليسار الأنثوي التقدمي المتحرر مع أرباب العمل وسدنة معبد الرأسمالية

المعولمة، والتقى اليمين المحافظ المعادي للأنثوية مع المرأة العاملة المقهورة (ولم يعد من الغريب اليوم أن نرى ميل أصوات الطبقة العاملة إلى اليمين، بعد أن فرّط اليسار المؤدلج في رسالته التاريخية).

وتوّجت السياسةُ ذلك كله، من وجهين اثنين: أولهما النضال المستميت لإقرار التساوي العددي في المناصب السياسية، ولو على حساب الاستحقاق؛ والثاني التسارع إلى إقرار القوانين التي تضمن تحقيق أصول الأنثوية على أرض الواقع، بدءا بالقوانين التي تجرّم الجنسوية وجميع ألوان التفريق بين الجنسين، حتى الفطري والطبيعي منها، مرورا بإباحة الإجهاض وجعله حقا من حقوق المرأة الأساسية، انتهاء بإباحة الزواج المثلي، وتذويب الفرق الجنسي في بوتقة نظرية النوع، وفتح الباب لأصناف الهويات الجنسية الغريبة المختلفة.

وعلى الرغم من هذا الانتشار الأفقي والعمودي الذي لا حدود له، فلا تزال الأنثوية تناضل من أجل المزيد، وتتفنن في ألوان النضال بين السياسي والحقوقي والإعلامي، وحتى الاستعراضي (أنثوية «الفيمن» مثلا)!

***

إن العلاقةَ بين صعود الأنثوية ونزول الدين علاقةٌ طردية واضحة، فإن انحرافات الأنثوية لم تبرز إلا في بيئة طلّقت الدين، وأبعدته عن تأطير الدولة والمجتمع، وحصرته في الدائرة الفردية.

وقد ذكرنا من قبلُ أن الأنثويةَ العصرية منبثقةٌ من المناخ الفكري الذي أنجبتْه ثورة ماي 68، والذي كان أبرز «نجاحاته»: تفكيك القيم الدينية. وقد بقيت الأنثوية منذ ذلك الحين، تعُد الدينَ من ألدّ أعدائها، وترى إسقاط هيبته من النفوس مطلبا محوريا ضمن لائحة مطالبها. ومن أبرز المظاهر الدالة على ذلك بشكل فجّ واستعراضي، تحركات أنثويات «الفيمن» ضد أماكن العبادة، والتجمعات الدينية. (يراجع مثلا فصل «أنثوية الاستعراض» ضمن فصول هذا الكتاب).

ولأجل هذا الخصام بين الفريقين، فإن أفضل من يكشف شبهات الأنثوية في الغرب، ويبرز تناقضاتها، هم المفكرون المحافظون المتدينون (الكاثوليكيون خصوصا في أوروبا، والبروتستانتيون في أمريكا)، الذين لهم جهود ضخمة في هذا الباب، وإن كانت مهمّشة إعلاميا (كما نجد ذلك في قضايا الحرية الجنسية، والإجهاض، وزواج المثليين، وعمل المرأة، ونحو ذلك).

وكما نستفيد اليوم في مجال مقاومة الإلحاد من كتابات المتدينين الغربيين، فإن من المشروع المطلوب أن نستفيد في مجال مقاومة الأنثوية من كتاباتهم، على الأقل من باب «الحكمة ضالة المؤمن»، مع ما لا بد منه من التنقيح وإعمال للحس النقدي.

***

لقد صارت الأنثويةُ دينا مسيطرا على وعي النخبة المتحكمة في الغرب اليوم، ومن ورائه في العالم كله، خاصة بعد ثورة ماي 1968، والتغييبِ الكلي للأديان السماوية من الدائرة العمومية.

ولأجل ذلك صار نقد الأنثويةِ عموما، أو نقد انحرافاتها خصوصا، من أعظم الطابوهات في العالم الغربي، يشبه نقد الدين المسيحي خلال القرون الوسطى. فإذا كان ناقد الدين أو الكنيسة في تلك الأزمنة، يتهم بالهرطقة والإلحاد والشعوذة، ويحكَم عليه بأقسى العقوبات البدنية؛ فإن ناقد الأنثوية اليوم يتهم بالرجعية والتخلف والفاشية، وتمارس عليه أقسى العقوبات المعنوية، بين الإقصاء والتهميش والتضييق والاستهزاء.

ولأجل ذلك، فإن الكتب الناقدة للأنثوية قليلة ومهمّشة، ولا يعتني بها كبار الناشرين والموزعين، ولا يُسمح لمؤلفيها بالظهور الإعلامي[1]؛ في حين تجد الكتب الأنثوية - وإن كان الكثير منها تافها - جميعَ التسهيلات في هذا المجال.

ومن المفيد أن أسجل أمرين اثنين بخصوص هذا النوع من الكتب الناقدة للأنثوية في الغرب:

أولهما: أنها قد تشتمل على أفكار يخفى على الكثيرين من المسلمين وجودُها في الغرب، بسبب التهميش الممارس عليها في الفن والإعلام (مثل: لباس المرأة العاري نوع تحرش بالرجل، وظيفةُ المرأة في البيت وظيفة مقدسة، الحرية الجنسية انحدار قيمي خطير، التفريق بين الجنسين في المدرسة والعمل ليس بالضرورة أمرا سيئا ..). فالكثير من العامة والخاصة عندنا يحسبون مثل هذه الأفكار قد انقرضت من الثقافة الأوروبية منذ زمن، ولم يعد لها وجود إلا في بلادنا الإسلامية؛ والحق أنها أفكار موجودة، بل هي في تزايد مستمر، بسبب حالة «التيامن» السياسي العامة في الغرب، وموجة الرجوع إلى القيم التقليدية.

---

(1) إلا من استثناءات محصورة، مثل حالة إيريك زمور، الذي سيأتي ذكره لاحقا. [المترجم].

والثاني: أن بعض هذه الكتب قد تقع - بسبب كونها ردة فعل على الغلو الأنثوي - في غلو مضاد، يَستبطن نوعا من العداوة للنساء أو احتقارهن عموما؛ فينتقل في بعض مباحثه وعباراته، من شجب الأنثوية إلى تحقير الأنثى! وهذه آفة تكاد تكون ملازمة لكتب الردود العلمية والفكرية، خاصة إذا قُرئت دون نظر في سياقها. فعلى قارئ هذه الكتب أن يستحضر حال القراءة، أن المشكلة هي مع الإيديولوجيا الأنثوية حصرا لا مع المرأة بأي شكل من الأشكال، وأن هذه الإيديولوجيا مسيئة للمرأة نفسها، قبل أن تكون مسيئة للرجل أو المجتمع. وقد تعلمنا من دراستنا للشريعة الإسلامية، أصول الاحترام للمرأة من حيث هي، أما وزوجة وبنتا وأختا، وأن رجولةَ الرجل لا تتم إلا إذا اقتدى بالحبيب صلى الله عليه وسلم في تعامله مع المرأة بما يحقق لها أسمى درجات الكرامة الإنسانية، في تكامل منسجم مع الرجل في بناء المجتمع الصالح.

***

وعلى الرغم من جميع ما ذكرناه آنفا، فلا يزال موضوع الأنثوية مجهولا أو متجاهلا، لدى الكثير من النخب العلمية والفكرية في بلادنا. ولا يزال الكثير من الذين يتعنّون الرد على الخطاب الأنثوي، يردّون على أفكار الأنثوية التقليدية، التي لم تصل بعدُ إلى درجة الشراهة التفكيكية التي تتميز بها الأنثوية الجديدة (أو قل النيو - أنثوية)، والتي انتقلت من المطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل، إلى العمل على تحطيم مفهوم الذكورة وإلغاء قيم الرجولة من المجتمع، مع السعي إلى رفع قيم الأنوثة إلى مقام القيم المثالية، التي يجب على المجتمع - رجالا ونساء - تكريسها والالتزام بها. وفي ضمن ذلك: تفكيك الهوية الجنسية التقليدية المبنية على ثنائية الذكر والأنثى، والتحالف مع الأقليات الجنسية الغريبة التي أنشأها مجتمع السيولة العصري، لفرض النمط الفكري والحياتي المخصوص لهذه الأقليات، على الأغلبية المقهورة في المجتمع. ويصب جميع ذلك في مصلحة السوق المتحكم - بآلياته الإعلامية والتعليمية المختلفة - في الأفراد، المنتزَعين من أسس بنائهم القيمي التقليدية الصلبة (الدين، الأسرة، الإنسان ..)، التي تساهم الإيديولجيا الأنثوية الجديدة في تدميرها.

نُخبنا المتدينة غافلة - إلى حد كبير - عن هذا الخطر الداهم، بسبب ضعف متابعة النقاشات المجتمعية الغربية، سواء بطريق الترجمة أو باللغة الأصلية؛ في حين أن النخب العلمانية واللادينية مطلعة - بسبب حالة التغريب الثقافي التي تعيش فيه - على آخر تطورات الشأن الفرنسي خصوصا والغربي عموما، فهي تمتحُ بشكل مباشر - وفجٍّ في كثير من الأحيان -

من هذه التأصيلات الأنثوية الغربية، وتحاول استيرادها إلى عالمنا الإسلامي، إما عن طريق محاولة تغيير القوانين لـ«تخليصها» من البقية الباقية من شوائب الشريعة الإسلامية، أو عن طريق محاولة تغيير العقليات، وإعادة تشكيل الوعي، بنقله - من خلال القصف الفني والإعلامي خصوصا - من التصور الإسلامي للأسرة والمجتمع إلى التصور الأنثوي المتقلب والمنحرف.

ولأن الشريعة الإسلامية تبقى صخرة كأداء أمام مشروعهم الإفسادي، فإن تغيير القوانين والعقليات لا يمكن تحقيقه إلا بجهد «تنويري» يسعى إلى تحريف الدين الإسلامي (عبر «تنقيح» أصول التراث الإسلامي وفروعه) ليمكنه أن يتأقلم مع هذه الأفكار المستوردة، دون الحاجة إلى نصب المعارضة الصريحة بين الإسلام وهذه الأفكار، لأنها معارضة يصطف فيها عموم المسلمين في صف الإسلام دون تردد.

إن النخب المتدينة عندنا تبذل جهودا مشكورة في الرد على هذا «التنوير» المزعوم، ولكنها تحتاج أيضا إلى التفطن إلى الأصول التي قام عليها، والتنبه إلى أن أفكار القوم التنقيحية والتقويمية ليست نابعة من النظر الذاتي الداخلي في التراث والشريعة، بل هي منطلقة من تقليد حرفي للثقافة الغربية المهيمنة، كما يقلّد كل مغلوب غالبه، منذ أن كان في الدنيا غالب ومغلوب!

ولذلك، ولأن القوم عندنا مغلوبون مقلِّدون، فعلينا أن نتابع بحرص ما وصل إليه الغالب المقلَّد، وذلك من وجهين اثنين:

أولهما: أن الطريق الذي سلكه هؤلاء الغربيون، وكادوا يصلون إلى نهايته (أي إلى مرحلة الانتحار الحضاري)، هو الطريق الذي خطونا نحن اليوم في العالم الإسلامي خطواتنا الأولى عليه. فمعرفة ما هم عليه، استشرافٌ لمستقبل يراد لنا أن نكون عليه، ونحن نسعى إلى التملص منه.

والثاني: أن من أفضل أساليب الرد على الأنثويات في بلادنا، بيان التناقضات والانحرافات التي وصلت إليها الأنثوية في الغرب؛ فينتقل الرد حينئذ من الدفاع (بكشف الشبهات حول الإسلام، ودفع الاتهامات حوله في مجال المرأة) إلى الهجوم (ببيان الخلل العميق في التصور الغربي الراهن حول المرأة خصوصا، والبناء المجتمعي عموما). ولا يمكن الهجوم على الخصم إلا بعد معرفة مواطن الضعف عنده.

***

وأخيرا ..

إن الدفاعَ عن حقوق المرأة والسعي في إنصافها ورفع الظلم عنها: مطلبٌ مشروع. وإن المرأة اليوم تعاني من ألوان من الظلم، تضاف إلى الظلم الموروث عن قرون الجمود.

لقد كانت المرأة تعاني من بعض التقاليد البالية التي أُخذ بعضها من فهم سيء للنصوص الدينية، أَنتج فقهيات تراثية متجاوَزة لا تنطلق من معين الوحي بقدر انطلاقها من عقلية تسلطية ذكورية (كما يقال اليوم ..).

لكنها صارت في عصرنا تعاني من ظلم لا مثيل له عبر التاريخ. ظلمٌ عنيف قاس متوحش، ولكنّ يدَه التي تبطش بالمرأة، مغلفةٌ بقفازات مخملية، تجعل الكثير من النساء راضيات بالظلم ما دام بطعم التحرر المزعوم!

تحت شعارات تحرير المرأة، صارت المرأة اليوم تعاني من:

- التحرش الجنسي المفروض في أماكن العمل ووسائل النقل؛
- التزايد الخطير لمعدلات الاغتصاب بسبب السعار الجنسي، الذي جاءت به الحرية الجنسية المزعومة؛
- المتاجرة بصورة جسد المرأة في الفن الدرامي، وإجبار الكثيرات على التعرّي لأن الجمهور يريد ذلك؛
- تسويق كل شيء في الحملات الإشهارية بالجسد العاري للمرأة، التي صارت في الحضارة العصرية مختزلة في مفاتنها الجسدية؛
- التسويغ العملي المكثف للدعارة التي تجعل من المرأة - المضطرةِ لذلك في أحيان كثيرة لأسباب مادية خالصة - جسما منفصلا عن الروح، ينحصر دوره في إرضاء نزوات الذكور؛
- تشجيع "الفن" الإباحي، الذي ينقل المرأة خصوصا من مقام الإنسان إلى درك البهيمية، بل إلى ما هو أسوأ بكثير؛
- تحمل تبعات الحرية الجنسية وحدَها - في الغالب - ، خاصة الإجهاض، الذي صار حقا من حقوق المرأة، مع أنه في حقيقته تجربة صادمة لها نفسيا وجسديا؛

- إخراج المرأة للعمل مطلقا دون مراعاة الفروق البيولوجية التي تميزها عن الرجل، والتي تقتضي أن يكون عملها خارج البيت في ظروف خاصة؛
- جمع المرأة بين عملها داخل البيت وخارجه (في ما يسمى: "اليوم المزدوج")، مع ما يقتضي ذلك من معاناة مضاعفة؛
- تحمّل المرأة وحدها - في الغالب - مسؤولية الأسرة، عند الطلاق (الذي تفرح الأنثوية بأنه من حقوق المرأة التي نجحت في الحصول عليها)، أو لتهرّب الأب من مسؤولياته (فعليا أو رمزيا[1]) ..

وجميع ذلك - وزد عليه كثيرا مما لم أذكره - ظلمٌ شنيع، يتجاوز في حقيقته الظلم القديم بمراحل كثيرة، لولا أن هذا الظلم العصري يضع على وجهه مساحيقَ تطريةٍ تستُر دمامته الكئيبة!

ولكن الأنثوية الحمقاء - في الغرب، وفي بلادنا أيضا - لا تزال منشغلة بالرد على «التسلط الباطرياركي القديم»، ولا تعطي أدنى اعتبار لهذا الظلم العصري، الذي تعاني النساء منه في صمت ..

نعم إن المرأة تعاني .. ولسنا نرضى أن يكون الدفاع عنها بهذه الأنثوية الرعناء التي ستوصفُ جنايتُها على المرأة في أثناء هذا الكتاب.

الأنثويةُ أصل الداء، فلا يمكن أن يلتمَس فيها الدواء ..

وفي زمن تغوّل الإعلام التسطيحي، الذي يسوّي نتوءات الخلافات والتفصيلات، ويكتفي بالشعارات المعلّبة الجاهزة، فإننا لا نملك إلا أن نناضل بأقلامنا من أجل محاربة هذا التسطيح، ورفع منسوب وعي الناس، في أفق عودتهم المنشودة إلى الفطرة وما يوافقها من الشرائع الربانية.

د. البشير عصام المراكشي

---

(1) سيأتي في بعض فصول هذا الكتاب بيان أسباب هذا الغياب الرمزي للأب داخل الأسرة. تحضرني هنا إحدى الاستشارات الطريفة - وما أكثر ما يرد عليّ منها - تشتكي فيها إحدى النساء من سلبية زوجها وتخليه عن دور الزوج والأب؛ فهي تعمل خارج البيت بشكل مرهِق، ثم تعمل داخل البيت أيضا، فتعتني بالمطبخ وأعمال التنظيف وتربية الأطفال ومذاكرة دروسهم معهم وإيصالهم إلى المدرسة وإرجاعهم منها، إلخ بل تقول - وهنا موضع الطرافة - «أنا أعمل كل شيء، حتى «المعاشرة الزوجية»، أنا صاحبة المبادرة فيها و..». هذا بعضُ ما جنته الأنثوية على الأنثى!. [المترجم].

تعريف بالكتب المعتمدة وبمؤلفيها

اعتمدتُ في هذا الكتاب على خمسة مؤلفات رئيسية باللغة الفرنسية[1]، ترجمتُ منها فصولا مختارة بعناية، يتحقق بها غرض نقد الأنثوية بما ينفع القارئ العربي؛ وأعرضتُ عن فصول أخرى إما لقلة فائدتها، وإما لخروجها عن الموضوع الأصلي، وإما لمصادمتها الصريحة للدين الإسلامي أو تعصبها ضد المسلمين. وعلينا ألا ننسى أن كل هؤلاء المؤلفين يمينيون، وأن العنصرية ضد الإسلام والمسلمين في التيارات اليمينية في الغرب أمرٌ معتاد مشتهر[2].

ومما يجدر التنبيه عليه أنني قد أتصرف بحذف بعض التعبيرات الساقطة الماجنة، التي لا يتقبلها الذوق العربي، فضلا عن الشرع الإسلامي؛ مع أنها معتادة جدا في كلام الغربيين، من النخبة قبل غيرهم، وذلك بسبب اندثار قيمة الحياء عندهم حين غاب الدينُ عن تأطير أخلاق الناس.

وهذا تعريف مقتضب بهذه الكتب الخمسة:

---

(1) إضافة إلى حوار مع الفيلسوفة بيرينيس لوفي. وقد تركتُ فكرة ترجمة مقالات أخرى في الموضوع، حفاظا على حجم معقول للكتاب، ولأن ما في الكتب الخمسة يحيط بالأهم، ولا يكاد يُحوِج إلى غيره. [المترجم].

(2) اليمين لتدينه أقربُ إلى التصور الإسلامي في الأسرة والقيم المجتمعية من اليسار الملحد أو اللاديني، ولكنه أكثر توجسا من الإسلام ومقاومةً للهجرة من بلاد المسلمين إلى أوروربا. أما اليسار فأكثر تقبلا للمهاجرين ومحاربة للعنصرية من منطلقات إنسانية، ولكنه أكثر تحللا وتفسخا من الناحية الأخلاقية. ولذلك فليس أحد الفريقين أولى بدعم المسلمين من الآخر، خلافا للتوجه العام لدى المسلمين في أوروبا، والذين يميلون إلى دعم اليسار غالبا. والأجدرُ - كما بينته في غير هذا الموضع - إرساء دعائم مساندة نقدية غير مجانية، تُوجَّه للأقدر على تحقيق مصالح الإسلام والمسلمين، وقد يختلف بحسب اختلاف الظرف الزماني والمكاني. [المترجم].

الكتاب الأول:

العنوان: وداعا آنستي – هزيمة النساء
Adieu mademoiselle – La défaite des femmes

المؤلفة: أوجيني باستيي - **Eugénie Bastié**

الناشر: **Les éditions du Cerf**

السنة: 2016

عدد الصفحات: 225

وُلدت مؤلفة الكتاب أوجيني باستيي عام 1991 بمدينة تولوز الفرنسية، وهي نجمة صاعدة في مجال الصحافة والكتابة. عملت في صحف فرنسية يمينية مشهورة، خاصة 'لوفيجارو"، وشاركت في العديد من الحوارات في قضايا مجتمعية مختلفة.

تعد أوجيني باستيي من جيل الإعلاميين والمفكرين الشباب، المتبنين للأطروحات اليمينية المنتشرة اليوم في أوروبا والغرب عموما. وهي من هذا الجيل الجديد من المفكرين الشباب الكاثوليكيين المحافظين، الذين يصنفهم الإعلام على أنهم من "الرجعيين الجدد"، والذي يعدّ من أظهر العلامات على اندثار اليسار، وعجزه اليوم عن مخاطبة الشباب، في مقابل اليمين المتطرف والشعبوي، الذي صار المعبر الحقيقي في أوروبا عن طبقتي الشباب والعمال.

أصدرت المؤلفة عام 2016 كتابها الأول "وداعا آنستي"، ثم عام 2018 كتابها الثاني المتعلق بقضية التحرش الجنسي "-Le porc émissaire: Terreur ou contre – révolu tion»، وذلك في خضم النقاش المجتمعي المحتدم في الغرب حول الموضوع، بعد فضيحة التحرش التي اتهم فيها المنتج الأمريكي «هارفي فينستين».

ينطلق كتاب «وداعا آنستي» من بعض المعارك الوهمية التي تثيرها الأنثويات، ومنها المتعلقة باللغة. ومن ذلك اعتبارهن التفريق اللغوي بين «آنسة» و«سيدة» تمييزا جنسويا مفروضا. وقد استطعن فعلا الوصول إلى تغيير القوانين في هذه النقطة، وفي غيرها، فصار استعمال لفظ «آنسة» محظورا في فرنسا، على الأقل في المراسلات الرسمية (ومن هنا عنوان الكتاب).

تنتقد المؤلفة في كتابها هذا الإيديولوجيا الأنثوية الجديدة، التي ظهرت خلال العقود الأخيرة، وتعدها أساس مشكلات كثيرة تعاني منها المرأة في المجتمع الراهن؛ كما تميزها عن الأنثوية الأولى (أنثوية سيمون دوبوفوار) التي - وإن كانت أصل الداء - فإنها على الأقل كانت أكثر ثقافة، وأقرب إلى الدفاع عن حقوق المرأة.

ترى المؤلفة أنه يمكن الدفاع عن حقوق المرأة وعن ازدهارها في المجتمع، دون الالتحاق بالأطروحات الأنثوية؛ أي دون تبني قراءة العلاقات بين الرجال والنساء من خلال المنظور الأنثوي الضيق، الذي يجعلها بالضرورة علاقات سيطرة ممتدة منذ فجر التاريخ، وهي ترى أن هذا المنظور لا يخلو من التأثر بنظرية المؤامرة، التي تجعل الرجل عدوا يجب إسقاطه، والمرأة ضحية أبدية.

كما لا تعترف المؤلفة بوجود الباطرياركية، التي تدّعي الأنثوية أنها وراء التمييز في الأجور بين الرجال والنساء، بل ترى أن لهذا التمييز أسبابه الموضوعية، الراجعة إلى اختيار الكثير من النساء العمل بدوام جزئي للتمكن من الجمع بين العمل خارج البيت وداخله، إلى جانب التوقفات التي سببُها الإنجاب ورعاية الأطفال الصغار.

تركز المؤلفة أيضا على النفاق الذي تمارسه الأنثوية الليبرالية، التي تزعم أن اندماج المرأة في نظام السوق الرأسمالي هو الوسيلة الناجعة لتحقيق تحررها، في حين أن الأمر لا يعدو أن يكون خدمة مجانية للسوق المتغوّل، لا تجني منه المرأة أدنى مصلحة.

تقف المؤلفة أيضا موقفا معتدلا في قضية الإجهاض، فلا تعترض على إباحته القانونية مطلقا، وإن كانت معترضة عليه من حيث المبدأ (تبعا للكنيسة الكاثوليكية). ثم هي تستنكر «قانون الصمت» الذي يمنع مناقشة كثير من المفاسد المتعلقة بتشريع الإجهاض، وتستنكر القصف الإعلامي الذي تتعرض له النساء ويجبرهن على الإجهاض وإن كن غير راغبات فيه، كما يمنعهن من إبداء الألم النفسي الذي يسببه لهن.

تقف المؤلفة أيضا في مواجهة نظرية الجندر، وانتشار الهويات الجنسية الغامضة، ودكتاتورية الشذوذ الجنسي التي تجعل الشذوذ هو القاعدة والمعيار، وتمنع بالتالي أدنى انتقاد له.

الكتاب عموما قوي في نقد الأنثوية، ويجمع بين جمال الأسلوب وحسن العرض والترتيب، مع الأخذ بأقوى الحجج العلمية والفكرية، والتفطن للتناقضات العميقة التي تتخبط فيها الإيديولوجيا الأنثوية. والمؤلفة فيه معتدلة بالمقارنة مع كتابات أخرى تنتقل من نقد «الأنثوية» إلى نقد «الأنثى»، أو حتى احتقارها.

الكتاب الثاني:

نحوَ التأنيث؟ - من أجل فهم وصول النساء للسلطة

العـــنـــوان: **Vers la féminisation? – Pour comprendre l'arrivée des femmes au pouvoir**

المـــؤلـــفـــة: آلان سورال - **Alain Soral**

النـــاشـــر: **Bibliothèque Blanche**

الســـنـــة: 2007 - الطبعة الأولى عام 1999

عدد الصفحات: 211

وُلد المؤلف آلان سورال عام 1958 بفرنسا، وكان في بداية أمره عضوا في الحزب الشيوعي الفرنسي، ثم تطور إلى أن أصبح من أبرز المنظرين لفكر اليمين المتطرف بفرنسا، دون أن يتخلى عن كثير من أفكاره اليسارية، بل بقي وفيًا لشبكة القراءة الماركسية في كثير من أعماله. وهو يقدّم حركته «المساواة والتصالح Egalité et réconciliation» التي أنشأها عام 2007 على أنها حركة «قومية يسارية».

اشتهر المؤلف بمواقفه الشديدة ضد الصهيونية، وضد التوغل اليهودي في مؤسسات الدولة، والإعلام خصوصا. وقد رشح نفسه في الانتخابات الأوروبية عام 2009 في اللائحة التي قادها الفنان الكوميدي «ديودوني Dieudonné» والتي كان اسمها «اللائحة المعادية للصهيونية». وهو ينشر في دار النشر التي أسسها كتبا كثيرة، من تأليفه أو من تأليف مقربين من فكره. وله نشاط كبير في مجال المقاطع المصورة على الشبكة، يردّ من خلاله كثيرا على الفكر الصهيوني والتغول اليهودي، وله مواقف مناصرة لقضايا المسلمين على جهة الإجمال.

له نحو اثني عشر كتابا منشورا، من أشهرها «فهم الامبراطورية Comprendre l'empire»، و«سوسيولوجيا المُغازِل Sociologie du dragueur»، إلى جانب مشاركة في مجال التأليف والإخراج السينمائيين.

في مجال المرأة عنده ميزوجينية مفرطة ينبغي التنبه لها عند قراءة كتاباته، وإن كان يدفع هذا الاتهام عن نفسه، ويقرر بأنه لا يعدو أن يكون ملتزما بالقيم الفطرية التي تحكم العلاقة بين الرجال والنساء.

يبقى المؤلف في تحليله وفيا لشبكة قراءة تبناها في مجموع كتابه، وهي تدور على النظرة الماركسية للصراعات المجتمعية، والنظرة الفرويدية للأسرة والعلاقة بين الجنسين، مع نوع من الحنق على المرأة من حيث هي، وعلى الأنثوية من باب أولى. ولكنه يعبر عن بدهيات فكرية واجتماعية صارت مغيّبة في الخطاب المهيمن على الغرب اليوم.

يحاول المؤلف في كتابه هذا أن يبرهن أولا على أن التكوين العاطفي للبنت وتطلعاتها الجسدية، يقودها إلى الفكر النفساني غير المعقلن. ويصطحب هذا المُعطى بعد ذلك عند نقده لفكر الأنثويات المشهورات، خاصة سيمون دو بوفوار وإليزابث بادنتر.

ينتقد المؤلف شمولية الفكر الأنثوي، الذي يسعى دائما إلى اختزال تصور العالَم في اللاوعي والإغراء والعاطفة والاستهلاك. كما ينتقد نفي هذا الفكر لصراع الطبقات الاجتماعية، وتعويض ذلك بالصراع بين الذكر والأنثى؛ إذ كيف تُجمع المرأة البرجوازية البعيدة في واقعها عن حقيقة التهميش الاقتصادي والاجتماعي، في فئة واحدة مع العاملة المقهورة المتعرضة للاستغلال؟ يلخص المؤلف ذلك بتقريره أن المرأة – ومثلها الرجل – ليست طبقة اجتماعية.

إن التفسير الأنثوي لمسيرة المجتمعات، جعلها تدور في فلك الرغبة الجنسية والاستهلاك المتوحش. ويصبّ ذلك بالطبع في مصلحة الليبرالية المتحكمة، التي ترى في الأنثى مستهلكا أفضل، وعاملا يسهل استغلاله أكثر؛ فإنها حين تدفع المرأة إلى العمل مع مضاعفة رغباتها، تربح على صعيدَي الإنتاج والاستهلاك معا.

يصوغ آلان سورال مفهوم «تأنيث المجتمع»، ويشرح مظاهره في هذا الكتاب وفي كتب أخرى. وهو المفهوم الذي تناوله مؤلفون آخرون في ما بعد، خاصة إريك زمور، كما سيأتي.

أفكار الكتاب عميقة، وقد أظهر الواقعُ صحة كثير من توقعاته؛ ولكن أسلوبه معقد، وعباراته طويلة، ونفَسه في النقد متشنج إلى حد ما.

الكتاب الثالث:

العنوان: الأنثوية وانحرافاتها – إعادة الأب للطفل – السيد
Le féminisme et ses dérives – Rendre un père à l'enfant - roi

المؤلفة: جان جابار – **Jean Gabard**

الناشر: **Paris Max Chaleil**

السنة: 2011 – **الطبعة الأولى عام 2006**

عدد الصفحات: 158

ولد المؤلف عام 1950، وتأثر في شبابه بالثقافة الليبرتارية لما بعد ماي 68، ثم عمل مدرّسا لمدة ثلاثين سنة. أحبّ التصوير والأسفار، وأنجز معارض كثيرة لما صوّره. اهتمّ بقضايا التربية، والعلاقات بين الرجال والنساء. له محاضرات كثيرة في هذا الموضوع خصوصا.

حين أصدر المؤلف النسخة الأولى من كتابه هذا، تلقى عاصفة من النقد من التيارات الأنثوية والتقدمية، واضطر إلى إلغاء الكثير من محاضراته، بسبب الضغوط الممارَسة على المنظمين. ولكن التوجه العام نحو إعادة مراجعة كثير من المسلّمات، جعل الكتاب ينبعث من جديد، ومؤلفه يُستدعى لتنشيط لقاءات إذاعية وتلفزية، إضافة إلى العديد من المحاضرات. بل صار المؤلف يعدّ مرجعا في "قضية الآباء".

بعد فصل تمهيدي عن تاريخ الأنوثة وعلاقتها بالسلطة الأبوية منذ فجر التاريخ إلى انفجار سنوات الستينيات، عقد المؤلف فصلا طويلا لبيان "انتصار" الأنوثة والأنثوية. وهو يقصد بـ"انتصار الأنوثة" ما يسميه سورال "تأنيث المجتمع"، وينتقد في "انتصار الأنثوية" ما تمارسه الإيديولوجيا الأنثوية من إنكار للفروق بين الجنسين، وشيطنة للرجل واختلافِه، وتمركز حول الأنثى.

ثم يعقد المؤلف فصلا ثالثا لقضية الأب، وتأثير غيابه الفعلي أو الرمزي من الأسرة على توازنها، وعلى سلوك الأطفال، في مجالات التعلم والأخلاق العامة خصوصا. ويختم الفصل ببيان أثر الأنثوية في إنشاء التصرفات الذكورية في المجتمع.

ويختم الكتابَ بفصل يحاول فيه اقتراح مسار اجتماعي بديل عن المسارين المتقابلين: الأنثوي والمحافظ.

الكتاب عموما جيد في تنظيمه وتوثيقه، واستعماله للعدّة السوسيولوجية في دراسة الظاهرة الأنثوية وأثرها على الأسرة والمجتمع.

الكتاب الرابع

العـــنـــوان: المصير الفرنسي – حين ينتقم التاريخ
Destin Français – Quand l'Histoire se venge

المـــؤلـــفـــة: إريك زمور – **Eric Zemmour**

النـــاشـــر: **Albin Michel**

الســـنـــة: 2018

عدد الصفحات: 573

وُلد إريك زمور عام 1958، وأصل عائلته من يهود الجزائر الذين هاجروا إلى فرنسا. اشتغل طويلا في الصحافة المكتوبة خاصة في جريدة لوفيجارو (Le Figaro)، ثم بدأت شهرته في تصاعد مستمر بسبب مشاركته المكثفة في البرامج الحوارية المتلفزة، إلى جانب تبنيه مواقف صريحة تخالف الفكر السائد. ولا يزال إلى الآن – وعلى الرغم من العداوات المتعددة التي يثيرها بتصريحاته الملتهبة – محتفظا بوجود دوري منتظم على الإذاعة والتلفزة، وبرامجه في العادة تحقق أرقاما قياسية في معدلات المشاهدة.

توبع أمام القضاء الفرنسي بتهمة الدعوة للتمييز العنصري عام 2011، وبتهمة إثارة الكراهية ضد المسلمين عام 2018.

أصدر عددا من المؤلفات التي تركت صدى كبيرا في فرنسا وخارجها، منها خصوصا «الجنس الأول Le premier Sexe» عام 2006، ثم «الانتحار الفرنسي Le Suicide français» عام 2014، و«المصير الفرنسي Destin français» عام 2018. ويعدّ هذان الأخيران نقلة نوعية في التأليف الفكري المعاصر بفرنسا، برهن فيهما المؤلف على اطلاع واسع خاصة في التاريخ والسياسة، وعلى قدرة جيدة على التحليل ومناقشة الأفكار، إضافة إلى امتلاك ناصية التعبير الأدبي الراقي.

على الرغم من أصوله اليهودية، فإن المؤلف يدافع بشراسة عن الثقافة المسيحية، ويعدّها المؤسس الحقيقي لفرنسا؛ وعلى الرغم من كونه من أصول غير فرنسية، فإنه يتبنى أشد المواقف اليمينة تعصبا للحضارة الفرنسية والتاريخ الفرنسي.

يحبّ المؤلف مخالفة الدوكسا السائدة، في مجالات مختلفة، فهو ينتقد:

- النظام السياسي، والأحزاب اليمينية واليسارية المتعاقبة على الحكم، ويميل فكريا لليمين المتطرف دون الالتزام بأطروحاته مطلقا؛
- الاتحاد الأوروبي وسياساته المناقضة لتطلعات الشعوب الأوروبية؛
- المهاجرين العرب والأفارقة وسياسات الهجرة الفرنسية خلال العقود الأخيرة؛
- جمعيات محاربة العنصرية التي يرى أنها ساهمت في إذكاء روح الطائفية بفرنسا؛
- الإسلام ويرى أنه لا يمكن أن ينسجم مع قوانين الجمهورية الفرنسية، لأنه ليس منحصرا كالمسيحية في التعبدات الفردية، بل هو أيضا شريعة ونظام حياة؛
- المثلية والأنثوية - وخصص لها كتابه "الجنس الأول" وفصولا من كتبه الأخرى.

هذا بالإضافة إلى إعادته النظر في كثير من المسلّمات التاريخية، في تاريخ فرنسا خصوصا.

وعلى الرغم من حرصه على المخالفة، فإن وسائل الإعلام لا تزال تتهافت عليه اليوم، لأنه - على الرغم من كل ما يمكن أن يقال عنه - يمثل فكر قطاع عريض من الشعب الفرنسي، إضافة لإتقانه فن الحوار والمراوغة اللفظية.

يتحدث المؤلف في كتابه "المصير الفرنسي" عن محطات تاريخية مهمة في تاريخ فرنسا، منذ البدايات الأولى إلى الزمن الراهن، مع تحليل ونقد وتثوير للأفكار المهمّشة ومساءلةٍ للطرح المهيمن عند المؤرخين.

كنت أنوي ابتداء أن أترجم بعض الفصول من كتاب "الجنس الأول" ثم عدلت عن ذلك لأنني رأيت زبدة هذا الكتاب موجودة في فصلين اثنين من كتاب "المصير الفرنسي"، مع فرق كبير في النضج الفكري وجمال الأسلوب.

الكتاب الخامس

العنوان: خدعة الأنثوية الرهيبة
L’effroyable imposture du féminisme

المؤلفة: لوسي شوفي - **Lucie Choffey**

الناشر: **Kontre - Kulture**

السنة: 2014

عدد الصفحات: 250

ولدت المؤلفة عام 1984، وقد ذكرتْ طرفا مهما من سيرتها الذاتية في مقدمة كتابها، وقد ترجمتُ هذه المقدمة لارتباطها الوثيق بموضوع نقد الأنثوية، وبالموقف من عمل المرأة خصوصا.

تعتمد المؤلفة في كتابها على تجربتها الشخصية أولا، ثم على استبيان موجه لعيّنات من النساء في موضوعات الكتاب المختلفة.

بعد المقدمة، تلخص المؤلفة أوضاع المرأة في المجتمعات الغربية، خاصة أحوال الأمهات المحبطات بسبب جمعهن بين العمل داخل البيت وخارجه، وحال التفكك الأسري، ثم اختيار الكثيرات الرجوع إلى مهنة "ربة البيت".

ثم تذكر في محور آخر أصول الدعاية الأنثوية في مجالات عمل المرأة ومظهرها والمثلية وقضية المساواة بين الجنسين. وتنتقل في محور ثالث إلى بيان مفارقات الإيديولوجيا المساواتية الأنثوية. وتلخص في المحور الرابع مظاهر الدمار الذي سببته الأنثوية في القيم والأسرة والمدرسة والمجتمع عموما، وتخصص المحور الأخير للقضايا السياسية والقانونية المرتبطة بالموضوع.

يعد هذا الكتاب أقرب الكتب الخمسة إلى "التصور الديني الفطري" من أوجه متعددة، كما أن المؤلفة - خلافا لأغلب اليمينيين - تنأى بنفسها عن أي نقد للإسلام أو المسلمين. وأسلوب الكتاب سهل جدا، وليس فيه عمق في الأفكار، فهو ملائم إذن لعامة القراء.

عرض محاور الكتاب

بعد الاطلاع على الكتب الخمسة، وعلى غيرها مما وقع بين يدي في هذا الموضوع، ارتأيت أن أجعل هذا الكتاب مقسما إلى المحاور التالية:

المحور الأول: في قضية تأنيث المجتمع، واكتفيت فيه بفصلين اثنين، أحدهما من كتاب جان جابار بعنوان «انتصار الأنوثة»، والثاني من كتاب آلان سورال بعنوان «مسيرة التأنيث». وهما يدوران على المعاني نفسها تقريبا، إلا أن بينهما فرقا ظاهرا في الأسلوب وطريقة العرض.

ومما ينبغي التنبه إليه: أن مفهوم «تأنيث المجتمع»، مفهوم حديث نسبيا، وليس موضع اتفاق بين الباحثين، حتى بين منتقدي الأنثوية.

المحور الثاني: في تاريخ الأنثوية وأصولها العامة، وفيه ثمانية فصول:

فصلان تأسيسيان مهمان من كتاب إريك زمور، عن تاريخ الأنثوية خاصة منذ سيمون دوبوفوار؛

وفصل من كتاب آلان سورال في نقد أصول الفكر الأنثوي؛

وفصلان اثنان من كتاب أوجيني باستيي، أحدهما عن معالم الأنثوية الحديثة، والآخر عن حركة «الفيمن»؛

وفصل آخر من كتاب آلان سورال في نقد الإيديولوجيا الأنثوية في مجالات مختلفة؛

وفصلان من كتاب لوسي شوفي عن أقسام الأنثوية، وتناقضاتها.

وختمت المحور بحوار عام مع بيرينيس لوفي حول بعض قضايا الأنثوية.

المحور الثالث: في العلاقة بالرجل، وقضية اختلاف الجنسين، وفيه:

فصل من كتاب أوجيني باستيي عن نظرية النوع وما يلتحق بها؛

وفصل آخر من الكتاب نفسه عن الفروق بين الجنسين؛

وفصل من كتاب جان جابار عن نفي اختلاف الجنسين وشيطنة الذكور؛

وفصل من كتاب لوسي شوفي عن المساواة ونظرية النوع.

المحور الرابع: عن أثر الأنثوية على الأسرة، وفيه:

فصل من كتاب جان جابار عن الآثار السيئة للفكر الأنثوي على الأطفال خصوصا والأسرة عموما؛

وفصل من كتاب أوجيني باستيي عن قضية عمل المرأة؛

وفصل من كتاب لوسي شوفي عن عمل المرأة داخل البيت وخارجه.

والمحور الخامس: عن الفكر الأنثوي المتعلق بجسد المرأة، وفيه ثلاثة فصول من كتاب أوجيني باستيي عن الإجهاض وقضايا الحمل الجديدة.

واقتبستُ الخاتمة من كتابي أوجيني باستيي ولوسي شوفي.

المحور الأول:
تأنيث المجتمع

انتصار الأنوثة

من كتاب «الأنثوية وانحرافاتها» لجان جابار (ص37 - 53)

نساء أكثر حضورا

لقد غيّرت نهاية القرن الماضي مكانة النساء في المجتمع. في حين كانت نسبة النساء النشيطات في المرحلة العمرية من 25 إلى 49 عاما، هي نسبة (4 من 10) عام 1962، فقد أصبحت اليوم (8 من 10). لقد صرن يحصلن أكثر فأكثر على مهن مأجورة، ولم يعد هنالك شيء في القوانين والأنظمة - مع بعض الاستثناءات - يمنع من عملهن في أي منصبِ مسؤولية. اقتحمت النساء أماكن كانت من قبل حكرا على الرجال. لقد صرن حاضرات في جميع قطاعات المجتمع، ولم تعد المرأة فقط تلك «البقعة الملونة التي تزين بها المِنصات»[1]. في كل مكان، تتجه نِسب الرجال والنساء نحو مزيد من التوازن. وصل الأمر أن تُعنونِ مجلة لوبوان (Le Point) ليوم 9 مارس 2001: «البلديات، الشركات، القضاء، الأدب: سيل النساء الجارف!».

في بعض المجالات، يمكن أن يصبح حضور النساء أغلبيا. في بعض الأحيان، لا يتعلق الأمر بـ«غزو». على العكس، تعزيز المواقع يأخذ مظهر المحافظة على التقسيم القديم للعمل، مع التراجع. إن تقاسم هذا «العمل» أصبح أحد المطالب الرئيسية للأنثويات. مع ذلك، ومهما يكن تفسير هذا الحضور الذي يمكن أن يكون حصريا، فإنه يساهم في تأنيث المجتمع. وهكذا، ودون أن يكون ذلك على الصفحات الأولى للإعلام، فإن أعظم الانقلابات المتعلقة بالتأنيث قد حدثت دون شك خلال السنوات الثلاثين الأخيرة في قطاع محوري بالنسبة لتكوين الشباب، وبالتالي مستقبل البلد. لقد مرّت تربية الأطفال بتزايد مستمر إلى أيدي النساء وحدهن اللواتي «أصبحن - من جهة الواقع ومن جهة الحقوق - سيدات قرار الإنجاب»[2]؛ هن اللواتي يكرّسن - حتى مع وجود عمل مساوٍ للرجل خارج البيت - الوقت الأطول للأطفال داخل الأسرة؛ هن اللواتي يمتلكن مناصب الاعتناء بأطفال الآخرين في الحضانة ودار الرعاية والمدرسة .. وهكذا، حين يتحدث نيكولا دوميناك (Nicolas Domenach) عن عالم الطفولة الصغيرة

(1) مجلة لوبوان (Le Point)، رقم 1486، 9 مارس 2001. [المؤلف].

(2) إيفلين سوليرو (Evelyne Sullerot)، «أي آباء؟ أي أبناء؟»، نشر (Fayard، 1992). [المؤلف].

«المحصورة بالأنوثة»، فإنه يستعمل لفظ «Feministic Park»[1]. الحضور المكثف للنساء في المدرسة الأولى - المحكوم عليها بأن تبقى حضانة - تستمر غالبا إلى أبعد من ذلك، حتى المراهقة بل بعدها في بعض الأحيان. لقد بدأ تأنيث مستخدمي التربية الوطنية أولا على مستوى التوظيف. تزامن ذلك مع الوصول الكثيف للنساء إلى سوق الشغل خلال سنوات الستينيات (حين كانت تُبنى إعدادية كل يوم) واستمر إلى اليوم. خلال سنوات السبعينيات، يلاحظ نيكولا دوميناك: «اتفق الجميع ضمنيا على تأنيث المدرسة: السلطات العمومية بتقليصها أجرة مستخدميها، والرجال باعتبارهم تربية الأطفال الصغار غير ملائم لهم، والنساء بمطالبتهن بأن يكون لهن وحدهن الحق في الاعتناء بالطفولة الصغيرة»[2].

داخل الأسرة، التي تعرف «تقلبات ضخمة»[3]، تَعزَّز حضور النساء قرب الأطفال بتنامي حالات الطلاق (واحد من كل ثلاث زيجات خارج باريس، ومن كل اثنتين في باريس) وتكاثُر الأسر أحادية الوالد (تقريبا 1,3 مليون أسرة في فرنسا). في الواقع، 80 ٪ من أبناء الأزواج المنفصلين يعيشون مع الأم؛ و16 ٪ لا يرون أباهم أبدا (مقابل 3 ٪ لا يرون أمهم)، و16 ٪ يرونه أقل من مرة واحدة في الشهر. بالنسبة للرجال، الذين انتُزِع منهم التحكم في الأبوة، فإن الطلاق يبدو غالبا مثل آلة للطرد الفعلي للآباء، وتحويلهم إلى «آباء يوم الأحد»، إن لم يكونوا فقط من «الآباء المنفقين»[4].

يبرز غياب الرجل بوضوح، في الأسرة أو في المدرسة، باختياره أو مكرها، ويجد نفسه منبوذا خارج العالم الطفولي.

---

(1) نيكولا دوميناك، «نزع الفحولة من عالم الطفولة»، حدث الخميس (L'événement du Jeudi)، عدد 7 إلى 13 أكتوبر 1993. [المؤلف].

والتعبير إشارة طريفة إلى عنوان الفيلم الأمريكي الخيالي المشهور، الذي صدر الجزء الأول منه في نفس السنة (1993): (Jurassic Park). [المترجم].

(2) نفسه. [المؤلف].

(3) إيفلين سيلورو (Evelyne Sullerot)، «التقلبات الكبرى - أزمة الأسرة»، نشر (Fayard، 1997). [المؤلف].

(4) «آباء يوم الأحد»: هم الذين لا يلتقون عمليا بأبنائهم سوى يوم عطلة الأحد، لأداء بعض الأنشطة الترفيهية التي ليست من صميم العملية التربوية اليومية، التي تضطلع الأم وحدها بها. و«الآباء المنفقون»: هم الذين تقتصر علاقتهم بأطفالهم على الإنفاق المادي. [المترجم].

إن الغياب الجسدي للرجال والحضور المكثف للنساء في تربية الأطفال، لم يكن ليمثل أمرا مهما جدا لو أن الرجال والنساء احتفظوا بأدوارهم التقليدية. في الحقيقة، كانت النساء من قبل يعتنين بالأطفال الصغار دون أن يوجد أي «انتزاع للفحولة» من عالم الطفولة، كالذي نراه اليوم. على العكس من ذلك، اتُّهمن من طرف متظاهري 1968 بتعزيز السيطرة الرجالية والإيديولوجيا البرجوازية الذكورية. ولكن الحالة تغيرت الآن: بحقوق مساوية لحقوق الرجال، صارت النساء اليوم يمارسن أدوارا مختلفة عن الأدوار التي كن منحصرات فيها من قبل.

نساء بِـ «مساواة»

تنص ديباجة دستور 1946 على الآتي: «يضمن القانون للمرأة في جميع المجالات حقوقا مساوية لحقوق الرجل». مع هذه «المساواة» المعترف بها، خرجت النساء عموما من أدوارهن التقليدية. لم يعدن كالسابق منحصرات في المهام الفرعية، وصار لهن الحق في التعبير وإبراز رأيهن حول الموضوعات كلها. من المؤكد أن هذا لا يمنع وجود مجالات ما تزال النساء فيها غير مسموعات، بل توجد مجالات لا تُحترم فيها حقوقهن. لكن لحسن الحظ، هذه الانتهاكات لحقوق النساء مشجوبة في فرنسا، وفي تناقص مستمر.

الدور الجديد للنساء ظاهر وحاسم في الأسرة وفي القطاع الموسّع للتربية، حيث يوجد – كما قلنا آنفا – مستقبلُ الأطفال، وبالتالي مستقبل البلد.

على الرغم من أنه يوجد أحيانا بون شاسع بين نص القانون وتطبيقه، فإن السنوات الخمسين الماضية وضعت حدا داخل الأسرة لكل ما كان يمكن عدُّه من الناحية القانونية عدمَ مساواة بين الرجل والمرأة.

مع قانون 13 يوليوز 1965، فقَدَ الزوجُ – الذي لم يعد بإمكانه الاعتراض على النشاط المهني لزوجته – لقب "رب الأسرة". إن الرجل الذي لم يعد له أصلا أمام أبنائه هيبةُ الدفاع عن الأسرة وإعالتها، فَقَدَ أيضا هيبة إدارتها. نَزَع منه قانون 4 يونيو 1970 بشكل منطقي السلطة الأبوية، التي صارت متجاوَزة وغير ملائمة. لقد تمّ تعويضها بـ"سلطة الوالدين" المشتركة بين فردين: "ترجع سلطة الوالدين للآباء والأمهات من أجل حماية الطفل في أمنه وصحته وأخلاقه. ولهما – في هذا الصدد – حق وواجب الحضانة والحراسة والتربية"[1].

(1) القانون المدني. [المؤلف].

شطب هذا القانون على واحدة من آخر العلامات الرسمية لسلطة الرجل على الجنس الآخر، دون إثارة أية ضجة، لأن هذه السلطة كانت مرفوضة فعليا منذ زمن. جاءت بعد ذلك إجراءات أخرى لإتمام عمل التسوية بين الجنسين، منها على سبيل المثال القوانين التي تسمح للمرأة أن تحتفظ باسمها وتنقله إلى أطفالها. لقد كانت الحاجة إلى هذه القوانين ظاهرة جدا. مع أنها تمّ تبنيها وسط جو من اللامبالاة العامة، فإنها تُرَسّم انقلابا تاما لأدوار الرجل والمرأة داخل الأسرة.

في التفسير القانوني الجديد، تميل وظائف الوالدين إلى أن تكون وظائف أب أو وظائف أُمّ غيرَ متمايزة، ويمكن التبادل بينها: يمكن للأم الآن أن تفعل ما كان الأب وحده مخولا أن يفعله؛ وعلى الأب أيضا أن يكون قادرا على أن يكون «أبا وأما في الوقت نفسه»[1].

يمكن للدور الجديد للنساء أن يمارَس أيضا في جميع مجالات التربية، وخصوصا في المدرسة التي أصبحت فرعا للبيت.

قديما – وباستثناء ما يتعلق بالمدرسة الأولى، التي تتميز عن غيرها بكونها مرتبطة بالأمومة – كانت للمدرّس وظيفة أقرب إلى أن تكون أبوية: كان مكلفا بتطبيق قوانين صارمة وعنيفة وحتمية مثل قواعد الانضباط، والإملاء، والنحو، والحساب، والمناهج المختلفة، والمعارف نفسها .. وهذه الوظيفة كان من المفروض أن تلائم أطفالا ومراهقين يبحثون عن «الحدود». كانت ممارَسَة من طرف أغلبية من الرجال، ومن قليل من النساء اللواتي يجب أن يكنّ – مثل الأب في الأسرة – «قائدات عسكريات متدينات» في مدرسة تلقّن قيم المجتمع الذكوري. كان الأب يعهد بابنه لمعلّم يمنح الطفل في المدرسة نفس التربية التي يتلقاها في البيت، مع إضافة التعليم. اليوم، لم يأت أي قانون يمكنه تغيير دور المدرّسين، باستثناء القانون الصالح للمهن كلها والحالات جميعها، والذي يشجب التمييز على أساس الجنس. ولكن، وبطريقة بطيئة وغير ملموسة، انقلبت الوظيفة كلها. المهنة الآن تمارسها النساء في الغالب، وفوق ذلك فإن قسما كبيرا من الآباء ومن العاملين في التربية الوطنية، رجالا كانوا أو نساء، يرفضون أن يعطوا التعليم الوظيفة التقليدية للأب، والتي لا يوافقون عليها أصلا. في الواقع، أصبحت وظيفة الأب التي عملت على تثبيت هيمنة الذكر، داخلة في الجنسوية؛ وهي لذلك مرفوضة عموما. هذا الانقلاب الظاهر خصوصا في مجال التربية يؤشر على انهيار الإيديولوجيا الذكورية.

---

(1) إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)، «XY»، الهوية الذكورية XY De l'identité masculine»، نشر (Odile Jacob)، 1992. [المؤلف].

إيديولوجيا تجعل المؤنث مثاليا

إن الإيديولوجيا التي وضعها الرجل منذ ما قبل التاريخ، من أجل تحقيق سيطرته على المرأة، ما تزال اليوم مدعومة من طرف بعض المتزمتين، ولكنها صارت تبدو «مبتذلة». لفظ «الإيديولوجيا» نفسه صار يبدو منتميا إلى ماضٍ تخلصنا منه. ولكن، وكما يقول جان كلود جييبو: «كل عصر ينخرط - دون أن يتفطن لذلك - في خيالاته الخاصة، وفي الإيديولوجيا المتسترة التي يظنها في اللحظة نفسها مشروعا معقولا»[1]. في الحقيقة، واعتراضا منهم على الإيديولوجيا التقليدية، تبنى رجال ونساء متأثرون بالإنسانويين وفلاسفة الأنوار، مواقفَ أكثر ليبرالية بل حتى أكثر ديمقراطية. في القرن العشرين، تغذى هذا الزخم بالثقافة المضادة لسنوات الستينيات، ومعها بالنظريات الأنثوية المنتشرة. ولكن عند البعض، وفي غمرة الصراع مع ذكورية مقاوِمة، تجمدت هذه المُثل الثورية وأنجبت إيديولوجيا جديدة يمكن وصفها بـ«الحداثية» أو حتى «الأنثوية» ما دامت تتعارض جذريا وفي كل نقطة منها مع الإيديولوجيا القديمة للرجال في السلطة.

كان المجتمع الباطرياركي يعتمد على مؤسسات قوية: الأسرة والمدرسة والدين، تملي معايير تكمن فيها قيم ثابتة، مدمجة ومقبولة من طرف جميع الأفراد. تعرضت جميع هذه المؤسسات التي كانت تضمن قيمة التربية التقليدية، وكيفية العيش في المجتمع، إلى المساءلة بل الاحتجاج عليها. مع هذه الإيديولوجيا الجديدة التي في طور النمو، تحولت الأسرة التقليدية، التي هي مؤسسة مقدسة مبنية على المنطق، ومنظمة على أساس احترام تراتبية غير مادية، إلى تجمع هش وغير ثابت لأفراد متساوين ومستقلين، لا ينبني التعايش المشترك بينهم سوى على «منطق» المشاعر. توقفَ التماهي مع الأب - ومع الراشدين عموما - عن أن يكون آلية للتنشئة الاجتماعية. لم يعد المشروع التربوي الذي كان للجميع منذ قرون، صالحا الآن. مدَّدَ الديمقراطيُّ فردانيته السياسية إلى المخطط الاجتماعي. كما أن الفرد صار يشعر بأنه حر وعلى قدم المساواة مع الآخرين لتحقيق واجب المواطنة، فإنه لم يعد يتقبل أن تكون مساراته مخططة، ومحددة بالإكراهات الاجتماعية، ومؤطرة من طرف مؤسسات تبدو له وضعياتها مضادة للديمقراطية، خاصة أن الأنثوية نزعت المصداقية عن كل ما لا يسوي بين الرجل والمرأة.

---

(1) جان كلود جييبو (Jean - Claude Guillebaud)، «هذه الثورة التي كنا نقول عنها جنسية Cette révolution qu'on disait sexuelle»، مجلة (Le Nouvel Observateur)، من 1 إلى 7 مارس 2001. [المؤلف].

لم يعد الفرد العصري يريد أن يندمج في المجتمع التقليدي ولا أن يعقد معه أية صفقة. منحه «نزعُ المصداقية» عن المؤسسات ذرائعَ سهلةً للتملص منها. كما أن تحرير الحياة الخاصة صعّب التقيد بجميع القواعد. بعد تحرره من أعباء الماضي، صار يرفض كل ما ليس ناشئا من ذاته، ولم يعد يرضى بأن تُملى عليه تصرفاته. صارت المكتسبات الثقافية محكوما عليها بأنها متجاوزة، والتقاليد العريقة منسية. لقد جرف جيل الستينيات والسبعينيات ما كان متبقيا من ذلك. سيبحث الإنسان الحديث «الحر» تماما في مكان آخر، في عالم مفتوح، عن الذي يناسبه أكثر. يختار في «المتجر الكبير المعياري»[1] معاييره الخاصة. يبحث عن مناهجه الخاصة، وأخلاقه الخاصة، وفلسفته الخاصة، بحسب معاييره الخاصة وحتى مشاعره المختلفة كل يوم.

تنبذ الإيديولوجيا «الأنثوية» السلطةَ من النوع الأبوي، التي كانت تفرض حدودا قاسية وغير متساوية. اليوم، لم يعد القانون ربما كما كان يسميه دافيد كوبر عام 1972 «الرعب المسبوك في كلمات»، ولم يعد «المنعُ ممنوعا» تماما، ولكن الإيديولوجيا «الأنثوية» لما بعد 68 ما تزال تتوجس من أية سلطة، وترى في انحطاطها تقدما: «إن تآكل السلطات لا يعني الفوضى، بل يمكن أن يعني تمدد قبضة الآلية الديمقراطية»[2]. يرفض الكثيرون التهديد من أجل إقناع الآخر، حين تكون الصرامة في الدفاع عن الموقف كافية[3]. على السلطة الآن أن تكون مقنِعة وأن لا تفرض نفسها. إن النقاش الديمقراطي الذي يمارَس على المستوى السياسي بين المواطنين الراشدين من أجل إقرار القوانين، منصوح به أيضا مع الأطفال في الأسرة والمدرسة. بما أن «المساواة» قد صارت مُعلنة، فمن الطبيعي أنه لم يعد معترَفا بسلطة أي أحد على الآخر، ولأن السلطة تُؤخذ في السياسة، فمن الممكن أن تُؤخذ أيض في أي مكان. حتى حين تكون مُعَيَّنة بشكل ديمقراطي، فإن السلطة تلتبس بالسلطة الفاشية التي تفرض نفسها بالقوة.

---

(1) مصطلح استعمله بيير لوجوندر (Pierre Legendre). [المؤلف].

(2) بوتيي وجيراردي (J. – L. Pouthier et S. Guerardi)، «الديمقراطية في مواجهة الأبهة La Dé-mocratie contre le prestige»، حوار بين مانان (P. Manent) وآلان رونو (Alain Renaud)، في (Le Monde des débats)، عدد1، 1999. [المؤلف].

(3) جيرار مندل (Gérard Mendel)، « تاريخ السلطة Une histoire de l'autorité»، دار (La Décou-verte)، 2002. [المؤلف].

في الديمقراطية الجديدة، تُحتقر العظمة، وبالمقابل فـ«الصغير جميل»[1]. بعد قرون من السلطة الاستبدادية، لم تعد الحاجة موجودة لـ«إله ولا سيد»، بل لا لـ«شيخ ولا أستاذ»[2]. جميع السلطات، جميع الهياكل التراتبية، جميع المؤسسات، سواء أكانت سياسية أو دينية أو مدرسية أو أسرية، قد سقطت قيمتها. أعلن جيري روبن (Jerry Rubin) عام 1971: «إن الثورة[3] تخوض حربا ضد الخطيئة الأصلية، ودكتاتورية الآباء تجاه أطفالهم، والأخلاق المسيحية، والرأسماليةِ وهذيانها الذكوري». بالمقابل: كل ما كان مضطهَدا يجب مساندته. يجب الدفاع عن «قضية الأطفال»[4] و«قضية المراهقين»[5] ضد الراشدين، و«قضية النساء» والمثليين ضد سلطة الذكور، والفرد ضد الدولة البوليسية القامعة (C.R.S SS)[6]، و«قضية الشعب» ضد الطبقات المسيطرة، واليسار ضد اليمين، وجميع الأقليات ضد الأغلبية، والجهات ضد السلطة المركزية، والدول الفقيرة ضد الدول الغنية، والدولة المغلوبة ضد الدول الكبرى، والطبيعة ضد التصنيع، إلخ. الفكر الجديد المهيمن هو الذي يدافع عن المقهورين. كل ما هو عكس

---

(1) شوماخر (E. F. Schumacher)، «مجتمع على قدر الإنسان Small is beautiful, Une société à la mesure de l'homme»، دار (Le seuil، 1978). [المؤلف].
ومما يدخل في هذا المعنى أيضا: «دكتاتورية الأقليات»، كما سيأتي في الحديث عن الهويات الجنسية الغريبة. [المترجم].

(2) إيف لوبونييك وكلود جييون (Yves Le Bonniec et Claude Guillon)، «لا شيخ ولا أستاذ»، مجموعة (Alain Moreau، 1979). [المؤلف].

(3) يقصد الثورة الجماهيرية التي اشتعلت في أوروبا عموما عام 1968. تراجع مقدمة هذا الكتاب. [المترجم].

(4) فرانسواز دولتو (Françoise Dolto)، «قضية الأطفال La cause des enfants»، دار روبير لافون (Robert Laffont، 1997). [المؤلف].

(5) فرانسواز دولتو (Françoise Dolto)، «قضية المراهقين La cause des adolescents»، دار روبير لافون (Robert Laffont، 1988). [المؤلف].

(6) من الشعارات المشهورة في مظاهرات 1968، وهو يسوي بين: شرطة مكافحة الشغب (Compagnies républicaines de sécurité C.R.S)، وقوات المنظمة العسكرية (Schutzstaffel SS) التابعة للحزب النازي بألمانيا، والمشهورة بالقسوة والعنف في سحق المعارضين. [المترجم].

«الكبير» يصبح جميلا وجيدا. يجب أن تكون «داود» في مواجهة «جالوت»، وأن تمدح التمردَ وعدم الخضوع.

ترفض الإيديولوجيا «الأنثوية» سلطة الرجل، وترفض في الوقت نفسه أسلحة هذه السلطة: العنف في جميع مظاهره. إنها تفرض اللاعنف. يقول غاندي، أحد رجال السياسة الذين يتمتعون بتقدير كبير في القرن العشرين: «إذا كان اللاعنف قانون الإنسانية، فإن المستقبل للنساء». لم يصل اللاعنف بعدُ إلى أن يكون قانونا عاما، ولكنه محل اتفاق داخل المجتمع وخصوصا في تربية الأطفال. لقد عُوِّضت التقاليد الغربية التي تعطي قيمة كبيرة للصراع، بتقاليد الشرق الأقصى التي تبحث عن الانسجام. إذا كانت السلطة ما تزال ضرورية، فإن أتباع «المعاملة الجيدة» ينادون بعدم استعمال الإكراه. التهديد ممنوع والعقوبة يجب تفاديها. إذا استمرت الاختلافات، فالواجب حلها بالحوار والتفاوض. التعايش السلمي أمرٌ محبّذ. المسامحة عَوّضت المطالبة، وإبراز النقاط الإيجابية عَوَّضَ انتقاد النقاط السلبية.

صار الإنسان العصري يفضل اليوم، في المجالات كلها، الاستماع والاهتمام والتضامن والحماية. هذه الخصال كانت مستعملة من طرف النساء خلال زمن الحضانة التي كانت حكرا عليهن. لكن كان الأطفال ينتقلون بسرعة ليكونوا تحت سلطة الرجال، الذين يفرضون عليهم الانضباط الذي تُبنى عليه حياة الإنسان الراشد. تسببت مبالغة الرجل في القسوة، التي قد تنحرف إلى سلطوية متشددة، في نبذه. وقابلت الأنثويةُ برودةَ بعض الوسائل التقليدية القريبة من الترويض والهادفة إلى الحماية من الشر، باستعدادات أمومية من الملائم تطويرها. لم يعد الأمر يتعلق بـ«تقوية» الطفل، وإنما بمنحه كل ما يمكن لكي لا ينقصه شيء. يجب مساندته وحمايته ضد جميع مخاطر الحياة.

سواء أكان طفلا أو راشدا، صار الفرد الآن يعدّ شخصا يجب احترامه وحبه. يُنظر إلى المسافة التي تذكّر بالمجتمعات التراتبية والتي لا مساواة فيها، بأنها نوع من الاحتقار وعدم التفهم. يجب تقليص التمييز بين من هم «فوق» ومن هم «تحت»، وعدم إظهار الخصوصيات (ومن باب أولى: الاستحقاق) التي تشوش وتبدو على أنها نقص في المساواة. صار القرب – وحتى التواطؤ – فضائل تشجع على التواصل والروابط العاطفية. صار الفردُ الآن – راشدا كان أو طفلا – شريكا حقيقيا، داخلا في علاقة مساواة تامة. خفّت حدة صراعات السلطة والطبقات والأجيال. الاحترام الذي لم يعد مرتبطا بالخوف، يسمح بالتفاوض.

منذ 1968، تحررت الكلمة وأصبح للمواطن حق التعبير. تم تشجيعه أيضا على إظهار الإبداع وروح المبادرة. خلال قرون، كانت سلطة الذكر الصارمة تمنع الأحاسيس على الرجال ليتميزوا عن النساء ويتمكنوا من بناء أنفسهم. وكمّمت أيضا أحاسيسَ النساء كي لا يشوشن على مشروعات الذكور. أما اليوم، فإن الإحساس – الذي كان مرتبطا بالأنوثة لأنه لم يكن يُعترف به إلا عند الجنس اللطيف – قد تحرّر، وصار بإمكان الرجال والنساء معا أن يطلقوا العنان للجزء المؤنث فيهم. بالمقابل، فقد سقطت قيمة العقل – الذي هو السلاح المطلق للسلطة التقليدية. بعض المثقفين الذين يُفترض أن يكونوا واقعيين، قرروا استعمال العقلانية، فوقعوا في الخطأ. خلطوا بين «التكلم بالحق، والتكلم من أجل الإقناع»[1]، فأسقطوا مصداقيتهم. وهكذا، فإن نزعة معاداة الفكر التي بدأت في النمو في نهاية القرن 19، صارت معمّمة مع إفلاس الإيديولوجيات ورفض النُّخَب. على غرار مجموعة «الأرض البشرية» التي أنشأَت عام 1955 من طرف جان مالوري (Jean Malaurie) فإن هنالك «رغبة في انتزاع الكلمة الشعبية من احتكار التخصص العلمي»[2]، وذلك في جميع المجالات. صارت الاستبيانات والتعبير عن الأحاسيس تعدّ ضمن الأخبار. صارت الحوارات تتلخص في نثر التجارب الشخصية. عموما، الثقافة والتفكير متهمان. كما أن اللباقة في الكلام أصبحت من النفاق، فإن الحديث مع استعمال صيغ راقية أصبح دليلا على «لغة الخشب»[3]. على العكس، فمن المناسب

---

(1) دوني فاس (Denis Vasse)، «الحياة والأحياء، حوارات مع فرانسواز ميكنستورم La Vie et les vivants. Conversations avec Françoise Muckensturm»، دار (Le Seuil، 2001). [المؤلف].

(2) أوريجان (P. Aurégan)، «Des récits et des hommes. Terre humaine : un autre regard sur les sciences de l'homme»، دار (Nathan /Plon، 2001). [المؤلف].

ولما كانت الثقافة الغربية تنتقل إلينا ولا بد، كما تنتقل ثقافة كل غالب إلى المغلوب، فقد صرنا نسمع مثل هذا الكلام في عالمنا الإسلامي، بعد إسقاطه على العلم الشرعي. فلم يعد للعالم تلك الحرمة والهيبة التي كانت له عند الناس قديما، بل صارت فتواه قد تردّ بمجرد «أشعر، وأرى، ويبدو لي ..»، لأن المشاعر الذاتية صارت مقدمة على الاستدلالات الموضوعية. ومن لم يتفطن لهذا السبب الثقافي العميق، تسرع فأرجع غياب هيبة العلماء إلى ضعف مواقفهم السياسية فقط، والحال أن الأمر أعمق بكثير. [المترجم].

(3) ومما نعاني منه في مجتمعاتنا: التسارع إلى العامية والخطاب التافه علميا وفكريا، ما دام معبرا عن المشاعر والعواطف؛ في مقابل أفول نجم الخطاب العلمي المنضبط الذي لا يكاد يلتفت إليه أحد من طلبة العلم والمثقفين أنفسهم، فضلا عن العامة. [المترجم].

الانطلاق في الكلام، وألا يكون المتحدث عاقلا، راشدا، شيخا، «مقيدا». بعد التحرر من العبء الفكري والأخلاقي، يمكن أن يكون الشخص متمردا ووقحا، وإن كان الاستفزاز يسقط أحيانا في الامتثالية والابتذال. خصال الأنوثة من صدق وعفوية وإخلاص هي أفضل من ضبط النفس والسلوك الحسن. يمر تحقيق الأهداف عبر الاستماع إلى المشاعر والأحاسيس. صار الإحساس أكثر مصداقية من التفكير. وكما تقول الحملة الإعلانية لكالفن كلاين: «الحواس لا تخدع». في «زمن إنسان الشعور[1] Homo Sentiens» يعوّض معدلُ العواطف معدلَ الذكاء. العواطف التي كان من الواجب سترها، يمكن الآن إظهارها للعلن. بل من المحبّذ التعبير عنها ومشاركتها؛ يقول روبير ايبجي (Robert Ebguy): «العاطفة واللعب والإبداع تتعارض مع العقلانية، ومع ديكارتية المعطيات الذكورية التي تؤدي بنا إلى الهاوية»[2].

على الإنسان ألا يسمح بسحق قطبه الطفولي، لا من طرف قطبه الأبوي الذي يضع القواعد، ولا قطبه الراشد الذي يفكر بعقلانية. الوالد والراشد يتكلمان باسم الرجل، ويوافق الكثيرون على رأي آني لوكلر (Annie Leclerc) التي أعلنت عام 1974: «إن أمور الرجل ليست فقط غبية وكاذبة ومضطهِدة؛ بل هي على الخصوص كئيبة، إلى درجة القتل بالضجر وخيبة الأمل»[3]. من الضروري إذن تحرير الطفل الداخلي الكامن في كل فرد. وكما تقترحه آلومي بلانل (Alomée Planel): «ربط الاتصال بجزئنا الطفولي هو الوسيلة الوحيدة التي نملكها للحصول على متعة البراءة، والحاضر المحض، والبهجة اللامشروطة، والإبداع»[4]. لقد صار الأطفال – وكذلك النساء اللواتي يبقين قريبا من الطبيعة بسبب الإنجاب – مُثُلا عُليا بعد أن كانوا في مرتبة أدنى. لقد صار يُنظر إليهم مثلما ينظر لأعجوبة تمتلك المواهب جميعها. يجب أن يكون الإنسان مثلهم شاعريا لا عقلانيا. أصبحت تلقائيتهم خصلة يجب الاحتفاظ بها

---

(1) ميشيل لاكروا (Michel Lacroix)، «عبادة العواطف Le Culte de l'émotion»، دار (Flammari-on)، 2001. [المؤلف].

(2) روبير أيبجي (Robert Ebguy)، «Babyfier sans bêtifier»، مجلة (Paris – Match)، 23 ماي 2002. [المؤلف].

(3) آني لوكلر (Annie Leclerc)، «كلمة امرأة Parole de femme»، دار (Grasset)، 1974. [المؤلف].

(4) آلومي بانيل، طبيبة نفسية، تابعة لتوجه يونج، حوار مع مجلة «Avantage»، يونيو 2001. [المؤلف].

إن كانت موجودة، أو تحصيلها إن لم تكن موجودة. اليوم لم يعد الطفل إنسانا في طور النمو، ولكنه مستقبل الإنسان. لا ينبغي أن تصبح راشدا، بل عليك أن تبقى شابا. في مقال عنوانه «أنا راشد؟ هل هذا ضروري؟»، يلاحظ جان - لوي سيرفان شريبر (Jean – Louis Servan Schreiber) أن «الشباب صاروا أصحاب الأولوية في التمثيلية ومنح القيمة المجتمعية».

لقد صار حق التعبير حقا للجميع، ومنهم على الخصوص الأطفال، الذين لم يكن لهم من قبل سوى واجب الصمت والاستماع، قبل محاولة إعادة الإنتاج. (في الديانة الكنفوشيوسية، التي لها تقاليد تعظّم كبار السن، يجب في سن العاشرة الاستماع والصمت، وكذلك في سن العشرين والثلاثين والأربعين والخمسين. انطلاقا من سن الستين، يصبح من الممكن البدء بالكلام مع الاستمرار في الاستماع). اليوم في فرنسا والمجتمعات العصرية، صار الراشد المخلص هو المطالب بأن يستمع للطفل، ويعمل على أن ينمو دون إكراه، ويجعل كل يوم في حياته مُرضيا بقدر المستطاع.

يقابل الحقُّ في المتعة اليوم، العقلَ والأخلاق في المجتمعات الباطرياركية التي كانت تجعل من العمل والجهد فضيلة. بالنسبة للكثيرين، النجاة بعد الموت لم تعد مصدر تحفيز، والمستقبل - البعيد والعشوائي - لا يستحق أن يصرف أعيننَا عن جنة يمكن الحصول عليها في الوقت الراهن (الجنة الآن Paradise now). على الفرد من نعومة أظفاره أن ينتفع بالحياة، وإذا كان من اللازم أن يعمل، فليكن ذلك في البهجة، دون أي إكراه.

على الطفل - ومثله الرجل الذي يعرف كيفية الاستماع إلى الطفل الكامن فيه - أن يستغني عن الأستاذ، ويقرر ما هو نافع بالنسبة له. بعد قرون من التوجس حيال الطبيعة الإنسانية، أصبح الانشغال الرئيسي هو استقلالية الطفل الذي لم يعد ينظر إليه على أنه «منحرف متعدد الأشكال»[1]. أمام هذا الكائن البريء الذي - في أسوأ حالاته - يكون ضحيةً للمجتمع، «يتمثل دور المربّي في التنقيب عن ازدهار هذا المؤهل الثري والواحد الموجود دائما في كل إنسان، والسماح به، (..) ومساعدة الشخص على اكتشاف ما هو موجود داخله أصلا بدلا من تشكيله وتعليمه بطريقة معدة مسبقا ما قرره شخص آخر من قبل»[2]. إن المربّي يشبه البستانيّ «الذي لا

---

(1) فرويد. [المؤلف].

(2) إيدا ليشان (Eda Leshan)، «Pour ou contre Summerhill»، نشر «Petite Biliothèque Payot»، 1972. [المؤلف].

يكتفي بغرس الأزهار، بل يحاول أن يمنحها ما يعينها على النمو، ثم هي تنمو من تلقاء نفسها. عقل الطفل – مثله مثل الزهرة – شيء حي. كل ما يمكننا فعله هو تغذية العقل في طور النمو (..) وأن نثق في أنه سيستوعب ما يحتاج إليه»[1]. ويواصل قائلا: «دوره أن يساعد الطفل على اكتشاف أي نوع من الناس هو، باستكشاف نمطه ومؤهلاته وكفاءاته. يصبح تحقيق الذات إذن الهدف الأساسي»[2]. إن النظرة الملقاة على هذا الكائن البريء والهش لا ينبغي أن تكون نظرة أب سلطوي يَفرِض، بل نظرة أم حنون ومُعجَبة تتأقلم.

لقد ألغت الإيديولوجيا «الأنثوية» إذن جميع الجانب الموصوف بأنه ذكوري وراشد، والذي كان بارزا لدى الرجال في السلطة. على العكس، فإن «المؤنث» و«الشاب» اللذين كانا مخنوقين من طرف الرجل المسيطر، صار بإمكانهما رفع الرأس، وصارت لهما قيمة في المجتمع. كما تسجل ذلك إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)، فإن القيم المؤنثة أصبحت هي القيم التي يجب اتباعها: «لقد فكّك حلم المساواة الذكورَة التقليدية، وقضى على هيبتها. وتُرجِم ذلك بنبذ قيم الذكورة، وجعل قيم الأنوثة مثلا أعلى»[3]. لقد صارت قيم الأنوثة تبدو عصرية وعلامة على ازدهار شخصي جيد، لدرجة أنه صار من البدهي في الإيديولوجيا الجديدة أنه يجب على الرجال والنساء أن يطوّروا الجزء المؤنث فيهم. لقد أصبح الإعلان المعلق على جميع الحيطان «الغد سيكون مؤنثا» أمنية لا تتقبل أية ملاحظة، ما دام الحاضر مؤنثا فعلا، ومن الواضح أنه سيصبح كذلك أكثر فأكثر. مع هذه اليقينيات، لم تعد المرأة تخشى أن تقول: «أنا امرأة، وفخورة بذلك»[4]. حتى الرجال، الذين أصابهم الإرهاق ومن باب الإحساس بالذنب (أو ليروقوا للنساء)، صاروا مستعدين لمدح الأنوثة وتحقير أنفسهم. هم الذين يتحدثون عن

---

(1) جون هولت (John Holt)، «Redbook Magazine»، نونبر 1965؛ نقلا عن إيدا ليشان (Eda Le-shan)، «Pour ou contre Summerhill»، نشر «Petite Biliothèque Payot»، 1972. [المؤلف].

(2) إيدا ليشان، مرجع سابق. [المؤلف].

(3) إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)، «XY» الهوية الذكورية «XY De l’identité masculine»، دار أوديل جاكوب (Odile Jacob)، 1992. [المؤلف].

(4) سابين بوسيو – فاليشي و ميشيل زنكاريني – فورنيل (Sabine Bosio – Valichi et Michèle Zan-carini – Fournel)، «نساء وفخورات بذلك «Femmes et fières de l’être»، دار (Larousse)، 2001. [المؤلف].

«الذكر المتعجرف والمتحمس»، وعن «المرأة الناضجة أكثر دون شك، والأقرب إلى الإنسان من الرجل ..»، وعن «بلد (أي فرنسا) النساءُ فيه متفوقات على الرجال»، إلخ.

مع أنوثة أصبحت كاملةً، وذكورةٍ هي مصدر جميع الشرور في العالم، فإن الإيديولوجيا «الأنثوية» تقسم العالم إلى معسكرين: «قوى الشر» التي تجمع المهيمنين الذكوريين؛ و«قوى الخير» التي تدافع عن المهيمَنِ عليهم. ويدخل في هذه الفئة إلى جانب الأطفال والشباب والمثليين وجميع الأقليات: النساءُ، اللواتي صارت وضعيتهن في فرنسا اليوم تشَبَّهُ بحالة الفرنسيات في بداية القرن العشرين (..). وهكذا فإن هذه الضحايا الأبديات يستفدن اليوم - إلى جانب الجاذبية التي كنّ يتمتعن بها دائما - من نظرة لا يمكن أن تكون إلا متعاطفة ومتفهمة، أو حتى معجَبة: «كل شيء جيد لديها، لا يوجد شيء يمكن طرحه». على العكس من ذلك، فإنه يكاد يجب على الرجال التوبة من الانتماء لجنس الرجال المهيمنين. في الواقع، أصبح عدم تمجيد النساء والأنوثة رفضا للتغيير وللتقدم[1]. كما في كل نظام شمولي، نقد الإيديولوجيا القائمة مستحيل. يكفي أن تكون لديك فكرة مخالفة للفكر الأوحد لتستحق الإدانة. اليوم، وفي حين يمنح التطرفُ الديمقراطي الحقَّ بمناقشة أي شيء، مع أي أحد (خاصة إن تعلق الأمر بسلطة ما)، في أي مكان، وفي أي زمان، وبأية صيغة، فإن من يتجرأ على تقديم أدنى نقد للتطرف «الأنثوي» لا يمكن إلا أن يكون عدوا للديمقراطية، و«رجعيا جديدا»[2]. إن «الجيش الوردي» «الأنثوي» الجديد، يسهر على النظام، ويعزل كل متمرد كي لا يلوّث الآخرين ولا يسيء إلى التوازن.

---

(1) «النزعة التغييرية» تجعل من كل تغيير تقدما. [المؤلف].

(2) دانيال ليندنبرج (Daniel Lindenberg)، «تحذير، بحث عن الرجعيين الجدد Le Rappel à l'ordre, Enquête sur les nouveaux réactionnaires»، دار (Seuil)، مجموعة «جمهورية الأفكار La République des idées» 2002. [المؤلف].

مسيرة التأنيث

من كتاب «نحو التأنيث» لآلان سورال (ص113 – 126)

الأصل الاقتصادي للتأنيث

تأنيث العالم بتطور العمل

أدى تطور القطاع الثالث[1] خلال السنوات الثلاثين الأخيرة، إلى نوع من التأنيث الجسماني للعالم الاقتصادي والاجتماعي؛ وذلك لأن مهن الخدمات (خاصة عمل المكاتب) لم تعد تحتاج إلى تلك القوة العضلية التي كانت تحدّ من وصول النساء إلى أغلب المهن التقليدية[2].

تأنيث بدني (يكفي أن تقارن هيئة فلاح أو عامل منجمي في مرحلةٍ ما بين الحربين بهيئة عامل مكتبي اليوم) أضيف إليه «تأنيث عقلي» أشد انحرافا:

- أنتج التقطيع المبالغ فيه للعمل (التايلورية في القطاعين الأول والثاني، وتطور القطاع الثالث) تقلصا هائلا لمجال نشاط ومسؤولية العامل، الذي لا يستطيع - لأنه لا يمارس اليوم كله سوى مهمة متكررة (التايلورية) أو بعيدة عن الإنتاج (القطاع الثالث) - أن يفهم العلاقة مع بقية النشاط الجماعي؛

- ومن هنا تقليص لحقل «الوعي الاجتماعي» لديه، لأن ممارسته اليومية لا تسمح له بالتموقع في العالم وتكوين رأيه الخاص حول نظام عمله، ولا أن يكون له أدنى أثر على تطوره.

---

(1) القطاع الثالث (secteur tertiaire) يشمل أنشطة متعددة تمتد من التجارة إلى الإدارة، مرورا بالنقل والأنشطة المالية والعقارية، وخدمات المقاولات والخدمات عند الخواص والتعليم والصحة والعمل الاجتماعي. بعبارة أخرى، يشمل كل ما لا يدخل في القطاع الأول (الفلاحة) والثاني (الصناعة). وقد شهد القطاع الثالث منذ أكثر من أربعين سنة تطورا كبيرا في فرنسا والعالم الغربي عموما، وتطور معه عمل المرأة أيضا. [المترجم].

(2) الفلاحة والصيد البحري والصناعة الثقيلة والخفيفة، والتي تشكل القطاعين الأول والثاني، اللذين كانا الغالبَين في القديم. [المؤلف].

الرجل المؤنَّث

تعميم طبقة عاملة تنتمي للقطاع الثالث والتايلورية، لم تعد ترى في الاقتصادي - الاجتماعي إبداعا إنسانيا وتحديا، بل مجرد فضاء طبيعي ومحايد، تتحرك فيه التغيرات النفسية - العاطفية، التي صارت تُعدّ هي الحتميات المحدَّدة الوحيدة[1].

تقليص لحقل الوعي لدى الرجل المعاصر (الغالب أنه أجير صغير من القطاع الثالث أو خاضع للتايلورية)، يذكرنا بالاختزال النفسي الخاص بعقل المرأة. فتقسيم العمل يلعب دورا مماثلا لعدم التماثل الأوديبي، بإخفائه التدريجي عن الرجل تأثير الاقتصادي - الاجتماعي على حوافزه وعلاقاته بالآخرين، لدرجة جعله يرادف بين السياسي والطبيعة[2].

وهكذا فإن التأنيث الاقتصادي الاجتماعي (أغلب الشركات من القطاع الثالث وتعميم التايلورية) لا يعني فقط أن الرجل يفقد عضلاته تدريجيا بسبب العمل الآلي وعمل المكاتب، ولكن - وبشكل أعمق - أنه من كثرة عدم احتياجه لفهم دوره الاجتماعي في أداء مهمته، فإن فكرة طرح السؤال لم تعد موجودة عنده أصلا.

من هنا: تطور الأنثوية

من هنا إذن تطوُّر الأنثوية، من سيمون دو بوفوار (Simone de Beauvoir) إلى إليزابث بادنتر (Elisaeth Badinter):

- أنثوية سيمون تُعبّر - في عالم رجالي - عن الرؤية النفسانية الأقلية لامرأة من البرجوازية الجديدة للقطاع الثالث؛

- أنثوية إليزابث تعبر - على العكس - عن عجرفةِ أقلية أصبحت أغلبية[3]. الرؤية النفسانية لعالم مؤنَّث بتوسع القطاع الثالث، الذي يصبح وجود الرجل فيه أصعب بشكل متزايد.

---

(1) يشكل «موت الأب» بالطبع قوة مقاومة لهذا الاختزال، ولكننا سنرى أنه في النهاية وجود الأب نفسه هو الذي يعاد النظر فيه من طرف هذا التطور للعمل والوعي. [المؤلف].

(2) نلاحظ بهذا الصدد أن الدول التي تتقدم فيها الاشتراكية الديمقراطية هي التي تكون فيها طائفة المثليين أكبر؛ وذلك لأن مجموع مختثي القطاع الثالث ينحصر وعيهم السياسي في حقهم في ممارسة الجنس المثلي. [المؤلف].

(3) النساء الآتيات من هذه البرجوازية الجديدة للخدمات، يشعرن بالتكيف التام مع هذا المجتمع الفاقد للفحولة وللوعي. [المؤلف].

الأصل العاطفي للتأنيث

هذا التوسع للقطاع الثالث (المصحوب بتقسيم شديد للعمل) والذي أصبح قطاعا مختلطا وأغلبيا، له نتيجتان متعلقتان بالعالم النفسي - العاطفي:

- الأم التي تعمل خارج البيت، تصبح تدريجيا «الأم الغائبة» بالنسبة لطفلها، ويؤدي ذلك لنقص عاطفي؛

- الأب المؤنَّث بتطور العمل يصبح بالموازاة «الأبَ الضعيف»، ويؤدي ذلك لنقص أخلاقي.

أسرة مختزلة في أم قليلة الحضور عاطفيا، ولكن شديدة القوة رمزيا، تميل نحو تغيير «الأوديب»، أي حقيقة هيكل وعينا الأخلاقي.

الأم هي الوجود والحنين

الإنسان ثديِيٌّ خديج، تنقله صدمة الولادة من السائل الدافئ للبطن إلى الفراغ البارد للهواء، مع عدم استعداده لذلك. تُعدّ الولادةُ بالنسبة للرضيع، هذا الثديي الخديج، سقوطا للوجود، تسرع به بعنف في عالم فارغ وبارد مثل الموت. والشيء الذي يسمح للرضيع - الذي «جاء قبل الموعد الطبيعي» - بأن يوجد في الفراغ البارد للعالم قبل أن يمكنه أن يكون «داخل» العالم، هو الدفء النابع من حب الأم.

زمن الأم إذن هو الزمن اللازم للرضيع ليكون جاهزا؛ للانتقال من الوجود إلى العالم. لدرجة أن الإنسان - الرضيع - الذي جاء قبل «الوقت الطبيعي» - لا يمكنه أن يكون للعالَم إلا عبر الأم؛ وأنه لا بد أن يكون عبرها أولا قبل أن يمكنه أن يكون عبر العالم.

بالنسبة للرضيع، غياب الأم نقص في الوجود. صلابة الوجود شيء سينقصه حين يريد فيما بعد أن يصبح داخل العالم.

الأب هو الاجتماعي منذ الأسرة

إذا كانت علاقة الرضيع بالأم يجب أن تُفهم على أنها عالم مغلق لا ينقصه شيء ويمكنه تجاهل بقية العالم في انسجام مثالي تقريبا للحب الملتبس بالأصل؛ فإن الانتزاع من الأم، الذي يمثله اقتحام الأب، هو انتزاع وعنف ضروريان، لأن التحولات الجسدية التي يتعرض لها الرضيع لا تسمح له بالبقاء في سكون الوجود مع الأم، مهما تكن رغبته[1].

(1) من خلال التوحد، يستطيع الرضيع تجنب العالم، ولكن على حساب حياته. [المؤلف].

ولأن الأب بحضوره، يُخضِع الأم للأسرة، ويُخضع الأسرة للعالَم في ذهن الطفل، فإنه يمثل - في تقابل مع الحب الأصلي للأم - العالمَ من حيث هو مستقبل ومشروع. أي إمكانية تحول الذات من خلال التعلم، من أجل الاندماج في هذا العالم الاجتماعي الراشد الأصعب، والمكون من الجهد والاستحقاق والأخلاق، والذي يطرح جانبا عالم المتعة الخالصة للأمومة.

خطر الضعف الأخلاقي وفقدان الحس الاجتماعي للأطفال دون أب

- لأن الأزواج يفترقون أكثر فأكثر تحت الضغط الاجتماعي (المرأة متحررة اقتصاديا، والرجل أفقدته عمالةُ القطاع الثالث المسؤوليةَ)؛

- ولأنه في حالة الفراق، فإن المحاكم تعطي الحضانة غالبا للأم[1]؛

فإن المراهق ثم الراشد الذي نشأ دون أب، يميل إلى أن يعدّ العالم امتدادا للأم، وألا يتصور العلاقات الإنسانية إلا من خلال نموذج الإغراء المعمَّم[2].

نظرة ذات نزعة حسية وفردانية، لا تسمح بظهور الحكم الأخلاقي ولا بفهم الخير في بعده الجماعي. «نرجسية» تجعل من الطفل الذي نشأ دون أب:

- إما مراهقة، إحساسُها بقوة الإغراء لن يحده سوى تفاقم المنافسة من الأخريات؛

- وإما مراهق، يَجعل منه نقص شجاعته ومشروعه الحياتي، المختزلان - بسبب حدود الأمومة - في البحث الحنيني أو سلبية الانتظار الخالصة؛ نقيضَ الرجل، ونقيض الرجل الشريف (في نظر القيم الباطرياركية، الغربية والتقليدية)[3].

كلاهما شخصان غير ناضجين في المستقبل، ووعيهما منحصر في الرغبة في التمتع والاستهلاك؛ غالبا في ما يسبب لهما الضرر؛ ودائما من أجل مصلحة اشتراكيتنا الديمقراطية النيو - ليبرالية[4].

---

(1) وهو ما يشكل تأنيثا واضحا للقانون. [المؤلف].

إن صح أن هذا تأنيث للقانون، فهو تأنيث محمود دون شك، إذ الأم أولى بحضانة أطفالها الصغار. [المترجم].

(2) أي العالم المختزل في نظرته «البروستية». [المؤلف].

نسبة إلى الروائي مارسل بروست (Marcel Proust). [المترجم].

(3) لأن التعلق بالأم ينتج الآثار نفسها، فإن هذا النقد صالح للمثليِّ أيضا. [المؤلف].

(4) اشتراكية ديمقراطية على الصعيد الإداري، ونيو - ليبرالية على الصعيد الاقتصادي، ومن هنا ضرورة نظام دائم للتعايش. [المؤلف].

الأصل الاستراتيجي للتأنيث

بعد ذكر الأصول اللاواعية للتأنيث (تطور الهيكل الاقتصادي وبالتالي تمزق الأوديب، هيكل العقليات)، لنمر إلى الأصول الواعية: التأنيث يشكل للذين يهيمنون على الاشتراكية الديمقراطية النيو - ليبرالية[1] عاملا قويا للربح والطاعة.

الرغبة، الشباب والإغراء

- بما أن للرجل - بسبب حنينه الأكبر إلى مرحلة الانصهار مع أمه (أما البنت فمنجذبة للأب أكثر) - ميلا طفوليا للأنانية[2]؛

- وأن للمرأة - كما للطفل - ميلا غير واع إلى عدم فهم العالم خارج الأوديب؛

فإن الذين ينتفعون من الاشتراكية الديمقراطية النيوليبرالية يفضلون أن:

- يبقى الرجل مراهقا منشغلا بالمتعة دون أن يهتم بالآخرين (وبالتالي دون اهتمام بالسياسة)؛

- لا تنحرف المرأة - التي هي في الأصل غير مهتمة بالسياسة - عن رغبتها في الإغراء والاستهلاك، بجدية الأمومة.

ومن هنا الثناء المستمر على «أنوثة مراهقة» خاصةٍ بالتواصل الاشتراكي الديمقراطي. المخنث والعاهرة يشكلان الثنائي المثالي لانعدام الوعي السياسي والمواطن، في خدمة الاستهلاك الجماهيري.

المرأة مُلهمة الاشتراكية الديمقراطية النيو - ليبرالية

نلاحظ كل يوم كيف يستغل مجتمعُ الاستهلاك المرأةَ من أجل تحريك تجارته:

- استعمال صورة المرأة في الإعلانات، بالربط المنهجي بين جسدها والسلع المختلفة، لدفع الرجال إلى الاستهلاك؛

---

(1) الأوليغارشية الاقتصادية والسياسية المشكّلة من المجموعات المالية (في رأس المال)، والمدراء التقنيين (في الإنتاج) والسياسيين (في التواصل). [المؤلف].

(2) أما إيثاره الكوني فيبقى إيثارا عقليا، بينما تشعر المرأة بتعاطف أمومي، ولكنه نادرا ما يصل إلى بعده السياسي. [المؤلف].

- استعمال الرغبة في الإغراء لدى المرأة من أجل دفعها لاستهلاكِ ما تُبرزه لها المجلات: مواد التجميل، الموضة، الثقافة والمنتجات المتفرعة عن ذلك.

ولكن بقدر ما تشتد خطورة الأزمة (أزمة المنافسة، والاختلافات الاقتصادية، وفائض الإنتاج، وبالتالي أزمة الاستهلاك)، فإن الاشتراكية الديمقراطية النيو - ليبرالية تعتمد أكثر فأكثر على المرأة من أجل تنشيط السوق، أو حتى إنقاذه:

- تنشيطه بادعاء كونها متأخرة في الاستهلاك على الرجل (العدو الأبدي)، ولا بد من استدراك هذا التأخر بعد حصولها الأخير على الاستقلالية الاقتصادية (سيحثونها مثلا على اقتناء سيارتها الخاصة كي لا تضطر لاستعمال سيارة زوجها)[1]؛

- إنقاذه بالاعتماد على «العقل النسائي» (اللاوعي الاجتماعي الكبير وحب الأشياء) في محاولة جعلنا نتقبل دور المستهلك المحض، الذي حكمت به علينا النيو - ليبرالية.

الاشتراكية الديمقراطية النيو - ليبرالية أو العالم من خلال عيني امرأة شابة

إذا كانت المرأة ليست مستقبل الرجل، فإنها بالتأكيد مستقبل الاشتراكية الديمقراطية النيو - ليبرالية. ومن هنا مصلحة هذه الأخيرة في أن تصل النساء إلى:

- التعليق، أي مناصب التواصل والتنشيط حيث يمكنهن ممارسة «نفسانيتهن النقدية»[2] في حرية تامة (ومن هنا تزايد النساء الصحفيات في التلفزة، اللواتي يتم اختيارهن من أجل مظهرهن)؛

- أو - بالنسبة لمن هن أكبر سنا أو أقبح مظهرا - مناصب منفّذات التدبير، حيث يطبقن بحماسة مشروعات إعادة الهيكلة الجذرية. نفسانيتهن تجعلهن قابلات لأن يُتلاعب بهن، خاصة أن أنانيتهن المتدنية تجعلهن أقل قابلية للارتشاء.

باستعمالها الحق في الاختلاف والصراع الديمقراطي ضد التمييز الجنسي، تمنع الأوليجارشية الاقتصادية السياسية تدريجيا أيَّ روح للمعارضة الجدية. فقط بالاعتماد على التضليل الإعلامي الطبيعي الموجود في النفسانية النسائية، وعلى قصفه الإعلامي:

---

(1) ومن هنا الحملات الإعلانية الأخيرة، الخاصة بالسيارات. [المؤلف].

(2) قادرة على عزو الإحباط في مجال الأجور للتحرش الجنسي، بينما تعمل الأوليجارشية النيو - ليبرالية في منتدى دافوس على أن تنزع من المأجورين أية إمكانية للتمثيل الجماعي. [المؤلف].

- من أجل تسريع التأنيث العام؛

- وإجبار الذكوريين المترددين (الذين أفتخر بالانتماء لهم) على صمت معيب[1].

عدم الوعي الكبير للفتاة البرجوازية «المنتمية لليسار»

إذا كان المثل المعروف (والذي ليس مبنيا على أصل صحيح) يقول «إن الحقيقة تخرج من أفواه الأطفال»، فإن الحقيقة عند الاشتراكية الديمقراطية النيو - ليبرالية تخرج بالضرورة من فم البنت الشابة البرجوازية «المنتمية لليسار».

شابة، وإذن بعيدة عن جدية العمل والأمومة؛ بنت، وإذن منحصرة في نفسانية شعورية كبيرة؛ برجوازية، وإذن طفيلية بالخِلقة؛ ومنتمية لليسار، وإذن عندها انعدام وعي ثقافي. هذه البنت الشابة البرجوازية «المنتمية لليسار» أقدرُ من أخيها على عدم فهم كيف يسير العالم[2]، وعدم الاهتمام بغير مشاكلها الصغيرة الخاصة (الجنسية أساسا). الاشتراكية الديمقراطية الليبرالية تعتمد إذن عليها لتنويرنا. ولذلك تحتضن وتدعم أي عمل من أعمالها مهما يكن مستواه.

هذا الاتفاق ليس سخيفا كما قد يُظن، فإن الاشتراكية الديمقراطية النيو - ليبرالية تحقق معها حلما فيه نجاتُها: أن نرى العالم من خلال عيني الفتاة الشابة البرجوازية «اليسارية»، لنجنبها - بسبب تفاقم الأزمة - اللجوءَ إلى طرق إقناعية أكثر عنفا وأقل تجارية.

أما الفتاة الشابة البرجوازية اليمينية، التي تكون في العادة بنتا جيدة وأمًّا جيدة، فإن فائدتها - بالبداهة - أقل بكثير، لذلك تعمل وسائلُ التواصل الاشتراكية الديمقراطية منهجيا على الحط من قيمتها.

وعلى العكس يوجد «منخفض التصنيف»

لأن صعوبات الحياة (الانحطاط الاجتماعي، المراهقة المقلّصة بضرورة العمل، ..) فرضت عليه «واقعية» على عكس العاطفية الأنانية والمتظلمة التي تشكل النموذج العام للبرجوازي الصغير (من العبقري شارل بودلير (Charles Baudelaire) إلى البائس برنار - هنري ليفي (Bernar - Henri Lévy))؛

---

(1) من المفيد أن نذكر هنا بأن «الرجل الذكوري» هو قبل كل شيء رجل يحترم أمه، ويحمي زوجته، ويشعر بالمسؤولية تجاه أطفاله؛ أي هو على العكس من المخنثين المنتمين للاشتراكية الديمقراطية، والذين صارت النساء يعترفن أكثر فأكثر بأنهم لم يعودوا قادرين على إرضائهن. [المؤلف].

(2) لأن الفرد لا يملك أي سبب لفهم ما لا يلزمه أن يفهمه، لكي يعيش ويبقى على قيد الحياة. [المؤلف].

ولأن الحساسية البرجوازية وحساسية المضطهَد، اللتان تتصارعان وتتبادلان الانتقاد داخله، تجبرانه على الوعي[1]؛

ولأن مصلحته لا تلتقي مع أي مجموعة اجتماعية قائمة؛

فإن «منخفِض التصنيف» هو الأقدر على فهم سير العالم في شموليته، وبالتالي معرفة «المصلحة العامة»، التي هي الأساس والغاية الوحيدة للديمقراطية الحقيقية.

---

(1) حساسية مزدوجة تكوّن التفوق الفكري لجان جاك روسو على فولتير، أو في المجال الأدبي، تفوق لويس - فرديناند سيلين (Louis - Ferdinand Céline) في «سفر إلى غاية الليل» على مارسل بروست (Marcel Proust) في «في البحث عن الوقت المفقود». [المؤلف].

المحور الثاني:

الأنثوية – تاريخ وأصول

سيمون دو بوفوار – السيدة جان بول سارتر

من كتاب «مصير فرنسي» لإريك زمور (ص471 – 483)

طيلةَ حياتها، كانت سيمون دو بوفوار هي السيدة جان بول سارتر؛ ولكن منذ وفاتهما، أصبح سارتر هو السيد سيمون دو بوفوار. في عام 1980، كان هو الذي تلقى من شعب مدينة باريس جنازة مماثلة لتلك التي كانت لفكتور هوجو من قبل. ولكن هي التي صرنا نَذكر – منذ ذلك الوقت، ودون توقف – أستاذيتَها، وفكرَها الذي نتبناه، ومذهبَها الذي نقدسه.

خلال حياته، كنا نستمع لكلام سارتر؛ ومنذ وفاته، بوفوار هي التي نَستنطق. قال سارتر يوما: «الماركسية هي الأفق الذي لا يمكن تجاوزه في عصرنا»؛ منذ ذلك الحين، عوَّضتها الأنثوية، كدِينٍ لهذا العصر. كان العامل البروليتاري هو مسيح القرن العشرين، ضحية وإله في الوقت نفسه، إله لأنه ضحية؛ المرأة هي مسيح عصرنا الحاضر، ضحية وإله في الوقت نفسه، إله لأنها ضحية. كان سارتر برجوازيا لا يريد أن «يسبب قنوط بييونكور»[1]؛ كانت بوفوار برجوازيةً سببت النساءُ لها قنوطا دائما.

أأت بوفوار النور في عائلة ميسورة تقطن شقة مريحة في شارع مونبارناس (Montpar-nasse)، أمام مصنع الخمر المشهور لاكوبول (La coupole)، بين الستائر المخملية والزرابيّ الحمراء. كان الأب يرتدي القبعة، وكانت الأمُّ ترتدي فستانا طويلا؛ وكانت قاعة الأكل على نمط هنري الثاني؛ وكانت الطفلة تلعب في حديقة اللوكسمبورج تحت الرقابة الطيبة لـ«لويز»، الخادمة اللطيفة. لا تعرف الطفلة العمال إلا كشخصيات في روايات ديكنز (Dickens)، أو

---

(1) هذه العبارة المشهورة (Il ne faut pas désespérer Billancourt) تنسب إلى جان بول سارتر، ويشكك بعض المؤرخين في صحة نسبتها إليه. قصة القولة ترجع إلى خمسينيات القرن العشرين، حين كان سارتر يناضل في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، ووُجهت له انتقادات بسبب ما كان يقع من الاتحاد السوفياتي من قمع واضطهاد، داخل وخارج الاتحاد (قمع الثورة الهنغارية على سبيل المثال)؛ فردّ سارتر بهذه العبارة على المنتقدين، ويقصد بذلك: يجب أن يبقى العمال البروليتاريون الفرنسيون (وترمز لهم «بييونكور» المدينة التي فيها مصنع شركة رونو، وهو أكبر تجمع عمالي بفرنسا) يحملون الأمل في التقدم التاريخي الذي تحمله الشيوعية؛ فمن المشروع إخفاء الحقيقة عنهم من أجل تحقيق هذا المقصد. [المترجم].

«دون عائلة Sans famille » لهكتور مالو (Hector Malot). كانت الصغيرةُ سمراء جميلة بعينين زرقاوين، وذكاء حاد وطبع عنيد. تمدح المؤلفة - دون أن تقصد ذلك - في «مذكرات فتاة صغيرة مرتبة Mémoires d'une jeune fille rangée»، بذلك الأسلوب المنضبط والمدرسي الذي تستعمله في كل شيء، بشكل مؤثر ومتناقض، هدوءَ العيش في مرحلة ما قبل حرب 1914 - «عالم الأمس» العزيز على ستيفان زفايج (Stephen Zweig) - العالم الهادئ والآمن، الميسور والثابت، الذي صنعته باطرياركية الرجل الأبيض الأوروبي[1].

كان الأب بطلا بالنسبة لابنته. كان الشخص الوحيد الذي حرصتْ بكل قوتها على جذبه والتأثير فيه. كان هذا الشخص البروستي[2]، الذي يتمنى لو كان أرستقراطيا، يحب شارل موراس (Charles Maurras) وليون دودي (Léon Daudet)؛ كان هذا المحامي والممثل الهاوي، مثقفا ومرحا، وكان لا يعدّ نفسه شيئا ما دام ليس فكتور هوجو، وكان يقرأ لابنته نصوصا لـ«تين» (Taine) أو جوبينو (Gobineau). كانت سيمون تغطس في الكتب لتروق له؛ كانت تجتهد في المدرسة لتروق له؛ كانت تنظر بشفقة إلى النساء الأخريات في المنزل، ومنهن أمها بالدرجة الأولى، لكي تقلده؛ فقدت إيمانها بالله ليمكنها أن تهجر تنورات النساء والرهبان، ولتُقبَل في عشيرة الرجال. ولكن سيمون لم تكن فتاة متشبهة بالأولاد؛ بل كانت تحلم بأنها عقل خالص غير مجسَّد لكي تندمج في الذكورة المقدسة. لم تستطع أن تتحمل لمدة طويلة أن تُحصَر في «مجالات العناية» المخصصة للنساء. أرادت أن يكون لها - بالمعرفة والموهبة - مكان في

---

(1) هذه لازمة متكررة عند المؤلف، في عامة كتبه ومحاضراته، بل هي أساس فكره. وملخصها: الحنين إلى العصور السابقة، التي كان الرجل الأبيض الأوروبي فيها مسيطرا، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، دون حاجة إلى اقتسام سلطته مع المرأة ولا مع المهاجرين العرب والأفارقة. والمؤلف يلوم ثقافة الأنوار التي جاءت بها الثورة الفرنسية، ثم ثقافة حقوق الإنسان الملازمة لما بعد الحداثة التي انتشرت في أوروبا بعد الحرب الثانية، على ما آلت إليه الحالة في فرنسا من انحطاط؛ وهي فكرة يشاركه فيها - مع اختلاف في المنطلق الفكري - الفيلسوف الفرنسي اليساري شديد التأثير إعلاميا ميشيل أونفري. بالطبع، من أقوى ما ينتقد على نظرية إريك زمور، أنه هو نفسه لا ينتمي لهذا «الرجل الأبيض الأوروبي»، بل هو - في أصله - من يهود الجزائر الذي هاجروا إلى فرنسا. وهو ينفصل في العادة من هذا الانتقاد، بالحديث عن الاندماج الثقافي الذي مارسه آباؤه في الثقافة الفرنسية، ويرفض المهاجرون الجدد - خاصة من المسلمين - ممارسته اليوم! [المترجم].

(2) نسبة إلى الروائي مارسل بروست (Marcel Proust) صاحب سلسلة «البحث عن الزمن المفقود A la recherche du temps perdu». [المترجم].

هذا العالم المقدس؛ وأن يُعترف بها فيه، وتُحترم وترفع قيمتها. الرجال، ذلك الشيء المقدّس. أحست بالفخر حين قال أبوها: «سيمون لها عقل رجل. سيمون رجل». إنها قمة المجد. لقد اتضح مصيرها: ستكون كاتبة، مثل «أنصاف - الآلهة» هؤلاء، الذين يقدسُهم أبوها.

ستقلب الحرب الكبرى[1] عالمَها رأسا على عقب. أفلس أبوها - مثل ملايين المدّخرين الفرنسيين - بسبب الاقتراضات الروسية. وتكفل التضخم بالتهام ما تبقى له من مال. طردت أمُّها الخادمةَ، وتكلفت بأعباء البيت بنفسها: كأننا في قصة (La parure) المشهورة التي ألفها دو موباسان (De Maupassant). لن يكون لبنتَي الأسرة مَهرٌ[2] يمكّنهما من الزواج. عليهما أن يعملا من أجل لقمة العيش. أحس الأب بالألم؛ رأى في المصير القلق لذريته انعكاسا لانحطاطه هو بنفسه؛ والابنةُ أيضا انحطت في نظر والدها إلى المرتبة الفرعية لمجرد أنثى، والتي كانت تحسب أنها انتزعت نفسها منها. «خسارة كبيرة أن سيمون ليست ولدا: كان بإمكانها أن تدخل إلى مدرسة البوليتكنيك (Polytechnique) !». بين الأب والابنة، حان وقت خيبات الأمل المتبادلة.

يدرِّس التلاميذ أن القرن العشرين بدأ بالحرب العالمية الأولى؛ وأن العلاقات بين الجنسين تغيرت دون رجعة بفعل إجبار النساء على أخذ مكان الرجال المجنّدين، في المصانع والحقول والمكاتب. يُظهِر مصير سيمون بأن الأمر أعمق من ذلك. لقد دمّر الزلزال الذي أحدثته الحرب جميع أنواع اليقين، وجميع الهياكل التراتبية. المنتصرون مفلسون، أبطالِ الجبهة خانتهم زوجاتهم، الكسالى صاروا أغنياء. سيُفاقم تضخم ما بين الحربين وهزيمة 1940 من هذا الانقلاب في المراجع والنماذج. لم يعد الشبان يحترمون الكبار لأنهم قادوهم إلى المجزرة عام 1914؛ وبعد قليل، سيحتقر الكبارُ الشبانَ لأنهم سُحقوا عام 1940. المنتصرون عام 1918 سيكونون المنهزمين عام 1940. والمنهزمون عام 1918 سيكونون المنتصرين عام 1940، ولكنهم سيكونون المنهزمين عام 1945. الانتصار الأخير لأمريكا هو انتصار الجديد على القديم، الآلة على الأرض، المال على السيف، الاستهلاك على الادخار، المتَعية على البطولة. اعتمدت حضارتنا الهرِمة، من القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر، على القانون

---

(1) هي الحرب العالمية الأولى؛ وقد كانت تسمى «الحرب الكبرى» قبل أن يكتشف العالم الحرب العالمية الثانية، التي فاقت في بشاعتها جميع الحروب السابقة. [المترجم].

(2) المهر في تقاليدهم من مسؤولية المرأة. وإذا كان للمرأة مال كثير، كانت فرصها في الزواج أكبر. [المترجم].

الروماني والدين المسيحي، على الأب رب الأسرة وعلى الأب الإله. سينهدم هذان الأساسان معا، في صخب من عدم الاحترام الثقافي، وقنابل للدمار الشامل.

الانفجار العظيم للقرن العشرين

ستَصدم هذه الفوضى التاريخية والرمزية بشكل مباشر، النسيجَ الأنثروبولوجي العريق للعلاقات بين الرجال والنساء، والذي تريد فيه المرأة - منذ فجر التاريخ - من الرجل أن يكون حاميا لها لتتمكن من تربية ذريتها. لم يحدث قط أن تغيرت مراجعنا الرمزية والثقافية، وأوضاع عيشنا المادية، بمثل العمق الذي حدث في القرن العشرين؛ ولكن مكوناتنا الوراثية بقيت دون تغيير منذ ثلاثين ألف سنة! هذا الصدام بين زمن التاريخ وزمن التطور، بين العقل والغرائز، بين الثقافة والطبيعة، بين الرأس والأحشاء، بين الخطاب والهرمونات، هو الانفجار الكبير للقرن العشرين، والذي سيمزق العلاقات بين الرجال والنساء. ستواصل النساء البحث دون كلل عن الحامي، ولكن مع التباس في المعايير المضطربة. تطمح سيمون دو بوفوار، مثل جميع نساء زمنها، بل مثل جميع النساء في كل زمن، إلى الشيء نفسه: «أتمنى اليوم الذي سيُدهشني فيه رجل بذكائه وثقافته وسلطته .. لأعترف بأنه مساو لي، ينبغي أن يتجاوزني .. هذا الرجل المقدَّر لن يكون أقل مني، ولا مختلفا عني، ولا أعلى مني بكثير، وسيضمن وجودي دون أن تُنتزَع منه سيادته»[1].

ولكن سيدها الأصلي - أعني أباها - سقط تاجُه، بل سقط رأسه كما لو كان مجرد لويس السادس عشر؛ ومن هنا احتقارها لسيدها القديم الذي سقط، وبحثها الدائب والعشوائي عن منتصر جديد. لن يكون الأب الذي قُدّس طويلا، ولن يكون الزوج الذي اختاره الأب، ولن يكون حتى العشيق الذي حدده الوسط الاجتماعي. لن يكون حتى الفرنسي المهزوم، بل الألماني، ثم الأمريكي. ولم لا - في يوم ما - السوفياتي؟ وغدا فيدل كاسترو؟ أو الفييت كونج؟ أو الفلاقة[2]؟

---

(1) سيمون دو بوفوار، «مذكرات فتاة صغيرة مرتبة Mémoires d’une jeune fille rangée»، نشر (Gal-limard)، 1958. [المؤلف].

تعمد المؤلف توثيق هذا النص، على غير عادته في كتابه هذا، بل في عامة مؤلفاته، لأنه فعلا نص عجيب، من جهة كونه صادرا عن الكاتبة التي تعد المرجع الأعلى للأنثوية في العصر الحديث، ولا شك أن الأنثويات المعاصرات ينتفضن ضد الفكر الكامن في هذا النص وما يشبهه. من أفضل ما يميز المؤلف في كتاباته: حرصه على زعزعة المسلمات المتداولة في «الدوكسا» الشائعة، وليس فقط في مجال الأنثوية. [المترجم].

(2) هم المقاتلون الجزائريون تحت لواء جبهة التحرير الوطني، خلال حرب الجزائر لنيل الاستقلال عن فرنسا. والفييت كونج هم المقاتلون الفييتناميون ضد الاحتلال الأمريكي خلال حرب الفييتنام. [المترجم].

في صيف 1940، تتأمل سيمون دو بوفوار بإعجاب ولمدة ساعات دون ملل، تجريدة من الجيش الألماني، من خلال شبكة نافذتها بمنزل البويز (La Poueze) حيث التجأت بعد الهزيمة الساحقة؛ وقد ألهمتْها هذه التأملات وصفا طويلا في سيرتها الذاتية «مقتبل العمر La force de l'âge»، لهؤلاء الرجال الذي يعطون «انطباع الشباب والسعادة»، تتناقض مع ذلك الذي يصدر عن «مئات اللاجئين الخائفين والبؤساء، والذي لا يمكنهم توقع الطعام والوقود والنقل، وعلاج معاناتهم الحاضرة، إلا من هؤلاء الجنود». في طريق عودتها في شاحنة تابعة للجيش الألماني، أسرّت بأنها تأثرت بـ»اللطف التلقائي والأخوي» للمنتصرين.

لم تكن الوحيدة في ذلك. كاتبة أخرى، أنثوية أخرى، هي بونوات جرو (Benoite Groult)، كانت أيضا تحب تأمل الجنود الألمان: «إنهم في قمة الوسامة، ولا يبدو عليهم الاستعجال، ما داموا قد وصلوا إلى أقصى حد في القارَّة». ولكن كانت لها حدود أخلاقية، لم تكن لغيرها: «كانت بعض الفتيات يصعدن على سلم الشاحنات، ويبتسمن لأعدائنا كما لو كانوا من بلد حليف، كن يتطلعن على رؤوس أقدامهن لينظرن إلى داخل السيارات، كما لو كن ينظرن إلى عرض السيرك. يا لها من جسارة وقلة حياء من هؤلاء العاهرات. كانت هذه الكلبات المشتهيات يهدين الجنودَ بعض البرتقال، فيما كنت أتمنى أن أطعنهم بشوكة طعام. كيف ضاعت الوطنية؟ يا فرنسا المقدسة، لقد خانوك»[1].

ولكن الفرنسيات من علية المجتمع ارتمين في أعناق الجنود القوزاق الذي قطعوا شارع الشانزيليزيه عام 1814، كما أن الإيطاليات والألمانيات ارتمين – قبل بضع سنوات – في أحضان ضباط الجيش الكبير لنابليون. الأُختان جرو أنفسهما سيفعلن الشيء نفسه مع الأمريكيين، على غرار الكثير من الفرنسيات الشابات اللواتي سيصبح «صيد الأمريكيين» هوايتهن المفضلة بعد التحرير؛ من الصحيح أن جنود العم سام لم يكونوا أعداء بل حلفاء[2].

---

(1) بونوات وفلورا جرو (Benoite et Flora Groult)، «مذكرات بأيد أربعة Journal à quatre mains»، نشر (Denoel، 1962). [المؤلف].

(2) شكلت علاقة كثير من النساء الفرنسيات بالجنود الألمان خلال الاحتلال الألماني لفرنسا ما بين 1940 و1944، وصمة عار في جبين المجتمع الفرنسي، لم يستطع تفسيرها ولا تبريرها؛ بل تعامل معها بعنف بعيد التحرير، من خلال العروض الجماهيرية لحلق رؤوس النساء المتعاملات مع العدو. يحاول المؤلف هنا أن يفسر الأمر بطبيعة المرأة نفسها، فالخلل عنده ليس في المرأة الفرنسية، بل في المرأة من حيث هي.

يكتب الألماني العارف إرنست يونجر (Ernst Junger) في مذكراته الباريسية: «إن المدن نساء، ولسن لطيفات سوى مع المنتصر». ويذكر ضابط آخر (..) في كتابه «النساء والحرب» كلمة - محبِطة ولكن عميقة - ينقلها عن أمه: «ستتوقف الحروب حين تمتنع النساء عن عشق المنتصرين».

ولكن ما العمل حين يتغير المنتصر دائما؟ ما العمل حين لا نفهم ما الذي يقع؟ «كانت المشكلات التي تحركهم - إنعاش الفرنك، إخلاء رينانيا، أحلام عصبة الأمم - تبدو لي بنفس مقدار قضايا العائلة ومشكلات المال؛ كانت لا تهمني». ولم يكن التاريخ يهمها، كما لم تكن السياسة تهمها: «لم أكن أرغب في أن أحشر أنفي في هذا الالتباس الغامض».

زوجتي «المُرجانية» العزيزة

وأخيرا[1] جاء سارتر. لينيرها، ويَبنيها، ويربّيها. ليحل مكان أبيها، ويقودها نحو أعلى قمم العقل. إلى تين وجوبينو وفولتير وفكتور هيجو، أضاف سارتر: هيجل، هاسرل، هايدجر، الأساس المشترك للفلسفة الألمانية لتلك السنوات؛ ولكن أيضا جيد، وبروتون، والسرياليين، والأدب الفرنسي المتمرد لمرحلة ما بين الحربين. بدأت الفتاة المحتشمة والفظة تتعلم أن تفكر وتعيش. وأن تتفلسف وتخرق القيود: «كانت لديّ مبادئ: العيش بطريقة خطرة. عدم رفض أي شيء». ستفعل أي شيء بحسن نية وإتقان، كتلميذة نجيبة، وستبقى كذلك دائما. معها، حتى المُجون يأخذ هيئة إنشاء من ثلاثة أجزاء منظمة: «في حين كنت نظريا معتادة على جميع أنواع الفسوق، فإنني لبثت في الواقع محتشمة جدا». (..)[2]

ولا شك أن هذا التفسير قاصر، لأنه يصطدم بحركة العَمالة الكبيرة للألمان التي اشتهرت في فرنسا خلال الحرب، ولم تكن خاصة بالنساء، بل إن الدولة الفرنسية نفسها ممثلة في الماريشال بيتان مارست العمالة للمنتصر الألماني تحت ذرائع مختلفة. من الغريب أن المؤلف دافع عن بيتان - بطل الحرب الأولى - في فصل خاص من هذا الكتاب، أثار ضجة كبيرة، وفي الوقت نفسه لمز النساء الفرنسيات العاديات من طرف خفي، لإعجابهن بالجندي الألماني. [المترجم].

(1) الزواج «المرجاني» (Morganatique) في ألمانيا - والكلمة ذات أصل ألماني - هو أن يتزوج عاهل أو أمير من عائلة حاكمة امرأةً من مرتبة أدنى منه، فتسمى «زوجة مرجانية»، ولا تلقب بلقب «الملكة»، كما أن أولادها لا يدخلون في سلسلة الحكم. أما في فرنسا، ودول أخرى كثيرة، فأي زواج كاثوليكي يكفي لتكون الزوجة ملكة. [المترجم].

(2) نقل المؤلف هنا قصة وقعت لسيمون دو بوفوار تدل على أنها بقيت على حيائها الأصلي، وإن كانت تتعمد إظهار العكس. ولم أر من المناسب أخلاقيا ترجمتها هنا. [المترجم].

فتحت لها مدرسة المعلمين العليا أبوابها. مع نيزان (Nizan) وهربو (Herbaud) وأرون (Aron)، تكتشف أن الأولاد زملاء رائعون، يتفوقون عليها عقليا – كما تقرّ بذلك بكل تواضع – ولكنهم يسمحون لها بالاستفادة من معرفتهم وقوتهم العقلية. يعدّ سارتر، في هذه اللعبة، وفي الوقت نفسه، الأقوى والأكرم. دمّر – باسم المادية الجدلية – ما تبقى لديها من مثالية شبابها الكاثوليكي. «لم أعد متأكدة مما أعتقده، بل حتى مِن كوني أعتقد». لقد وقعت سيمون تحت الإغراء والافتتان. سارتر لا يتوقف عن التفكير: «حين أقارن نفسي به، أشعر بأن الحمّى لديّ دافئة ! كنت أظن نفسي استثنائية لأنني لا أتصور أن أعيش دون أن أكتب؛ لم يكن يعيش إلا ليكتب».

لقد وجدتْ سيدها، ملكها. وجدت رَجلها: «كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بأنني مسيطَر عليّ من الناحية العقلية .. كل يوم، وطيلة اليوم، كنت أقارن نفسي به، ولم أكن أستطيع منافسته. كنت أحيانا أحاول أن أناقش؛ أبذل جهدي، أصرّ ..ولكن كان سارتر ينتصر دائما. لم يكن بالإمكان أن نعاتبه: كان يعطي كل ما لديه ليمكننا الاستفادة من علمه».

في المراسلات بينهما، يلقبها سارتر «زوجتي «المرجانية» العزيزة»، كما لو كان يريد التأكيد على تفوقه الملَكي. إنه صاحب لطيف؛ يغني، يرقص أحيانا؛ وله موهبة كوميدية حقيقية. ينتهي المطاف بأن تُنسى دمامتُه. ولكنه عاشق سيء جدا. يتحدث المؤرخ جيلبر جوزيف (Gilbert Joseph) عن سارتر بكونه «يميل إلى حب العناق والمداعبة، أكثر من الفحولة المؤكدة». ولكن سيمون دو بوفوار ترضى بذلك.

كانت علاقتها بسارتر أعلى من اندماج جنسي تقليدي؛ إنها صداقة عقلية معها علاقات خطرة: شيء من فولتير مع مدام دو شاتلي (Madame du Châtelet)، وشيء من فالمان (Valmont) مع الماركيز دو مرتوي (La Marquise de Merteuil). يعتمد ميثاقهما الشهير للعشق الأساسي والفرعي، والذي ستحتفي أجيال من الأنثويات المتورعات به فيما بعد بسذاجة على أنه غاية الحرية والمساواة، على هذه العلاقة الجنسية غير النمطية: من جهة، كان سارتر عاشقا سيئا لا يمكنه إرضاء عشيقته؛ ومن جهة أخرى، تكتشف هذه الأخيرة أن لها تذوقا مؤكدا للشابات، اللواتي اعتادت أن تكتشفهن بين زميلاتها في مدرسة المعلمين بمدينة سيفر (Sèvres)، ثم بين تلميذاتها في قسم الفلسفة. إنها تجنّد، تنتقي، تستهلك، تُهدي، تخطّط.

«اكتشفتُ بأن سيمون دوبوفوار تغرِف من أقسام الفتيات الشابات لحما طريا، تتذوقه أولا قبل أن تمرره إلى سارتر»[1].

كانت سيمون هي قائدة هذا التجمع «الفوريري»[2] المسمى «أسرة». كان لكل واحد ساعاته، وأيامه، وسهراته. سيحكي كلود لانزمان (Claude Lanzmann) لاحقا في مذكراته أنه بعد أن أصبح عشيق سيمون، فإنه كان يقتسمها مع سارتر بمعدل ليلة لكل واحد منهما. إنه التفلت الأخلاقي في إطار التخطيط الشيوعي. ستخاطبها إحداهن قائلة: «أنت ساعة حائطية داخل ثلاجة». ستلقب أخرى - ذات أصل روسي - سارتر بـ«العبقري العاجز جنسيا»، وسترفض غزَله بقسوة. كأننا في ساحة المدرسة وقت الاستراحة، مع ما فيها من لطف وعنف. يشترك العشيقان في رفضهما الخروج من الطفولة. وجدت سيمون في سارتر صورة مضخمة من أبيها، تسمح لها ببلوغ سماء عالم العقل. ووجد جان - بول في سيمون أُمًّا تحوطه بعنايتها، وتنسيه قسوة عالم الراشدين: تُسرّ سيمون لبعض الأصدقاء «كنت مستعدة لأن أفعل أي شيء لأجنّبه الاصطدام بواقع مؤلم، بالفكرة التي كوّنها عن دمامته. ربما لم نقدم له خدمة جيدة حين تركناه يعيش في طفولة دائمة، وحين رضخنا لرغباته».

لم تعد بينهما أية علاقة جسدية منذ عام 1935. لا يمكن أن توجد مثل هذه العلاقة مع الأب ولا مع الأم. ولكن المتعة كانت موجودة داخل «الأسرة». كانوا يمضون ليالي طويلة يحتفلون في شقة كبيرة بمنطقة (Quai des Grands – Augustins). ينظرون دون تدقيق إلى بعض لوحات بيكاسو و دي ميرو (de Miro) المعلقة على الجدران، وهم يحتسون الخمر.

---

(1) بيانكا بيينفلد (Bianca Biennefeld)، «مذكرات فتاة شابة مختلة Mémoires d'une jeune fille dérangée»، نشر (Balland، 1993). [المؤلف].

تعمدتُ الإبقاء على هذه الفقرة على الرغم من انحطاطها الأخلاقي، من باب تحطيم هذين الصنمين المعبودين لدى خلق من الناس عندهم، وعندنا أيضا للأسف. لا تزال سيمون دو بوفوار قدوة لكثير من النساء عموما، والأنثويات خصوصا. ولا يزال سارتر فيلسوف الوجودية المحاط بهالة من التقديس خاصة في الأوساط الفرنكفونية عندنا. هنالك عمل آخر لتحطيم صنم سارتر، قام به ميشيل أونفري في بعض كتبه، وذلك من زاوية أخرى، هي زاوية تعاونه مع الألمان وكتاباته المعادية للسامية خلال الحرب الثانية. [المترجم].

(2) نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي شارل فوريي (Charles Fourier)، وتسمى «الفوريرية» أيضا «الترابطية Associationnisme». [المترجم].

يمثلون مسرحيات، يتنكرون؛ سارتر يقوم بتقليد لرقصة التانجو وحده؛ كامو (Camus) يهز خصره بـ«حِرَفية راقص من علية القوم»؛ كونو (Queneau) يعلن عن أحلامه. تقول سيمون دو بوفوار: «وقع لي كثيرا أن أستمتع في حياتي: ولكن فقط في هذه الليالي عرفت المعنى الحقيقي لكلمة «حفلة». يعترف سارتر دون خجل: «لم نكن قط أحرارا كما كنا تحت الاحتلال الألماني». سيعترف مولودجي (Mouloudji) بحرج أكبر أو بوقاحة أقل: «كنا أقرب إلى فيدو (Feydeau)[1] منا إلى هيجل».

أما في الخارج، فكانت الحرب مشتعلة، وكان الاحتلال، وكانت حكومة فيشي. هنا المقاومة، هنا لندن، إذاعة باريس تكذب، إذاعة باريس ألمانية. هنا الحرمان، والمجازر، والتطهير العرقي. أما سارتر وبوفوار فيبدو كأنهما لا يريان شيئا، ولا يفهمان شيئا. إنهما خارج التاريخ، خارج الحياة، خارج الموت.

الخصوبة السخيفة للنساء

بعد الحرب، ستبرر سيمون دو بوفوار ما وقعت فيه: «لم نكن نخدع أنفسنا؛ كنا نريد فقط أن ننتزع من هذه الفوضى بعض لآلئ المرح، ونسكر من بريقها، متحدين مستقبلا مخيبا للآمال». حاول أصدقاؤهما بعد حلول السلام، أن يرفعا مُتَعيتهما إلى مرتبة التحدي للنظام الأخلاقي الصارم لحكومة فيشي. واعتمَدوا في ذلك على تقرير عميد الجامعة جيلبير جيدل (Gilbert Gidel): «إن الاحتفاظ بالآنسة دوبوفوار والسيد سارتر في منصب تدريس الفلسفة بالتعليم الثانوي، يبدو لي غير مقبول في الوقت الذي تطمح فيه فرنسا إلى إحياء القيم الأخلاقية والأسرية. لا يمكن أن نترك شبابنا لأساتذة عاجزين بأنفسهم - وبشكل واضح - على الإتيان بسلوك حسن».

وقعت حادثة سيئة ولاذعة. تقدمت والدة إحدى تلميذات دو بوفوار بشكوى ضدها بسبب «دعوتها بنتا قاصرة إلى الانحراف الخلقي». أُقيم بحث إداري من طرف عمادة باريس، لدى مديرة ثانوية كاميي - سي (Camille - Sée) وناظر ثانوية باستور (Pasteur)، حيث يدرّس سارتر ودوبوفوار. في 17 يونيو 1943، أزيلت دوبوفوار من مهامها، فيما لم يتعرض سارتر لأية عقوبة.

---

(1) كاتب درامي فرنسي توفي عام 1921، اشتهر بكتابة الفودفيل (vaudeville)، وهي نوع من الكتابة الكوميدية دون قصد نفسي ولا أخلاقي. [المترجم].

ولكن الهجوم المضاد للأنصار لم يستمر طويلا. هنالك حدود معينة للوقاحة، حتى في سنوات ما بعد الحرب حين كان كل شيء مباحا لليسار. من الصعب تفسير وتبرير استعمال سيمون دو بوفوار لاستوديوهات الإذاعة الباريسية، التي عمل فيها أيضا المتعاون المشهور مع الألمان فيليب هنريو (Philippe Henriot)، في حين كان سارتر يكتب مسرحيته «الذباب Les mouches». فضَّل الجميع إخفاء الغبار تحت البساط، كما يقال. يكفي أن يقال إن سارتر وبوفوار لم يكتشفا المقاومة والثورة إلا بعد أن رجع السلام. أصبح سارتر مصاحِبا للحزب الشيوعي، الذي كان يسيطر على عالم الأدب والثقافة، في حين كانت سيمون دو بوفوار تحرر كتابها المشهور «الجنس الثاني Deuxième Sexe»[1]، الذي سيجعل منها رمزا عالميا للأنثوية.

لا أحد يجهل اليوم أن هذا الكتاب قوبل بشكل سيء عند صدوره. من اليمين إلى الحزب الشيوعي، من فرانسوا موررياك (François Mauriac) إلى ألبير كامو (Albert Camus)، لم يتلق الكتاب سوى السب والاستهزاء والسخرية من مؤلفته، «هذه الفتاة المسكينة التي تعاني من العصاب، والحرمان الجنسي، والبرودة». جميع هذه الألفاظ غُيِّرت اليوم إلى ألقاب تمجيد: لم يمكن لتلك المرأة الثورية إلا أن يسبها الرجعيون؛ لم يمكن للمرأة الحرة إلا أن يلفِظها الذكور الحريصون على امتيازاتهم.

ولكن فرنسا عام 1949 تأذت أولا وقبل كل شيء، من النقد الحاد للأمومة. سيمون ليس لها أطفال، ولا تريد أن يكون لها أطفال. ولها كلمات قاسية في كتابها للقدح في «الخصوبة السخيفة للنساء .. الإنجاب والإرضاع ليسا أنشطة، بل هما من الوظائف الطبيعية؛ لا يرتبط بهما أي مشروع .. عند سن اليأس، تتخلص المرأة أخيرا من العبودية المكتوبة على المرأة». سبَّب هذا الرفضُ العنيف للأمومة فضيحةً، لأن فرنسا كانت في طور التعافي من الشتاء الديمغرافي الطويل الذي دام أكثر من قرن، وكان السبب في ضعفها وجعلها فريسة للغزو من ألمانيا الحيوية والولود. سمحت السياسة العائلية النشيطة، التي اتبعتها الجمهورية الثالثة (خلال سنوات 1930) ثم حكومة فيشي ثم الجمهورية الرابعة، بالحصول على ثمار لم تكن مأمولة. في مارس 1941، أحدثت حكومةُ فيشي منحة المرتب الواحد. في 1947، مثلت هذه المنحة (التي تضاف إلى التعويضات العائلية

---

(1) طبعت ترجمته تحت عنوان «الجنس الآخر»، ولست أرى مسوغا لهذا التغيير، فالجنس الآخر ترجمة لـ«L'autre sexe». ويتقوى اختياري هذا بالنظر لعنوان الكتاب الآخر لإريك زمور «الجنس الأول Le premier sexe»، فالأول هو مقابل الثاني لا الآخر، كما لا يخفى. [المترجم].

الأخرى) 90 ٪ من أجرة عاملة لأسرة من طفلين، و150 ٪ في أسرة من ثلاثة أطفال. أصبح معدل الولادات الفرنسي من جديد مرتفعا. الديمغرافيون مندهشون، والسياسيون مبتهجون.

«المياه المتجمدة للحساب الأناني»

يتحمس البعض مثل ميشيل دوبري (Michel Debré)، فيقولون: إذا استمر هذا الإيقاع الديمغرافي لبضعة عقود، يمكننا أن نصل بجهودنا الذاتية إلى فرنسا ذات المائة مليون نسمة؛ ويمكننا حينئذ استرجاع هيمنتنا الديمغرافية على أوروبا، خاصة أن ألمانيا، المدمرة بهزيمة 1945، تدخل بدورها في شتاء ديمغرافي. التحدي ذو طبيعة جيوستراتيجية: استعادة وضع السيطرة التي كانت لدينا في القرن الثامن عشر، دون حاجة إلى هجرة تأتي من الجنوب[1]. ولكن سيمون لا تفهم شيئا في هذه القضايا السياسية التي تسبب لها الملل!

تُذَكّر الأنثوية إيفلين سوليرو (Evelyne Sullerot) مؤسسة التخطيط العائلي، في أحد آخر مؤلفاتها، والذي صدر قبل موتها بمدة يسيرة، أن انعدام البطالة في هذه المرحلة التي تسمى «الثلاثين المجيدة»[2] كان يعتمد خصوصا على الانسحاب المكثف للنساء من سوق الشغل. حين شرعت النساء في الرجوع للعمل، في نهاية عقد الستينيات، بدأت البطالة تتقدم، معطية بذلك وسيلة ضغط هائلة للمشغّلين على العمال[3].

---

(1) هذه الجملة تأسيسيةٌ في فهم بناء الرفض اليميني للتأصيلات الأنثوية المعادية للأسرة على رفض الهجرة الإفريقية والإسلامية المهددة للثقافة المسيحية، والمهددة أيضا للرفاهية الاقتصادية للإنسان الأروبي. رفض الغلو الأنثوي عند اليمينيين ليس فقط مبنيا على الاعتبارات الدينية والثقافية الخالصة. [المترجم].

(2) الثلاثون المجيدة (Trente glorieuses) هي السنوات الممتدة بين 1946 و1975، والتي عرفت نموا اقتصاديا ضخما، وتحسنا ملحوظا في ظروف العيش في أغلب دول العالم المتقدم، خاصة أوروبا. [المترجم].

(3) الربط بين البطالة وعمل المرأة، صار اليوم من الطابوهات التي تُحَرّم الدوكسا المهيمنة الحديث عنها، ولا يكاد يتجرأ على ذلك إلا المنتسبون إلى اليمين المتطرف في أوروبا، والمتدينون أو المحافظون في بلداننا. لذلك، فإن صدور هذا الربط عن هذه الأنثوية المشهورة، له قيمة عظيمة جدا؛ والمؤلف يتفنن في إيراد مثل هذه المفارقات التي يتخبط المخالفون فيها. وأيضا، الإشارة إلى أن الأنثوية تخدم رأس المال المتحكم في السوق والاقتصاد، إشارة مهمة جدا، سيأتي مزيد تفصيل لها في الفقرات التالية، ثم خصوصا في بعض فصول كتاب أوجيني باستيي. [المترجم].

لم يكن الشيوعيون مخطئين حين شجبوا – عند صدور كتاب «الجنس الثاني» – «برجوازيةَ» المؤلفة، وهذا «الإلهاء من الرأسمالية لتقسيم الطبقة العاملة». لقد فهم الشيوعيون بالغريزة أن الأنثوية ستكون «الغبي المفيد» للرأسمالية.

لم يكونوا يعلمون حينئذ أنهم أصابوا الهدف بدقة بالغة. منذ سنوات 1920، بدأت الرأسمالية الأمريكية تحولَها، فعَوَّضت اقتصاد الإنتاج والادخار بنظام قائم على الاستهلاك والقرض. يذكر السوسيولوجي الأمريكي كريستوفر لاش (Christopher Lasch) في أعماله الرائعة أن أرباب العمل الأمريكيين استعملوا دعاية السوق الإعلانية لخلق حاجات جديدة، واستعملوا خطاب الخبراء والأطباء النفسيين لفرض فلسفة جديدة للسعادة، فردانية ومُتَعية، مدمرين بذلك الأسس التقليدية للباطرياركية البروتستانتية للطبقة العاملة الأمريكية، والتي كانت تعتمد حتى هذا الحين على الطهرانية والتزمت الأخلاقي. لقد عقدوا تحالفا خفيا مع النساء ضد الرجال، ومع الأطفال في مواجهة الآباء.

سنوات 1920 هي التي عرفت العلامات الأولى لما سمي لاحقا «تحرير المرأة»، تسريحات الشعر الرجالية، والمطالَبات بتحرير الأخلاق. لقد تم تعويض المشرِّع والقسيس شيئا فشيئا بصانع الإعلانات والطبيب النفسي. دخلت المصلحة، هذه «المياه المتجمدة للحساب الأناني» (ماركس)، إلى قلب الأسرة، الملجأ الأخير للعقليات قبل – الرأسمالية.

« لا نولد امرأة، ولكن نصير امرأة »

ولكن كان من اللازم أن يتكفل عقل فرنسي بتصور التغطية الإيديولوجية لهذا التنظيم الجديد للمجتمع، من خلال عبارة واضحة وقاطعة – وهذه هي العبقرية المعترَفُ بها للغتنا الفرنسية[1] – : «لا نولد امرأة، ولكن نصير امرأة». تشبه العبارة شعارا مرفوعا. إنها تمثل مرة أخرى الحب الراسخ عند المثقفين الفرنسيين، منذ ديكارت على الأقل، للتجريد المنقطع عن الواقع، والذي أنكره بورك (Burke)وتين (Taine).

ولكن قواعد التطور الدارويني والبيولوجيا تدلنا على أن المرأة لا تكون امرأة إلا لأنها ولدت امرأة. الطبيعي والثقافي، البيولوجي والاجتماعي، الغرائز والبناءات الثقافية، والتي

(1) المؤلف محب للغة الفرنسية، والثقافة الفرنسية عموما، إلى درجة بغض الثقافات الأخرى، خاصة الأمريكية الغازية للعالم كله. [المترجم].

أصبحت على مرّ القرون صورا نمطية محتقَرة، لا تتعارض في الحقيقة، بل تتكامل؛ لا تتواجه، بل يؤكد بعضها بعضا، كما سجل ذلك - في عمل بالغ التبصّر - باسكال في كتابه «خواطر»[1]: «أخشى أن يكون ما نسميه طبيعة قد تحول إلى عادة، كما أن العادة هي طبيعة ثانية».

لا توجد مؤامرة من الرجل لفرض سيطرته على المرأة؛ ولكن توجد فقط حاجات أساسية في حالات الخطر الكبير، كالحرب والمجاعة وخطر الحيوانات المفترسة، لا يمكن تلبيتها إلا بعدم مساواة تُحَقِّقُ الحماية والأمان، للرجال وللنساء معا. لقد أخطأت سيمون دو بوفوار إذن خطأ واضحا، ولكن لهذا السبب ذاته، اشتهرت عبارتها اشتهارا بالغا في قرن الاضطرابات الذي يمثله القرن العشرون، وصارت مفروضة على أنها حقيقة ثورية. كان من اللازم أن يوجد فرنسي - أو فرنسية - لتصميم هذا الوهم.

نستحضر الجملة المشهورة لجوزيف دو ميتر (Joseph de Maistre) عن فرنسا في كتابه «سهرات من سان - بيطرسبورغ Soirées de Saint - Pétersbourg»: «دون شك، لم توجد قط أمة يسهل خداعها ويصعب توعيتها بخطأها، ولا أمة أقوى في مجال خداع الآخرين»[2].

---

(1) الترجمة الحرفية لعنوان الكتاب «Pensées» هو «أفكار». وقد ترجم للعربية تحت عنوان «خواطر»، وهو أقرب لمضمون الكتاب. [المترجم].

(2) يحتاج الفرنكفونيون المتعصبون عندنا إلى تدبر هذه الكلمة، وعرضها على حقائق التاريخ، ليقطعوا خطوة أولى نحو الشفاء من مرض «تقديس فرنسا». [المترجم].

جان بول سارتر – السيد سيمون دو بوفوار

من كتاب «مصير فرنسي» لإريك زمور (ص484 – 500)

لقد ترددَتْ قبل أن تبدأ الكِتابة. الفكرةُ ليست فكرتها، بل فكرته هو. المفاهيم المستعملة ليست منه كذلك، بل منه هو. تطبق سيمون دو بوفوار على المرأة، بصعوبة بالغة، الأصنافَ الفلسفية للوجودية، العزيزة على صاحبها.

يُقرأ كتاب «الجنس الثاني» اليوم على أنه بيان للمرأة المتحررة. ولكن، هل يُقرأ فعلا؟ يعطي الكتاب للمرأة غاية واحدة، هي أن تكون رجلا مثل سائر الرجال؛ أن تندمج مع الرجال، وتتبنى طريقتهم في التفكير والعيش والحب والعمل والكتابة. سيمون دو بوفوار تحتقر النساء وتبغضهن. لقد ألفت كتابا ذكوريا يحث النساء على الخروج من ذواتهن، للتخلص من مرابع الأنوثة الممقوتة. في خضم عملها على تدمير «أسطورة الأنوثة»، لم تزد على أن حافظت على «الفحولة» ومجّدتها[1].

لقد قرأت سيمون لهيجل وتشبعت بكلامه حين كان يقول: «يمكن للنساء أن يكنّ مثقفات، ولكنهن لم يُخلقن للعلوم العليا، ولا للفلسفة وبعض أنواع الإنتاج الفني التي تتطلب عنصرا كونيا .. إذا كانت المرأة على رأس الحكومة، فإن الدولة في خطر، لأنها لا تتحرك فقط وفق ما يتطلب الكونية، بل وفق الرأي والميل الظرفي».

إنها تعتبر أن العبقرية خاصة بالرجال: «لم يكن ممكنا أن ترسم امرأة زهور فان جوخ؛ لم يكن بإمكان أية امرأة أن تكون كافكا .. هنالك نساء حمقاوات، وهنالك نساء لهن مواهب، ولكن ليس لأية امرأة ذلك الحمق في الموهبة، والذي نسميه عبقرية». يمكننا أن نحمد لسيمون

---

(1) إن فهم معنى «بغض الأنثوية للأنوثة، وإعجابها الكامن بمفهوم الرجولة»، يمكن أن يَـختصر على ناقد الأنثوية مسافات طويلة، ويجعله يصل إلى لب الخلل العميق في المطالب الأنثوية، التي تدور في حقيقتها على تحويل المرأة إلى رجل، لأن ذلك نوع من الترقي من مفهوم الأنوثة الناقص، إلى مفهوم الذكورة الكامل. في التصورات الفِطرية – ومنها التصور الإسلامي – تعد الأنوثة كمالا في مجالها، يتكامل مع كمال الذكورة في مجالها. [المترجم].

دو بوفوار تبصرها وأمانتها الفكرية، ولكن ليست هذه الأسباب التي من أجلها مجّدتها الأجيال التالية. يوجد سارتر في الأصل وفي الخاتمة من هذا الكتاب، ليس هو من ألهمه فحسب، بل هو أيضا المقصود برسالته.

«الضفدعة الصغيرة» و«التمساح اللطيف»

في تلك المرحلة، كان «الزوج المُرجاني» قد هرب. أُعجب بامرأة تدعى دولوريس فانيتي إهرنريش (Dolorès Vanetti Ehrenreich)، وهي فرنسية متزوجة من طبيب أمريكي، جميلة وتفيض حيوية وجاذبية. لقد أغرم بها، وقدمتْه إلى الجالية الفرنسية بنيويورك. ترنحتْ سيمون، وأصيبت بالذعر. بكتابها «الجنس الثاني»، لعبت كل أوراقها العاطفية، بإعادة ربطها العلاقةَ الفكرية، وهي الرابط الأساسي والمؤسِّس الوحيد الذي ما يزال يجمعها برَجُلها. لقد ضحّت بجميع النساء من أجل مصلحتها هي، واجتهدت في المحافظة على موقعها المميز، لأنثى يَعترِف بها ذكرُها. «البوفوارية» هي أولا وقبل كل شيء «بوفارية»[1].

لقد غيرت شهرةُ الكتاب حياتَها. لم تعد معتمدة على المال الذي كان سارتر يمنحها إياه دون حساب؛ وصارت تسافر إلى أنحاء العالم، معه، ولكن أيضا لوحدها. في الولايات المتحدة، أصبحت عشيقة لكاتب، يهودي أمريكي من شيكاجو، اسمه نيلسون ألجرين (Nelson Algren). إنه عشق جارف، مبني على التواطؤ الأدبي والمتعة الجنسية. مع «تمساحها اللطيف»، العاشق المكتمل، تحولت سيمون إلى «الضفدعة الصغيرة». تُظهر رسائلها إلى ألجرين، المنشورة عام 1997، امرأة خاضعة وسعيدة بذلك، امرأة عاطفية لا تحلم إلا بخدمة رَجُلها، متشبعة بالحب، منشغلة بإرضاء سيدها الجديد. أصبح جان - بول: «المسكين سارتر»، كما كانت مدام بوفاري تقول عن زوجها وهي تعض شفتيها: «يا له من رجل مسكين».

تلك المثقفة التي لم تكن تهتم بمظهرها إلى درجة أنها لم تصطحب في حقيبتها سوى فستانين متواضعين خلال رحلتها إلى أمريكا، صارت الآن تُصلح من هيئتها وحليّها. لقد تحولت اليرقة إلى فراشة. تلك «المتغايرة الجنسية المذكّرة» صارت امرأة. تحولت تلك المُغرية السرّية للفتيات الشابات، والتي كانت تقتسمهن مع سارتر، إلى زوجة ذات غيرة، تطلب من رجلها ألا

(1) البوفوارية نسبة إلى سيمون دو بوفوار، والبوفارية نسبة إلى «مدام بوفاري Madame Bovary» بطلة الرواية المشهورة لجوستاف فلوبير (Gustave Flaubert). [المترجم].

يُدخل أية صديقة إلى «عشها»، حيث يمكنها «أن تشرب من خمرها، وتأكل من حلواها، وتنام في سريرها، وربما مع زوجها». المرأة التي كانت تأمر مثيلاتها بأن يصبحن رجالا مثل الرجال الآخرين، أخضعت «عقلها الرجالي» لـ»قلبها النسائي». افعلن ما أكتبه، لا ما أفعله!

لقد حررت سيمون دو بوفوار المارد. وهذا ما ستدين له بها دائما وارثاتها المعترفات بفضلها، مثل إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter). لقد وَجدت المفتاح السحري الذي فتح السجن الذهبي للطبيعة، والذي كانت النساء محشورات فيه منذ ملايين السنين، فأمكنهن الفرار من مراقبة سجّانهن البغيض، أي: أبيهن، زوجهن، عشيقهن. الرجل. الطبيعة، هي العدو. وعلى الخصوص، الطبيعة المتغايرة جنسيا، تلك الآلة «السادو - مازوشية» التي تجعل من المرأة فريسة، ومن الرجل صيادا.

كتبت سيمون دو بوفوار في «الجنس الثاني»: «تخضع المرأة بسلبية لمصيرها البيولوجي». كانت تلميذاتها في سنوات 1960 مستعجلات ليُبَرْهِنّ لها بأنهن فهمن الدرس جيدا.

كما تشهد على ذلك المؤرخة والمناضلة ماري - جو بوني (Marie – Jo Bonnet) – بأمانة كبيرة ودقة تحليلية لا شك فيها – في كتاب ذكرياتها عن «حركة تحرير النساء MLF»، فإن هذه المجموعة الأنثوية الصغيرة، كانت أولا وقبل كل شيء مكانا للاجتماع بين النساء. تحولت المثلية الجنسية المتسترة والمستحيية لسيمون دو بوفوار، مع هؤلاء الشابات المناضلات إلى سحاق باد للعيان ودون عُقَد. لقد حقق التاريخُ العبارة الساخرة التي أطلقها «الشوفينيون الذكور» الأمريكيون: «الأنثوية هي النظرية، والسحاق هو التطبيق».

قامت «حركة تحرير النساء» بقلب البوفوارية رأسا على عقب. لم يعد المطلوب تقليد الرجال من أجل الحرية، بل الابتعاد عن الرجال للتحرر منهم أكثر. منحت الحركةُ للأنثوية الأصلية قوة عدم التمييز والفصل بين الجنسين، والتي كانت كامنة فيها. بدأت الأنثويات أولا برفاق الدرب، أي مناضلي اليسار المتطرف، الذين كانوا يُظهرون - كحال عامة جنود الثورة الماركسية - اللينينية الذين يرون أنفسهم منهم - نزعة عسكرية طهرانية وذكورية صلبة. وسط أمواج الفشل السياسي ليساريي ماي 68 هؤلاء، (..) فرضت أنثويةُ «حركة تحرير النساء» نظرة خاصة للمجتمع، تُجمّع النساء في ما يشبه الأخويات، بغض النظر عن هويتهن الجنسية، لجعلهن في مواجهة الذكور. اخترعن الاجتماعات المحرّمة على الرجال، لأنهن ينكرن عليهم

- وبحق - الاستئثار بالكلام. في مرحلة أولى، استثنين من عقوبتهن المثليين، في نوع من التحالف بين «ضحايا» قمع المتغايرين جنسيا. ثم، طفت على السطح، وبسرعة، الخلافات بين الفريقين. كان الأولاد - كما تروي ذلك ماري - جو بوني (Marie - Jo Bonnet) - لا يفكرون إلا في «التمتع دون عراقيل»، ويسخرون من الحاجة إلى الارتباط العاطفي عند السحاقيات. كأنها محاكاة للتصرفات المتغايرة جنسيا، التي يشجبها الفريقان ..

وكان هناك فرق آخر مهم: كان المثليون يتنظمون شيئا فشيئا في مجتمع مضاد بصحفهم وشبكاتهم وثقافتهم ومتاجرهم، وينعزلون عن العالم المتغاير جنسيا، بذكوره وإناثه، من أجل تحريف قانون الأغلبية بنشاط الأقلية[1]. كانت السلطة المثلية في طور النشأة، وسيعرف انطلاقته الكبرى بمناسبة وباء فقدان المناعة المكتسبة (السيدا) خلال سنوات 1980، وسيعرف أوج تألقه في «الزواج للجميع» عام 2013.

لقد كانت سيمون دو بوفوار - في الوقت نفسه - متبرمة من وريثاتها المعاديات للتقاليد، ومعجبة بهن. لأنها لم تعترف قط بميولها المثلية القديمة، ولأنها تأخرت في حمل لقب «أنثوية»، فإنها فقدت المبادرة في الوقت الذي كانت تتحول فيه إلى أيقونة حية. كانت تتبع سارتر في كفاحه ضد الغرب وضد الرأسمالية، وكان ذلك يقودها من الجزائر إلى كوبا، مرورا بموسكو وبيكين. لقد تعمّدت أن تغض الطرف عن كون جبهة التحرير الوطني الجزائرية، الحركة التقدمية جدا، وضعت - منذ وصولها العنيف للسلطة - حقوق النساء في مكيال خضوع إسلامي صارم[2]. كانت تعلن أن الأنظمة الشيوعية السوفياتية والكوبية والصينية،

---

(1) من أبرز مآزق الممارسة الديمقراطية الراهنة في الغرب، ما يمكن تسميته «دكتاتورية الأقليات». إذ تستعين الأقليات بالمرجعية الحقوقية، بتفسير معين، لفرض رأيها على الأغلبية، بغض النظر عن خيارات الصناديق. هذه الفكرة تحتاج إلى بسط وتفصيل، تضيق عنه هذه الحاشية. [المترجم].

(2) تنضح هذه الجملة بفكرتين أساسيتين، لا يمل المؤلف من إبرازهما لأدنى مناسبة. الفكرة الأولى: سخطه على الشريعة الإسلامية، وإيمانه العميق بأن الدين الإسلامي لا مكان له في فرنسا، لأنه دين يتعارض مع الحضارة الفرنسية، ذات الجذور المسيحية. والفكرة الثانية: سخطه على الثورة الجزائرية لتحقيقها الاستقلال عن فرنسا، وإيمانه - عموما - بأن الاستعمار الفرنسي كان يؤدي رسالة مقدسة، هي إدخال الأمم المستعمَرَة في الحضارة الغربية. ولذلك رفض دائما أن تعتذر فرنسا عن ماضيها الكولونيالي. المؤلف - في الأصل - من يهود الجزائر، ويرى أن الاستعمار الفرنسي أنقذ اليهود من الاحتلال العربي الإسلامي ! [المترجم].

والتي كانت تحبس النساء في المصنع وتحصرهن مع الرجال في نظام حديدي، هي المستقبل المشرق للحرية التي كانت تحلم بها. من الصحيح أن الشيوعية جعلت من النساء – وفق إلهام يلائم «الجنس الثاني» – رجالا كالآخرين، في إطار مساواتية لاجنسية وطهرانية.

«الخروج من «التمركز العقلي القضيبي»

بعد موتها عام 1986، انطلقت فعليا الآلةُ التي كانت قد صنعتها. منذ سنوات 1960، أَلِفت الجامعات الأمريكية أن ترعى في كتابات كبار المنظّرين الفرنسيين، دولوز (Deleuze) وجاتاري (Guattari) وفوكو (Foucault) ولاكان (Lacan)، والذين يجمعونهم تحت تسمية «النظرية الفرنسية». اعتمادا على هؤلاء المفكرين الفرنسيين، عمل اليسار الجامعي الأمريكي على التفكيك المنهجي والجذري لجميع المبادئ التقليدية التي بني عليها الغرب: العقل، الشخص، الأسرة، الوطن. تمّ تفتيت كل شيء.

كان جاك دريدا (Jacques Derrida) قد شرح أنه يجب الخروج من «التمركز العقلي القضيبي Phallogocentrisme» (تجمع الكلمة التي نحتها بين «اللوجوس Logos» أي العقل، والفالوس Phallus» أي القضيب الذكري)، معرّفا بذلك هذا الخليط من التمركز العِرقي الغربي، والهيمنة الذكورية التي يقترح إسقاطها. جُمعت إذن أعمال سيمون دو بوفوار في هذا الفندق العدمي. منذ سنوات 1970، لم تعد بعض الجامعات الأمريكية تُدرج في برامجها إلا مؤلفين من الأقليات (النساء، السود، المثليون)، وتحذف أعمال «الرجال البيض»، الذين تُلاحَق «هفواتهم» الذكورية.

وكان الصيد مثمرا جدا: مونتيني، موليير، لا بروبير، لا فونتين، بيرو، فولتير، ديدرو، روسو، برودون، بلزاك، بودلير، هيسمنس، فلوبير، نيتشه، أبولينير، مونتيرلان. جميع هؤلاء المؤلفين يمكن إزاحتهم، في جحيم الخزانات الجامعية الجديد. وأكثرهم تسامحا يَحكمون بأن هؤلاء «كانوا ضحايا الأحكام المسبقة لعصرهم». هؤلاء المؤلفون، الذين هم في الغالب معادون للتقاليد وغير امتثاليين، لم يكونوا إذن ضحايا لتلك الأحكام المسبقة في الموضوعات الأخرى، الإله والدين والدولة والسياسة والحرب والسلم وتنظيم المجتمع، بل فقط في ما يتعلق بالنساء. حين أنهى اسبينوزا تحفته في السياسة، اختتم بعدم التلاؤم بين النساء والسياسة، باسم العواطف التي لا تستطيع النساء التخلص منها. سببت هذه الخاتمة حرجا للمعجبين

بالهولندي الكبير، وعدّوها لطخة في أعمال هذا العبقري. وهكذا، فإن اسبينوزا كان على حق في كل شيء، وكان متقدما بقرون في الموضوعات كلها، باستثناء موضوع النساء؟ وهذه الغرابة لا تدهش أحدا. ولا أحد يتساءل إن كان عصرنا هو الذي يقع ضحية أحكامه المسبقة. هل بمجرد كونها في مصلحة النساء لا معادية لهن، تتوقف عن كونها أحكاما مسبقة؟

في الحقيقة، هؤلاء «الذكور البيض» المنَدَّدُ بهم، هم الذين صنعوا الحضارة الغربية. هم الذين صاغوا مفاهيم النزعة الإنسانية والحرية والتقدم وتحرر الأفراد. كانوا ذوي طبيعة كونية، لأنهم كانوا الرأس المضيء للحضارة الباطرياركية. في الجامعات الأمركية اليوم، لا يمكن الشروع في حوار مع أي طالب، لأنه لا بدّ أن يبدأ كل جملة بقوله: «لأنني (أسود، امرأة، مثلي، لاتيني ..)، فإنني أرى أن ..»، نازعا بذلك المصداقية عن وجهة نظر أي شخص لا يشترك معه في هويته.

نظرية النوع بالنسبة لـ«الجنس الثاني»، مثل شبكة الانترنت بالنسبة للمينيتيل

قامت بعض المنظرات الأمريكيات بإيصال عبارة سيمون دو بوفوار المشهورة إلى غايتها القصوى. بما أن المرأة لا تولد امرأة، وإنما تصبح امرأة، فهذا يعني أن الواقع البيولوجي غير موجود؛ كون المرأة امرأة لا يعدو أن يكون اختراعا ثقافيا وأمرا لغويا. بالنسبة لجوديث بتلر صاحبة نظرية الكوير[1] المشهورة، فإن مجرد وصف طفلة صغيرة «باسم بنت» يجعل منها شخصا من الجنس المؤنث. اعتاد الأمريكيون على إعطاء بعد صناعي وتجاري لاختراعات «الحرفيين» الفرنسيين. كانت نظرية النوع (الجندر) بالنسبة لكتاب «الجنس الثاني»، مثل ما كانت شبكة الانترنت بالنسبة للمينيتيل (Minitel). الصقل إلى ما لا نهاية: هنالك الجنس (البيولوجي)، والنوع (الثقافي)، والتوجه (الجنسي). يمكن أن يكون الشخص ذا جنس مذكر، ولكن بنوع مؤنث، وتوجه مثلي. يمكن أيضا أن يكون ذا جنس مذكر، ونوع مذكر وتوجه تغايري، ولكنه ليس أمرا جيدا. ويمكن أن يكون ذا جنس مؤنث، ونوع مؤنث، وتوجه تغايري، ولكنه أمر متجاوَز!

جميع التركيبات انطلاقا من هذه الشبكة الثلاثية ممكنة. الحرية والمساواة والاحترام تقتضي دفع هذا الثمن. هذا الخليط النظري واللفظي ليس له في الحقيقة سوى هدف إيديولوجي واحد: تدمير السيطرة المفاهيمية والمعيارية للذكر التغايري. لا يهم إن كان الجنس والنوع والتوجه

(1) لفظ انجليزي معناه الغريب، ويدخل في هذا اللفظ جميع الهويات الجنسية الغامضة، أي التي لا تدخل في ما يسمى عندنا جنسا طبيعيا، أي جنس الذكر وجنس الأنثى.[المترجم].

عند أغلب الناس، مخلوطة دون سؤال وجودي أساسي؛ المهم أن وجود الهوامش - ولو كانت أقلية عددية صغيرة جدا - يكفي للاعتراض على المعيار الأغلبي. وهكذا نقابل في توازن لغوي مساواتي بين «متحول النوع Transgenre» و«ثابت النوع Cisgenre»، متغافلين عن كون هذا الأخير (وهو الرجل - أو المرأة - الذي نوعه مساو لجنسه) يشكل الأغلبية الساحقة، في حين لا يعدّ المتحولون جنسيا سوى على رؤوس الأصابع.

بما أن اللغة صنعت الواقع (الذي خلق الرجال والنساء)، فإن على اللغة أن تخضع للإيديولوجيا المساواتية الجديدة. على اللغة الفرنسية أن تحذف هذه التعميمات الذكورية الشائنة[1]، وقواعد النحو الذكورية (تقديم المذكر على المؤنث) ولو بتغيير الكلمات والعبارات (..)

تحت الخطاب المساواتي في ظاهره، تختبئ تراتبية سرّية: الشخص ذو الجنس المؤنث، والنوع المؤنث، والتوجه المثلي، يوجد في أعلى السلم؛ والشخص ذو الجنس المذكر، والنوع المذكر، والتوجه التغايري، حثالة المجتمع الجديد. بشرية دونية. الذين "يُرثى لهم"، كما قالت المرشحة الديمقراطية للرئاسة الأمريكية لعام 2016، هيلاري كلينتون، بخصوص المصوِّتين على خصمها دونالد ترامب.

يلتقي احتقار الطبقة مع احتقار الجنس واحتقار التوجه. احتقار يعتمد على التنظيم الاقتصادي والاجتماعي الجديد للحواضر الغربية، حيث تُخلق الثروات التي أُقصي منها العمال (المحرومون من العمل بسبب نقل مصانعهم القديمة إلى الخارج)، في حين تسيطر النساء الأجيرات بكثافة على مناصب القطاع الثالث. العمال البيض العاجزون عن رعاية أسرهم بأجورهم وحدها، يشعرون بالإذلال والغضب. لديهم إحساس مبرَّر بأن شريكاتهم تحتقِرْنَهم. ألسن ينفصلن عنهم؟

«المستقبل هو التشريح»

لأول مرة في التاريخ، عدد الشابات الحاصلات على شهادات أكبر من عدد الشبان. يجب تخفيف هذا المظهر العددي بالهبوط العام في المستوى الثقافي للشهادات، وأيضا بتفوق الأولاد في الدراسات العلمية ذات المستوى العالي، والتي تُعدّ في فرنسا تخصصات التفوق

---

(1) مثل المؤلف هنا بلفظ «حقوق الإنسان Droits de l'homme»، علما بأن لفظ «Homme» في الفرنسية يطلق على الرجل وعلى الإنسان تغليبا. ومقترحهم تعويض ذلك بـ«Droits humains». [المترجم].

والسلطة. في نفس هذه المدن الكبرى، تساعد معدلات الطلاق المرتفعة، والذي تطلبه النساء غالبا، والمساعداتُ الاجتماعية المرتبطة بوجود الأطفال، على ظهور عدد كبير من الأسر أحادية الوالد. ولا يهم إن كانت الأمهات في هذه الأسر متغايرات جنسيا (وهو الغالب) أو مثليات (لأن القانون يعزز الزواج المثلي ويسمح ببيع النُّطف لتخصيب اللواتي يرفضن أية علاقة جنسية مع الرجال).

تصنع هذه الأمومية (الماطرياركية) الموجودة في الواقع، والمدعومة من الدولة، أجيالا جديدة من الأولاد الذين لا يستطيعون - لأنهم محرومون من الأب الغائب فعليا أو رمزيا (لأنه لا يستطيع فرض سلطته على الأم ولا على الطفل) - الاستفادة من المعارضات المكوِّنة مع والدهم، والتي سمحت للأجيال السابقة بأن يصبحوا راشدين متحررين ومسؤولين.

إن المجتمع اليوم مكوَّن من أطفال أبديين وأمهات تدير الأسرة بيد من حديد في قفازات مخملية، مع التشكّي المرّ من "الأيام المزدوجة"[1] و«الشحن الذهني». يمكننا أن نلاحظ أن رؤساء الجمهورية، الذين كانوا في السابق تجسيدا لأب الوطن، يمسكون بأيدي زوجاتهم مثل أطفال يخافون أن يُتخلّى عنهم.

في حين لم تكن سيمون دو بوفوار تتخيل تحررا للنساء إلا من خلال الاندماج في الرجال، فإن وريثاتها لا يرين مخرجا للرجال إلا من خلال الاندماج في النساء. بعضهم يرى في ذلك تعارضا بين الجيلين، بين أنثوية كونية وأنثوية تفاضلية. ولكنها معارضة زائفة. الأنثوية التي تسمى «كونية» تجبر النساء على أن يصبحن رجالا؛ والأنثوية التي تسمى «تفاضلية» تجبر النساء على الانفصال عن الرجال. في الحالتين معا، النساء مخدوعات وخاسرات.

هذا التمييز المصطنع هو من نفس طينة التمييز الذي كان الشيوعيون ينصبونه بين ستالين ولينين، من أجل حماية سمعة هذا من جرائم ذاك. هنالك خط مباشر بين سيمون دو بوفوار وجوديث بتلر، هو الثقافوية: رفض الاعتراف بأننا أيضا وأولا حيوانات، لنا احتياجات

---

(1) المقصود بذلك كون المرأة تعمل خارج البيت، ثم تضطر بعد عودتها في المساء، أن تعمل داخل البيت أيضا. وليس هذا خاصا ببلداننا «الذكورية» كما يتوهمه الحالمون الذين يحسبون أن المساواة التامة متحققة فعلا في الغرب، بل هو شيء مطرد مشهور عند الغربيين، وهو من الآثار المسكوت عنها للإيديولوجيا الأنثوية المتحكمة في العالم اليوم. وستُبسط هذه القضية لاحقا في هذا الكتاب. [المترجم].

ورغبات كالتي للحيوانات[1]؛ رفض الاعتراف بأن الفرق بين الجنسين ليس اختراعا من الرجال الذكوريين الراغبين في الثأر، بل هو خلق التطور[2] من أجل استدامة النوع البشري؛ وأن التناسل هو البرهان الجلي والتأسيسي لهذا الفرق بين الجنسين.

تبرهن الدراسات الأكثر علمية، في الدول الاسكندينافية التي تعد المناطق الأكثر مساواة في العالم، بأن ظهور الطفل بين الزوجين يفرض الرجوع فورا إلى الأدوار التقليدية[3]. تعتبر المرأة بأنها تهدر وقتها حين لا تعتني بوليدها، ويعتبر الأب أنه يهدر وقته حين يعتني به. ليس هذا التميز راجعا لأية إيديولوجيا، ولا لثقل الصور النمطية، ولكن للبرمجة المتمايزة للهرمونات. يتوفر الرجل على ملايين الحيوانات المنوية التي ينتجها بسهولة؛ فيما تتوفر المرأة على بويضة واحدة في الشهر؛ هذا الفرق يؤدي إلى تمايز تأسيسي، وسلوك مختلف، «جندري» كما يقال اليوم (استثمار عاطفي زائد عند المرأة، المجبَرة على اختيار الوالد الملائم؛ وسلوك الصياد عند الرجل، المُطالَب بتحصيل أكبر عدد ممكن من الفرائس[4]) يرتبط بالبيولوجيا لا بالسوسيولوجيا.

ليست الصور النمطية – الملاحَقَة اليوم كما يلاحَق المجرمون – في ذاتها سوى انعكاسات ثقافية مبسطة، أو هي دروس استفادها أسلافنا بكثير من الرقة، من ملاحظة الواقع على مر القرون. كانت لديهم ميزة كبرى هي تلطيف العلاقات بين الجنسين، بتقليل المطالب المتبادلة:

---

(1) التشبيه بالحيوانات ليس لطيفا في السمع، ومراد المؤلف إثبات الغرائز الدنيا، كالرغبة الجنسية والتناسل، والتي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان. [المترجم].

(2) إنما هو خلق الله سبحانه وتعالى عما يشركون؛ ولكن القوم انتقلوا من إثبات التطور نظريةً لتفسير بعض أمور البيولوجيا، إلى إثباته خالقا من دون الله، تصريحا لا لزوما. [المترجم].

(3) ينظر بيجي ساستر (Peggy Sastre)، «كيف يسمم الحب حياة النساء Comment l’amour empoisonne la vie des femmes»، نشر (Anne Carrière)، 2018. [المؤلف].

(4) هذا ما يسمى في الاصطلاح الإسلامي «تعدد الزوجات»، المنضبط بقيود شرعية ثقيلة. وهو ما يسمى عند الغربيين «تعدد الخليلات»، وهو ما يعدّه المؤلف (اليميني) في كتابه الآخر «الجنس الأول» أمرا في طبيعة الرجل، عليه ألا يعتذر منه؛ ويعدّه الفيلسوف (اليساري) ميشيل أونفري في مقابلة تلفزية على (France2) بتاريخ 22 / 10 / 2018 أمرا في طبيعة الرجال (وقد كان هو يعيش مع خليلتين في وقت واحد، قبل أن تموت إحداهما مؤخرا). [المترجم].

«كان الازدراء اليومي والمتسامح بنقاط ضعف الجنس الآخر (الضعف العاطفي عند الرجل، ونقص العقلانية عند المرأة) يعدّ من الحكمة الشعبية؛ كانت هذه الصور النمطية تضع حدودا للتنافر بين الجنسين، فلا يمكنها أن تتحول إلى هوس»[1].

«المستقبل هو التشريح» كذا تنبأ فرويد. كانت سيمون دو بوفوار محقة حين رفضت الإنجاب، لتصبح رجلا كالآخرين. والأنثويات المعاصرات محقات حين يناضلن من أجل الرحم الاصطناعي، الذي يمكن به تجنيب المرأةِ الحملَ. الأنثوية هي فعلا إيديولوجيا للموت، ما دامت تنكر الحياة لفرض هوسها بعدم التمييز المساواتي.

«تخلط المرأة بين قلبها ومؤخرتها»

بما أن النساء لم يستطعن التحول إلى رجال كالآخرين، فالواجب على الرجال أن يتحولوا إلى نساء كالأخريات. يجب إقناع الجميع بأن الرغبة عند الرجال مماثلة للرغبة لدى النساء. يجب انتزاع قرون من التفكير حول الرغبة، وعدم التماثل العميق فيها. يقول ساشا جيتري (Sacha Guitry): «يحب الرجال ما يرغبون فيه، وترغب النساء في ما يحببن». وبشكل أكثر سخرية، يكتب فلوبير (Flaubert) إلى عشيقته لويز كولي (Louise Collet): «تخلط المرأة بين قلبها ومؤخرتها، وتظن أن شعاع القمر قد اختُرِع ليضيء مخدعها». هذه العبارات – وغيرها كثير مما يُبرَز على أنه من آثار الماضي المقيت – ليس لها أساس تاريخي، بل أنثروبولوجي. إنها ليست مرتبطة بالسياق الثقافي للقرن التاسع عشر، ولكنها نتيجة قوانين التطور التي تتحكم في مصائر الناس منذ فجر البشرية. من الطريف أن التقدميين الذين يمجّدون داروين في مواجهة «المعتوهين الخلقويين» – أي هؤلاء المسيحيين واليهود والمسلمين الذين يعتقدون صحة قصة خلق العالَم – يحتقرون الدروسَ نفسها من هذا العالِم البريطاني، حين يتعلق الأمر بالعلاقات بين الرجال والنساء. ولكن الأنثوية لا تهتم لمبدأ عدم التناقض، ولا تهتم للعقل؛ الأنثوية عقيدة، وهي مقدسة، تشبه أمور الإيمان بالرب. يمكن لدريدا أن يبتهج: لقد مررنا من اللوجوس (العقل) إلى الباثوس (التفخيم الدرامي).

---

(1) كريستوفر لاش (Christopher Lasch)، «ثقافة النرجسية La culture du narcissisme»، نشر (Flammarion، 2018). [المؤلف].

كانت الفتيات في عصر سيمون دوبوفوار جاهلات في أمور الجنس. بعد قرن من الزمن، صارت الفتيات يشاهدن الأفلام الإباحية، ولا يجهلن شيئا من (..)[1]، ولكنهن مع ذلك لا يعلمن شيئا عن الرغبة الذكورية.

جميع الذكور من الأجناس كلها، مبرمَجون على الرغبة من خلال النظر، وقياس خصوبة شريكة محتملة. أظهرت الكاتبة الأمريكية نانسي هوستن (Nancy Houston)، في كتابها الجميل «انعكاس في عين رجل Reflets dans un œil d'homme» (عام 2012) أن «البيولوجيا تفرض عدم التماثل وعدم المساواة في الحياة الجنسية. الرجل ينظر، والمرأة منظور إليها، ولكنها أيضا تنظر إلى كونها منظورا إليها». لا تماثل هنا. هذا الوهم المتعلق بالتبادلية بين الجنسين، هو الجهل الجنسي الجديد لعصرنا. وهو يؤدي إلى جوائح كارثية. من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - إيجاد مصالحة بين الجزء الحيواني فينا، ورغبتنا في المساواة القانونية.

الحياة الجنسية هي ظل موتنا، ونحن نرفض هذا الجزء. صارت المحاكمات العلنية للذكور المسيطرين قاعدة عامة في عصرنا. إنهم الهدف المفضل. في السؤال الذي يلحّ على المرأة المعاصرة «هل من الضروري أن نسمح بالمضاجعة من أجل النجاح؟»، يعلم هؤلاء منذ أزمنة سحيقة أنهم اضطروا إلى النجاح ليتمكنوا من المضاجعة. من دومينيك ستروس - كان (Dominique Strauss - Kahn) إلى هارفي فينستين (Harvey Weinstein)، إنهم «دونجوانات» العصر الحديث، و«السادة الكبار، والرجال السيئون»، الذين استفادوا إلى الغاية من «التحرر الجنسي» لسنوات 1960[2].

(1) ذكر المؤلف بعض التفاصيل الإباحية، التي يمنع الحياء من ترجمتها، خاصة أنه لا توجد الحاجة لذلك. [المترجم].

(2) في هذا المقطع أمور تحتاج إلى التعليق عليها، بما يفيد القارئ:

أولها: «دومينيك ستروس - كان» فرنسي يهودي اشتراكي، كان الأمين العام لصندوق النقد الدولي، ومرشحا مهما للرئاسيات الفرنسية، لولا أنه افتضح بالاعتداء الجنسي على خادمة فندق بنيويورك عام 2011، وباعتداءات جنسية أخرى قبل ذلك. أما «هارفي فينستين» فهو يهودي أمريكي، من أكبر المنتجين السنمائيين بهوليود، افتضح بالتحرش بالعديد من الممثلات؛ وكانت هذه الفضيحة الشرارة التي أشعلت حركة (أنا أيضا MeToo) بأمريكا، وفي دول غربية أخرى، منها فرنسا.

الثاني: أن المؤلف مشهور بالدفاع عن أمثال هؤلاء الجانحين أو المجرمين، خاصة أنهم «ذكور بيض»، ويغفل المؤلف (اليهودي) عمدا أن يذكر أنهم أيضا «يهود» (يضاف لهذين: المخرج السينمائي اليهودي

لا بد أن يكون ثأر الأنثوية صارخا، ليتم بناء الأجيال المقبلة وترهيبها. التشهير الإعلامي يسبق المسألة القضائية. (..) كل شيء يُخلط عمدا، من التحرش بوضع اليد على الفخذ إلى الاغتصاب والجريمة. لا بد من تجريم رغبة الذكر لجعلها «غير طبيعية». «تأطيرها بعقد» لقتلها في المهد. في السويد، يعدّ اغتصابا كلُّ علاقة جنسية دون دليل على «الموافقة الصريحة». تشغل جرائم الاغتصاب حاليا نصف جلسات المحاكم في فرنسا. كل جماع يجب أن يتحول في الروح العام إلى اغتصاب[1]. وهكذا تتقابل في مجتمعنا «ثقافة الاغتصاب» التي تشجبها المناضلات الأنثويات، و«ثقافة السحاق» التي ينشرنها دون توقف. وعدت سيمون دو بوفوار في كتابها «الجنس الثاني» بأن التحرر النسائي سوف يقودنا «نحو علاقات حميمية وعاطفية لا تخطر ببالنا».

المشهور رومان بولنسكي (Roman Polanski) المتهم في أمريكا بتخدير واغتصاب فتاة في سن الثالثة عشرة، وقد دافع عنه المؤلف وغيره من رؤوس النخبة المثقفة الفرنسية، حين طالب قاض أمريكي بتسليمه).

الثالث: أن المذكورين مجرمون بمقتضى القانون والدين والأخلاق؛ ولا يمكن إرجاع ذلك لطبيعة الرغبة عند الرجل، كما يحوم حوله المؤلف.

الرابع: أنه لا أحد من هؤلاء - الذين يتباكى المؤلف عليهم - أدى عقوبة حبسية تتلاءم مع جرائمه؛ وهذا في الوقت الذي لا يتسامح القضاء ولا الإعلام مع من يقترفون جرائم أقل خطرا، من ذوي الأصول الإفريقية أو العربية!

والخامس: قول المؤلف إن أمثال هؤلاء هم أكثر المستفيدين من الحرية الجنسية صحيح، وهو مخالف للفكرة السائدة والتي تزعم أن الحرية الجنسية من حقوق المرأة. ونحن لا ننفك نصدح بأن الحرية الجنسية ليست في مصلحة المرأة البتة.

والسادس: أن المرأة العصرية التي تسأل ذلك السؤال الذي ذكره المؤلف، إنما هي المرأة الغربية المنحلة التي يهون عليها عرضها، فلا تتورع عن تقديمه قربانا لنجاحها المادي. أما نحن - والحمد لله - فلم نصل إلى هذه المرحلة، ونسأل الله تعالى ألا نصل إليها، ولا تزال نساؤنا الطاهرات العفيفات ناجحات بكل المقاييس المعتبرة، دون حاجة لبيع أجسادهن في سوق النخاسة العصري. [المترجم].

(1) تكاثر عدد حالات الاغتصاب المسجلة، لا يرجع فقط إلى هذا السبب الذي ذكره المؤلف، والذي يجعله تكاثرا على الورق، بسبب تغير تعريف الاغتصاب؛ بل يرجع أيضا إلى تزايد فعلي، بسبب السعار الجنسي الذي جاءت به الحرية الجنسية، والذي لم يعد بالإمكان إرواؤه بالعلاقات الجنسية المعتادة، فصار الناس يبحثون عن طرق أخرى غير تقليدية، منها الاغتصاب. [المترجم].

أما ألفريد دو فينيي (Alfred de Vigny) فكان أكثر دقة وتبصرا حين قال:

«عما قريب، وبعد انسحابهما إلى عالم قبيح،

ستنال المرأةُ «عمورة»، وينال الرجلُ «سدوم»[1]،

وهما يتبادلان من بعيد نظرة مغضبة،

سيموت الجنسان، كلّ في جانب».

يصبح جسد المرأة مكانا هوياتيا مقدسا، لا بد من المحافظة عليه ضد أي تدنيس، ولو دون موافقتها. لم يعد مهددا بفقد العذرية، بل بالاغتصاب. رجعنا إلى زمن الخادمة التي تحرس فضيلة الفتاة: لا بد من حماية جسد الأنثى من تعابير الرغبة الجنسية عند الذكر. هذه الطهرانية الأنثوية الجديدة أسوأ من تلك التي عرفتها سيمون دو بوفوار في شبابها: لم تعرف فرنسا - كما كان الحال في إسبانيا - خادمات مكلفات بحراسة فضيلة الفتاة! لقد أصبح جسد المرأة العصرية مقدسا باسم حريتها وكرامتها كامرأة حرة، كما كان جسد المرأة الكاثوليكية مقدسا باسم عفافها كبنت صغيرة.

«أنتمي إلى أسرتي، إلى عِرقي، إلى الإسلام»

هنالك صنفان من الذكور لا ينطبق عليهم تجريم الرغبة الجنسية: المثليون والمهاجرون القادمون من البلدان الإسلامية. تمدّدَ التحالفُ القديم بين الأنثويات والمثليين إلى الحركات المناهضة للعنصرية. وهنا أيضا، كانت أمريكا هي الرائدة سواء في الجامعات أو في الحزب الديمقراطي.

كتب المؤلف الأمريكي شيستر هيمس (Chester Himes) منذ خمسين عاما أن الشخصيتين المركزيتين في المخيال الجنسي الأمريكي هما المرأة البيضاء والرجل الأسود. كان أمس مسيطَرا عليه، وهو الآن المسيطِر. على خلاف أخواتهن الكبيرات، فإن الأنثويات الشابات يقدّمن الصراع ضد العنصرية على الصراع من أجل تحرر المرأة. ويتبعهن في ذلك المناضلات السوداوات والعربيات والمسلمات، اللواتي يناصرنهن في معركتهن ضد الذكر الأبيض الغربي، بحيوية كبيرة، خاصة أنهن يحمين ويحفظن سيادة رجالهن. كما تكتب ذلك -

(1) سدوم (Sodome) وعمورة (Gomorrhe)، هما قريتان من قرى قوم لوط، جاءت تسميتهما كذلك في العهد القديم. [المترجم].

دون تزويق – حورية بوتلدجا (Houria Bouteldja) الوجه البارز لحركة «السكان المحليون للجمهورية Indigènes de la République»[1]: «جسدي ملك لي. أنا أنتمي لأسرتي، لعشيرتي، لحيّي، لعِرقي، للجزائر، للإسلام. أنتمي لتاريخي، وإذا أراد الله، سأنتمي لنسلي».

يجسّد الذَّكر المنتمي لهذه الأقليات الفحولةَ الظافرة والمهيبة. ومن هنا إعجاب حورية بوتلدجا وغيرها، حتى داخل الأنثويات الفرنسيات: «الديمقراطي الأبيض متجمد بفعل الفحولة الإسلامية الرهيبة والوقحة». المناضلات السوداوات والعربيات والمسلمات لا يرغبن في قتل ذكورهن الذين لم يفشلوا في نظرهن، وإنما كانوا ضحية التاريخ؛ إنهم ليسوا مهزومين.

ننهن فقط يردن الإجهاز على «الذكر الأبيض الأوروبي الميت dead white european male». نرى المسؤولية الثقيلة للأنثويات من العرق الأبيض، واللواتي بدأن في فهم كونهن دُمى في حرب للأعراق والحضارات تتجاوزهن[2]. وحين سيَعِين ذلك تماما، سيُمحى الصراع الأنثوي، لأنه فرعي في جوهره. إنه لا يفرض نفسه إلا عند الشعوب المنحطة التي تعتقد بسذاجة أنها خرجت من التاريخ – مثل شعبنا؛ إنه ثمرة أزمِنة السِّلم، التي نُبذت فيها مخاطرُ المجاعات والحروب. سيعود إلى مكانه الطبيعي، الفرعي، حين يأتي زمن الصراعات الأساسية والحيوية بين الشعوب والأمم والأعراق والأديان والحضارات[3].

---

(1) حركة فرنسية أصبحت فيما بعد حزبا سياسيا، يهدف إلى النضال ضد أنواع التمييز العرقي والديني. وتعرّف حورية بوتلدجا الحركة بأنها «مضادة للامبريالية والصهيونية». [المترجم].

(2) ليس غريبًا أن يتحدث المؤلف بمثل هذا الخطاب، فإن لب فكره يدور على ضرورة استنقاذ الحضارة الفرنسية من الغزو الإسلامي، الذي يمثله المهاجرون من الدول الإسلامية خصوصا؛ ولا يمكنه أن يتناول موضوع الأنثوية – ولا أي موضوع آخر – دون أن يرجع إلى شبكة قراءته، التي يرى من خلالها التاريخ والحضارة والواقع. على أن كلامه عن الفحولة والتخنث ليس غلطا في ذاته، فإن فحولة الرجل الأوروبي – إن وُجدت – قد طمستها عقود من القصف التأنيثي، الذي يريد من الرجل أن يكون في طباع الأنثى وأخلاقها ومزاجها؛ أما الرجل الآخر، القادم من حضارات أخرى، فلا يزال سالما إلى حد بعيد من هذا التأنيث المفروض. [المترجم].

(3) يبشر المؤلف دائما – متأثرا بمفكرين آخرين – بهذه الحرب الحضارية القادمة، ويزيد على ذلك التبشير بحرب أهلية في فرنسا، ويستعمل لذلك معجما حربيا، من قبيل: الغزو الإسلامي، القطاعات التي ضاعت من الجمهورية، الاحتلال من طرف المهاجرين، إلخ. يمكن بالطبع تجاهل مثل هذه الدعوات المتطرفة، وادعاء كونها هامشية، ولكن علينا أن نستحضر أن فكر المؤلف منتشر جدا في فرنسا، وأن له

الأنثوية نرجسية بلغت الغاية، تحت ذريعة الحرية إلى درجة النزوة. الأنثوية تفكك المجتمعات، وتنزع سلاحها في مواجهة أعدائها. إنها قمة الفردانية التي صارت شمولية، والتي تطلب كل الحقوق، وجميع السلطات. كتبت سيمون دو بوفوار في «مذكرات فتاة صغيرة مرتبة»: «كنت أحلم بأنني قضيتي الذاتية، وغايتي الذاتية». الرغبة في السلطة العليا شبه الإلهية.

تمجّد الأنثويات في خطابهن الرجل اللين والضعيف، ولكن لاوعي النساء يدفعهن إلى تفضيل رجل صلب وقوي. في رواية «الأب جوريو» لبالزاك، يعلّم فوتران (Vautrin) راستينياك (Rastignac): «اسألوا النساء أي الرجال يفضلن، سيقولون الرجل الطموح. الطموح يكون أقوى، ودمه أغنى بالحديد، وقلبه أسخن من الرجال الآخرين. وتجد المرأة نفسها سعيدة وجميلة في الأوقات التي تكون فيها قوية، لدرجة أنها تفضل الرجل ذا القوة الخارقة، ولو أدى بها ذلك إلى خطر أن يكسرها».

صار الرجال الذين يرهبهم الخطاب الأنثوي، الذي هو الإيديولوجيا المهيمنة اليوم، يتبنون مواقف مساواتية، ويتحدثون بخطاب تقدمي. إنها «الفحولة المثقوبة» التي تتحدث عنها نانسي هوستن (Nancy Huston). ولكن الرجل من هذا النوع يُطرد دون رحمة من طرف امرأته. يسجل السوسيولوجي الأمريكي ويليام والر (William Waller)[1] ذلك: «لا يمكن للمرأة العصرية أن تصمد أمام إغراء السيطرة على زوجها؛ وحين تحقق ذلك، فإنها لا تستطيع الامتناع عن بغضه».

يُؤمَر الرجال بأن يكونوا ليّنين ولطفاء في البيت، مع نسائهم وأطفالهم، ولكن أن يكونوا أقوياء في العمل، أي في ذلك «الصراع من أجل الحياة»، الصراع المهني للجميع ضد الجميع. ولكن الأمرين مرتبطان بشدة. الرجل المسيطِر في حياته المهنية يجذب النساء الشابات والجميلات. كما يقول والر (Waller): «إن التوجه الذي يستعمل المرأة رمزا للنجاح هو أساس النظام الاجتماعي».

أنصارا كثيرين داخل اليمين عموما، واليمين المتطرف خصوصا، وأنه دائم الحضور في الإعلام، ومن أكثر الشخصيات المؤثرة في فرنسا. [المترجم].

(1) نقلا عن كريستوفر لاش (Christopher Lasch)، في «ملجأ في هذا العالم الذي لا يرحم. الأسرة المحاصَرة Un refuge dans ce monde impitoyable. La famille assiégée»، نشر (François Bourin éditeur)، 2012. [المؤلف].

تنجذب النساء الأكثر جمالا وشبابا إلى هذا النوع من الرجال. وعلى العكس من ذلك، فإن النساء في أعلى السلم الاجتماعي يُقلقن عددا كبيرا من الذكور، ويسبِّبن فرارهم.

إن موت باطرياركية الذكر الأبيض التغايري الغربي يوقِّع على موت الغرب. تحت شعارات «الحرية» و«المساواة»، قامت باطرياركيات جديدة على أنقاضه. باطرياركيات على شكل أرخبيلات، فيوداليات جديدة لهذا العصر، تحتقر وتهمّش المرأة بقسوة أكبر مما كان الأمر عليه في السابق.

تتأقلم باطرياركية آخِر الذكور المهيمنين التقليديين: رؤساء الشركات الكبرى، رجال المال والإعلام، الفنانون، الذين يستغلون ما يتيحه الطلاق المكثف من تيسير لإرضاء الرغبة الذكورية الدفينة في تعدد الزوجات؛ فتصبح العشيقة الشابة في روايات بلزاك وزولا، زوجة ثانية وثالثة.

تنبني باطرياركية المثليين على القوة المالية لكبار مديري الشركات وكبار الموظفين، الذين يستعملون التقدم التكنولوجي وقوة شبكات التأثير للأقليات الجنسية من أجل تحقيق الحلم القديم للرجال بالحصول على أطفال دون حاجة إلى النساء، اللواتي يؤجرون أرحامهن كما كانت تؤجر سواعد العمال في مصانع آبائهم.

تعتمد باطرياركية زعماء الضاحية الباريسية، والإخوة الكبار[1]، على تجارة المخدرات والتعاليم القرآنية، مع الاقتداء بأسلافهم المتوحشين، في إغواء أو اغتصاب النساء الشابات من الطبقات الشعبية البيضاء، المعجبات برفاهية عيش كبار سادة الإجرام، أو الخائفات من قسوتهم أو تهديداتهم[2].

تشترك هذه الباطرياركات في كونها محترَمة من طرف المجموعات الأنثوية الصغيرة التي تخافها وتتجنب نقدها، أو لنقل: تتجنب نقدها لأنها تخافها، وتخافها لأنها تسبب إعجابها، في هذه العلاقة «السادو - مازوكية» التي كانت الأنثويات يشجبنها قديما في التغاير الجنسي، في

---

(1) المقصود بالزعماء (caids) قادة عصابات المخدرات؛ وبالإخوة الكبار قادة التيارات الإسلامية. يرى المؤلف أن هنالك أحياء ومناطق في فرنسا لم تعد الدولة الفرنسية تتحكم فيها، بل هي تحت سلطة هاتين الطائفتين. والرجل يبالغ، مع أن أصل الفكرة صحيح. [المترجم].

(2) أثارت هذه الجملة بالذات ضجة كبرى في فرنسا، وهي تشي ولا بد بعقدة نفسية عند المؤلف لا يستطيع إخفاءها. [المترجم].

حين يركزن ضرباتهن على الذكر الأبيض التغايري المسكين، حمار الخرافة، الفريسة الأبدية لإنكارهن، لا لأنه قوي ويستغل قوته، بل لأنه أصبح ضعيفا، ويمكن الإجهاز عليه.

لم يكن بإمكان سيمون دو بوفوار أن تتخيل قط هذا المصير لكِتابها. كانت ترغب في الخلود بعملها الأدبي، وقد نجحت في ذلك فوق جميع التوقعات. لكن الضريبة كانت غالية. في آخر حياتها، كانت تشتم ذلك الشاب الذكي والمترفع (Benny Lévy)، ذلك «الشاب من نخبة اليهود، الواثق من نفسه والمسيطِر» كما وصفه شارل دوجول، والذي أصبح كاتبا خاصا لسارتر الذي أصبح أعمى، فقرّبه من الربّ وأبعده عنها. من جهة أخرى، كان سارتر قد تبنى بنتا، هي آرليت إلكايم (Arlette Elkaim)، سيطرت تماما على قلب الرجل الهرم. وجدت سيمون نفسها محاطة بنساء يعبرن عن إعجابهن بها بكثير من الصخب، وتحتقرُهن هي في السر. كانت تسبّ الشيخوخة التي تعزل عن الناس، وتخاف - أكثر من أي شيء آخر - من الموت الذي حاربته طيلة حياتها. كانت تتساءل أحيانا إن كانت قد اختارت الأسلحة الملائمة. وإذا أردنا اقتباس العبارة المشهورة لسارتر في كتابه «الكلمات Les Mots»، فإننا نقول: اكتشفت سيمون متأخرة أنها لم تكن سوى امرأة، مصنوعة من كل النساء، وتساوي جميع النساء، وتساويها كل امرأة أخرى.

سيمون دو بوفوار، أو المؤنث الأبدي.

القضاء على الأنثوية

من كتاب «نحو التأنيث» لآلان سورال (ص67 - 109)

رؤية هوامية للتاريخ

في المخيّلة الجماعية، عَوّضت المرأةُ المضطهدة جنسيا العاملَ البروليتاري[1]. تُبرز لنا الرؤيةُ الهوامية للتاريخ المرأةَ منقسمة إلى شطرين اثنين: قديما، ترزح تحت وطأة ثقافة ذكورية فاشية؛ واليوم (أي ما بعد ماي 68 تقريبا)، قد تحررت دفعة واحدة من خلال مجتمع الاستهلاك. صارت متحررةً من هذا الذي يشبه الاغتصاب الجماعي، ومتحكمة أخيرا في جسدها ورغباتها.

ثنائية سطحية، لا نستطيع أن نصنف فيها عددا من النساء - السيدات في القديم: كاهنات، ملكات، دوقات، نساء بلاط، منعتقات أخلاقيا، أديبات، ثريات .. من اللواتي يملأن التاريخ دون انقطاع.

وفي العصر الراهن، بالمقابل نرى قطعانا من البائعات وعاملات الصندوق وموظفات الاستقبال وغيرهن، ممن يعشن بصعوبة من أجرة أنهكتها البطالة والمرونة الاقتصادية.

وضع المرأة نعم، ولكن أية امرأة؟

إذا كان الوضع الإنساني موجودا (ونعني بذلك: الحالة التاريخية للقوى المنتجة وعلاقات الإنتاج)، فلا أحد يمكنه التشكيك في كون وضع الإنسان متعلقا بالدرجة الأولى بموقعه الاجتماعي.

لا يوجد إذن «وضع ذكوري»، ولكن فقط أوضاع عمالية، هشاشة حالة الأجير، انعدام الاستخلاص الضريبي من صاحب الموارد ..

وعلى هذا، فإن لدينا أن نختار بين أمرين:

- إما أن المرأة تتفلت من الطبقات الاجتماعية، وفي هذه الحالة لا توجد عاملات يدويات ولا موظفات ولا صاحبات موارد مالية .. وهذا أمر مخالف للواقع.

- وإما أن الطبقات الاجتماعية نفسها هي التي تميل إلى التفلت من المرأة، بسبب «الاختزال النفساني».

---

(1) وهكذا استطاعت برجوازية اليسار عبر الأنثوية، أن تجرد العامل من أعظم مكانة له: المكانة المعنوية للإنسان المضطَهَد. [المؤلف].

الاختزال النفساني، الانتماء الجنسي والوضع الاجتماعي

وعيٌ ضعيف بالاختلاف الاجتماعي والتناقضات الاقتصادية، يخلق في أذهان النساء – خاصة النساء غير الناضجات[1] – وَهْمَ كونِ «النساء» يشكلن مجموعة اجتماعية منسجمة؛ في حين لا يوجد عند الرجال – إلا في فئة المثليين – من يعتقد أن الانتماء الجنسي يمكن أن يعوض الوضع الاجتماعي.

ولكن لأن الأنثويات يستدعين التاريخ، ولكي نقضي على الأنثوية بشكل حاسم، فلنبذل جهدا في النظر عن قرب إلى هذه الظاهرة الثقافية – الاجتماعية.

الذكورة التاريخية للإبداع الثقافي

«الثقافة يخلقها أولئك الذين يخلقونها».

إذا سلمنا بهذه الحقيقة التي ذكرها لا باليس (La Palisse)، فإنه منذ فجر التاريخ، وفي كل بقاع الأرض، كان الخلق الثقافي، شعريا كان أو موسيقيا أو رياضيا أو فلسفيا أو تشكيليا أو أدبيا، محصورا تقريبا في الرجال.

أما العصر الراهن (منذ بداية القرن العشرين، وعلى الخصوص منذ نهاية الحرب العالمية الثانية) فقد شهِد فعلا تناسلَ عدد من الإبداعات النسائية[2]، إلا أن انعدام البعد التاريخي يمنعنا من التأكيد بيقين على استمرارية جودتها عبر الزمن[3].

لكي يحتفظ التاريخ في ذاكرته ببعض الأعمال العبقرية، فإن الرجال احتاجوا إلى إنتاج عدد هائل من الإبداعات الغبية والرديئة، وهذا لا يغير شيئا من حقيقة أن النساء في المرحلة الزمنية ذاتها، لم يُنتجن شيئا معتبرا.

في مواجهة هذه الحقيقة الثابتة وغير اللطيفة (خاصة بالنسبة للواتي يتباهَين بالإبداع الثقافي)، فإن الأنثويات يقدمن حجة دامغة في نظرهن:

إذا لم تنتج النساء أي إبداع ذي قيمة خلال التاريخ كله، فلأنهنّ مُنعن من ذلك.

---

(1) نفسيا بسبب تمثلاتهن الأوديبية، واجتماعيا بسبب بُعدهن عن عالم الشغل. [المؤلف].

(2) أساسا في المجال الأدبي، أما الإبداع الموسيقي والرياضي والفلسفي للنساء فيبقى شبه منعدم. [المؤلف].

(3) إذا كان استمرار قيمة إبداع بالزاك للأجيال القادمة ثابتا بما لا شك فيه، فمن يمكنه أن يخبرنا ما الذي سيبقى بعد مرور قرن من الزمن من إبداعات مارجريت دورا (Marguerite Duras)؟ [المؤلف].

والسؤال الذي يطرح فورا هو: مَن الذي مَنعهن؟

العنف الذكوري سبب الكبح الفكري والإبداعي للنساء: حجة غير كافية

بالنسبة للأنثويات، المسؤول عن هذا العقم الإبداعي لدى النساء هو - بالطبع - الرجل. اتهام مبرّر جزئيا دون شك، ولكنه يصطدم باعتراضين ثقيلين.

الاعتراض الأول: أن أغلب المبدعين من الذكور للأعمال الثقافية المهمة، اصطدموا هم أيضا، وفي جميع المجالات (الفلسفية والعلمية والفنية) بالاضطهاد الشرس من طرف الرجال الآخرين. وذلك لأن الأعمال العبقرية، من حيث هي حقيقة جديدة، تهاجم حتما النظام القائم (العقيدة والإيديولوجيا المهيمنة بالنسبة للفلسفة والعلم؛ والكلاسيكية والأخلاق والذوق الحسن بالنسبة للفن)، ومن خلاله مصالح الطائفة الاجتماعية التي ينبثق منها هذا النظام (الملكية بالنسبة للعقيدة الكاثوليكية، والبورجوازية بالنسبة لإيديولوجيا السوق). النخبة الاجتماعية المؤسسية التي نادرا ما فوّتت الفرصة - عبر التاريخ - لتعبر عن معارضتها لمؤلفي الأعمال الاستشرافية والتقدمية، بجميع أشكال المضايقة التي يمكن تخيلها (إدانة سقراط من طرف النخبة الأثينية، تآمر محاكم «سانهدرين» اليهودية على المسيح، إدانة جاليليوس من طرف محاكم التفتيش، الحذر الفلسفي الإجباري عند باسكال واسبينوزا، محاكمة فلوبير بسبب رواية «السيدة بوفاري»، عدم التفهم وقلة المبيعات والفقر عند موزار وفان جوخ ورامبو، الملاحقة البوليسية والنفي لماركس، السجن لجرامشي، القتل لتشي جيفارا..)[1].

مع كونهم اضطُهدوا من طرف الرجال الآخرين، فإن هؤلاء المبدعين استمروا مع ذلك في أعمالهم الإبداعية، وأتموها على أحسن وجه؛ وكان ذلك غالبا على حساب رفاهيتهم وأمنهم، وحتى حياتِهم[2].

---

(1) نسجل أن جان دارك كانت استثناء - قليل الأنوثة - يؤكد القاعدة. [المؤلف].

(2) أسجل هنا أن اعتراض المؤلف على الحجة الأنثوية المذكورة، غير قوي، لكونه يتعمد الخلط بين الاضطهاد الخاص الذي يتعرض له الرجل المبدع الذي يخالف النظام السائد، والاضطهاد العام الذي كانت المرأة - من حيث هي، لا بقيد كونها مبدعة - تتعرض له خاصة في الحضارة الغربية القروسطية، والذي كان يمنعها - غالبا - من الوصول إلى القراءة والتعلم والحد الأدنى من المشاركة الثقافية، مما يجعل بلوغها مرتبة الإبداع الثقافي متعذرا. عموما، أرى أن هذه الطريقة التي سلكها المؤلف، غير مثمرة، وهي نوع من رد الفعل على المبالغات الأنثوية في الباب؛ وردود الأفعال على الغلو تتسم عادة بكثير من الغلو المضاد. [المترجم].

الأشد من ذلك، أنه في نفس المرحلة التاريخية وفي نفس البقاع من الأرض (أعني: في إطار ثقافتنا الكلاسيكية الغربية)، كانت النساء أقدر على التعاطي للإبداع الثقافي، لامتلاكهن الفراغ والإمكانات. نساءٌ من نفس المجموعات الاجتماعية المسيطرة[1]، حين يعتنين بالإبداع الثقافي، لا يزدن على إنتاج نسخ من أعمال رجالية، أو أعمال هي نَسْخٌ متكلف لأعمال رجالية بعد تأنيثها[2].

في مجال الثقافة، كان أعظم ما صنعته أولئك النساء هو الاستعانة ببعض امتيازاتهن من أجل مساعدة بعض العباقرة من الرجال، إما بإنشاء صالونات ثقافية (مثل صالون مدام دو ستال (Mme de Stael) أو جرترود ستاين (Gertrude Stein)، أو ببذل النفس (مثل جيني فون ويستفالن (Jenny Von Westphalen) مع زوجها كارل ماركس)، أو باستعمال الجمال في صداقات مع كبار العباقرة (مثل لو أندرياس سالومي (Lou Andréas – Salomé) مع نيتشه وفرويد وغيرهما).

الاعتراض الثاني: حجة المغارات

لإزالة أي شك، علينا بالطبع أن نضع أنفسنا في الوقت الذي لم يكن بإمكان أيةِ عادة أن تصنع تقليدا ثقافيا. (..) سنحاول العودة بالتاريخ إلى الأصول القديمة.

نحن الآن في فجر الإنسانية، ونكتشف على حائط مغارة أول عمل فني: لوحة لثور وحشي، وإلى جانبه صورة اليد التي رسمته.

لمن هذه اليد؟

يبدو السؤال غبيا، إذ من البدهي عند الجميع أن تلك اليد هي يد رجل[3]. جميع الأدلة من واقع الصيد تشهد على ذلك.

ولكن التقسيم البدائي (الجنسي) للعمل، والذي يكرّس الرجل للإنتاج (الصيد، والالتقاط)، لأن الطبيعة تكرس المرأة بالدرجة الأولى للتناسل (الولادة والأمومة)، لا يسمح

(1) آباؤهن وإخوانهن يشتغلون بالسياسة، أي بالسيطرة على القوى المنتجة عبر إخضاع الأعمال التقدمية المذكورة آنفا. [المؤلف].

(2) كما تعترف بذلك سيمون دوبوفوار في كتابها «الجنس الثاني»، في قسم «التاريخ». [المؤلف].

(3) حتى عند الأنثويات، إذ لم يخطر ببالهن أصلا نسبتها للمرأة. [المؤلف].

مطلقا - خاصة من جهة الجدول الزمني - بتفسير سبب ذكورة الإبداع الثقافي هذه. صعوبة أدنى تحرك نسائي، تفرضها مراقبة الأطفال في بيئة معادية، يحثنا على أن نميل إلى الاعتقاد بيقظة فنية نسائية، مع كون موضوع تمثيلها الأول، الطفل الذي تحبه المرأة وتحرص عليه[1].

مهما يكن من شيء، وعلى رغم أنف الأنثويات، لم توجد قط صور لأطفال أو حتى لطعام مطبوخ في أطلال الإبداعات الفنية القديمة، ولكن توجد فقط - وبشكل منهجي - في أي مكان من الكرة الأرضية، صور لحيوانات، رسمها رجال.

- إذا كانت العرقلة الذكورية لا تكفي لتفسير العقم الإبداعي عند النساء (إذ استطاع رجال أن يبدعوا في الظروف نفسها)؛

- وإذا كانت النساء في البدء (أي في زمن يصعب فيه تبرير كل شيء بالتقاليد) لم يجدن الحاجة ولا الرغبة للإبداع؛

فلعل ذلك بسبب أن العدو الأول للإبداع الثقافي النسائي ليس الرجل، كما تدعيه الأنثويات، وإنما المرأة نفسها.

الأصل الذكوري لمنح قيمة للمرأة

من أجل أن ننفي بصورة أوضح الرؤية الأنثوية التي تحصر الرجل في استغلال المرأة وعدم احترامها، علينا أن نضيف هنا أن إعطاء قيمةٍ للمرأة هو عمل ذكوري حصرا.

لنحاول فهم السبب[2].

إذا كانت طموحات الجسد والأوديب تدفعنا إلى منح قيمة للآخر (المرأة والأم بالنسبة للرجل، والرجل والأب بالنسبة للمرأة)؛ فإن كون الأم هي أيضا «الآخر» بالنسبة للرجل، مع أنه «عين الذات» بالنسبة للمرأة (الأصل البيولوجي لعدم التماثل في الأوديب) يجر احتراما مختلفا لصورة الذات.

---

(1) إلا إن كانت ترى في الطفل نفسه إبداعا كافيا، يغني عن تصويره؟ [المؤلف].

(2) نسجل هنا أن المؤلف يتبنى تفسيرات التحليل النفسي الفرويدي للعلاقات داخل الأسرة، والبناء النفسي للرجل والمرأة؛ وهي بالطبع تفسيرات منتَقدة لتضخيمها البعد الجنسي خصوصا، ولابتنائها على أسس فلسفية أكثر مما هي علمية. يراجع كتاب «أفول معبود - الزيف الفرويدي» (Crépuscule d'une idole – L'affabulation Freudienne) للفيلسوف الفرنسي ميشيل أونفري، لفهم الخدعة الفرويدية المسيطرة على علم النفس إلى يومنا هذا. [المترجم].

إذا كان قتل الأب يخلق عند الولد احتراما للرجل غير الاحترام الذي يكون عنده للمرأة (احترام ذو بعد أخلاقي يتجاوز الاحترام العاطفي الخالص)، فإن التنافس مع الأم والأخوات من أجل إغراء الأب (إغراء يقع دون المستوى الأخلاقي) يميل بالبنت إلى أن تبخس قيمة النساء الأخريات، وقيمة نفسها أيضا.

اختلاف نفسي يفسر دون شك أن منح القيمة للمرأة يبقى الانشغال الأساسي للشعراء والفنانين التشكيليين، في حين أن ذلك لا يدخل أصلا في اهتمامات الأدب النسائي العصري[1].

إذا رجعنا إلى التاريخ، فإن إعطاء الذكر قيمة للمرأة ينبع في الأصل من هذه الملحوظة السحرية:

- بالنسبة لرجل المغارات، تعد المرأة هي التي تمنح الحياة.

- حين يتعرف الرجل – فيما بعد – إلى دوره الأبوي، ويفهم أن له دورا في معجزة صنع الحياة هذه، فإن احترامه للمرأة يصبح أقل مباشرة وأكثر نرجسية، لأنه يتعامل هنا مع أم أولاده.

- ولكن القيمة الكبرى التي تحصل المرأة عليها فهي دون شك فكرة «الزواج»، الذي تمرّ مَأْسَسَته النهائية في الغرب عبر التقديس الديني الرسمي للعذراء مريم (في مجمع بازل عام 1431). في الزواج يصبح الرجل والمرأة أمام الرب، نصفين من كائن واحد طيلة أمد الحياة، ويصبح الطفل الناشئ من هذا الاتحاد، التجسد الحي له.

وهكذا، وسواء أكانت نظرته للمرأة نفسية أو سحرية أو سلالية أو روحية، فإن الرجل – كل مرة – هو الذي يضع المرأة في مرتبة عالية. الحق أنه مجبر على احترام أمه وزوجته، لكي يستطيع احترام نفسه.

المثالية المفيدة للمرأة السحرية

إذن فإن السلطة التي للمرأة على الرجل تأتي أولا من الاحترام الذي يكنه الرجل للصورة التي يتخيلها للمرأة. وهو احترام نابع أساسا من صورة الأم، لا من الإقرار بأي تفوق جسدي أو فكري للنساء على الرجال.

وهكذا فإن الرجل حين يكتشف عمليا «الفتاة» التي كانت تخفيها عنه أمه، فإن هذا الاحترام ينزل إلى مرتبة التعامل مع النساء الحقيقيات، اللواتي يكتشف ما لديهن من تناقض، بل من نفاق[2].

---

(1) انشغاله الرئيس هو الحديث عن الفراغ الداخلي الذي تشعر به المرأة. [المؤلف].

(2) وهذا هو الانتقال المؤلم من رؤيته المراهقة للمرأة إلى رؤية راشدة لها. [المؤلف].

لنكن أكثر وضوحا:

إن سلطة المرأة هي قبل كل شيء السلطة التي يمنحها الرجل إياها حين يقبل الانخداع قليلا بها؛ والرجال المتمرسون يعلمون أن المرأة تخسر بأن تكون معروفة ومفهومة جيدا، أكثر مما تربح.

لقد فهمت النساء المُغريات والذكيات فائدة بقائهن «سحريات» في قلوب الرجال، فعملن - بمختلف الخدع والحيل المسماة إغراء - على البقاء في دائرة غير المشروح، أو الذي لا يمكن شرحه. وإذا أريد جرّهن إلى الميدان الزلق للمفهوم والشفاف، فإنهن يتذرعن بمعنى «المؤنث الأبدي». (..)

الأصل الذكوري للأنثوية

قمة السخرية هي أن الأنثوية إنما ظهرت في الغرب، حيث المرأة محترمة أكثر وعندها سلطة أكبر. هذه الأنثوية السياسية التي لم تنشئها في فرنسا[1] امرأة، بل رجل هو الغامض ليون ريشيي (Léon Richier)، الذي أنشأ عام 1869 «حقوق المرأة»، وتنظيم مؤتمرها الأول عام 1878.

أما الأنثوية النظرية لسيمون دوبوفوار[2]، فهي - باعترافها - فرع مؤنث لوجودية جان بول سارتر، التي تتبنى موقفها الفلسفي[3] (وهو أمر يُعد - بالنسبة لبطلة أنثوية - بعيدا عن تحقيق التحرر المزعوم!).

وجهة النظر أو الذاتية

«الإدراك قصدٌ».

هذه الفكرة الكبرى للفينومينولوجيا النيو - كانطية[4] محل اتفاق على الصعيد الفلسفي، وهذا حدث نادر لدرجة كونه يستحق أن نرجع إليه.

وهكذا حين يظن فرد رؤية شيء، فإنه يُسقط على الشيء المراقَب ما يوجد في ذهنه. و«حساسيتُه» تؤثر على إدراكه للشيء المراقَب.

(1) نتعمد أن نترك جانبا الأنثوية الأنجلو - سكسونية، التي تَظهر حتمياتُها الطهرانية والتجارية، غريبة على الحالة الفرنسية. [المؤلف].

(2) المعروضة في جزأي كتابها «الجنس الثاني». [المؤلف].

(3) الموقف الذي يمكن اختصاره في فَرْنَسة المصطلحات البراقة لهايدجر، لجعل الوجودية والأنثوية منتجين ثانويين للنيو - كانطية. [المؤلف].

(4) التي هي الفينومينولوجيا الحقيقية الوحيدة، أما «الحدس الأنطولوجي»، و«الاختزال الفينومينولوجي» فإنما هي غباوات متغطرسة لا ينبغي الالتفات إليها. [المؤلف].

إذا لم نحصر عشوائيا - كما تفعل الفينومينولوجيا - قصدية الإدراك في الفيزيولوجي ونطرد منها الأخلاقي، فيجب الإقرار بأن أي حدث إنساني موضوعي في ظاهره، مخلوط ولا بد بـ«رأي» ما. الحدث - الرأي يتغير حسب حساسية المراقِب. وهذه الحساسية تتشكل - في غياب أي يقين وراثي - من التمثلات الأوديبية (التفخيم الدرامي الفرويدي) والاجتماعية الثقافية (أصل الطبقة ومصلحتها) للفرد المراقِب؛ أي بالهيكلة الاجتماعية الشعورية غير الواعية (التي تسمى أيضا: الفُرادية) التي تشكل وجهة نظره: التحديد الموضوعي لذاتيته.

من هنا يمكننا أن نستنتج بسهولة أن الحدث المراقَب يكون مختلطا بالرأي أكثر حين تتدخل فيه مصالح المراقِب: التفضيلات الشعورية والوضع الاجتماعي.

وهكذا نلاحظ وجود اختلافات رأي قليلة حول الذرات (كونية العلوم الحقة)، وعددا أكبر حول المصير المخصّص للحيوانات (نقاشات فرعية حول بعض أنواع الصيد مثلا)، وعددا أكبر حين نتعرض للممارسات الجنسية (حوار متوتر حول المثلية الجنسية)؛ ويشتد الأمر أكثر حين يتعلق بالوقائع الاقتصادية - السياسية: لا يُنظر إلى الثورة الفلاحية مثلا بالطريقة نفسها، حين يكون المراقِب مالكا للأرض أو مياوما فلاحيا!

وإذن ففي كل ما يمسّ المصالح الإنسانية، لا تكون الموضوعية مساوية للدقة السريرية للوصف (كما يعتقد ذلك بسذاجةٍ علمُ الاجتماع الوضعي أو المذهب الطبيعي)، ولكن لوعي خصوصية المراقِب. خصوصية المراقب التي يجب إعادتها إلى المنظور العام. والمنظور العام ليس - في المستوى الأخلاقي والسياسي - سوى الوعي الحق بـ«المصلحة العامة».

الأنثوية كـ «وجهة نظر» مزعومة للمرأة

إذا كانت الولادة (الأصل الاجتماعي) والمعيش (التفخيم الدرامي الفرويدي) يؤسسان عند الشخص «وجهة نظر» خاصة؛ وإذا كان التحديد التأملي لوجهة النظر الخاصة هذه يشكل شرطا قبليا لأي فكرة مهما تكن موضوعية[1]؛ فلماذا يكون الأمر مختلفا حين يتعلق الأمر بالمرأة؟

---

(1) وهذا التحديد ليس فوريا، إذ يتطلب مجموعة من الحوادث الملائمة لوقوع الوعي، إضافة إلى عمل جبار على الذات؛ كما حاولنا بيان ذلك في مؤلفنا السابق: «سوسيولوجيا الـمُغازِل». [المؤلف].

بأي معجزة وبأي حق[1]، تُرفع وجهتا نظر مؤنثتان خاصتان جدا (مثلا وجهة نظر سيمون دوبوفوار وإليزابث بادنتر) إلى مرتبة «وجة نظر المرأة»، و«وعي النساء»، في حين لم تسمح أية مساءلة تأملية قبلية، لهذه ولا لتلك، بالوصول إلى الوعي بالذات؟

أن يوجد «فكر نسائي» (أي طريقة معينة لرؤية الأشياء عند النساء[2]) لا يقتضي أبدا أن توجد وجهة نظر واحدة للمرأة. وهذه بداهة صارخة خاصة إن رأينا أن لفظ «أنثوية» يشمل - منذ سيمون وإليزابث - وجهتي نظر متناقضتين، وكلتاهما لا تمثل إلا قليلا مصالح غالبية النساء.

الأنثوية المذكّرة أو وجهة نظر سيمون دو بوفوار (المكتئبة)

«خلال مجموع طفولتها، كانت البنت تضايَق وتشوَّه .. من المؤكد أن البلوغ يحول جسد البنت الصغيرة .. ولكن الأعضاء المؤنثة ضعيفة (..) غريبة ومزعجة. الثديان يشكلان عبءا؛ في التمرينات العنيفة يذكِّران بوجودهما، يرتعشان، ويؤلمان. منذ هذا الوقت، تصبح القوة العضلية وقوة التحمل وخفة الحركة عند المرأة أقل مما هي عند الرجل. عدم التوازن في الإفرازات الهرمونية يخلق عدم ثبات عصبي ووعائي. أزمة الطمث مؤلمة: وجع رأس، إرهاق عضلي، ألم في البطن، كل ذلك يجعل أي نشاط عادي مؤلما بل مستحيلا؛ يضاف إلى ذلك في الغالب اضطرابات نفسية (..) تجعل من الجسد ساترا يحجز بين المرأة والعالم، ضبابا حارقا يثقل كاهلها، يخنقها (..) لأنها مضطهَدة وغارقة، فإنها تصبح غريبة على نفسها». (التجنس الثاني، المجلد 2، التجربة المعيشة، الجزء الأول، الفصل2: البنت الصغيرة؛ مقتطفات من الصفحات 89 إلى 91).

هذا الوصف الكارثي (الذي يستمر هكذا لعدة صفحات) يكشف بالبداهة وجهة نظر مراهقة قريبة من الهزال العقلي.

رؤية مَرَضية تتبناها سيمون - بدلا من تحديدها كمرض - كحالة وعي كونية، تسقطها فيما بعد على مجموع النساء (اللواتي أكثرهن لحسن الحظ غريبات عن هذه الرؤية). رفض للأنوثة، التي تعاش على أنها تَراجُع، ويقترن ذلك منطقيا بإظهار الذكورة بمظهر مثالي، تعدّ فيها المعيار والتعالي، كي توفر هيكل الأنثوية المذكِّرة:

(1) إلا إن كان ذلك باسم الاختزال النفساني الذي يقصيها أصلا. [المؤلف].

(2) وهي لا تمثل «وجهة نظر» مشتركة، ولكن التوجه المشترك اللاواعي، عند طمس المكوّن الاقتصادي والاجتماعي. [المؤلف].

- حيث تعتبر سيمون «جسدها ساترا يحجز بين المرأة والعالم»، فيبلغ بها الأمر إلى أن ترى في جسد الأنثى - مع أنه هو ما يشكلها تماما - الشيء الذي يمنعها من «الوجود»، فتفترض، من وراء المرأة الحقيقية (البيولوجية والتاريخية) امرأة «جوهرية» تتصف بكل الخصال الذكورية المثالية.

- صياغة تصورية مرَضية تُمدِّدُها سيمون أيضا إلى التاريخ، فلا ترى فيه سوى تاريخ الرجال الذين يمنعون النساء من الإبداع الثقافي، وبالتالي من «التعالي نحو الوجود». الإبداع الثقافي المنظور إليه أيضا خارج الواقع، والذي يمنع سيمون من فهم أن هذا «الوجود من وراء المرأة» الذي تطمح إليه، على الرغم من جسدها ومن الرجال ومن التاريخ، إنما هو «العقل المذكر» الذي عرف التعبير عنه تاريخيا من خلال الإبداع الثقافي.

وجهة نظر مرَضية منفوخة في تنظير فلسفي ضعيف جدا[1]، يعبر على الخصوص عن مطالبة اجتماعية بامتياز مكتسبٍ حديثا من طرف فتاة صغيرة من البرجوازية الصاعدة. أعني امتياز التخلي عن الأمومة[2] للتكرس للإبداع الثقافي، أي الهواية التقليدية لبنات وزوجات المجموعة الاجتماعية المسيطرة.

الأنثوية المؤنّثة أو حين يُتبنى العقل المؤنث كـ «اختلاف» (العاهرة)

تَلَتْ هذه الأنثويةَ التصريحية النابعة من مُكتسَبات البرجوازية الجديدة لما بعد الحرب العالمية الثانية، أنثويةٌ جديدة، تنبع هذه المرة من البرجوازيات الصغيرات المستقرات في مجتمع الاستهلاك[3].

موجة أنثوية ثانية تلعب دورا اجتماعيا مماثلا (أي ضمان تطوير الطبقات المتوسطة المؤنثة من خلال المهن الجديدة للقطاع الثالث) باستعمال خطاب معاكس جذريا. بعد الرفض النخبوي «للأنوثة الجسدية» من طرف الرائدات، جاء دور تمجيد «الأنوثة الذهنية» لدى أنثوية جماهيرية. والآن، ليس ذلك باسم «مشروع أساسي للكائن للتعالي نحو الوجود»[4]، ولكن باسم «المؤنث الأبدي» الذي كانت سيمون دوبوفوار تشجبه لأنه أسطورة وخضوع.

---

(1) لأنه يجمع أسوأ ما عند ديكارت (الفردانية المتعالية)، وأسوأ ما عند كانط (الثنائية المتعالية للجسد والروح)، وأسوأ ما عند هيجل (العقل المطلق)، ليختزل لوحة مادية - تاريخية مزعومة في مثالية ذاتية ضعيفة. [المؤلف].

(2) البرجوازيات الأنثويات مثل سيمون دوبوفوار نادرا ما يثقلن أنفسهن بإنجاب الأطفال. [المؤلف].

(3) أي وجهة نظر إليزابث بادنتر. [المؤلف].

(4) سيمون دو بوفوار، الجنس الثاني، جزء 1، ص 106. [المؤلف].

أنثوية مؤنَّثة أقل تطلبا من الأنثوية المذكَّرة التي سبقتها، ولكنها أنجع منها بكثير، لأنها تسمح:

- على الصعيد النظري، بتقديم «العقل المؤنث»، لا كنوع من «التعالي» الذي يجب تحقيقه (لكي تستطيع النساء عند تحررهن من «الآخر» الوصول أخيرا إلى العقل)[1]، ولكن كنوع من «الاختلاف». باسم هذا الاختلاف لا يصبح الاختزال النفساني فكرة محدودة، بل طريقة أخرى في التفكير[2]؛

- وعلى الصعيد الاجتماعي والسياسي، بإعلان كون «اختلاف العقل المؤنث» قوة تقدمية في ذاتها، بل بديلا مطلوبا (وهذا يرجع إلى اعتبار عدم فهم الاقتصادي - الاجتماعي تقدما اجتماعيا، وعدم فهم السياسي حقا ومشروعا سياسيا)؛

- وعلى صعيد مجتمع العِلْية (وهو الميدان الحقيقي للأنثوية)، بتبرير الوصولية الوقحة لأي امرأة لا تستحق، بـ«قضية النساء». هذه الأنثوية الثانية تسمح لمثل تينا كيفر (Tina Kieffer)[3] بأن تنتحل دور المثقفة الإنسانية، كما تسمح لمثل تاباتا كاش (Tabatah Cash)[4] بالظهور بمظهر بطلة كفاح النساء من أجل التحرر.

من المكتئبة إلى العاهرة، والعكس

وهكذا فإن المطالبة المزعجة - ولكن المؤثرة أيضا - الصادرة من فتيات البرجوازية الجديدة لما بعد الحرب الثانية، بالوجود خارج إطار الزواج والإغراء (أي كفنانات ومفكرات)، سمح للبرجوازيات الصغيرات الآتيات من مجتمع الاستهلاك باللعب على الحبلين. بعبارة أخرى أن لا تكون المرأة:

- أُمًّا، وذلك باسم الحق في الشغل (الذي التبس أولا بالهوايات الثقافية بدوام كامل، ثم مع مهن التواصل التي ليست مهنا حقيقية)؛

---

(1) مشروع غير متماسك، خاصة لأنه يعبر بشكل متناقض عن رفض الأنثى لأنوثتها باسم حق الأنثى في الوصول إلى الذكورة. [المؤلف].

(2) لكي نرد على إليزابث بادنتر بنفس الرموز التي تستعملها: إذا كان XY يحتوي على X، فإن XX لا يحتوي على Y. [المؤلف].

(3) صحفية فرنسية. [المترجم].

(4) ممثلة إباحية ومقدمة إذاعية وتلفزية فرنسية. [المترجم].

- ولا عاملة، باسم الحق في الإغراء[1].

التباس أو سوء نية، لدى أنثوية جماهيرية تكرسها وسائل الإعلام (خاصة الدوريات النسائية)، وتسمح لعاهرات اليوم أن يَحلُلْن محل مكتئبات الأمس، قبل أن تتحول العاهرات إلى مكتئبات غدا:

- الفتاة الطيبة التي ضيّعَتْها هذه المكتسبات المزعومة للأنثوية، وتجد نفسها مجبرة على أن تكون عاملة وعاهرة (مأجورة ومثيرة) دون التوقف عن كونها أما، أي أنه عمل ثلاثي؛

- المرأة العاملة التي تجد نفسها في سن الأربعين[2]، قد هرمت (بحسب معاييرها الخاصة)، وصارت وحيدة ودون أطفال، لتكتشف أنها قد ضحت بزهرة عمرها النسائي من أجل إثراء مجموعة مالية، ذات نزعة ذكورية.

الأنثويات نادرات (توضيح)

لأن أغلب النساء لسن برجوازيات يساريات مكتئبات ولا عاهرات وصوليات، فإن الأنثويات نادرات.

لأنها ترى الأمومة نعمة (لا خضوعا)، والعمل ضرورة (لا تحررا)، فإن المرأة العادية لا تجد في الغالب خيارا آخر سوى أن تعمل في مهنة ما لإطعام أسرتها[3]. خاصة حين تتقلص هذه الأسرة - بسبب نسب الطلاق المرتفعة أكثر فأكثر - فتقتصر على أم تربي أطفالها وحدها.

ولكن لأن العاهراتِ المكتئبات[4] ممثَّلاتٌ منطقيا بوفرة في وسائل الإعلام (التي تُفيض على المجتمع منذ 68 جميعَ أنواع الطفيليات الثقافية)، فإنهن يَرفعن تدريجيا إلى مرتبة الخطاب المهيمن، رؤيتَهن التي هي بعيدة جدا عن الواقع.

---

(1) فترجع المرأة إلى المكان الذي أرادت سيمون إخراجها منه. [المؤلف].

(2) السن الذي تُقصى فيه، في المهن التي أعظم المؤهلات فيها هي المظهر الجسدي (ومن هنا اللجوء المكثف أكثر فأكثر لعمليات التجميل). [المؤلف].

(3) ويكون عملا تابعا وقليل الفائدة - في الغالب - مثل عمل السكرتيرة أو موظفة الاستقبال الهاتفي أو البائعة. [المؤلف].

(4) بقدر اقتراب السن المحتوم، الذي تأتي فيه الوحدة والإقصاء. [المؤلف].

نظرة أقلية، وخطاب إعلامي، لا يصلان حتى إلى مرتبة «اللوبي»، بما أن هؤلاء الأنثويات التواصليات:

- لا يملكن أية سلطة (لأن السلطة تبقى عموما في اليد الرجالية للمساهمين الرئيسيين في المجموعات التي تشغِّلهن)؛

- لا يملكن أي تضامن حقيقي؛ إذ يبقى الخداع والإغراء القاعدة التقليدية للترقيات الداخلية، في غياب السلطة، وبسبب الاختزال النفساني.

الأنثوية والثقافة

قراءة مُثقِّفة لمجلة «هي Elle»

بما أن المجلة النسائية[1] تشكل الناشر الأول لهذا «الاختلاف النسائي» المدروس جيدا، فلنحاول قياس إضافتها الثقافية عبر قراءة أحد فهارسها:

أسبوع مع مجلة «هي Elle» (رقم 2590)[2]:

- **الخبر الأسبوعي:**

قريبا حبوب لإنقاص الوزن؟

- **المجلة:**

الكسل: 20 سببا حقيقيا لتعاطيه.

النساء: أين وصلت أوضاعهن في العالم؟

كلوديا شيفر: والآن نجمة تلفزية.

اختبار: للإحاطة بشخصيتك.

هل أنت طموح؟ مكافح؟ اكتشف صورتك النفسية.

مسلسل: "مختطفون !» (أُمّ تحاول استرجاع أطفالها الذين اختطفهم أبوهم).

- **الموضة:**

الخياطة الرفيعة: دوامة من الترف.

---

(1) ومن باب أولى، أشهرها. [المؤلف].

(2) العدد الذي يعلن عن عقد المؤتمر العالمي الرابع حول النساء، في بيكين. [المؤلف].

نهاية الصيف: أنيق وجذاب.

عناوين: نماذجنا في مدينتكم.

- **الجمال**:

جميلات ومشهورات: كارول بوكي.

- **العيش الجيد**:

سفر: من موناكو إلى سان - تروبي، أجمل الفنادق.

أعمال يدوية: رجل الزجاج (تزيين الأثاث الداخلي).

- زوايا:

كلمة التحرير: كم هم ثقلاء هؤلاء الأطفال!.

اختيار «هي»: موسيقى. تلفزة. فنون. سينما. قراءات. قصص مصورة.

حياة خاصة: الأطفال. البيئة. الصحة.

بطاقة مطبخ.

شغف «هي»: لباس بحار في المدينة.

بطاقة حياكة.

كلمات متقاطعة.

معاني الأعداد.

حديث الأبراج

برنامج يلخص لنا بالقائمة هذا «العقل النسائي»[1] الذي يراد نشره:

- يُختزل فيه التنوعُ الاقتصادي والاجتماعي (الذي تنقسم فيه قارئات المجلة إلى عاملات وموظفات وإطارات ومديرات وصاحبات موارد مالية ..) في صورة نفسية أو نوع من «النمط النفسي» (اكتشف صورتك النفسية. هل أنت طموح؟ مكافح؟)؛

- العمل يختزل فيه بالتالي في الكسل (20 سببا حقيقيا لتعاطيه) والسفر (من موناكو إلى سان - تروبي، أجمل الفنادق)؛

---

(1) أي الاختزال النفسي تحت جميع مظاهره. [المؤلف].

- والأخبار في حمية إنقاص الوزن (قريبا حبوب لإنقاص الوزن؟)؛

- والعقل في معاني الأعداد السحرية والتنجيم (معاني الأعداد وحديث الأبراج)؛

- والثقافة في أخبار عِلْية المجتمع (كلوديا شيفر: والآن نجمة تلفزية)، والموضة (الخياطة الرفيعة: دوامة من الترف)، والتزيين (كارول بوكي «تطرية الوجه عندي هي العمل!»)، وتزيين الأثاث الداخلي (أعمال يدوية: رجل الزجاج)؛

- والحرية في واجب الإغراء (الذي باسمه تُنصَح القارئات بشدة بإنفاق قدرتهن الشرائية في الموضة والتزيين)؛

- أما الأنثوية (النساء: أين وصلت أوضاعهن في العالم؟) فتسمح لمحررات المجلة بالتحسر على أن كثيرا من نساء العالم لا يمكنهن بَعدُ الخضوع لتخدير الاستهلاك الجماهيري، الذي تُعَدُّ مجلتهن قائمة إعلانية له.

الثناء على مجلة «ليكسبريس» و«علوم وحياة» وكرة القدم والعمل اليدوي

إذا كانت الصحف النسائية تكشف لنا أن المرأة ليس لها سوى شغف واحد: الشغف نفسه[1] (أي: الإغراء وما يلتحق به: النصائح النفسية، الموضة، الزينة، تأثيث البيت)، فإن وجود مجلات رجالية مختلفة مثل ليكسبريس، و«علوم وحياة»، و«السيد عمل يدوي Monsieur Bricolage»، و«فرانس فوتبول»[2]، يخبرنا بأن الرجل قادر على ألوان مختلفة من الشغف أقل تحديدا.

- مجلتا «ليكسبريس L'Express» و«علوم وحياة Sciences et Vie» تسجلان رغبة معينة في فهم العالم، سواء من جهة كونه مجتمعا إنسانيا، أو من جهة كونه طبيعة.

- ممارسة العمل اليدوي تكشف أن هذه الرغبة نفسها في التحكم في الواقع الملموس توجد خارج أية ثقافة كتابية.

- حب كرة القدم يضيف إلى هذا العطش الكوني للمعرفة والتحكم، رغبة مشاركتها في المشاعر الموجودة في جهد جماعي.

---

(1) وهو أمر صحيح دون شك، وإلا لم تكن المجلات النسائية لتباع. [المؤلف].

(2) التي قراؤها من الرجال في الأغلبية الساحقة. [المؤلف].

أنواع من الشغف الرجالي محتقَرة ومستهزَأ بها من طرف الأنثويات، ولكنها حاملة للأمل في إمكان الوصول يوما إلى مجتمع بشري سيد ومتصالح[1]، بعيدا عن التمثلات الغبية لهن [2] (..).

التحليل النفسي التافه والاستشارات النفسية

على صعيد الفكر، قدّمت الأنثوية الثقافية شيئين اثنين: الأنثوية، وميلا إلى التحليل النفسي.

لتفسيره كل شيء بالحب المحصور في البحث عن المتعة والإغراء[3]، فإن التحليل النفسي – مثل المرأة – لا يمكنه الفكاك من «الأوديب»؛ فكان لا بد إذن أن يلتقيا.

ولكن لأن النظام الفرويدي يتطلب مع ذلك تعلّم وإتقان عدّة مفاهيمية دقيقة، فإن ميل النساء إلى الفكر السحري إضافة إلى نشر هذا الفكر إعلاميا عبر المجلات النسائية، ما لبثا أن اختزَلا نظرية التحليل النفسي في نزعة نفسانية تافهة، تشكل ذريعة لجميع الاستشارات النفسية الغريبة.

بعد أن كان يعبر عن الحق الاستهلاكي في المتعة خلال مرحلة النمو (من حبوب منع الحمل إلى أول صدمة نفطية)، صارت الاستشارة النفسية تتجه تدريجيا نحو الراديكالية ونحو مزايدة قذرة على المتعة، لمواجهة أزمة الاستهلاك (والتي هي أيضا أزمة رغبة جنسية). بعد تحولها إلى دليل عملي لاستعمال الممارسات الجنسية الشاذة، فقد صار يعكس اليوم معاناة النساء العاهرات في نهاية مسيرتهن الجنسية، والمستعِدات إذن لأي شيء من أجل تحقيق المتعة.

الرواية السخيفة

من وجهة نظر السوق، فإن الأدب قضية اهتمام نسائي، منذ زمن طويل. ولأن النساء هن أول المقتنيات والقارئات للروايات، فإن الناشرين اضطروا إلى الاصطفاف في دائرة الاختزال النفسي النسائي المُفقِر، من أجل إنقاذ تجارة النشر. من هنا تكاثُرُ الروايات التافهة، التي ليس لشخصياتها من عمق سوى مشاكلهم النفسية العاطفية الصغيرة، ويفضّل أن تكون في وسط برجوازي.

---

(1) لأن المظهر غير الصحي المتزايد لكرة القدم الاستعراضية، ليس راجعا لممارسي اللعبة، ولكن لعالم المال الذي يستغل قيمها الإيجابية؛ كما أن العنف القومي يأتي نادرا من الشعب الذي يموت في الحرب ولكن من تلاعب النخب المحتاجة بشكل دوري للفوضى من أجل تجديد مصادر ربحها. [المؤلف].

(2) حذفتُ هنا عبارة للمؤلف هي نوع احتقار للمرأة من حيث هي لا للمرأة الأنثوية، وهذا شيء يقع للمؤلف في مواضع كثير من كتبه وحواراته المصورة. كما أن مقارنته بين المجلات الرجالية والنسائية لا تخلو من تهويلات تعميمية، مع التكلف في إيجاد الأثر الثقافي في نشاطات ليست ثقافية في الأصل. [المترجم].

(3) لأن حب الآخرين وحب المعرفة يحتاجان إلى رؤية اقتصادية – اجتماعية. [المؤلف].

روايات مؤنَّثة خاصة بالاستعمال الحصري للنساء والمثليين، مما ألجأ الرجال تدريجيا إلى الالتجاء إلى:

- الروايات البوليسية والأمريكية[1] خصوصا؛

- أو الكتب الفكرية (التاريخية والسوسيولوجية)؛ وهي صيغة غير محبوبة عند النساء، لأنهن يفضلن بدلا من الفهم، مجرد التأثر بالقصة، ومن الأفضل أن تكون قصة حب[2].

الكتابة النسائية أو «نفسنة الفراغ»

لأن الرواية المعاصرة تعبر عن رؤية مؤنثة أكثر فأكثر للوعي والعلاقات الإنسانية، فقد كان من الحتمي أن تحصل النساء الكاتبات منه على نصيب متزايد.

إن كتابة المرأة - التي تعدّ ممارسة تعويضية ناشئة في الغالب من مرض عاطفي أو من الترفه[3] - تعبر بطريقة وحدوية وبشكل ملحوظ عن رؤية «المكتئِبة»، التافهة والمرَضية، والتي تشرح فيها برجوازية دون عمل ولا طفل شعورَها المشروع بعدم الجدوى وبالفراغ الداخلي. نزعة نفسانية قلقة تظهر في كلمات من قبيل «لا أدري»، و«ربما»، و«ما الفائدة من ..»، والتي يراد إيهامنا أنها تعبير مختصر عن رؤية معقدة للعالم، والحال أنها لا تعدو أن تكون وصمة معبرة عن بؤس الكاتبة.

«كتابة الفراغ» التي تصل غايتها القصوى في روايات مارجريت دورا (Marguerite Duras)، التي يعبر أسلوبها المجرّد إلى الأقصى عما تراه المرأة الكاتبة وما تفهمه، أي ليس كبير شيء[4].

---

(1) حيث التحديد المزدوج للوجود (النفسي العاطفي، والاقتصادي الاجتماعي) يكون حاضرا في صيغته المجردة. [المؤلف].

(2) إذا قارناه بالرواية الكلاسيكية (بالزاك، فلوبير، موباسان، ..)، فإننا يمكن أن نصف مجموع الأدب الفرنسي المنشور اليوم بكونه داخلا في صنف «الرواية الوردية»، أي العاطفية الرومنسية. [المؤلف].

(3) ميل إلى الهزال الفكري والسحاق عند فتيات شابات من البرجوازية الجديدة، حصلن على متع ثقافية، فعبّرن - انطلاقا من سلطتهن الجديدة - عن رفضهن القبول الرمزي بالخضوع الجسدي. [المؤلف].

(4) مرة أخرى، يتحمس المؤلف في نقد الأنثويات، فيضع في سلة واحدة جميع النساء من جميع الاتجاهات. والقارئ الفطن لا يعجز عن انتقاء الأفكار الصحيحة الكثيرة من هذه المرافعة العنيفة للمؤلف ضد الأنثوية خصوصا، وضد فئات عريضة من النساء عموما. [المترجم].

سينما المرأة والفتاة الشابة

أما سينما المرأة والفتاة الشابة، وإذا اعتمدنا على شريطين ناجحين ما يزالان حاضرين في الذاكرة: «درس البيانو La leçon de piano» (فيلم أسترالي بميزانية ضخمة وفاتورة كلاسيكية) و«الناس العاديون ليس لديهم شيء استثنائيLes Gen's normaux n'ont rien d'exceptionnel » (من أفلام المؤلفين الفرنسية المنتمية لما يسمى «الموجة الجديدة»)، فإن من المفيد أن نلاحظ أنه - بعيدا عن تنوعهما الشكلي - فإنهما يحكيان القصة نفسها: (قصة الخيانة التي تبررها الرغبة في الإغراء)؛ ويعبران عن الإشكالية نفسها (إشكالية البرجوازية المكتئبة غير الناضجة والنرجسية، التي تبذل جهودا كبيرة لتكون عاهرة[1]).

الفن العصري والتأثيث المنزلي

مثل الكتابة، يمثل الفن التشكيلي للمرأة وسيلة لتجسيد الفراغ أو للتأثيث المنزلي. على الصعيد الاجتماعي، وبما أن متاحف الفن المعاصر تتيح للمرأة المنتمية للطبقات المجتمعية العالية سببا آخر للتسوق، أو حتى لممارسة التجارة، فليس من الغريب أن تكون الأعمال الفنية المعروضة فيها تستحق أكثر أن تدخل في زاوية «موضة وتأثيث منزلي».

الموسيقى المحصورة في الأداء

أما في فن الموسيقى، وإذا كانت المرأة تتفوق في الأداء: الغناء الكلاسيكي أو المنوّع، والعزف الكلاسيكي، فإنها تبدو أقل ارتياحا حين تمارس الارتجال في فن الجاز (التغيير حول موضوع معين)[2] أو التأليف الموسيقي؛ أي حين يتعلق الأمر بالإبداع الموسيقي فعلا.

التمثيل والرقص، الفنان النسائيان الوحيدان[3]

إذا كانت الممثلة تشعر بأنوثتها الكاملة حين تمارس فن التمثيل، فلأن ذلك يوازي عندها رغبة دفينة، هي رغبة ممارسة إغرائها.

لأنها مطوقة بِدَور وإخراج، فإنها تشعر بأنها تؤثث فنيا فراغَها الداخلي. هذا الشعور بالامتلاء يزيد حين تبرز للناس، فتضاعف الخشبةُ والشاشة جسدَها وشركاءها.

---

(1) وهي نفس شخصية روز داوسن (Rose Dowsen)، بطلة فيلم تيتانيك (Titanic). [المؤلف].

(2) تشهد على ذلك المحاولات الرديئة للأخوات لابيك (Labèque). [المؤلف].

(3) أما الموضة والتزيين (الديكور) فيُمنحان تقليديا للمثليين. [المؤلف].

ولكن إذا كانت الممثلة أفضل اجتماعيا، فإن الراقصة هي التي تجسد التعبير الأكثر صفاء للأنوثة؛ فهي تستطيع أن تمارس إغراءها على الرجل والفضاء المحيط، بمجرد لغة جسدها. (..)

المكتئِبة أو المرأة الفنانة، في مقابل العاهرة أو فن أن تكون امرأة (خاتمة)

من الصالون الأدبي إلى وسائل الإعلام، تعكس الثقافةُ الأنثوية هذا الخليط من العُصاب والشره إلى المجتمع الراقي والبؤس العاطفي، حيث تحاول البرجوازية المكتئبة أن تتلمظ بكلمات تملأ بها فراغها الداخلي، وتحاول العاهرة أن تملأ جيبها، وألا ينتهي بها الأمر وحدها.

تعبيرات مذعورة، تستمر إلى جانبها الأشكالُ المرحة للأنوثة التقليدية، المعبرة عن الرغبة والإغراء.

تحت مصطلح «ثقافة نسائية»، تتواجه في الحقيقة مدرستان متقابلتان:

- المكتئبات بنقص عاطفي (الأدب، الجامعة، الفن المعاصر)؛
- والمهرّجات الجميلات (التمثيل، الرقص، المنوعات).

نساء الطائفة الثانية، جاهلات في الغالب، ويدّعين الإعجاب بنساء الطائفة الأولى؛ ونساء الطائفة الأولى، فقيرات في الغالب، يحسدن سرًّا نساءَ الطائفة الثانية[1].

الأنثوية والسياسة

العمل، نقيض الأنوثة (مقاربة تاريخية)

إن الالتباسات المتعددة للأنثوية الإعلامية تفرض علينا إعادة النظر في فكرة «الأنوثة» نفسها.

إن الفرق الجنسي وتقسيمه الطبيعي للعمل، يفرض بدائيا على الرجل «الإنتاج» (الصيد، الزراعة، العمل اليدوي)، بما أن الطبيعة تفرض على المرأة «التناسل» (الولادة، الأمومة)، فالعمل والذكورة مرتبطان رمزيا.

ولكن بما أن التحرر من هذا العمل الجسدي البدائي هو الطريق نحو أي ارتقاء اجتماعي، فإن هذا الأخير يقترن عامة بالحرص على محو وصمة الذكورة، التي أصبحت مرادفة لنقص في القيمة.

---

(1) الممثلة الإباحية تاباتا كاش تعيش بحماسة نسبية، ما تكتب عنه الروائية مارجريت دوراس في وحدة جافة. [المؤلف].

وهكذا فإن الأرستقراطية تظهر أنوثة متعمدة، لتعبر عن المسافة القصوى التي تفصلها عن عالم العمل. أما البرجوازي الكبير، الذي تجبره قيمه الأخلاقية[1] على مزيد من التستر، فإنه يلتف على الممنوع في هذا الباب، بمنحه امرأتَه خصال أنوثة لا يستطيع التحلي بها بنفسه[2].

على العكس من ذلك، وفي أسفل السلم، فإن كل عمل جسدي يُذكِّر من يقوم به؛ لذلك فإن المرأة العاملة تكون رمزيا - وأحيانا جسديا أيضا - أقل أنوثة من الرجل المعتني جدا بأناقته.

الأنوثة، فئة اجتماعية

لأنها رمز الترف والرفاهية، فإن الأنوثة أصبحت عبر التاريخ العلامة الاجتماعية للانتماء للنخبة. جمالية تافهة (أناقة، أبّهة،..) يسجل المعدَم بها مسافة بينه وبين الذكورة المتقشفة لعالم الشغل، والذي يصنف فيه على حد سواء العاملة اليدوية والمهندس.

الوضع النسائي والأنوثة إذن لا يتماشيان بالضرورة جنبا إلى جنب. مجموعة من المنشطين الثقافيين مكونة مثلا من برنار هنري - ليفي (Bernard Henry – Lévy)، وباسكال بروكنر (Pascal Bruckner)، وأندري جلوكسمان (André Glucksmann) تجسد الأنوثة أكثر من امرأة دركية أو أمٍّ كورسيكية أو جاني لونجو (Jeannie Longo)[3].

التصور الذكوري للعمل والأمومة

ولكن الربط بين العمل والذكورة، أدى إلى أثر سيء هو إدراج عمل آخر في الظل، مع أنه لا يقل أهمية واستحقاقا للاحترام، وهو: الأمومة.

عمل نسائي، هو الإنجاب وتربية الأطفال، غير معترف به في التصور الذكوري، ولا عند الأنثويات أيضا. وذلك أن مطالبتَهن بحق المرأة في الشغل يعني في الواقع:

- تجاهل عمل الأمومة وتربية الأطفال الذي تقوم به النساء منذ فجر التاريخ، وذلك باسم تصور ذكوري متشدد[4]؛

---

(1) القيم الأخلاقية للجهد والمصلحة العامة، التي باسمها يحل محل الأرستقراطي. [المؤلف].

(2) ومن هنا نشأة «الخياطة الرفيعة». [المؤلف].

(3) رياضية فرنسية، كانت بطلة العالم لسباق الدراجات مرارا. [المترجم].

(4) إن الأنثوية تعدّ - على صعيد ميدان الشغل، كما على صعيد الرغبة الجنسية - خضوعا للذكورة - دون أن تتفطن لذلك. [المؤلف].

- وبالتالي، الدعاية لليوم المزدوج بالنسبة للمرأة (عمل داخل البيت وخارجه).

وهكذا، فالنساء اللواتي كنّ تقليديا مالكات ومدبرات بالاشتراك لمقاولة أسرية صغيرة (هي الأسرة)، يقدّمن فيها عملا ذا قيمة عظيمة (الحب وتربية الأطفال)، يجدن أنفسهن اليوم - في أغلبيتهن - عاملات تابعات مرؤوسات. أجيرات بأجور ضعيفة، في شركة لا يملكنها (شركة مجهولة الهوية)، يخدمن ثمان ساعات في اليوم رجلا لم يختَرْنه (المدير) قبل الرجوع للخدمة في منازلهن.

وكل ذلك، بالطبع، بفضل مكتسبات الأنثوية.

المساواة في العمل: مطلبٌ للعاملات مشروع ومعاد للأنثوية

«لعمل مساو، أجرٌ مساو» يعني بالنسبة للنساء، كما بالنسبة لغيرهن[1]، المطالبة بأن يكون الأجر على قدر العمل، لا على أساس أية خصلة خارجة عن المؤهلات الذاتية، كالعِرق والدين والجنس. مطلبٌ اجتماعي مشروع تماما، خاصة أنه في تعارض تام مع الادعاء الأنثوي بكون النساء فئة اجتماعية مستقلة[2]:

- الأنثوية المذكِّرة تقرّ ضمنا بنقص في الأنثى ينبغي تكميله؛
- وأنثوية الاختلاف تعيد الاعتبار لتعامل مبني على الاختلاف أيضا.

ولكن هذه المطالبة من النساء في مواجهة العمل، لم تصبح مشروعة إلا لأن المساواة صارت فيه واقعا. لأنه بالتقدم التقني (والذي هو بالمناسبة راجع للرجال وحدهم) وتطور القطاع الثالث، واللذين وقعا خلال السنوات الثلاثين الأخيرة، لم يعد من المطلوب تلك القوة الجسدية التي كانت تجعل من الذكورة صفة عليا، وفي الغالب ضرورية وحاسمة[3].

ما تعرضه الأنثويات إذن بفخر على أنه كسب سياسي، ليس في الحقيقة سوى النتيجة اللازمة لتطور العمل، خاصة انتشار التنميط المعياري. وما يعرِضْنه على أنه مصلحة النساء هو في الحقيقة مصلحة الإنتاجية، وبالتالي المردودية.

---

(1) كالعمال المهاجرين مثلا. [المؤلف].

(2) الأنثوية التي تعترض عليها امرأة مثل لويز ميشيل (Louise Michel) انطلاقا من جدية معركتها من أجل المساواة الاجتماعية. [المؤلف].

(3) ولذلك فإن هذه المطالب المساواتية لا معنى لها مثلا في أعمال البناء، حيث لا يمكن للمرأة أن تعطي نفس نتيجة عمل الرجل في المدة نفسها. [المؤلف].

أما التقدم الاجتماعي، فبما أن عمل النساء لا يعوّض الأمومة وتربية الأطفال بل يضاف إليهما، فإن ذلك يرادف عند أغلبهن مضاعفة وقت العمل، أي تقهقرا اجتماعيا محتوما[1].

المرأة (والرجل أيضا) ليست فئة اجتماعية

إذا كانت الأنوثة علامة على نوع وصول إلى الرفاهية الاجتماعية، فإن المرأة – والرجل أيضا – ليست فئة اجتماعية. إن مصلحة البرجوازية (أنثوية كانت أو لا) نادرا ما تلتقي مع مصلحة العاملة، بل إن الأولى تستغل الثانية ومن يشابهها دون أدنى تردد.

ولكن بسبب الاختزال النفسي الراجع إلى عدم التماثل الأوديبي، فإن لدى النساء في مجموعهن ميلا إلى التقليل من أهمية هذه الاختلافات الاجتماعية؛ وبالتالي إلى الإحساس بكونهن نساء، أكثر من إحساس الرجال بكونهم رجالا[2].

أولوية الإغراء – والتي هي صفة لازمة للعقل النسائي[3] – تمنع الأنثوية المتعاطِفة من إدراك كون المضطهِد الأول للمرأة ليس الرجل من حيث هو، بل الرجل أو المرأة الأكثر ثراء؛ مع جعلها المرأة الأجمل والأصغر سنا عدوتين معلنَتين.

النساءُ الموجودات في درجة أعلى من السلم الاجتماعي، أو المسلحات بشكل أفضل في ميدان الإغراء، واللواتي يعُدن بنا إلى تقسيمنا السابق للأنثويات:

- البرجوازية المكتئبة (أكثر ثراء)؛
- العاهرة الوصولية (أكثر إغراء)؛

يَسحقن دون تردد وباسمهن: عاملات التنظيف، والسكرتيرات، وعاملات الاستقبال الهاتفي، والبائعات، وما يلتحق بهن من النساء الأسوأ حالا.

---

(1) ولكن لأن الأنثويات نادرا ما يكنّ أمهات أو آتيات من عالم الشغل، فيمكننا أن نفهم أن هذه الحقيقة لا تشكل لهن أدنى حرج. [المؤلف].

(2) لذلك لا يوجد – على الرغم من المعاناة الجنسية للرجال الفقراء في مواجهة عجرفة النساء البرجوازيات المتحررات – حركات للدفاع عن حقوق الرجال؛ لأن الرجال وإن كانوا في وضع بؤس شديد يفهمون أن الأمر يتعلق بالمال، أولا وقبل كل شيء. [المؤلف].

(3) والتي هي الأصل أيضا في الاتساق السطحي للدوريات النسائية. [المؤلف].

الأنثوية: مرض نفسي واجتماعي

وهكذا فإن قضية اقتصادية واجتماعية (الوصول إلى سلطة معينة بالنسبة لفتيات ونساء البرجوازية الجديدة للقطاع الثالث)، مركبة مع مرض أوديبي خفيف (الأب الغائب، الأم المحبطة..)، يمكن أن تولّد تمثلات رمزية عدوانية (النظرة إلى الرجل على أنه غدو ومضطهِد)، تأتي لتشوش على وظيفة بيولوجية (الأمومة)، مع كونها تظن نفسها تمثلات سياسية (الخلط في الوعي الأنثوي بين صراع الطبقات وفروق الجنسين).

وإذا أردنا التوضيح بمثال: تقول الأنثوية بأنها لم تعد تريد الاعتناء بالأطفال وأن تكون خادمة للرجال؛ ولكن الحقيقة هي أن البرجوازية الجديدة صار عندها ما هو أهم من العناية ببيتها وأطفالها، ففوضت هذه المهام الفرعية إلى عاملة النظافة أو المساعدة المنزلية عندها!

الأنثوية: إفقار ثقافي رجعي سياسيا

بما أن فن المرأة يكون حسب درجة عدم الارتياح لديها (تصوير الفراغ، اختزال نفسي، تقليد للرجل، أو تأثيث داخلي)، فإنه يمثل في الحالات جميعها إفقارا ثقافيا لا ينازع فيه.

على الصعيد السياسي[1]، فإن الأنثوية حين عوضت جدية الحتميات الاقتصادية بتفاهة الإغراء، تسعى - على الخصوص - إلى وضع قناع على عجرفة البرجوازيات المطالبات بامتيازاتهن ووصولية العاهرات الرجعيات أيضا[2].

تحت مظهر تقدمي، فإن الأنثوية ثقافية كانت أو اجتماعية، في حقيقتها عامل إفساد للعقول واضطهاد وفرقة اجتماعية منحرفة جدا:

- المعارَضة المزعومة بين الرجال والنساء تنسف التضامنِ العمالي في محلات الشغل، لصالح ستاخانوفيةِ[3] المرأة المديرة المثابِرة على إبراز قدراتها (أو على الأقل محاولة الحصول على ذكر مسيطر تكون رفيقة أو زوجة له)؛

(1) لا تخطئ العين شبكة القراءة الماركسية التي يستعملها المؤلف هنا، وفي مواضع أخرى من كتابه عن تحليله لعلاقة الأنثوية برأس المال، وبمصالح «الرجعية» السياسية. [المترجم].

(2) نسجل أن الأنثويات لا ينتسبن إلا نادرا إلى الأنظمة أو البلدان التي تعرف تقدما في حقوق النساء مثل كوبا أو الصين، ولكن إلى بلد كالولايات المتحدة حيث الفروق الاجتماعية واضحة أكثر. [المؤلف].

(3) نسبة إلى العامل المنجمي ألكسي ستاخانوف (Aleksei Stakhanov) الذي استخرج ليلة 30 إلى 31 غشت 1935 - فيما يقال - أكثر من مائة طن من الفحم الحجري، فجعلته الدعاية الستالينية في الاتحاد السوفياتي مثالا يحتذى من طرف العمال الآخرين، في تجاوز كميات العمل المطلوبة منهم. [المترجم].

- الحوار المزعوم حول دخول النساء لميدان السياسة (علما بأنه لا يمنع من ذلك شيء في الدستور، وأن النساء يمثلن أكثر من نصف الناخبين) يصلح فقط لستر غياب أي مشروع سياسي[1].

الأنثوية: نتيجة لتأنيث الاشتراكية الديمقراطية

ولكن إذا كانت الأنثوية الإعلامية تطابق دون شك المصلحة الواعية لسلطةٍ تُفَرِّقُ لتسودَ (وهي صفقة معقولة)، فإن تقدمها دون منازع في روح العصر له سببان أعمق:

- النسبة المتزايدة لعمال القطاع الثالث في المجتمع، وبالتالي:

- إضعاف صورة الأب ودوره داخل الأسرة (حين تكون ما تزال موجودة).

سببان مرتبطان بشدة، ويقودان إلى الحديث عن «التأنيث»[2] المحوري والاستراتيجي لمجتمعاتنا الغربية[3].

(1) - سواء أكان الأمر في اليمين بقضية النساء الوزيرات في الحكومة الأولى لـ«آلان جوبي» (Alain Juppé)، أو في اليسار بمقترح التساوي العددي. [المؤلف].

(2) سبق الحديث عن هذا الموضوع في المحور الأول من هذا الكتاب. [المترجم].

(3) عجرفة برجوازية اليسار تجد سندها الأول في مجاملة برجوازي اليسار لها: وراء سيمون دو بوفوار كان يقف جان بول سارتر، كما يمكن اليوم أن يوجد وراء بادنتر أو أجاسينسكي - جوسبان رجلٌ ما .. [المؤلف].

معالم الأنثوية الحديثة

من كتاب «وداعا آنستي» لأوجيني باستيي (ص7 - 19)

لم أستطع قط أن أطيق الأنثويات. إنهن لا يتوقفن عن الحديث عن غسل الأواني وتوزيع المهام في البيت؛ إنهن مهووسات بقضية غسل الأواني. (..) لقد استطعْنَ خلال بضع سنوات، أن يحوّلن الرجال المحيطين بهم إلى أناس عصبيين، وعاجزين، وغاضبين دائما.

ميشيل اويلبيك - من رواية «الجزيئات الأولية»

أنثوية حديثة

«لقد ترددت كثيرا قبل تأليف كتاب عن المرأة. الموضوع مزعج، خاصة بالنسبة للنساء؛ ثم إنه ليس جديدا. إن مشاجرات الأنثوية أسالت ما يكفي من المداد، وهي الآن مغلقة تقريبا: لندع الحديث عنها». بهذه الكلمات، افتتحتْ سيمون دوبوفوار عام 1949 كتابها البالغ الاشتهار «الجنس الثاني». إنها كلمات تسبق حبوب منع الحمل، والإجهاض، والثورة الجنسية، ونهاية السلطة الأبوية (الباطرياركية)، والتي رفعت شعار تحرير المرأة، ثم هي كلمات تريد بالبداهة أن تكون ساخرة. ولكن، ألم تصبح هذه الكلمات اليوم غير قابلة للاعتراض؟ بعد سبعين عاما من هذه الدعوة إلى إسقاط الهيمنة الذكورية، ألم تفُز الأنثوية في اللعبة؟

إذا صدّقنا كلام الأنثويات المعاصرات، فالجواب: لا. المرأة حرة، ولكن يبدو أنها ما تزال في القيود، في كل مكان. النساء يتزوجن أو لا، ينجبن أو لا، يطلّقن بحسب رغبتهن، يصبحن برلمانيات، ومديرات لكبريات الشركات، ولاعبات كرة القدم. لقد حصلن على جميع الحقوق السياسية والاجتماعية. لقد فَرضتهن قواعد التساوي العددي بشكل مصطنَع من الأعلى. لقد اختفت السخرية اللينة التي كانت تتعرض لها "النساء المتحررات"، لتترك المجال لنوع من الاحترام الممزوج بالخوف. ولكنّ الأنثويات المعاصرات يرفضن الإقرار بأن العالم الذي يتمنيْنَه، قد صار واقعا فعلا. إنهن ما يزلن يعتقدن أن السلطةَ الأبوية، و"أمراضَ الجنسوية الزاحفة"، والمؤامرةَ العالمية للذكر الأبيض الغربي، كل ذلك ما يزال في قلب مجتمعنا ويتحكم في أخلاقنا.

بتبنيها لطموحات ومنهجيات نظرية المساواتية ما بعد الحداثية، فإن هذه الأنثوية الحديثة لم يعد من غايتها رفع المرأة إلى مقام الرجل، ولكن جعل أوضاع البشر أجمعين على مرتبة واحدة. لم يعد أفق النضال هو «المساواة في الحقوق، بل التبادل بين الذوات». لقد غاص الكفاح من أجل النساء في أوحال مآزق نظرية، وعلق في فخ تناقضات سياسية بعيدة عن «الحياة العادية للنساء»، بحسب تعبير كريستوفر لاش (Christopher Lasch). إلغاء الدعارة ولكن

إباحة الحمل بالنيابة، النضال ضد صور النوع النمطية في المدارس ولكن مَأْسَسة المساواة التي تؤدي إلى ماهوية النساء وتصنيفهن، (..) الاصطفاف مع الخيارات الشخصية للأفراد ولكن رفض الإحساس بالألم النفسي بسبب الإجهاض، التصريح بالانتماء لليسار ولكن الهوس بإدخال الوضع النسائي بتكلف في العمل المأجور الرأسمالي: بتحالفها مع الأقليات، جنسيةً كانت أو غيرها، لم تعد الأنثوية الحديثة تناضل من أجل تحسين الحياة اليومية للأغلبية الساحقة من النساء، ولكن من أجل التفكيك المخطط للهويات باللجوء إلى أقبح خدع الهندسة الاجتماعية.

رحم الباطرياركية الخصبة دائما

تستنكر الأنثوياتُ التاريخيات لسبعينيات القرن العشرين كونَ فتيات اليوم لم يعُدن أنثويات. إن الملل المشروع الذي نشعر به أمام الصراعات غير المجدية كتغيير قواعد اللغة على أساس جنسوي أو تأنيث أسماء الحِرَف، يبدو لهن نوعا من نكران الجميل. إنهن يرين إحجامنا فخا منصوبا من طرف قوى الظلام لتخدير انتباهنا. كما أن رجوع «الوحش البشع»[1] ممكن دائما، فإن رحم الباطرياركية خصبة دائما، ويحتاج منا ذلك أن نبقى متيقظات. إرخاء حبل الانتباه ثانية واحدة، يعني خطر رجوع الساعات الحالكة للنزعة الذكورية. ولكن بسبب تركيزهن على النضال المستميت من أجل إيجاد عالمٍ، هو موجودٌ أصلا، فإن أخواتنا الكُبرَيات يتعامين عن المخاطر الجديدة التي تهدد المرأة والأنوثة.

«ما يميز روح هذا العصر هو الحماس الذي يتحرك به ضد أعداء قد انتصر عليهم من قبل» هكذا يلخص آلان فينكلكروت (Alain Finkielkraut) هذه القضية. تضاعف الأنثويات من غضبهن أمام الأشباح الباهتة لعالم الأمس. تهاجم أنثويات حركة «الفيمن» بهستيريا مشبوبة الكنائسَ الخاوية. تصرخ أنثويات حركة أخرى بوجوب المساواة في الأجور، متناسيات أن

---

(1) الوحش البشع (la bête immonde): عبارة تُستعمل كثيرا للإشارة إلى النازية والفاشية ومعاداة السامية، وما أشبهها من إيديولوجيات اليمين المتطرف، التي تواجَهُ أطروحاتُها في الإعلام عادة بالقول بأن «الرحم التي أنجبت الوحش البشع ما تزال خصبة»؛ أي أن رجوع النازية والفاشية مع الدمار الذي تسببتا فيه لا يزال ممكنا اليوم. تستعمل الأنثويات الفكرة نفسها للتحذير من عودة الفكر الذكوري، والنظام الاجتماعي الباطرياركي. [المترجم].

الأجور في انحدار بالنسبة للجميع، وأن البطالة أولوية مطلقة للنساء كما هي للرجال. تتتبع أخريات بإصرارٍ أدنى عبارة يَرَيْنها «جنسويةً» في الصحف أو الشاشات، لدرجة عدم التفطن إلى أن روح اللغة نفسه في انحطاط تحت تأثير الإصلاحات العشوائية.

ولكن، لم تعرف الأنثى قط خطرا كالذي تعرفه اليوم. المثل الأعلى للمساواة بين الرجال والنساء، واختلاط الجنسين على الطريقة الفرنسية، مهددان بطهرانيةِ إيديولوجيا النوع (الجندر) والنموذج المعياري لعدم التمييز. صارت الأمومةُ التي هي امتياز نسوي خالص، محتكرةً من طرف التقنية الحديثة والسوق. (..) ولكن هذه الأخطار متجاهلة، إن لم تكن معززة، من طرف القائمات على ما يمكن أن يسمى «أنثوية أرويلية[1]». أنثوية حديثة لم يعد لها من غاية سوى تدمير الهياكل الاجتماعية والتحضير لإنسانية جديدة، عامة، وحيدة، لا تُقبل فيها الفروق ولكنها تُمتحن وتختار على القائمة.

هل هي لوحة كارثية مبالغ فيها؟ سيرى القارئ في الفصول التالية أن الأمر ليس كذلك. في مواجهة حقيقة الهجمة الإيديولوجية المبعثرة (ولكن التي تصب في اتجاه واحد)، قد يجد نفسه مائلا إلى إنكار الأنثوية كلها، مع هذه الأنثوية الحديثة الزائفة. لكنه سيكون مخطئا لو استسلم لهذه الرغبة. نعم، يمكن فصل الحَبّ عن القش. نعم، توجد أنثوية «حسنة» وأخرى «سيئة». نعم، يجب التمييز بين قصد محمود وسَخِيّ وبين قِيم أنثوية صارت مجنونة. نعم، لا يزال بالإمكان أن يكون المرء أنثويا في الغرب في هذا العصر الذي نعيش فيه.

في مرآة ماركس

حين استقبل جان جاك سيرفان شرايبر (Jean – Jacques Servan – Schreiber) سيمون دو بوفوار عام 1975 في برنامجه التلفزي، طرح فكرة جيدة مفادها أن كتاب «الجنس الثاني» يعد للأنثوية مثلما يعد كتاب «رأس المال» للماركسية. اخترع ماركس صراع الطبقات. اخترعت دوبوفوار صراع النساء. بعضهم يؤكد اليوم أن المادية الثورية صارت أداة متجاوَزة لفهم البشر؛ وأن الإنسان لا يمكن أن يُختزل في بُعدٍ واحد هو علاقات الإنتاج؛ وأن الماركسية قد أكملت قسطها الجدلي في التاريخ. أستطيع أن أزعم بدوري أن الأنثوية أصبحت أداة متجاوَزة في فهم النساء؛ وأنها قد أتمّت العمل الذي كان عليها إتمامه. لنشكر سيمون دو

(1) نسبة إلى جورج أرويل (George Orwell) صاحب الرواية المشهورة (1984). [المترجم].

بوفوار، ثم لنطو هذه الصفحة. ولكن أي حائط يجب أن يسقط ليحررنا من الأنثوية الحديثة[1]؟ أي ثائر متمرد سيعلن موت نظام يحكم المؤسسات والعقليات دون أن يمكن الرد عليه بطريقة أخرى غير تقمص شخصية الرجعي المحافظ؟

نعم، مثل الماركسية تماما، تعاني الأنثوية من خطأ هيكلي في التحليل. يستبق ماركس هذه الفكرة - على عادته في الاستنتاجات الزائدة - فيطبق مخطط صراع الطبقات على الأسرة: «داخل الأسرة، الرجل هو البرجوازي، والمرأة تلعب دور البروليتاريا». هذا الافتراض سيكون الأساس الذي يهيكل الأنثوية كلها، بمنحها العلاقة بين المسيطِر والمسيطَر عليه كشبكة قراءة كونية. ستكتفي دوبوفوار بأن تضيف لها نموذج السود الأمريكيين وصراعهم من أجل التحرر.

تجد النساء أمامهن - مثل الأمريكيين السود - آفاقا محدودة، بمجرد الولادة. وهكذا تجمعهن دوبوفوار - على الرغم من أحوالهن الاجتماعية المتباينة - في إطار شعب واحد يتعرض لنفس الحِمل الثقيل، أي الهيمنة الذكورية. وهكذا، وعلى الرغم من إظهارها التقززَ العميق من الجوهرانية، فإنها لا تني - على طول كتابها «الجنس الثاني» - تصف مجموع نوع النساء بلفظ غريب «هي». ولكن - وخلافا للبروليتاريا أو للسود الأمريكيين تحت نظام التمييز - فإن النساء لا يشكلن جماعة مصلحية، وإنما يشاركن في خلية مستقلة وكاملة هي الأسرة. وعلاوة على ذلك، وخلافا للفروق العرقية، فإن الفرق بين الجنسين مُعطى مؤكد؛ وخلافا للفروق الاجتماعية، فإن الفرق الجنسي ثابت ومرتبط جوهريا بالطبيعة الإنسانية. حين تزرع بذرة التفريق ليس بين الطوائف، ولا بين الطبقات، بل في قلب الأسرة، فإن دوبوفوار تهاجِم نواةَ البشرية التاريخية، والتي أريد لها أن تكون ساحة معركة في حرب أبدية بين الجنسين.

الأمواج الثلاثة

انطلاقا من هذه القطيعة الأولى التي تريد أن تكون - كما عند ماركس - ذات بُعد ابستمولوجي، فإنني أميّز بين ثلاث موجات أنثوية كبرى. تهدف الأولى إلى امتلاك الحقوق المدنية والسياسية التي حصل عليها الرجال منذ 1789. يتعلق الأمر باستدراكٍ أكثر مما هو ثورة. خلافا لما يمكن اعتقاده، لم تكن الأنوارُ أنثوية، فإن الحداثيين تبنوا التراتُبية الجنسية للعالم. لقد كانت الثورة الفرنسية قضية رجالية. وخلال قرن ونصف، رُفض إعطاء حق التصويت

(1) كما سقط حائط برلين إعلانا عن سقوط الشيوعية. [المترجم].

للنساء مخافة التوجه المحافظ الذي كنّ يظهرنه في هذه المرحلة المحورية من تاريخنا. تشرح ذلك منى أوزوف (Mona Ozouf) قائلة: «لقد قاومت النساء بشدة وإصرار إجراءات الثورة لإلغاء المسيحية، والنظامَ الجديد للأعياد، والتقويم الثوري. هن اللواتي طالبن بسماع الصوت المُسَلّي للأجراس، وتركن العمل أيام الآحاد، وحاولن إيقاف العربات التي تنقل التزيينات المنتزعة من أماكن العبادة، وقاطعْن الرهبان الذين أقسموا على الدستور المدني، وحمَين الرهبان الآخرين. لقد كنّ ينظمن لقاءاتٍ للعبادة السرية. هذا الخطر الكنسي، المرفوع مثل ثوب أحمر فوق الرؤوس، سيُستعمل طويلا فيما بعد لإقصاء النساء من الاقتراع العام»[1].

الموجةُ الثانية هي التي ستؤدي – في سياق أحداث ماي 68 – إلى تحرير الجسد، والذي سيترجَم أيضا في الدائرة القانونية: الطلاق، تحديد النسل، الإجهاض، أمور تسجل الوصول إلى المتعة الجنسية الحرة تماما. هذا التحرر من قيود الطبيعة ولكن أيضا من التقاليد، يستمر اليوم مع الحمل بالنيابة، والرحم الاصطناعي، وتخزين البويضة، وكل ذلك يسعى إلى تحقيق وعد سيمون دوبوفوار بتحرير النساء من شَقاء كونهن «حُكِم عليهن بيولوجيا بتكرار الحياة».

الموجة الأنثوية الأخيرة هي التي نراها اليوم. باعتمادهن حرفيا على تصريحات «الجنس الثاني»، التي تقرّر أن «غريزة الأمومة غير موجودة»، وأنه «لا يوجد بين الجنسين فرق بيولوجي صارم»، تحاول الأنثويات الحديثات – بنوع من التقشف التافه – تفكيك آليات الهيمنة التي بينتْها دوبوفوار. إن دونية المرأة مؤامرة ممتدة عبر آلاف السنين، ولا بد من إعادة تحطيمها دون توقف.

في «الجنس الثاني» وضحتْ دوبوفوار – بقدر كبير من المهارة الأدبية والصرامة الفلسفية – كيف يحوّل المجتمع الفتيات الصغيرات إلى ربات بيوت مخلصات. لقد بينت – بصبر ودقة – كيف تُؤسس مَوضعة الذات الأنثوية، ومصير النساء اللواتي يصوَّرن على أنهن «الآخر» في مقابل الذات الذكورية المفهومة على أنها «الوحيد». لقد كشفت معنى المؤامرة الممتدة لقرون متطاولة، والتي تؤسس للسيطرة على النساء. بعد خمسين سنة، لا يزال «الجنس الثاني»

---

(1) من التزييف المنهجي للتاريخ: الزعم بأن الحداثة وفكر الأنوار عملا على تحرير النساء، ومنح المرأة حقوقها الكاملة. والحق أن شواهد التاريخ تبرهن على أن حقوق المرأة في العهد القديم كانت أوفر، وإن كان الإنسان عموما كان أقل تحررا. وإذا كانت المرأة قد شاركت في الثورة الفرنسية بكثافة، فإن مشاركتَها كانت في أسفل الهرم (المظاهرات والاعتصامات والمسيرات) لا في أعلاه (القرار السياسي) الذي كان حكرا على الرجال. هذه الفكرة المحورية الهامة تستحق بسطا أكثر، لا تكفي هذه الحاشية له. [المترجم].

يعد برنامجا للعمل. كل «البناءات» التي أزيح الستار عنها في هذا الكتاب لا بد من تفكيكها دون توقف. تعوَّض هندسة اجتماعية، تكونت خلال ألفين إلى ثلاثة آلاف سنة من العادات والإصلاحات، بأخرى لا تعدو أن تكون صنعة يدوية منزلية من نخبة تدّعي أنها طليعة للمجتمع. هذه القراءة الحَرفية لكتاب «الجنس الثاني» تصل ذروتها في الصراع ضد الصور النمطية التي يقال عنها إنها جنسوية، وهو الصراع الذي صار رأس حربة الأنثويات المعاصرات.

ضحكة دوبوفوار

المثير للانتباه عند سيمون دوبوفوار في كتاباتها كلها، هو رفضها العنيف للزيف الأخلاقي في النظام البرجوازي، وتعطشُها الذي لا يرتوي إلى الحرية. لكن صارت الأنثوية اليوم (هل هي حيلة من العقل أو سخرية من التاريخ؟) ملجأَ النظام الأخلاقي الجديد. تحت قناع ليبرالية لامحدودة، تستدعي الأنثويةُ طهرانية متطلبة إلى درجة أن مجتمع القرن التاسع عشر يكاد يبدو معها تحرريا. إنها تربّي ذوقا عميقا لنزعة الظهور بمظهر الضحية - على نقيض ما كان عليه الحدس البوفواري - ، لدرجة التشكيك في أن تكون الثورة دائما صحيحة. لم تختف تلك «السيدة الوقور ربة البيت» التي كانت دوبوفوار تشجبها على طول كتابها؛ ولكنها صارت مناضلة. وهذا أسوأ.

حين أقرأ كتابات "القندس"[1]، فإنني أرى أثر العبقرية الإنسانية التي تسعى إلى امتلاك التاريخ، وقلب الطاولة والتخلص من جميع الأفكار المسبقة لذلك العصر. بالطبع، دوبوفوار ليست نيتشه. ولكن يوجد لدى كليهما - إلى جانب صلابة الذكاء اللامحدود - الرغبة في المضيّ إلى غايات الأمور. أسجل أن نيتشه - حين لم يُقرأ جيدا، ولم يُفهم جيدا - قد أَلهم الإيديولوجيات الأكثر إهلاكا للناس[2]. وأسجل أن دوبوفوار - حين لم تُقرأ جيدا، أو ربما حين فُهِمت أكثر من اللازم - تُلهِم اليوم القائمات على إيديولوجيا من الهذيان الخالص. ما بعد

(1) (castor) هذا لقب سيمون دوبوفوار، الذي شهّره سارتر، خاصة في ديوان رسائله إليها. ويبدو أن أصل اللقب من التشابه اللفظي بين «بوفوار» و«بيفر beaver» وهو اسم حيوان القندس بالإنجليزية. [المترجم].

(2) كانت نصوص نيتشه مصدرا مهما للتسويغ الإيديولوجي لدى رؤوس الدعاية النازية، مع استعمال قدر لا بأس به من التحريف والتأويل. [المترجم].

الأنثويات هضمن الجرأة التحررية، واجتررن الحدس البوفواري إلى حد إنجاب نظام أخلاقي جديد، أشد قتلا للحريات بسبب كونه نابعا بشكل فجائي من عقول غير مثقفة، دون أن يمر من قرون من العادات والتقاليد. دوبوفوار قرأتْ كل شيء. كانت تستدعي لِدعم أطروحاتها تولستوي، بارس (Barrès)، كلودل (Claudel)، جيد (Gide) وجوني (Genet). لم يكن شيء من الأدب غريبا عليها. كانت تعرف القلب الإنساني بالعمق والحكمة الموجودَين عند محبي الروايات. وكانت أيضا تعرف أنه لا يوجد شيء سهل. ما الذي كانت ستقوله اليوم، لو رأت أن وريثاتها يحاولن منع عرض نحت يمثل الصورة الفوتغرافية المشهورة «قُبلة في التايمز سكوير» بحجة كونه يمثل «اعتداء جنسيا»؟ ما الذي كانت ستقوله لو أنها قرأت بعض النصوص التي تقترح منع عرض اللوحة المشهورة «القفل Le verrou» لفراجونار Fragonard، لأنها لوحة تمجّد الاغتصاب؟

إن الحمّى الوجودية سلكت طريق التقريرات البرلمانية، والطريق الفردي لامرأة حرة أضاءته الشمس الكئيبة للأدوات الإحصائية. كانت المادة الأولية لدوبوفوار هي الأدب، أما مقلّداتها فيتسلحن بالآلات الحاسبة، لعدّ تطور التساوي العددي بين الجنسين. في الوقت الذي لم تكن المساواة فيه موجودة، استطاعت امرأتان اسمهما سيمون الوصول إلى أعلى درجات الفلسفة في السوربون: سيمون فيل (Simone Veil) وسيمون دو بوفوار. اليوم، وبفضل الابتزاز النيو - أنثوي، لدينا نجاة فالو - بلقاسم[1] في الحكومة.

يمكنني أن أسمع ضحك دوبوفوار، وله أهدي هذه الصفحات.

---

(1) سياسية اشتراكية فرنسية من أصل مغربي، تولت مسؤوليات وزارية منها وزارة حقوق المرأة، ووزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي. ستُنتقد كثيرا في هذا الكتاب بسبب مواقفها الأنثوية المتشددة. مقارنتها بالسيمونَين مؤشر مهم على تدهور الحالة الفكرية العامة، ودخول مَن لا يستحق من النساء إلى أعلى مدارج الفكر والسياسة فقط بسبب ابتزاز التساوي العددي. لكن يُمكن أن يورَد على المؤلفة أن التدهور الفكري ليس خاصا بالنساء، ولكنها حالة ثقافية عامة في فرنسا خصوصا والعالم عموما. [المترجم].

أنثوية الاستعراض (ما الذي يختفي وراء حركة «الفيمن»؟)

من كتاب «وداعا آنستي» لأوجيني باستيي (ص29 - 42)

نحن نعرف ما تحتاج إليه وسائل الإعلام. الجنس، والفضائح، والاعتداءات: يجب أن نعطيهم من ذلك. الظهور في الصحافة، يعني الوجود.

إينا شيفشينكو (مؤسسة حركة الفيمن)

قصة الثَّدِيّ

12 فبراير 2013. دخلت مجموعة من ناشطات «الفيمن»، بصدور عارية، إلى كاتدرائية نوتردام باريس. وعلى صرخات «البابا .. لا مزيد»، ضربن الأجراس الضخمة المعروضة في الممرات. ما غايتهن؟ إعلان الفرح بتنازل البابا بنديكت السادس عشر، الذي أعلن قبل يومين «استقالته» من مهمته البابوية. وكذلك - بالطبع - الاحتجاج على معاداة الكنيسة للمثليين»، وذلك بمناسبة التصويت على «الزواج للجميع»[1]. «الدين مشكلة»، هكذا علقت باقتضاب إحدى الناشطات، في ساحة هذا الرمز الألفي لفرنسا. هذه المسرحية الرخيصة، التي جرحت مشاعر الملايين من أتباع الديانة الكاثوليكية، كانت غير مفهومة، ومنتقَدة من أغلبية الشعب، ومنهم الأنثويات أنفسهن.

ما فائدة تكلف الحديث عن «الفيمن» إذن؟ ألن يكون من الأفضل - بالنظر إلى تحركاتهن دون غاية، وشعاراتهن دون برنامج، ونشاطهن الحقود والفوضوي، وغياب العمود الفقري النظري عندهن، وعدم نضجهن السياسي - أن تُحتقر بمجرد هزة كتف هذه الظاهرة العَرَضية التي ضخمتها كاميرات الأخبار المتواصلة؟ ألم تعبّر أغلبُ الأنثويات الفرنسيات - باستثناء بعض العضوات السابقات في «حركة تحرير النساء» MLF - عن عدم تضامنهن مع هذه الحركة المسعورة، المنقطعة في خطابها عن أنثوية فرنسية صارت مؤسَّسيةً منذ اجتياحها الوزارات، وجامعيةً منذ احتلالها المدرّجات؟

علينا أن نعترف لإينا شيفشينكو (Inna Shevchenko) وتابعاتِها بشيء من الطراوة. فهن لا يسببن الصداع مثل محاضرة عن نظرية النوع «الجندر» لجوديث بتلر (Judith Butler)، ولا الملل الذي ينتج من درس عن الأخلاق الجمهورية المتعلقة بالمساواة بين الجنسين. إن أنثوية «الفيمن» المبالغ فيها، والتي تجد مكانا لها على واجهات المجلات الشعبية، تتميز بكونها مثيرة وحركية وحداثية ومُدِرة للمال، وهي بذلك بعيدة البعدَ كله عن أنثويات ما بعد «بوفوار» واللواتي يتميزن بكونهن محافظات وذهنيات ومخالفات لروح العصر. ألا تصفهن

---

(1) المقصود قانون السماح بزواج المثليين في فرنسا، والذي أثار ضجة كبيرة بين المختلف فئات المجتمع الفرنسي، قبل أن يقع إقراره رسميا. [المترجم].

شيفشينكو - زعيمة الحركة - بجرأة واضحة، بأنهن «نساء مثقفات، يشبهن الرجال»؟ أما «إينا» وصديقاتها، فلا يترددن في الإعلان الصريح عن أنوثتهن، بجميع مظاهرها الجسدية، في الشعر والأظافر والصدور العارية طبعا. لهذه الأسباب كلها، لا بد من الحديث عن «الفيمن»، لأن عفويتهن المرفّهة ونجاحهن الإعلامي - ولكن أيضا عنفهن وبساطتهن - خيرُ معبر عن عصرنا.

تقنية الغلو

في شهر يونيو 2014، تسللت إحدى ناشطات «الفيمن» إلى متحف «جريفان Grévin» الخاص بتماثيل الشمع، وهاجمت تمثال فلاديمير بوتين بمهراس لتحطيمه. لقد كان الهدف مختارا بعناية، فالرئيس الروسي - عند الأنثويات الجديدات - ليس فقط دكتاتورا مرعبا، ولكنه تجسيد لمعاني الذكورة: وطنية محدودة، نزعة ذكورية متشددة، سلطوية لا هوادة فيها. يمكننا القول إن لديه جميع خصائص الرأسية الذكورية التي يكرهْنَها ويحاربنها. كان أحد المصوِّرين - وقد تم إعلامه بالحدث مسبقا - حاضرا لتخليد المشهد، الاستعراضي، المسرحي، السريالي. على بعد ألفي كيلومتر من الحرب الأهلية التي كانت تجتاح أوكرانيا، برهاناتها الجيوسياسية وجثثها الحقيقية، تهاجم دُمية إعلامية بصدر عارٍ تمثالا من الشمع، تحت الأعين المستغربة لبعض السياح اليابانيين، والنظرة الهادئة لتمثالَي باراك أوباما وفرانسوا هولاند. إنه مشهد يرمز لتفاهة نضال أنثوي، تائه في الاحتجاج المهووس والمخفَّف في الآن ذاته، على سلطة أبوية أخطبوطية متعددة الأوجه.

من المؤكد أن حركة «الفيمن» وُلدت في سياق نظام استبدادي. لقد كان التزامها النضالي الأول ضد استرقاق النساء والسياحة الجنسية، وهما آفتان حقيقيتان في أوكرانيا المنخورة بالفساد بعد مرحلة الشيوعية. وهذه قضية مشروعة دون نقاش. كانت أولى زياراتهن لفرنسا عام 2011، حين قمن بظهور ملحوظ، بصدور عارية، أمام منزل «دومينيك ستروس كان Dominique Strauss - Kahn»[1] بباريس، للمطالبة بإلغاء الدعارة. لقد كانت عملية أقل مصيرية دون شك. في الوقت نفسه، وداخل ما كان يسمى الاتحاد السوفياتي سابقا، كانت حالة المحتجات تصبح أكثر خطورة. في فبراير 2012 بموسكو، اجتاحت بعض الناشطات كاتدرائية «القديس المخلّص» وأنشدن «صلوات ضد بوتين»، مستهدِفات - في الوقت نفسه -

(1) سياسي اشتراكي فرنسي، الأمين العام السابق لصندوق النقد الدولي. استقال منه ومن العمل السياسي عموما بعد فضيحة تحرش ومحاولة اغتصاب في أحد فنادق نيويورك. [المترجم].

زعيم الكرملين والإكليروس الأعلى الأرثوذكسي. حُكم عليهن بالنفي إلى معسكرات الأشغال الشاقة. في غشت 2012 بكييف، قامت إينا شيفشينكو - تضامنا مع زميلاتها الروسيات - بتقطيع صليب مسيحي فوق ربوة ساحة «ميدان Maidan». وفرارا من غضب النظام الأوكراني، حصلت على اللجوء السياسي بفرنسا عام 2013، حيث أحضرت معها حركيتها السياسية التي ستطبقها في بلدنا بحذافيرها. لكن، هذا النشاط النضالي الحاد الذي ستظهره، ينحدر من هذا المعسكر الشرقي الذي مرّ فجأة من الجمود الشيوعي إلى اقتصاد السوق، وحيث وصل الفوَران الليبرتاري (التحرري) لسنوات السبعينيات متأخرا بأربعين سنة. إنه تفاوت موضِّح يشرح العقلية والمنهجية، ولكن أيضا الانبهار الأصلي الذي سببته هذه الحركة التجديدية الخالصة.

ثقافة الاستعراض الارتجالي

لا تستهدف حركة «الفيمن» فقط «الدكتاتوريات»، بوتين، والجبهة الوطنية[1]، ولكن تسعى أيضا إلى الإطاحة بالأديان، المسيحية والإسلام، المقدّمَين على أنهما عدوان لدودان. «حيث يبدأ الدين، تتوقف الأنثوية»، لأن «الأديان هي المحفز لفكر اللامساواة، الذي يشكل أداة رائعة للسيطرة»، هكذا تصرح الحركة في بيانها، الكلاسيكي دون قصد. «لا يمكن إصلاح نظام معيب، بل لا بد من تدميره». إنه برنامج واسع، سطحي، مغال، ولكنه يتلاءم مع روح النشاط الأنثوي منذ ظهوره على إثر أحداث ماي 68. إنه برنامج صراع متعدد الأشكال ضد الأبوية (الباطرياركية) ذات الهيئات القمعية الكثيرة، دينية، سياسية وجنسية.

يعدّ عنفُ الحركة اليوم استمرارا لما سبق. إذا كان مستغربا في الوهلة الأولى، أو يبدو مجدِّدا بالنظر لحركة أنثوية متصلبة في صراعاتها القديمة، فإنه لا يعدو أن يكون امتدادا للثقافة العنيفة للاستعراض الارتجالي، المحبّبة إلى الرائدات. لنتذكر: في 26 غشت 1970، وضعت اثنتا عشرة مناضلة إكليلا من الزهور على قبر الجندي المجهول، تكريما لزوجته، التي هي أعرق في الجهالة منه. ولا يهم أن يكون الرجال قد أدوا ضريبة دموية أعظم بكثير من النساء خلال الحرب العالمية الأولى، والتي كانت مجزرة ذكورية بالأساس، وإن كنا لا ننفي معاناة أمهات وبنات وأخوات «المشعّرين»[2].

---

(1) حزب اليمين المتطرف الفرنسي، الذي أسسه جان ماري لوبن، وترأسه ابنته مارين لوبن اليوم تحت اسم «التجمع الوطني Rassemblement national». [المترجم].

(2) Les poilus: لقب الجنود الفرنسيين في الخنادق خلال الحرب العالمية الأولى. [المترجم].

كانت هذه البادرة القوية وثيقة ميلاد «حركة تحرير النساء» MLF. لقد كان حدثا منظَّما من أجل آلات التصوير، كان حدثا رمزيا، إعلاميا، ولكنه كان يحمل رسالة حقيقية، متعلقة بامِّحاء المرأة في المجتمع. لا ننسى أيضا حماسة الرائدات اللواتي رمين أحشاء البهائم على البروفيسور لوجون (Lejeune)، الذي كان رمزا لمقاومة الإجهاض، أو تعرضن بالضرب للعجائز الكاثوليكيات اللواتي كن يشهَدن محاضراته. وأيضا نظيراتهن الأمريكيات اللواتي كنّ يُحرقن حمالات الصدور في أزقة نيويورك. وكذلك الشابات الماويات اللواتي كن يتعرّين في اللقاءات لفرض وجودهن على زملائهن الذكور. إن الأنثوية المناضلة كانت استعراضية دائما. وبهذا الاعتبار، فإن نساء «الفيمن» لم يزدن على إعادة تنشيط الموجة الثانية لسنوات 1970، تلك الموجة المندفعة والاستفزازية، الشريرة أحيانا، والتحررية دائما. إنهن إذن – بهذا المعنى – يمثلن نوعا من البعث بعد الموت.

الحاجة إلى وسائل الإعلام

ولكن خلافا للأنثوية القديمة، التي كانت لها منظومة نظرية وغايات محددة، فإن الأنثوية الجديدة استعراضيةٌ فقط. ومما يسهّل هذا البعد: الميل العصري إلى التعاطف والشفقة. لا يمكن أن توجد حلبة صراع دون تضحية. وعلى الرغم من أنهن يردن الظهور بمظهر المحاربات، فإن الفيمن لا يفُزن لأنهن يضربن غيرَهن، ولكن لأنهن يُضرَبن. وهن يمدّدن معنى «الأنثوية التي تتقمص دور الضحية» عبر إبراز آثار الضرب على أجسادهن، على أن ذلك علامة على صحة معركتهن. وهكذا تجد إينا شيفشينكو سعادةً واضحة في الإعلان عبر مواقع التواصل على أنها مهددة بالقتل. «يرادُ قتلنا، إذن نحن على صواب».

كما أن الملاكمين يحتاجون إلى تحدي خصومهم للرفع من معنوياتهم قبل النزال، فإن هذا الأسلوب ضروري أيضا في حلبة الصراع الأنثوي المعاصر الذي يحتاج – لكي يتجدّد – إلى أن يتحرش بالخصم ويحشد طاقته بارتكاب تجاوُزات جديدة[1]. هذا ما تفعله كاثرين

(1) رصد للواقع سليم إلى حد بعيد. وأنثوياتنا لا يخرجن عن هذا الإطار. في شهر أكتوبر 2019، أصدرت بعضهن في المغرب عريضة سمينها «خارجات عن القانون» للمطالبة بتغيير قوانين تجريم الزنا والإجهاض، وصرّحن خلال الحملة بأنهن يخالفن هذه القوانين عمدا. والغرض هو نفس ما ذكرته المؤلفة: التحرش بالآخر (دولة أو غيرها)، للحصول على مقام «الضحية المقموعة»، أو «الضحية التي تتعرض للتكفير من المخالفين المتزمتين»، وهو مقام مفيد جدا في النضال! [المترجم].

كوتيل حينما تقترح إلغاء «أجل التفكير» قبل الإجهاض وتريد أن تجعل من هذا الأخير حقا من الحقوق الأساسية، ثم هي ترفع برهانا على صحة مشروعها: الاعتراضَ الذي لقيه. إن الخوف من ردة الفعل القوية، التي يمكن أن تهدد مكتسبات النضال، هو الوسواس الحقيقي الذي يَسكُن الأنثويات المعاصرات. في حين يخصّصن طاقتهن كلها لترقب عودة الأزمنة المظلمة، فإنهن يحاولن الوجود بأي ثمن، من أجل البرهنة على أن حركيتهن لم تمت. ولتسويغ عملهن في «طرد الأرواح الشريرة»، فإنهن يحتجن إلى «الذَّكَر الشيطاني».

تقول أنثويات الفيمن إنهن قرّرن إظهار تُديّهن من أجل «إيجاد طريقة خاصة للتواصل مع العالم الوحشي للرجال». لكنهن في الحقيقة، بدأن بكتابة شعاراتهن على صدورهن قبل أن يفهمن أن آلات التصوير لا تهتم لهن إلا إذا أظهرن صدورهن. هذه الميزة الطبيعية يراد تغليفها عمدا بقراءة لينينية شيئا ما للتاريخ: «نحن نستعمل عمدا رموز الجمال الباطرياركية كأداة تهييج ضد النظام الذي أنتجها». حين يحلمن بتدمير هذه الرموز، فإنهن في حقيقة الأمر مَدينات بنجاحهن للفروق الثابتة بين الجنسين وللوجود الراسخ للإثارة الجنسية. على الرغم من أربعين سنة من الصراع، لا يزال نهدان عاريان قادرين على الإثارة والمفاجأة.

تكتب إينا شيفشينكو: «نعرف ما تحتاج إليه وسائل الإعلام. الجنس، الفضائح، الاعتداءات: لا بد من إعطائهم ذلك. أن تكون في الجرائد، معناه أن تكون موجودا». باستثناء اللذة النرجسية في عرض مفاتن أجسادهن، فإن الفيمن لا يفعلن أكثر من عيش حياةٍ إعلامية حصرا، ولا تخرج حركتهن – بذلك – عن تعريف جي دوبور (Guy Debord): «الطبيعة الصادقة دائما للاستعراض تَنتُج من أن وسائله هي – في الوقت نفسه – غاياتُه».

الدعوة لإقامة ثورة موجودة أصلا

بالتأكيد، لا يَشفي نجاح الاستعراضي تماما من الإدمان على النظري. لا يزال إسقاط «الأبوية» في صميم الانشغال: «إن إيديولوجيا الفيمن أمر مطلق: السعي نحو مجتمع مثالي، يلغى فيه تصور العلاقات الإنسانية على أساس ثنائية النوع»، هكذا يصرحن في منشورهن الدعائي. على الأقل، لا يمكننا معاتبة هؤلاء النسوة بكونهن يخفين مشروعهن الذي يدّعي – على غرار نظريات التقدم الشمولية – إعادةَ تشكيل الإنسانية. لكن المؤسف حقا هو السهولة التي يزعمن تحقيق ذلك بها. أعداؤهن قدامى، معروفون، مشهورون، ومن المحبذ أن يكونوا

ذكورا غير مثليين، وإن أمكن ذلك: من الجنس الأبيض، وفي الأحوال كلها ممن يسهل الاستهزاءُ بهم، ونبزهم في الإعلام بكونهم منافقين، شهوانيين أو سلطويين. أما الشعارات المستعملة، من قبيل «الموضة = الفاشية»، أو «الإجهاض مقدس»، أو «هايل لوبن»[1]، فأقل شيء أنها تفتقر إلى الإبداع.

ما يثير الانتباه حقا عند الفيمن ضعف النجاعة عندهن بشكل رهيب. أعمالهن العنيفة دون مطالب محددة، وهجماتهن الرمزية دون مطلب ملموس، واستفزازاتهن المجانية، كل ذلك يجعلهن غير ناجعات بشكل خطير. إنهن يؤكدن معارضتهن لـ«الحمل بالنيابة» وأنهن يَرَين ذلك نوعا جديدا من «استرقاق المرأة»، ومع ذلك فلم نرهن من قبل يتظاهرن ضد بيير بيرجي (Pierre Bergé) الذي يتمنى أن يمكن «كراء بطون النساء»، ولا ضد وكالات الخصوبة في أوروبا الشرقية موطِنِهن الأصلي، واللاتي بدأن ببيع هذه البطون. وكذلك فلا نراهن يكشفن صدورهن في مجالس إدارة المصارف أو على استديوهات تصوير «تلفزيون الواقع». إن تحركات الفيمن قليلة التأثير في النظام القائم.

بل الأمر أكثر من عدم النجاعة، إذ يجب الحديث عن إحداث نتائج عكسية. إن الفيمن، بعيدا عن أن يقدمن للنساء أي نفع اجتماعي أو قانوني أو رمزي، فإنهن في الواقع يغذين بتحركاتهن الهستيرية حركة مضادة للأنثوية، صارت تنتشر بين الرجال، وبين النساء أيضا. لا يبعد أن يكون هذا عبارة عن السكرات الأخيرة لإيديولوجيا تحتضر بسبب انتصارها، فلا هي بالقادرة على الإقرار بهذا الانتصار، ولا على تقبل موتها. إن الصادم في حركة الفيمن ليس أسلوبهن المدهش، بقدر ما هو التفاوت التام بين تصرفاتهن والواقع الراهن للمرأة. حين تقوم هلويز بوتون (Heloise Bouton) داخل كنيسة لا مادلين (La Madelaine) بحكاية عملية إجهاض، فإن عملها غامض وغير مفهوم، ما دام الإجهاض – منذ أربعين سنة – مباحا قانونيا في بلدنا، ويُحتفى به على أنه من الحقوق الأساسية، ويعد الاعتراض عليه غير مُرَحّب به في الفضاء العام. حقيقة الأمر أن الفيمن من الأطلال المتبقية من حركة 1968، مزروعة في عالمٍ، يُعدّ التخريب والهدم فيه هو الأصل.

---

(1) هايل (heil) تحيل على التحية النازية المشهورة (هايل هتلر). و«لوبن Lepen» هو مؤسس الجبهة الوطنية، الحزب اليميني المتطرف في فرنسا. والمقصود تشبيه هذا الحزب بالحركة النازية. [المترجم].

(..)[1] لنلخص ما سبق. لقد تحول الصراع ضد الباطرياركية إلى كره للرجل، والمساواة بين الجنسين إلى إلغاء للفروق بين الرجل والمرأة. في الأنثوية الجديدة، يجمع غلو حركة الفيمن جميعَ العيوب: السعي نحو ثورة متجاوَزة، عدم النجاعة إلى حد تحقيق النتائج العكسية، كراهة الرجال المؤدية إلى عودة كراهة النساء، الفراغ الإيديولوجي. إن العالم الراهن ممتلء بالأفكار الأنثوية التي صارت حمقاء. بنفس وجودهن، تبرهن الفيمن على تأكيد هذا الانحراف المجنون.

(1) حذفتُ هنا مطلبا صغيرا تحدثت فيه المؤلفة عن تساهل الفيمن مع التيارات الإسلامية في فرنسا، وفيه تأويلات غير صحيحة، إضافة إلى الاعتماد على ما لم يصحّ في الواقع. ولا ننسى أن المؤلفة يمينية مناهضة للوجود الإسلامي بفرنسا. [المترجم].

قوة الإيديولوجيا

من كتاب «نحوَ التأنيث» لآلان سورال (ص170 – 187)

جعل المؤلف هذا الفصل ضمن ملاحق كتابه، وخصصه لبيان قوة الإيديولوجيا الأنثوية المهيمنة على الإعلام والسياسة في الغرب عموما، وفرنسا خصوصا. هذه الإيديولوجيا التي استطاعت – إلى حد كبير – أن تغير نظرة عموم الناس إلى مجموعة من القضايا المجتمعية المختلفة.

ارتأيت أن أجعل هذا الفصل ضمن هذا المحور العام، مع أن بعض مباحثه أليق بمحاور أخرى، لأن فكرته العامة تدور على بعض أهم أصول الأنثوية، وإن كانت مطبقةً على مشكلات اجتماعية مخصوصة. [المترجم].

عن التحرش الجنسي

إنه[1] حدثٌ من واقع البافلوفية[2] الإعلامية المعاصرة: بمجرد أن نقرأ «تحرش جنسي»، تمثُل أمام أعيننا صورة المرأة المسكينة التي يعتدي عليها رجل يحاول اغتصابها، أو العاملة التي يلاحقها في محل العمل رئيسُها الرجل، الذي يستغل بجبن كبير سلطتَه عليها.

رؤية متخيَّلة أطلقتها الأنثوية وصارت تكرَّر في الحوارات الإعلامية، إلى درجة أن تحجب عنا السبب الجدّي والضحايا الحقيقيين للتحرش الجنسي. إن التحرش الجنسي الحقيقي هو الذي تمارسُه علينا وسائل الإعلام حين تقصفنا بصور النساء.

لا يوجد إشهار لسيارة ولا لنوعٍ من الجبن ولا لمسحوقٍ لتنظيف المراحيض، لا يحرك أمام أعيننا - خاصة أمام أعيننا نحن معاشر الرجال - صورة امرأة عارية وجميلة، ومتناسقة أعضاء الجسم، كأنها تقول بنظرتها المُغرية: «أنا أجمل وأطول وأغلى من أن أكون لك، أيها المسكين».

---

(1) تناولَت أوجيني باستيي قضيةَ التحرش الجنسي، والاستعمال المؤدلج لها من طرف الأنثوية المعاصرة في كتاب جديد لها عنوانه (Le porc émissaire : Terreur ou contre - révolution)، صدر عام 2018، وذلك عقب حملة الاعتراف بالتعرض للتحرش بعد قضية (Harvey Weinstein) والمسماة في أمريكا (MeToo#) وحملة الوشاية بالمتحرشين في فرنسا (Balance_Ton_Porc#).
تعد قضية التحرش الجنسي من أوضح مظاهر الأزمة الأخلاقية المتوطنة في قلب الحضارة الغربية المعاصرة، ليس فقط من جهة وجود التحرش وتزايد معدلاته، ولكن أيضا من جهة العجز عن التفطن لأسبابه الحقيقية، وبالتالي عن إيجاد حلول جذرية له؛ وأيضا من جهة النفاق الإعلامي في التعامل مع هذه القضية، والقلق المَرَضي الذي صار سائدا في العلاقة بين الجنسين بسبب هذا النفاق.
الحجم المخصص لهذا الكتاب، مع طبيعة تركيزه على قِضايا الأنثوية خصوصا، لم تسمح بترجمة مقاطع من كتاب باستيي المذكور آنفا، مع أن فهم ما وصل إليه الغرب في مجال التحرش الجنسي، مفيد جدا في استشراف مستقبل مجتمعاتنا، التي تتبع خطى الغرب أينما اتجه، دون تمييز بين صالح وطالح. [المترجم].

(2) نسبة إلى العالم الروسي إيفان بافلوف (Ivan Pavlov) صاحب نظرية الاستجابة الشرطية. [المترجم].

تحرشٌ في كل لحظة على الملصقات والمجلات وموجات الأثير، يعجز في مواجهته الرجلُ العادي - الذي يعيش غالبا في هشاشة الأجرة والمتعة الجنسية (وهما مترابطان) - عن عدم السقوط والشعور بالإحباط. إنه يشعر بفقدان البوصلة بسبب هذه الدعاية لِجَنّة من المتعة الاستهلاكية، التي لا توجد في الحقيقة إلا في الإعلانات، ولكنها - تحت أثر التباين - تجعل واقعه اليومي مخيبا للظن وقبيحا.

يصبح الرجل العادي متضايقا ومحبَطا، ويصبح - عما قريب أيضا - ممتلئا بالبغض؛ إلى الدرجة التي ينسى معها أنَّ النساء الحقيقيات لا ذنب لهن في ذلك كله؛ وأنهن لسن المسؤولات عن بث تلك الصور، ولا هنّ من ينتفع بها؛ وأنهن أيضا متعرضات للتحرش بهذه الصور، لأنهن مجبرات على الالتزام بنموذجها إن لم يردن الطردَ من العالم المبهر للمتعة.

دكتاتورية إعلامية، عبر «عارضات الأزياء»، لا تسهّل العلاقات بين الرجل العادي وزوجته، التي - مثل 95 ٪ من الساكنة - لا تشبه «عارضة أزياء»، كما أنه هو لا يشبه «عارض أزياء» أيضا.

يُبعِدُ تناسلُ رموز المرأة العاهرة والمحبة للمتعة، تدريجيا عن قلب الرجل صورةَ الأم التي كانت تُمدّه بذلك الميل القديم والفطري تقريبا إلى احترام المرأة، ويضع مكانها شبقية مبنية على العدوانية.

موضة نسائية تُدخل البعدَ الجنسي إلى الطفولة بشكل مبكر أكثر فأكثر: أربعة عشر عاما، اثنا عشر عاما، عشر سنين .. وكل ذلك على حساب السرائر الداخلية؛ وفي الوقت نفسه تُنقص السن الأقصى للمرأة الصالحة للمعاشرة الجنسية، والتي تبدو هرمة إعلاميا منذ سن الخامسة والثلاثين.

من يمكنه أن يعاتب المستهلك لكونه يحب المنتَجات الطرية؟

إذ الأمر يتعلق بهذا تحديدا:

- في تزايد الزوجات المتخلى عنهن في سن الأربعين، من أجل نساء أصغر سنا، وذلك بعد عشرين سنة من الزواج؛
- في الأُسر المدمرة التي تترك خلفها أطفالا دون أب ودون معالم واضحة؛

- في تنامي احتقار النساء (يكثر نبزهن بلفظ «عاهرة» من طرف شبان البيئات الفقيرة)[1]؛

- في التزايد المقلق للوحدة، وللبيدوفيليا، ..

يتعلق الأمر بالتحرش الجنسي للمجتمع تجاه مواطنيه. إنه مجتمع استهلاكي في أزمة، يستخدم كل يوم بقسوة أكبر المتعةَ الجنسية، ليس من أجل تقديم رفاهية أكبر (الحجة الليبرالية)، ولا من أجل تجاوز الأخلاق التي تقوم بعملية الإخصاء (الحجة اليسارية)، ولكن فقط لكي نستهلك، ليُصرّف فائض إنتاجه.

ولا يهم إن كان هذا الاختزال لوعي المواطن في أعضاء الاستهلاك المحبَطة دائما، يمر عبر تدمير الأب، وتدمير الأسرة، وأخيرا تدمير المجتمع كله.

عن التحرش الجنسي أيضا (مسألة الاغتصاب الشائكة)

إذا[2] استثنينا الحالةَ المرَضية الخالصة، وحالة العنف الخالص (باستعمال سكين، وباجتماع عدد من المغتصبين في موقف سيارات مثلا)، فإن الخطورة والالتباس في الاغتصاب يرجعان خصوصا إلى خصوصية الرغبة الجنسية عند المرأة. رغبة تميل إلى السير إلى الأمام خُفية وإلى ممارسة الكذب على الذات.

لأن المرأة لا تشعر - على الأقل في هذا الموضع - بحد فاصل صريح بين «نعم» و«لا»، فإنها تجد نفسها طبيعيا في وضع حرِج أمام رغبة الرجل التي يعبر عنها بشكل أوضح، ولكن أيضا أمام الحقيقة التي لا تقبل الالتباس، لا في المنطق ولا في الأخلاق (يجب أن يكون الأمر «صحيحا» أو «خطأ»، «خيرا» أو «شرا»، «نعم» أو «لا»).

إن نفس وجود الإغراء (والذي يعد النشاط الأساس للنساء، إذا اعتمدنا في ذلك على الصحافة النسائية) لا يكون ممكنا إلا من خلال عدم اليقين هذا؛ كفضاء واستراتيجية لـ«ربما»

---

(1) لأنهم فهموا أن الجميلات لا يحصل عليهن سوى الأغنياء .. [المؤلف].

(2) القضية فعلا شائكة كما يقول المؤلف، والرغبة الجنسية عند المرأة كانت دائما محل حيرة وغموض والتباس، خاصة في الحضارة المعاصرة التي اندثرت فيها كثير من المعايير الأخلاقية، وفتحت فيها أبواب هائلة للمتعة الجنسية الشاذة وغير المنضبطة. ما يقرره المؤلف هنا صواب في أكثره، ولكنه يلعب في منطقة ملغومة، قد تؤدي بالقارئ إلى فهم مغلوط إذا لم يتسلح بما يكفي من القيود الأخلاقية. ولذلك فإنني أبرأ من كل ما يمكن أن يُفهم منه التهوين من جريمة الاغتصاب، أو تسويغها باحتمال رضا المرأة بها بشكل ما. [المترجم].

بين «نعم» و «لا». من دون هذا التردد، تفقد الموضة ومواد التجميل والمجلات النسائية مبررَ وجودها، إذ تُختزل حياة النساء حينئذ في العمل والتناسل.

لنضف أن الرجل يعد غريبا في هذا الميدان النسائي لـ«ربما». أخرق، مجبر على حجب وتأجيل رغبته التي تقول «نعم» بسرعة فائقة، من أجل الوصول إلى غايته.

إنها لعبة مرموزة ومقننة للإغراء، وهي أيضا ميزان قوى يتضمن خطرا معينا، هو أن يتحول الانتظار إلى إحباط، والإحباط إلى إخصاء رمزي، ويُؤوَّل هذا الأخير بكونه تحديا. لعبة دقيقة تتطلب ممن يمارسها على خلاف طبيعته توازنا صُلبا؛ وهو توازن يكون بالتأكيد غير ثابت عند من لا يمتلك جميع وسائل اللعبة (وسائل نفسية واقتصادية).

إذا كنا متأكدين بشكل ارتجاعي أن الاغتصاب قد وقع حين تكون المرأة قد أصرت على «لا» حتى النهاية، فإنه في بعض الحالات الملتبسة لا يكون من الممكن تحديد الوقت الذي تحول فيه «نعم» الذي يمارس لعبة إغرائية، إلى «لا» المتلفظ به من طرف كائنٍ «ربما». وإذا كان الرجل – لتفادي أي خطر – مجبرا على التوقف عند أول «لا»، كما تُطالب بذلك الأنثويات الأمريكيات، فإن اجتماع كائنين من جنسين مختلفين لا يمكن إلا أن ينتج من البديل العنيف: الحب من أول نظرة، أو الدعارة.

عن الأدب الجنسي النسائي الراهن

إن عددا متزايدا من النساء يقرأن ويكتبن في مجال الأدب الجنسي (العاري)، وهذا – فيما يقال – علامة على تقدم جديد للتحرر النسائي، ودليل على تفوقهن الثقافي.

ولكن، إذا فكرنا قليلا في الأمر:

فإن الأدب الجنسي النسائي ليس سوى التمدد – المزايدة للرواية الوردية، وهو نوع أدبي فرعي، تنتجه تقليديا النساء من أجل النساء: من "العشيق" لمارجريت دورا الموجه للبرجوازيات من الطبقة العالية، إلى "ذهب مع الريح" لربة البيت لأقل من من خمسين سنة[1].

لا جديد في الأمر إذن.

(1) أما الرجال، الذين هم أقل تعقيدا في أمور الجنس، فلا يرون الحاجة إلى هذه القصص كلها، ويفضلون الصور. [المؤلف].

بما أن تقسيم العمل على أساس الجنس يكرّس المرأة بالدرجة الأولى للتناسل (الأمومة)، فإن من الطبيعي أن تدور التمثلات الثقافية - التي تمدد وتعزز هذه الوظيفة البيولوجية - حول الجنس وما يدور في فلكه: الشبقية، الإغراء، الحب. النساء الكاتبات يُعبّرن بشكل طبيعي عما يدور في أذهانهن وهو مصدر شغف لهن: أمور الجنس.

أما المزايدة، فإنها - سواء أكانت لتقليد الرجل (التناسل دائما)، أو لصدم البرجوازي، أو لإحزان الأب - دائما علامة إبداع ثقافي من المرتبة الثانية، كما في الفن النضالي أيضا. إلا إن كانت المسكينات بكتابتهن هذا الهراء، يحاولن فقط نسيان بؤسهن اليومي: دوامٌ مضاعف، هشاشة، وحدة ..

لأن هذه المزايدة في الجنس الصريح - والتي تفرّق بين الرواية الوردية القديمة والرواية الجنسية النسائية الراهنة - تسهم بالتأكيد في تزايد العنف في مجتمعاتنا النيو - ليبرالية؛ سواء أكان ذلك في ميدان استغلال الإنسان من طرف الإنسان، أو في ميدان العنف الممارس على الأطفال في البيدوفيليا. إن الروائيات في مجال الجنس الصريح، لا يفعلن في الحقيقة سوى الخضوع لإملاءات إيديولوجيا الرغبة[1]، فيساعدن بذلك النيو - ليبرالية المتأزمة - وبعيدا عن أي تمرد جدّي - على التخلص من الفائض الشعوري، وأيضا تصريف فائض الإنتاج، فالنساء اللواتي يمثلن 85 ٪ من قارئات الرواية (وهي عكس نسبة قراءة الكتب الفكرية) يقدمن إضافة مؤكدة لمداخيل سوق الكتاب.

عن تأنيث الفن خاصة السينما

أولا وقبل كل شيء، يوجد منذ القرن 19 أنوثة ملازمة للفن[2]: فالإبداع الثقافي أصبح منذ هذه المرحلة خاصا بالابن الأصغر في الأسرة البرجوازية (أما الأكبر فهو الذي يعتني بأعمال أبيه).

---

(1) التي تعد آليتها ودورها الموضوعي: اختزال الحرية في الرغبة، والرغبة في السوق. [المؤلف].

(2) لنستحضر أن أغلب مؤلفي النظام القديم (أي ما قبل الثورة الفرنسية) كانوا يبدؤون أولا في العسكرية: من روني ديكارت (René Descartes) إلى روبير موسيل (Robert Musil)، مرورا ببيلي (Bellay) ولاكلو (Laclos) وستاندال (Stendhal) .. [المؤلف].
الذي أعرفه أن موسيل وستاندال يعدان من جيل ما بعد الثورة الفرنسية، فلعله سهو من المؤلف [المترجم].

هذا البرجوازي الصغير يعادي عالم الكبار الذكوري، الذي يضطلع باللاأخلاقية ويعيد إنتاجها (استغلال الطبقة)، ولكنه يفضل الهروب من هذه المسؤولية إلى الأنوثة بدلا من التخلي عن أن يكون متواطئا ومستفيدا (الخيار الماركسي للقطيعة عبر الالتزام السياسي الثوري).

رفض المسؤولية الذكورية (عالم الأب) والحنين إلى الانصهار مع الأم، اللذان يشكلان ذاتية شارل بودلير (Charles Baudelaire). علاقة مع العالم متعجرفة وغير ناضجة[1] بعيدة جدا عن «الإلياذة»، و«فرسان الدائرة المستديرة»، والوعي البالزاكي. جمالية الرفض (ولكن أيضا رفض منحصر في الجمالية) تفتح الطريق أمام جيد (Gide) وبروست (Proust)، والسريالية وسينما الموجة الجديدة ..

أنوثة المبدع، يتبعها قريبا تأنيث اجتماعي أعمّ (ومن هنا يعدّ رائدا في الباب). لم يعد العمل الممزّق وغير المنتِج والتراتبي والهش يسمح فعلا للموظف المكتبي الصغير أن يُجسد الفحولة الذكورية لمن سبقه.

كان هذا السابق:

- متحكما في مصيره بامتلاكه وسائل الإنتاج أو بمهنة فيها مهارة حقيقية (فلاح صغير أو عامل حرفي)؛

- أو عاملا بروليتاريا يملك وعيا اجتماعيا وسياسيا، ويناضل جماعيا من أجل تحرره (البروليتاري الفحل في مواجهة رب العمل الفحل).

هذا كله تحت النظر المخنث للابن الأصغر في الأسرة البرجوازية الجديدة للقطاع الثالث، الذي سيصبح فيما بعد سينمائيا من الموجة الجديدة.

إذا أضفنا إلى هذا التأنيث العام، ضعف دور الأب، وتأثير ذلك على الوعي والأخلاق حال المراهقة، إضافة إلى الصعوبة الخِلقية (بسبب عدم التماثل في الأوديب) عند النساء في عدم اختزال السياسي (مكان الجماعي والاقتصادي) في الخدع النفسانية (مكان الصراعات الفردية الأوديبية)؛ أمكننا أن نفهم لِم صارت سينما المؤلفين الراهنة منحصرة في هذه الخصوصية الشعورية التي تكثر الشكوى، دون أي عمق اجتماعي حقيقي[2].

(1) تتسامى بالعبقرية الشعرية لـ «زهور الشر»، ولكنها مهلكة لـ«قصائد نثرية صغيرة». [المؤلف].

(2) فوق هذا، فقد قررت الموجة الجديدة أن السينما إما أن تكون سينما مؤلفين أو سينما شعبية، مانعة بذلك صنف «المؤلف الشعبي»، وبالتالي أفلام أمثال مارسل كارني (Marcel Carné)، وفيديريكو فلليني (Federico Fellini) وجويل سيريا (Joel Seria) .. [المؤلف].

تُرجم القضاء على الفحولة على الشاشة بانقسام شخصية جان جابان (Jean Gabin) إلى:

- المراهق الأبدي الحالم والنرجسي (جان بيير ليو وجميع أتباعه)؛

- المتمرد العدواني واللااجتماعي (جيمس دين وجميع مزايداته).

وذلك كأن أية محاولة لتجسيد الفحولة لا بد أن تقود - في المجتمع الراهن - إلى الهستيريا والذهان، أي أن تتحول أخيرا إلى نقيضها لتلتحق بالأنوثة التي لا يمكن تجاوز سقفها.

عن حزب المثليين المزعوم

دون أن أنفيَ وجود طبقات أخرى غير الطبقات الاقتصادية، فإنه يبدو لي من المشكوك بصحته الحديثُ عن «المثليين» و«المتغايرين» على أنهما طبقتان اجتماعيتان مختلفتان (خاصة حين يأتي هذا الاختزال الكاريكاتوري من أولئك الذين يعلنون الرغبة في التفلت من القاعدة العامة).

حين نسمع - في الغالب بأسلوب الاحتجاج - : "نحن المثليين كذا، أنتم المتغايرين كذا .."، فإن لنا الحق في أن نطرح السؤال الآتي: عن أي مثليين نتحدث؟

هنالك أنواع مختلفة من المثليين وباعتبارات مختلفة. على صعيد التحديد النفسي، يوجد:

- المثلي الذي هو دون المرأة - الشاذ البروستي[1] - ، وهو ولد عاشق لأمه، التي هي في الغالب أم معتدية، جعلت المرأة في نظره في الوقت نفسه شديدة الحضور ولا يمكن لمسها، لدرجة العجز عن الوصول إليها إلا بالتجسد فيها جزئيا؛

- المثلي الذي هو فوق المرأة - الشاذ الإغريقي للقرن الرابع قبل الميلاد - الذي لم تعد المرأة التي صارت دون غموض (أي على عكس الأم المقدسة) تجسد عنده تلك الحيلة التي تدفعه الطبيعة بها إلى التناسل. مُغرية ساقطة، ومحصورة في الخادمة، بينما تتجه عواطفه العميقة نحو المراهق المماثل له.

إذا سلّمنا بإمكانية وجود مثليٍّ لأسباب وراثية خالصة، تدفعه إلى التخنث أسباب هرمونية (لِم لا؟)[2]، فهذا يعطينا ثلاثة أنواع من المثلية: أوديبية وثقافية ونفسية (..)، يضاف إلى ذلك ألوان أخرى

---

(1) نسبة إلى الروائي مارسل بروست (Marcel Proust). [المترجم].

(2) - لا يوجد دليل علمي معتبر على صحة هذه الفرضية، على الرغم من الكتابات المؤدلجة الكثيرة في الموضوع؛ بل إن بعض الدراسات الحديثة تبرهن على عكس ذلك، وعلى أن الشذوذ الجنسي مسألة تربية وثقافة لا غير. [المترجم].

من المثليين: الأديب والتاجر والمثقف اليساري وغيرهم (..)[1]، وجميع هؤلاء لا علاقة تربطهم بالمثلي العامل في مهن التواصل والقطاع الثالث الذي يحاول منذ سنوات الثمانينيات أن يبرز المثلية الجنسية تحت هيئة واحدة معيارية، هي هيأته وثقافته وحتى طريقة تصويته في الانتخابات.

هذا «التمركز على المثلي» المتعجرف والساذج، الذي يجد نفسه مستنكَرا من طوائف المثليين السابق ذكرها، وحيث:

- الجنس خاضع للنموذج الأمريكي للاستهلاك الجماهيري (أي ليس انتهاكيا ولا تقويضيا، وهو بعيد عن المثل الأعلى الديمقراطي اليوناني)؛

- والثقافة من المرتبة الثانية (كما في كل فن نضالي)؛

يُجعل في خدمة اشتراكية ديمقراطية نيو - ليبرالية ماهرة دائما في استعمال هذا النوع من الطبقات المزعومة (المثليون، السحاقيات، النساء، الشباب، المهاجرون، المعاقون، ..) لحجب الطبقات الحقيقية التي تنشأ منها التفاوتات الأجتماعية، التي تساهم في تفاقمها.

عن الحصص المخصصة للنساء والتساوي العددي في التمثيلية السياسية

في ظل غياب أية إرادة سياسية، أصبحت الحصص المخصصة للنساء - بقوة الإعلام ثم البرلمان - فكرة وواقعا مكتسبا (بل أكثر من ذلك مع التساوي العددي).

إذا كان الهدف من الحصص - كما هو الشأن مع التساوي العددي - هو دعم التمثيلية العمومية لمجموعة معينة كانت قبل ذلك ضعيفة التمثيل، من أجل تحقيق هدف محمود هو إعادة التوازن، فما الذي يمنع من طرد هذا المنطق المشروع إلى ما هو أبعد؟

إذا نظرنا في الأرقام، فإننا نلاحظ بأنه لا يوجد أي نائب سنه أقل من ثلاثين عاما في البرلمان، علما بأنه يمكن انتخابه منذ سن الثالثة والعشرين. ما هذا التمييز البغيض تجاه الشباب! لم لا تُفرض حصص خاصة بهم[2]؟

---

(1) تركت هنا ترجمة تفصيلات المؤلف لهذه الأصناف، لكونه أسفَّ فيها ونزع جلباب الحياء، مع عدم الحاجة إليها في ما نحن بصدده. الحديث عن الأنثوية العصرية لا يمكنه أن ينفك عن الحديث عن المثلية، ومن هنا كان هذا المبحث؛ ولكن دون حاجة إلى الخروج من موضوع إلى آخر. [المترجم].

(2) التزم السياسيون في المغرب هذا الإلزام، ففرضوا حصصا للشباب، عبر ما يسمى «لائحة الشباب» في الانتخابات البرلمانية؛ أما في فرنسا، فلست متأكدا من الأمر. [المترجم].

الأسوأ من ذلك أنه من أصل 574 نائبا، يوجد فقط 4 عمال يدويين و12 مستخدما، في مقابل 126 مهنة حرة (وهي الطبقة الاجتماعية الأكثر تمثيلا). هذا مع العلم أن العمال اليدويين والمستخدمين هم الأغلبية الساحقة من الشعب الفرنسي. لِم لا تُفرض أيضا حصص خاصة بالمستخدمين والعمال اليدويين؟

ولأن نصف المستخدمين والعمال اليدويين هم من النساء، فهذا سيؤدي إلى استعمال مزدوج للحصص. هذا مع أن النساء اللواتي ستوصلهن هذه الحصص الخاصة بالعمال والمستخدمين إلى البرلمان، ليست لديهن نفس المصالح السياسية التي للنساء المطالِبات بالحصص واللواتي سيحصلن عليها. فالغالب على المنتخبات في المستقبل أنهن من المهن الحرة، أي من الفئة الاجتماعية الأكثر تمثيلا قبل ذلك[1].

عن علم الاجتماع الذي لا يتقنه بيير بورديو

لأنه خادم مطيع للإيديولوجيا المهيمنة (وهي الوظيفة الموضوعية لعالم الاجتماع التابع للدولة)، فإن بيير بورديو (Pierre Bourdieu) في كتابه الأخير الذي نشره بنفسه «الهيمنة الذكورية»، يحاول إنجاد السلطة وفكرة التساوي العددي بشجبه «مفارقة الدوكسا[2]» المتمثلة في الهيمنة الذكورية التاريخية (يمكننا أن نترجم هذه المفارقة بأنها اندهاش وانزعاج بيير بورديو أمام واقع لا ينسجم مع أحكامه المسبقة).

---

(1) أما عن قضية «كيف ستكون السياسة إذا كانت مؤنثة أكثر»، فينبغي طرح السؤال على مارجريت تاتشر التي قادت بيد من حديد مسيرة انجلترا نحو الليبرالية المتطرفة، أو على بيناظير بوتو الموجودة حاليا في السجن بتهمة اختلاس الأموال العمومية، أو نيكول نوتا النقابية المفضلة عند أرباب الأعمال، أو مارتين أوبري التي يعدّ قانونها حول «ساعات العمل الخمس والثلاثين في الأسبوع» سلما منحرفا نحو المرونة ونحو وقف الزيادة في الأجور. [المؤلف].

قلت: هذه حجة متكررة عند الأنثويات، وملخصها: «على المرأة أن تشارك أكثر في السياسة، لتُدخل إليها شيئا من الرحمة والتعاطف والمشاعر الإنسانية إلخ». والحق أن جميع تجارب النساء في السياسة تثبت أن العكس هو الذي يحصل، أي بدلا من أن تلين السياسة، فإن المرأة هي التي تتصلب، لأن اللعبة السياسية تفرض قواعدها على من يود ممارستها!

وهذا يذكرني بوهم آخر، في سياق آخر، بسطتُه في كتابي «العلمنة من الداخل». [المترجم].

(2) الدوكسا (يترجمها بعضهم بـ«العقيدة الثابتة») هي مجموع الآراء والأفكار الجاهزة والافتراضات المقبولة عموما، والتي ينبني عليها أي تواصل في المجتمع. [المترجم].

لأن هذا الكتاب على النقيض من كتابنا هذا، فإننا نجد من اللازم أن نوجه له هنا تعليقا نقديا صغيرا.

أولا: من جهة منهجيته: ما يفعله بيير بورديو من إعادة إحياء خيالاته النيو - كولونيالية (التي لا تعدو أن تكون صورة كاريكاتورية من الإثنولوجيا البنيوية) عن المجتمع القبائلي[1] التقليدي (وبالتالي: الذي تجاوزه الزمن)، انطلاقا من فقرات مختارة لفيرجينيا وولف (Virginia Woolf) (أي ذاتية البرجوازية الأنجلو - سكسونية المكتئبة)، ليس من المنهجية السوسيولوجية في شيء. لقد كان من الأكثر دقة أن ينظر أولا في سوسيولوجيا فيرجينيا وولف، وعلى الخصوص في سوسيولوجيا بيير بورديو نفسه: تذوقه لعمل فيرجينا وولف، واحتقاره للمجتمع القبائلي التقليدي.

لننتقل ثانيا إلى الافتراضات القبْلية الفلسفية (لا أحد يخلو منها، المطلوب تحديدها فقط). ما هي هذه الافتراضات عند بيير بورديو؟ وضعية مبتذلة (سذاجة وصف الوقائع التي تتجاهل الآراء المستترة) في خدمة ثنائية نيو - كانطية: اعتقاد في واقع قبل - حمليّ يُجبر بيير بورديو على التعامل مع التاريخ كحجاب يغطي ويمنع الواقع الحقيقي، أي الواقع اللاتاريخي والمتعالي[2] للتساوي العددي.

واقع مبني على ماذا؟ ليس مبنيا على حتميات الجسد (وهذا يجعل بيير بورديو يقول تقريبا إن كون الرجل يمتلك قضيبا لا يعني أن يجبر المرأة على حمل الأطفال !) ولا على الأوديب (وتمثلاته العاطفية)، ولا على نمط الإنتاج (وعلاقاته بين البنية التحتية والبنية الفوقية) فإن بيير بورديو لا يثق بشيء من ذلك؛ وإنما فقط على قوة «الاقتصاد الرمزي» المصنوع ذاتيا، والذي لأنه لا يمكن أن يعتمد على الإله[3]، فإنه يعتمد على «دوكسا» بيير بورديو نفسه: ركام من الآراء المتلائمة تماما مع الإيديولوجيا المهيمنة وما فيها من التأنيث المخطط له عبر التساوي العددي.

---

(1) نسبة إلى منطقة القبائل الجزائرية. وقد أمضى بيير بورديو سنتين (1958 - 1960) في هذه المنطقة، وأجرى فيها دراسات سوسيولوجية، ظلت نتائجها ملازمة لأبحاثه الأنثروبولوجية في كتاباته المختلفة، سواء في هذا الكتاب الذي ينتقده المؤلف هنا، أو في كتب أخرى مثل «نظرية العمل Théorie de l'action» [المترجم].

(2) الراجع دون شك إلى فهم سيء لصنف «الممكن» في الفكر الماركسي. [المؤلف].

(3) لأنه وضعي ملتزم بوضعيته، فإن بيير بورديو ملحد. [المؤلف].

أمام هذا الفراغ كله (لا جسد ولا أوديب ولا نمط إنتاج)، وهذا التكبر (إحلال نفسه محل الإله) والسذاجة (خدمة الدولة بما يظن أنه عمل نقدي)، فلا يوجد سوى ملحوظة واحدة: سوسيولوجيا بيير بورديو مختصرة في أسلوب الكتابة؛ وأي أسلوب !

إذا كان الأدب الجيد سوسيولوجيا دائما (هونوري دو بالزاك (Honoré de Balzac)، توماس مان (Thomas Mann) ..)، فإن السوسيولوجيا السيئة مثل الفلسفة الزائفة (فلسفة جاك دريدا (Jacques Derrida) على سبيل المثال)، تكون دائما غيرَ مقروءة، وبهذا نعرفها أصلا. إن فكر بيير بورديو الذي ليس له أساس آخر سوى الاقتصاد الرمزي ذي الجوهر الميتافيزيقي، لا يمكنه أن يعتمد سوى على «جمالية» التعبير العلمي: تركيب الجمل المعقد، الحشو الذي لا معنى له، الأثر الساحر للتعبير اللاتيني المدرج في الكلام، الانتقاء غير المنسجم للإحالات على أسماء مرموقة أو يُظن أنها كذلك (أفلاطون، باسكال، ليبنيتز، كانط، ماركس، بيرس، فرويد، سارتر، لاكان، ليفي - شتراوس، دوبي، فوكو، بورديو ..) والتي يدرج نفسه بينها مستعملا المنهج المعروف «ذكر أسماء مشهورة للتباهي» (name dropping)، وصف للآراء والأحكام المسبقة (مرتبة على شكل رسم بياني إجمالي للمعارضات الملائمة !) يراد بها إعطاء صورة الموضوعية، ولكنها لا تعدو أن تزيد في ثقل النص.

(..)[1]

(1) نقل المؤلف هنا نصا طويلا نسبيا لعالم الاجتماع لوسيان جولدمان (Lucien Goldman) ينتقد فيه مدرسة السوسيولوجيا المعاصرة، ولم أر فائدة في ترجمته هنا؛ ومراد المؤلف تنزيل هذا النص على بيير بورديو وأمثاله. أذكّر بأنني ترجمت هذا المبحث الخاص بانتقاد كتاب بيير بورديو عن الهيمنة الذكورية، لا تبنيا له مطلقا، ولكن لإزالة هالة القداسة التي تحاط بها أعماله في النخب الفرنكوفونية عندنا - وخاصة الأنثوية منها - ، مع كونها أعمالا مؤدلجة تؤصل لأفكار تتلاءم مع الثقافة الغربية المهيمنة اليوم، وتعارض كثيرا من الحقائق الاجتماعية. [المترجم].

الأنثوية – تذكير نظري

من كتاب «خدعة الأنثوية الرهيبة» للوسي شوفي (ص111 – 114)

إذا حاولنا أن نفهم من خلال الكتابات المختلفة، المطالب الحقيقية للأنثوية، فإننا نكتشف أنه لا توجد إيديولوجيا واحدة فقط، بل تيارات متعددة.

تقسم لويز توبان[1] (الدكتورة في العلوم السياسية والمتخصصة في الدراسات الأنثوية بجامعة كيبك) الأنثويةَ إلى ثلاثة اتجاهات كبرى.

تُعرّف الحركة الأنثوية بالمعنى العام كالآتي: «وعي فردي ثم جماعي، تتبعه ثورة على ترتيب العلاقات بين الجنسين، والوضع الثانوي الذي تحتله النساء في مجتمع معين، في لحظة معينة من تاريخه. يتعلق الأمر أيضا بكفاحٍ من أجل تغيير هذه العلاقات وهذا الوضع».

من ضمن الاتجاهات الأنثوية الكبرى، تميز لويز توبان الأنثوية الليبرالية المساواتية، والأنثوية الماركسية، والأنثوية الراديكالية.

تنتسب الأنثوية الليبرالية المساواتية (وتسمى أيضا الإصلاحية، أو أنثوية المساواة في الحقوق) إلى روح الثورة الفرنسية: بفلسفتها، الليبرالية، وبتمثلها الاقتصادي، الرأسمالية. ستكون الحرية (الفردية) والمساواة أهم محاور النضال فيها.

يبين هذا النوع من الأنثوية أن خضوع النساء راجع إلى تنشئتهن الاجتماعية التمييزية بسبب الأحكام المسبقة والصور النمطية والعقليات والقيم الرجعية. مما يؤدي إلى تعرضهن للتمييز الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

ترى الأنثوية الليبرالية المساواتية إمكان وقف هذا التمييز من خلال تربية غير جنسوية. «ينبغي تنشئة النساء اجتماعيا بطريقة مغايرة. يمكننا تغيير المجتمع بتغيير العقليات. والطريقة الأخرى تكمن في الضغط من أجل تغيير القوانين التمييزية. يأخذ هذا الضغط صورة مذكرات

---

(1) لويز توبان (Louise Toupin)، «التيارات الفكرية الأنثوية Les courants de pensée féministes»، مركز الأبحاث والدراسات الأنثوية، 1998.[المؤلفة].

موجهة إلى الحكومة، أو مؤتمرات لتحسيس الجمهور، أو تكوين تكتلات دعم لبعض المطالب، أو اللوبيات، إلخ.

أما الأنثوية الماركسية فهي «مطبوعة بالغليان الاجتماعي ومُثُل اليسار النابعة من التقاليد الماركسية». وهكذا فإن أغلب الأنثويات يأخذن الماركسية بعين الاعتبار، سواء في كتاباتهن أو في أنشطتهن.

بالنسبة لهذه الحركة، سبب استغلال الجنسين هو التنظيم الاقتصادي: الرأسمالية. وُلد اضطهاد المرأة - في رأيهم - بـ«ظهور المِلكية الخاصة. لقد كان ذلك - كما يقول إنجلز - الهزيمة التاريخية الكبرى لجنس النساء، والتي تتزامن مع تقسيم المجتمع إلى طبقات ومجيء الرأسمالية».

إن العدو الرئيسي ليس هو الأحكام المسبقة والقوانين الجائرة تجاه النساء، كما في الأنثوية الليبرالية، ولكنه النظام الاقتصادي والتقسيم الجنسوي للعمل الذي أقره: الإنتاج الاجتماعي والعمل المأجور للرجال، وللنساء العمل المنزلي والأمومي المجاني في البيت، بعيدا عن الإنتاج الاجتماعي.

بالنسبة للماركسيات الأنثويات، ستتزامن نهاية اضطهاد النساء مع إلغاء المجتمع الرأسمالي المقسم إلى طبقات وتعويضه بالملكية الجماعية. ستتلاشى الأسرة الزوجية بسبب إقرار رعاية جماعية للأطفال وللعمل المنزلي.

تحول هذا التيار الماركسي فيما بعد إلى تيار آخر كبير: تيار الأنثوية الاشتراكية.

خلافا للأنثوية الماركسية التي كانت تحمّل مسؤولية اضطهاد النساء حصرا للنظام الاقتصادي الرأسمالي والتقسيم إلى طبقات اجتماعية، فإن الأنثويات الاشتراكيات «في تحليلهن لاضطهاد النساء، سيُعِرن انتباههن بشكل متساوٍ للجنس (المسمى «النظام الباطرياركي») وللطبقات الاجتماعية (المسمى «الرأسمالية»). ستحاول الأنثويات الاشتراكيات فهم كيفية تمحور النظام الباطرياركي حول الرأسمالية، والعكس. ستتحدثن عن نظامين مضطهِدين للنساء: الباطرياركي والرأسمالي.

الاتجاه الأنثوي الأخير هو الأنثوية الراديكالية. يحاول هذا التيار الرجوع إلى جذور النظام، لتفسير خضوع النساء. والنظام المتحدث عنه ليس النظام الاقتصادي كما عند الماركسيين، بل

النظام الاجتماعي للجنسين: «النظام الباطرياركي». ومعنى «الراديكالية» أننا سنشهد طريقة جديدة لفهم العلاقات بين الرجال والنساء، بعيدة عن التفسيرات الليبرالية أو الماركسية، تريد أن تكون مستقلة في الفكر والعمل معا.

لقد نبذت الأنثويات الجديدات القادمات إلى الساحة العمومية في نهاية سنوات الستينيات، الإصلاحيةَ الليبرالية وسطحية تحليلها للتمييز ضد النساء. كما نُبذت الماركسية أيضا (كليا أو جزئيا) بسبب عجزها عن تصور المرأة خارج طبقة زوجها. كما نبذت تقاليدَ الصراع فيه وأداءَه «الذكوري» الرافض لأن يكون للصراع المستقل للنساء أي مكان مركزي.

ليس العدو هو الأحكام المسبقة ولا القوانين الظالمة، كما عند أنثويات التيار الليبرالي؛ وليس النظام الرأسمالي، كما عند الماركسيات الأنثويات. النظام الباطرياركي هو الذي يفسر سيطرة الرجال على النساء. بينما كانت الرأسمالية تحتل المكان المركزي في التفسير والنظامُ الباطرياركي المكان الثانوي، عند الماركسيات الأنثويات، فإن الترتيب على العكس عند الراديكاليات.

أصبح العدو الرئيسي هو سلطة الرجال، الرجال كطبقة جنسية.

إن الغاية العليا للأنثوية الراديكالية هي باختصار إسقاط النظام الباطرياركي. تمر هذه الغاية عبر إعادة امتلاك النساء لأجسادهن. هنالك استراتيجيات متعددة لأجل ذلك، بدءا بتطوير ثقافة نسائية «بديلة» (خلق فضاءات نسائية مثل مراكز الصحة، وبيوت الإيواء للنساء المعنّفات، والمسرح والسينما والمهرجانات والمتاجر ودور النشر والمكتبات والمجلات الخاصة بالنساء)، مرورا بـ«الانفصالية» (الحياة بين السحاقيات أو العزبات وحدهن)، انتهاء بالهجوم المباشر على النظام الباطرياركي (مظاهرات ضد الإباحية، ومسابقات الجمال، والتحركات العسكرية، والتشويهات الجنسية، ودعم الإجهاض، إلخ).

مفارقات الأنثوية

من كتاب «خدعة الأنثوية الرهيبة» للوسي شوفي (ص121 – 140)

إن الخطاب الأنثوي سلس جدا. منذ ثلاثين سنة، يهمس في آذاننا نفس الأغنيات الملائكية. والمبدأ واحد لا يتغير. يخبروننا أولا بأنه قبل أن يكون الواحد منا ذكرا أو أنثى، فإنه أولا إنسان، مساو لغيره من الناس. نعم، الأنثوية هي ذات نزعة إنسانية قبل كل شيء. من يستطيع حينئذ أن ينفي أن هذه الإيديولوجيا المرسّخة في أذهاننا مفيدة للإنسانية كلها؟ ثم تحذرنا الأنثويات من الفحولة الذكورية الفظيعة، التي تشبه الفيروس الكامن، والذي يمكنه في أية لحظة أن يعود للنشاط من أجل إخضاعنا، والاعتداء علينا أو اغتصابنا. وأخيرا، تدعوننا الأنثويات إلى أن لا نضحي أبدا باستقلالنا المادي على مذبح الأسرة أو البيت، وإلا ذبل ازدهارنا إلى الأبد.

وهكذا فإن وضعية المرأة في البيت محقّرة بشدة. تحذرنا إليزابث بادنتر من هذا الاختيار الرهيب: «علينا أن نقول للنساء الشابات (اللواتي يخترن أن يكنّ ربات بيوت) أن هنالك خطر عدم الحصول على عمل مرة أخرى، بل هنالك أيضا خطر الوقوع في مواجهة شيء غير مُرض. أذهب كثيرا إلى حديقة لوكسمبورج، وأرى النساء مع أطفالهن الذين يلعبون في الرمل، ولهن نظرة فارغة، تدل على ملل فظيع. أعتقد من جهتي، بأننا غالبا – ولا أجعل ذلك قاعدة عامة – محتاجون إلى اللقاء بالآخرين، وإلى المجتمع؛ لا نحتاج للاستقلالية فقط، بل إلى هذا الرابط الذي يجمعنا بالزملاء، ويكون كالغذاء لنا»[1].

إذن، ما دام الطفل مزعجا على المستوى الاجتماعي ويمنعنا من العمل، فالأفضل أن نتخلص منه (حاضنة، مربية أطفال..). ما لا تشرحه لنا هذه البرجوازية الكبيرة، هو أنه بالنسبة للنساء في طبقتها، يتلخص الحق في العمل الذي تدافع عنه بشدة، في نشاط ترفيهي ثقافي مؤدى عنه: مهن الموضة، والفن، والتواصل إلخ. وهذه المهن أقرب إلى الترفيه منها إلى المهنة الحقيقية التي نعرفها نحن معشر نساء الشعب: أمينة صندوق، سكرتيرة، عاملة، مهندسة .. بإكراهاتها ومواعيدها ومستعجلاتها وضغطها المرتبط بالمردودية. وقد أصاب آلان سورال حين قال: «حلم البرجوازية

---

(1) حوار مع إليزابث بادنتر لمجلة (Femme actuelle)، فبراير 2010.[المؤلفة].

أن تعمل، وحلم امرأة الشعب أن تتوقف عن العمل. ولكن، من الواضح أن الأمر لا يتعلق بنفس النوع من العمل»[1]. ويضاف لهذا أن صاحبة المال (وهي الطبقة الاجتماعية للأنثوية الأصلية التي تمثلها السيدة بادنتر بشكل رائع) «تربح أكثر، بقدر ما تشغّل الشركة نساء بأجور هزيلة»[2]. فمصلحتها المادية إذن في أن تلقي علينا مثل هذه الدروس.

حاولت مؤخرا أنثوية أخرى اسمها إليبت أبيكاسيس (Eliette Abécassis)، أصغر سنا ولكن من نفس الطبقة الاجتماعية، أن تنفّرنا من الأمومة بكتاب سيرة ذاتية تقريبا عنوانه «حدث سعيد Un heureux événement»، حُوّل فيما بعد إلى فلم سينمائي. في الكتاب تناقضات عجيبة تشبه تناقضات أنثوية مؤلفته. يصعب في الواقع أن نعرف هل المؤلفة تشجب مناهج جمعية المساعدة على الرضاع التي تصفها، أم أنها على العكس تريد أن ترفع من قيمتها. (..) على الصعيد الشخصي، تُخبر إليبت أبيكاسيس بأنها نجحت في إرضاع طفليها بفضل هذه الجمعية، ولكنها مع ذلك تزدريها في كتابها هذا. وهذا أمر لا أستطيع أن أفهمه.

وهنالك مفارقة أخرى عند هذه الأنثوية: إنها تؤكّد – كما تفعل إليزابث بادنتر – أن غريزة الأم لا توجد. من عباراتها الشهيرة قولها: «الطفل الرضيع من اختراعات الحداثة، لقد ظهر مع ظهور الحفاظات والصابون الخاص بالرضّع. لقد أصبح قوة اقتصادية وفي الوقت نفسه قوة نفسية. يمكن للمرأة أن تحقق ذاتها دون أن يكون لها أطفال: غريزة الأم خرافة عصرية. (..) منذ ذلك الحين، لم تعد حياتي ملكا لي. لم أعد سوى فراغ، أو عدم. ذلك لأنني أصبحت أما». حين نقرأ هذه الكلمات، نتساءل إن كانت هذه الأم التي دمّرها الحمل والإنجاب إلى هذه الدرجة، يمكن أن تنجح في أن ترعى طفلها وتربيه وتحبه. ولكنها حين طلّقت، فإنها تذكر في أحد الحوارات معها: «لا يمكن فصل رضيع عن أمه. الحيوانات نفسها تعلم ذلك. أنحتاج أن نكون في عصر متوحش لكي نسمح بهذه الفظاعة؟ إنها مشكلة مرتبطة بالصحة العمومية. على القضاة أن يجدوا حلا وسطا ويتخذوا قرارات حيوية، وهذا ليس أمرا سهلا». مرة أخرى، لا أستطيع الفهم. من جهة أولى، ترفض وجود غريزة الأم وسعادة المرأة حين تكون أما؛ ومن

---

(1) آلان سورال (Alain Soral)، «أبجديات السخافة السائدة Abécédaires de la bêtise ambiante»، نشر (Editions Blanche)، 2008، ص 104.[المؤلفة].

(2) نفسه، ص102.[المؤلفة].

جهة أخرى، تشعر بالصدمة باسم الغريزة الطبيعية (التي تربط الأم بطفلها بشكل مميَّز) حين يسلّم القاضي الطفل لأبيه ..

كل هذه تناقضات، وأنا أفهم استياء الرجال المدفوعين إلى العمل أكثر في رعاية أطفالهم (بالإرضاع، وتغيير الحفاظات ..) من طرف الأنثويات، أو من طرف نسائهم، .. ولكنهم في حالة الطلاق (الذي تكون المرأة هي التي تطلبه في ثلاثة أرباع الحالات[1]) يفقدون بحكم الواقع حضانة أطفالهم. ولكن يكون من الواجب عليهم أداء النفقة الزوجية، وإن كانت الأم تمنعهم من رؤية الطفل.

اليوم في فرنسا، 40 ٪ من الرجال لا يرون أطفالهم أبدا، أو فقط بضع مرات في السنة.

1 - وأين الرجل من هذا كله؟

يلخص المؤرخ والباحث أرنو دو توكسان (Arnaud de Tocquesaint)[2] هذه المفارقة أيضا: «أعطى المجتمعُ الأنثوي للآباء الجدد عام 2002 «عطلةً للأبوة» من أسبوعين، ليستطيعوا رعاية الطفل. عليهم اليوم أن يغضوا الطرف قليلا، فإن النساء لم يعدن بحاجة إليهم للإنجاب، إذ يكفي التخصيب بحيوانات منوية مجمدة يمكن شراؤها من الانترنت. (..) ولكن ينبغي الانتباه إلى أن ذلك لا يستمر عند الطلاق: تحصل المرأة بحكم الواقع على حضانة الأطفال، وعلى النفقة التي تكون معها».

هذا التناقض في الخطاب أمر متداول عند الأنثويات: يدفعن النساء - من ناحية - إلى العمل باحتقار دور الأمومة وجعل الاستقلالية المادية قاعدة حياة؛ ومن ناحية أخرى، يندهشن من ضعف إحساس الرجال بالمسؤولية تجاه الزوجة والأسرة. وهن أيضا يدفعن الرجال إلى الاعتناء بالأطفال، وينكرن على الرجال الرافضين لذلك ويصفنهم بأنهم ذكوريون فظيعون، ولكنهن في حالة الطلاق يتعجبن من مطالبة الرجال بحق الحضانة. يشرح إريك زمور هذه المفارقة بمهارة فيقول: «منذ 1968، صار الرجل يحضر ولادة زوجته، بل صار يحضر في جلسات التدريب على الولادة دون ألم. إنه يكتشف

---

(1) فرانسوا دو سينجلي (François De Singly)، «مطلقة: التعامل مع تجربة الانفصال Séparée: vivre l'expérience de la rupture»، نشر (Armand Colin، 2011).[المؤلفة].

(2) أرنو دو توكسان (Arnaud de Tocquesaint)، «الجانب المستور للمدرسة La face cachée de l'école»، نشر (Kontre – Kulture، 2013).[المؤلفة].

«الأنوثة الكامنة فيه»، ويعتني بالأطفال .. الرجل المعاصر أبٌ حانٍ يرضع الطفل ويحضنه ويعتني به. إنه يريد أن يحمل معاني الحب، وليس فقط القانون. أن يكون أمّا لا أبا. أن يكون امرأة لا رجلا. في بدء الأمر، صفقت النساء لذلك، فقد تحقق حلمهن بأن يجدن أمهات أخريات إلى جانبهن. ولكن خفتَ حماسهن بعد ذلك. أما الرجال فقد صاروا سعداء، بعد أن تخففوا من عبء معين. كان دور الأب دورا عاقا: كان يجب عليه التفريق بين الأم والأطفال، ليخرجهم من الانصهار الأصلي، ويُعِدّهم للعالم الخارجي، وكان عليه أن يتحمل لأجل ذلك غضب الأم وغضب الأطفال. أن يكون النذل الحقير. لقد حررت النساءُ الرجالَ من دور الشرير هذا. إنهم مبتهجون في صمت. لقد تركوا الخدمة»[1].

منذ أن صارت النساء مستقلات ماديا، لم يعدن معتمدات على مداخيل الرجل، وتخففَ الرجل من هذا الضغط. ترك المسؤولية شيئا فشيئا. صار بإمكانه الانتفاع بحسابه البنكي بهدوء أكبر: نشاط رياضي، خرجات مع الأصدقاء، سيارة رياضية، آلات إلكترونية، ألعاب فيديو .. يستهلك الرجل أكثر، ويدّخر أقل. ويظهر قدرا من اللامبالاة. ومن هنا، شُوّهت صورة الأب المسؤول، ولم يعد الولد الصغير يعرف أهمية الواجب الذي كان يقوم به جدّه.

صار من الصعب اليوم – بشكل متزايد – وجود ذكوريين طيبين، ينطبق عليهم التعريف الذي وضعه آلان سورال[2]: «يحترمون أمهاتهم، ويحمون زوجاتهم، ويشعرون بالمسؤولية تجاه أطفالهم».

والحق أنه لا غرابة في ذلك ما دام الأولاد ينشؤون منذ الصبا على معاني المساواة بين الولد والبنت، في التلفزة والمدرسة؛ فكيف يتحملون مسؤولياتهم إذن؟

لم يعد الأولاد الصغار يرون في آبائهم سوى النذل الذي هجر أمَّهم.

مثل ضفادع تتحمل السلق بهدوء في ماء حار، فإن الأنثويات – ومعهن كثير من النساء المخدوعات – يندهشن متأخرات من فرار الآباء ومن تزايد حالات الطلاق (الذي يكون بطلب من المرأة في الغالب، لأنها تشعر بأن لديها طفلا كبيرا بدلا من رجل حقيقي جدير بهذا الوصف). لم يعد بإمكانهن الاعتماد عليه، فيتهمن الرجال كلهن بهذه النقيصة: عدم تحمل

---

(1) إريك زمور (Eric Zemmour)، «الجنس الأول Le premier Sexe»، نشر (Denoel، 2006).[المؤلفة].

(2) آلان سورال (Alain Soral)، «أبجديات السخافة السائدة Abécédaires de la bêtise ambiante»، نشر (Editions Blanche، 2008)، ص 153.[المؤلفة].

المسؤولية ! والرجال يطلّقون لأن النساء لم يعدن بحاجة إليهم، فهن يتحملن كل شيء. ولأنهم لم يكبروا، فإنهم يبقون في مرحلة المراهقة، فيلاحقون الفتيات: زميلة العمل، المتدربة المستعدة لأي شيء من أجل الحصول على عمل وإدهاش صديقاتها بمواهبها في الإغراء ..

واختُزلت النساء أيضا في مراهقات عزبات أبدا، هاربات من أية مسؤولية، وحرّات في اتباع رغباتهن دون عراقيل. يباركن كل يوم وسائل منع الحمل والإجهاض، إلى أن ينتهي بهن المطاف في سن الخامسة والثلاثين، مرهقات ومريضات، ليكتشفن أنه لم يبق لهن شيء في حياتهن سوى العمل. يَشرعن حينئذ في سباق ضد الساعة البيولوجية، للبحث عن الأمير السحري المفقود .. يصل الأمر ببعضهن إلى إجراء عملية رتق البكارة، من أجل تحفيز حظوظهن في إيجاده. أمر مؤسف حقا.

لقد أصاب إريك زمور حين قال: «اكتشفت النساء الوجه الآخر لسلطتهن الجديدة: حين يمنحن أنفسهن، فإن ذلك يكون دون أي مقابل. إذا أردن طفلا، فإن الرجل يهرب، فيخضن معركة ضد الرجل لمطالبته بما كان يعطيه من قبل بالغريزة».

لقد حولت الأنثويات الرجل إلى هارب من المسؤولية، مبتهج بذلك.

2 - الأنثويات والدين

معركة أخرى من معارك الأنثوية: الدين. لقد بصقت الأنثويات على الدين كما يعض الكلب المسعور يد سيده الذي يغذيه. أظهر مثال على ذلك: مناضلات «الفيمن» الهستيريات[1]. بتمردهن على الكنيسة، ثم مؤخرا على الإسلام أيضا، تظن هذه الأنثويات أنهن سيتحررن من هيمنة الذكور. لم يفهمن الأهمية التي كانت للدين في تحميل الرجال المسؤولية تجاه أسرهم. لم يفهمن أن الكتاب المقدس والقرآن يأمران الرجل بحماية المرأة وتحمل مسؤولية الأطفال، وبالتالي مسؤولية أعماله. حين أنكرن قدسية الزواج وحقرن أهمية الالتزام، فإنهن حفرن قبورهن بأنفسهن، وذلك من خلال انفجار عدد الأمهات العزبات المسؤولات عن أطفالهن، دون عون من الأب.

«أيها الأزواج، أحبوا نساءكم كما أحب المسيحُ أيضا الكنيسة، وأسلم نفسَه لأجلها لكي يقدّسها، مطهرا إياها بغسل الماء بالكلمة، لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة، لا دنس فيها ولا غَضْن ولا أي شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدسة ودون عيب. كذلك يجب على الرجال أن

(1) يراجع فصل «أنثوية الاستعراض» المترجم من كتاب «وداعا آنستي»، ضمن هذا المحور.]المترجم[.

يحبوا نساءهم مثل أجسادهم. من يحب امرأته يحب نفسه. فإنه لم يبغض أحد جسده قط، بل يقوته ويربيه، كما المسيح للكنيسة (..) من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدا واحدا. هذا السر عظيم، ولكنني أقول أنا من نحو المسيح والكنيسة. وأما أنتم الأفراد، فليحب كل واحد امرأته هكذا كنفسه، وأما المرأة فلتحترم زوجها».

العهد الجديد رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس 25 - 33.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

القرآن 30 : 21

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

القرآن 4 : 19

3 - تفكيك الأسرة

تحذر الأنثروبولوجية الأمريكية مارجريت ميد (Margaret Mead)[1] من تدمير الأسرة الذي أسست له الأنثويات. وتشرح أن ذلك يمكن أن يكون دون عودة، وأن يهدد جوهر الإنسانية نفسه: «حين تتمزق الأسرة - تحت تأثير الرق أو التقلبات الاجتماعية أو الحروب أو الثورات أو المجاعات أو الأوبئة، أو الانتقال الفجائي من نوع اقتصادي إلى آخر - فإن الخيط يُقطع. ليس نادرا أن الناس - في هذه المراحل التي تدمر فيها الأسس التي بنيت عليها الاستمرارية الاجتماعية - يضطربون وتختلط عليهم الأمور، وأن الوحدة الأساسية، المعطى البيولوجي، تبقى هي الأم والطفل (..) ولكن هذه الاستمرارية للأسرة، واستعادتها بعد الكوارث الهائلة أو الانقلابات الإيديولوجية، ليست مضمونة. لا يمكن لجيلنا أن يعتمد على فكرة أن الأمور كانت دائما هكذا. لقد تعلم الإنسان أن يكون إنسانا بعد جهد كبير».

نسجل ضمن مفارقات الأنثوية هذا السعي المهووس للمساواة بين الرجال والنساء، والبحث المطلق عن التساوي العددي في الحكومات ومجالس الإدارة.

---

(1) مارجريت ميد (Margaret Mead)، «الجنس والجنس الآخر L'un et l'autre sexe»، نشر (Gon-thier)، 1966 (نقلا عن إريك زمور، مرجع سابق، ص90).[المؤلفة].

تصدّع وزارة حقوق المرأة اليومَ رؤوسنا بالتأكيد الرياضي التالي: 1 امرأة = 1 رجل. أين المنطق السليم في هذا؟ كيف يمكن إنكار الطبيعة إلى هذا الحد؟ يُوصف ليون ريشيي (Léon Richier) الماسوني ومؤسس جمعية حقوق النساء عام 1869، ثم العصبة الفرنسية لحقوق النساء عام 1882 (التي كان فكتور هوجو رئيسها الشرفي الأول)، بأنه أول مدافع عن قضية النساء. لقد كتب عام 1872 في «كتاب النساء»، فقرة تستحق أن تُقرأ على مسامع السيدة نجاة فالو - بلقاسم. هذا هو الشيء الذي يتشرف بالدفاع عنه:

«لقد أثير منذ سنوات في فرنسا القضية الخطيرة المتعلقة بمساواة المرأة للرجل. القول بأن الرجل والمرأة متساويان بالمعنى المطلق للكلمة، أمر مستبعد؛ لا توجد مساواة مطلقة بين الرجل والمرأة، كما لا توجد مساواة تامة بين الرجال أنفسهم. المساواة التامة سيكون اسمها «الهوية»، ولكن الهوية لا توجد في أي مكان. اللفظة الحقيقية والوحيدة التي نوافق على استعمالها، هي: التكافؤ. الرجل والمرأة متكافئان. وبهذا المعنى يمكن أن نقول إنهما متساويان، إنها المساواة في التباين. كل منهما - في البيئة الاجتماعية كما في الأسرة - يجد أمامه واجبات معينة عليه القيام بها، ووظائف خاصة عليه ممارستها؛ ولكن هذه الوظائف والواجبات على الرغم من الاختلاف بينهما، لا يقل بعضهما عن الآخر، وليس أحدهما أقل نفعا ولا الحاجة إليه أقل. إنجاب الإطفال له نفس قيمة القتال. على الذين يقرؤون هذا الكتيّب أن يبقوا مقتنعين بأننا حين نتحدث عن تحرير المرأة ، فلا يتعلق الأمر بإخراجها من دور الزوجة والأم، ولا انتزاعها من الواجبات الخاصة لجنسها لدمجها الغبيّ بالرجل. كلا، على المرأة أن تبقى امرأة. ولكن من حيث هي امرأة - أو لنقل إن شئنا: على الرغم من أنها امرأة - فإننا نقرر أن لها حقوقا. ولها واجبات، لأنها إنسان!».

لقد استبق هذا السيد ريشيي الانحرافات الممكنة لكفاحه من أجل قضية المرأة: التخلي عن دور الزوجة والأم لتصبح المرأة «بغباء» رجلا. لقد فهم أهمية دور كل من الجنسين وخصوصياتهما، وكان يتمنى فقط أن يحصلا على نفس الاحترام: « إنجاب الإطفال له نفس قيمة القتال». ولكن الأجيال التالية من الأنثويات لم تفهم الرسالة، ولم تسمع لهذا التحذير. لقد دُسْنَ «بغباء» على العمل العريق الذي كانت النساء يقمن به في العالم كله منذ فجر البشرية، أي دور «الزوجة والأم».

أما بالنسبة للتساوي العددي، فمن الطريف أن نجد الأحزاب السياسية مجبرة على أداء غرامات مالية كل سنة، بسبب عدم احترام واجب التساوي العددي. الطرافة كما يسجل إريك زمور بحق «في

هذا القانون أنه أظهر أخطاء لم يكن يتوقعها واضعوه. من الصعب إيجاد مرشحات للمناصب السياسية. إنهن لسن ساذجات. لقد فهمن أن الحياة السياسية تشغل المساءات وعطل نهاية الأسبوع. السياسة تعني استحالة الحياة الأسرية. لقد أصبح التساوي العددي إذن مهزلة، فقد أصبحت الأحزاب السياسية مجبرة على أداء غرامات لأنها لا تجد مرشحات؛ هذا مع كون الأحزاب تملأ لوائحها بالزوجات والعشيقات والأخوات وبنات العم والسكرتيرات والعشيقات السابقات والمسؤولات الإعلاميات»[1].

في 21 ماي 2012، عنونت ليكسبريس (L'Express): «التساوي العددي ترفٌ لا يستطيعه حزب اتحاد الحركة الشعبية (UMP)». وهكذا، وعلى الرغم من مخاطر الإفلاس، فإن الحزب المذكور يقبل بفرح أداء أربعة ملايين أورو سنويا (ما بين 2007 و2012) بسبب عدم احترام التساوي العددي، ولكنهم لا يعترفون بأن الأمر يتعلق بنقص في المرشحات، بل بمجرد تحكيم استراتيجي للأمين العام للحزب.

وكذلك لم يمكن تحقيق التساوي العددي في مجالس إدارة الشركات، على الرغم من حث المفوضية الأوروبية على ذلك.

لِم لا يستطيعون أن يفهموا أن النساء الوحيدات المهتمات بهذا النوع من المناصب الشاغلة جدا، هن العزبات المتحمسات لمهنهن؟ وما الخطورة في أن تكون هذه المناصب من نصيب الرجال وحدهم؟ الصراع الحقيقي ينبغي أن يكون في الدفاع عن ارتباط النجاح بالاستحقاق (جودة التدبير، التسيير الاستعجالي، الرؤية الاستراتيجية، ..) بغض النظر عن الأصل الاجتماعي أو الخصائص الطبيعية (الجنس، العرق، القوة الجسدية، الهوية الجنسية، النظام الغذائي ..). إذا كان الرجال أقدر بطبيعتهم على القيام بهذه الوظائف وراغبين في ذلك، فلِم يمنعون منها؟ وعلى العكس، إذا كانت النساء يفضلن في الغالب الاعتناء بتدبير المنزل وهن مستعدات بطبيعتهن لذلك، فلِم يمنعن من ذلك؟

4 - تصور خاص للازدهار

لكي ننهي الحديث عن الأنثوية وسخافاتها، فلنرجع إلى لفظ «الازدهار» المستعمل بكثرة من أجل خداعنا. مَن التي لم تسمع هذا «التأكيد - الحقيقة» في جميع المناسبات: «إذا حصرت نفسك في دور الأم، وضحيت بعملك وحياتك المهنية، فلن تستطيعي الازدهار بشكل تام». رجعت إذن إلى المعاجم لاستخراج المعنى الحقيقي للكلمة، فوجدته يدور على:

---

(1) إريك زمور (Eric Zemmour)، «الجنس الأول Le premier sexe»، نشر (Denoel، 2006). [المؤلفة].

تفتح أكمام الزهرة تحت أشعة الشمس؛

أو تفتق المواهب، وتحصيل السعادة والرضا، كقولنا "جعلَه الزواجُ مزدهرا"؛

أو تحقق الذات، واكتمال الجسد، كقولنا: "لقد ازدهرتْ بفعل الأمومة".

لم أجد في المعنى ذكر العمل، ولا النجاح المهني. على العكس، وجدت الأمثلة المنتقاة تحيل على الطبيعة وتطورها، مثل تفتح الأزهار، .. ويا للمفاجأة .. مثل الأمومة أيضا!

في الواقع، يمر الازدهار الحقيقي عند كثير من النساء بالأمومة قبل أي شيء آخر، والعجز عنها لسبب ما يكون غالبا مصدر معاناة كبيرة. تعترف المغنية المشهورة داليدا (Dalida) قبل انتحارها بقليل، بأن حسرتها الكبرى هي كونها لم تنجب: «لقد نجحت في الحياة، ولكن يجب أن أقول بأنني على صعيد حياتي الخاصة، لم أنجح البتة .. لأنني الآن أجد نفسي وحيدة، كما أن في قلبي حسرة كبيرة، هي أنني لم أنجب طفلا قط».

لقد أخبرتْني النساء اللواتي سألتُهن تعريفَهن الذاتي للازدهار الشخصي، ومن المفيد أن نسجل أن أهمية الأسرة ترجع بشكل متكرر في كلامهن.

5 - المنطق السليم النابع من الماضي، وبعض التعريفات النظرية

تظن الأنثويات اليوم أنهن قد صرن - بسبب حصولهن على شهادات جامعية - متفوقات فكريا على جداتهنّ. كل شيء في خطابهن يعبر عن الرفض والاشمئزاز من النموذج القديم للمرأة. كأن الأفراد - خارج إطار العمل المؤدّى عنه - لا تبقى لهم أدنى حاجة إلى التفكير ولا تشغيل عقولهم. كما لو أن القدرة على العمل اليدوي لا تتلاءم مع مستوى الذكاء. يوصف العمل البدني في المنزل، غسل الثياب وكيّها، المطبخ، التربية، الاعتناء بالأطفال، الإعداد القبلي للأطعمة وادخارها، الترتيب والتزيين والبستنة، .. بأنه عمل استعبادي يحط من كرامة الإنسان (امرأة أو رجلا). ولذلك تفضل الأنثويات - اللواتي يدّعين أنهن إنسانيات - إسناد هذه الأنشطة المنزلية لأشخاص آخرين (أناس آخرون، رجال أو نساء من دول العالم الثالث، وبأجور هزيلة). فهل هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى طبقة ناقصة من البشر، لكي لا نحتجّ على صعوبة مهمتهم وكونها غير مثمرة، كما تفعل الأنثويات مع نساء الغرب؟ هل النزعة الإنسانية تختص بجزء معين من الكرة الأرضية، أو بالضبط بطبقة واحدة؟ أم أن هذه الأنثوية ليست إنسانية كما تدّعيه؟

إن جدتك لم تحصل على شهادة في التسيير أو في المسؤولية الإدارية. ليست دكتورة في تطوير الطفل، ولا باحثة في العلوم الإنسانية، ولكن هل هي أقل تأهيلا؟ هل هي أقل ذكاء؟ أليست لديها مجموعة واسعة من المعارف العملية: التربية، الصحة، التدبير، الغذاء، الطبخ، الثقافة، التاريخ، الفنون الإبداعية، إلخ؟

يمكننا تكميل التعريف النظري الذي نقلناه آنفا عن لويز توبان (Louise Toupin) بتحليل لآلان سورال، قسّم فيه الأنثوية إلى تيارين كبيرين: الأنثوية المذكِّرة لسيمون دو بوفوار، والأنثوية المؤنِّثة.

يوجد لدى النساء المنتميات للأنثوية المذكِّرة «رفض عميق لأنوثتهن، المنظور إليها على أنها نوع من الانحطاط». وفوق ذلك، فإن هذه الأنثوية تمجّد الذكورة. تشعر سيمون دوبوفوار بأن «جسدها حجاب يقف بينها وبين العالم». يصل الأمر بها أن تعتقد أن جسد الأنثى - الذي هو ملازم لها - هو الذي يمنعها من أن تكون «المرأة الجوهرية» المتصفة بجميع خصائص الذكورة المثالية.

هذه الصياغة المفاهيمية التي يصفها آلان سورال بالمَرَضية، تدفع سيمون دو بوفوار إلى تعميم تاريخي، وعدم رؤية أي مفهوم آخر سوى «الرجال الذين يمنعون النساء من الوصول إلى الإبداع الثقافي، و«التعالي نحو الكائن الأسمى». بالنسبة له: «هذا التنظير الفلسفي يعبر على الخصوص عن مطالبة اجتماعية بامتياز مكتسبٍ حديثا من طرف فتاة صغيرة من البرجوازية الصاعدة. أعني امتياز التخلي عن الأمومة للتكرس للإبداع الثقافي، أي الهواية التقليدية لبنات وزوجات المجموعة الاجتماعية المسيطرة».

أما الأنثوية المؤنِّثة فإنها تنبع من البرجوازيات الصغيرات المستقرات في مجتمع الاستهلاك، وتتلخص في تمجيد العقل المؤنث، كعقل مختلف وطريقة للتفكير تقدمية مطلوبة. وهذا النوع من الأنثوية يسمح أيضا - تحت ستار «قضية النساء» - بتسويغ الوصولية الوقحة لدى بعضهن.

بالنسبة للكاتب، لقد جرّ هذا - من جهة - بعض الفتيات اللواتي أضاعتهن هذه المكتسبات المزعومة إلى توهم كونهن - في الوقت نفسه - عاملات وأمهات ومُغريات، مما يعني عملا ثلاثيا. ومن جهة أخرى، فإنه يحكم على المرأة العاملة بأن تجد نفسها في سن الأربعين وحيدة ودون أطفال، وذلك بعد أن تكتشف أنها ضحت بزهرة عمرها النسائي في إثراء مجموعة مالية، ذكورية في آخر المطاف.

يبدو بأن كثيرا من الأنثويات اللواتي طبعن التاريخ في فرنسا، كما في الولايات المتحدة، يشعرن ببغض شبه عميق لجنس الرجال. لكن هذه الكراهية ليست وليدة الصدفة. لقد لاحظتُ أن أصلها من أحد أمرين: التوجه الجنسي، أو تجربة سيئة مع رجل معين: أب أو أخ أو عشيق أو زوج أو رجل مجهول .. من المفيد أيضا ملاحظة كون الكثير منهن مطلقات.

يبدو أيضا أن هؤلاء النساء من طبقة اجتماعية ميسورة، أو حتى ثرية (خاصة عند الرائدات الأُوليات)، مع ميول سياسية نحو اليسار، أو حتى اليسار الراديكالي.

وأخيرا، فأغلبهن لم ينجبن أطفالا، وهنّ لذلك عاجزات عن فهم جوهر الإشكاليات النسائية.

لنرسم الآن لوحة مقتضبة عن تراجم أشهر الأنثويات الفرنسيات:

تيريز كلير (Thérèse Clerc)

ولدت عام 1927، وتزوجت في سن العشرين، ثم أنجبت أربعة أطفال، وطلقت في سن الأربعين. أصبحت بعد ذلك سحاقية ومناضلة في «حركة تحرير النساء» (MLF) وهو حزب يساري. تقول إنها كانت تحس بالضجر في حياتها الزوجية.

نشأت في أسرة غنية، كما يدل على ذلك نوع الألبسة التي كانت ترتديها يوم زفافها، كما تحكي ذلك عن نفسها في حوارات كثيرة. وكانت تمارس - في إطار «حركة تحرير النساء» - إجهاضات سرية في بعض حانات العاصمة. أسست أخيرا «دار البابایاجا (Babayagas)» (الاسم يحيل على الساحرات الروسيات آكلات الأطفال..)، وهي منزل للمتقاعدين، خاص بالنساء.

إيزابيل ألونزو (Isabelle Alonso)

ولدت عام 1953، وكانت رئيسة جمعية «كلبات الحراسة Chiennes de garde»[1] ما بين 2000 و2003. قالت بأن «الزواج يسبب لها الكآبة». هي غير متزوجة وليس لها أطفال.

(1) جمعية أنثوية ظهرت عام 1999 بفرنسا، وهي متخصصة في النضال ضد الشتائم الجنسوية في الفضاء العام، خاصة الإعلام والإشهار. في العريضة التأسيسية للجمعية قولهن: «كفى! نحن - كلبات الحراسة - سنُبرز أنيابنا. توجيه شتم جنسوي لامرأة في الفضاء العام، هو شتم للنساء جميعهن. نلتزم بإظهار دعمنا للنساء اللواتي يهاجَمن لأنهن نساء..». [المترجم].

كليمانتين أوتان (Clémentine Autain)

ولدت عام 1973، وفقدت أمها – الممثلة دومينيك لافان – حين كان عمرها 12 عاما. تعرضت للاغتصاب في سن الثانية والعشرين، وشكل ذلك بالنسبة لها أساس التزامها الأنثوي. تقول في عرض لكتابها «ذات يوم جميل .. محاربة الاغتصاب Un beau jour.. Combat-tre le viol»: «حين كان الصحافيون يسألونني من قبل عن سبب كوني أنثوية، كنت أذكر أشياء كثيرة، ولا أذكر الحقيقة، وهي أنني تعرضت للاغتصاب، ولم أكن أنثوية من قبل، ثم صرت أنثوية لأحاول أن أفهم ما الذي جرى لي».

هي الآن امرأة سياسية من اليسار الراديكالي، متزوجة وأم لطفلين.

سيمون دو بوفوار (1908 - 1986) (Simone de Beauvoir)

ألفت سيمون دو وبفوار كتاب «الجنس الثاني»، الذي يعد كتابا لا محيد عنه في الحركة الأنثوية، التي تعدّ المنظّرة لها. تُعرِّف جان بول سارتر بأنه «حبها الضروري»، في مقابل «الحب المشروط» الذي كان لهما مع آخرين في مراحل لاحقة. وقد كان لهما فعلا علاقات ظاهرة مع أشخاص آخرين. كان لسيمون عدد من العشاق، إضافة إلى علاقات سحاقية مع بعض تلميذاتها القاصرات، مما أدى إلى طردها من نظام التربية الوطنية. تعتبر الزواج «مؤسسة برجوازية مقززة مثل الدعارة». وقّعت – مع جان بول سارتر – عريضة لدعم الأشخاص المتهمين بالبيدوفيليا (إلى جانب جاك لانج، وبرنار كوشنر وشخصيات أخرى)[1].

لقد رُفعت هذه المرأة المنحرفة منذ ستين سنة إلى مقام الرمز والناطق الرسمي باسم جميع النساء الأخريات. ليس علامة على الصحة النفسية الجيدة، أن تنتمي إلى هذه الفلسفة المريضة من الداخل!

---

(1) جاك لانج (Jacques Lang) وبرنار كوشنر (Bernard Kouchner) من مشاهير الوزراء والسياسيين الاشتراكيين في فرنسا. تذكّرنا هذه الإشارة اللطيفة من المؤلفة، بأن كثيرا من الشخصيات المشهورة اليوم في السياسة والثقافة والإعلام، كانوا متورطين قبل عقود قليلة في البيدوفيليا، إما بالممارسة وإما بالتسويغ الفكري. تجريم البيدوفيليا حديث نسبيا في بلاد الغرب، ومع ذلك فقد صار محسوما عندهم وغير قابل للنقاش فكريا؛ علما بأن تعريف البدوفيليا يشمل كل ممارسة جنسية مع قاصر، أي مع كل من كان في سن أقل من الثامنة عشرة. وسرى ذلك إلى نخبتنا المثقفة، فصارت تستنكر لأجله زواج القاصرين وإن كانوا بالغين شرعا، وتثير لأجله شبهات حول زواج عائشة رضي الله عنها، كأن الأمر يتعلق بأحد قطعيات الفطرة والأخلاق، مع أنه كما ترى تجريمٌ حديث عند الغربيين أنفسهم، ليس لهم فيه ضابط أخلاقي معتبر. [المترجم].

إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)

ولدت عام 1944، وأبوها هو مؤسس المجموعة الإشهارية بابليسيس (Publicis)، التي تعد الثالثة عالميا في مجال الإشهار، وهي تمتلك 10 ٪ من أسهمها، مما يجعل تصنيف ثروتها 53 في فرنسا (1010 مليون أورو).

أمها هي حفيدة الزعيم الاشتراكي الفرنسي إدوار فايان (Edouard Vaillant).

تزوجت في سنة الثانية والعشرين بروبير بادنتر (Robert Badinter) الذي كان وزير العدل في عهد الرئيس ميتران، وعرض للتصويت قانونَ إلغاء عقوبة الإعدام، وقانون رفع التجريم عن العلاقات المثلية مع القاصرين فوق 15 سنة. حين كانت «حركة تحرير النساء» تختمر في فرنسا، كانت إليزابث بادنتر مشغولة بالحضانة: أنجبت ثلاثة أطفال في ظرف ثلاث سنوات ونصف.

ما الذي تخبرنا به هذه التراجم؟

حينما حاولت أن أتعرف أكثر إلى هؤلاء الأنثويات المشهورات اللواتي صنعن التاريخ، لم أستطع الامتناع عن التساؤل: كيف لهؤلاء السحاقيات، والنساء المصدومات بعمق من رجل معين أو من أسرهن، والآتيات في الغالب من طبقات اجتماعية ميسورة، أن يتحدثن باسم النساء جميعهن؟ من الواضح أن رؤيتهن متحيزة بشكل عميق.

يشبه هذا المجلسَ التمثيلي لجمعيات السود بفرنسا (CRAN) الذي يدعي تمثيل جميع جمعيات السود بفرنسا؛ أو حسن الشلغومي (Hassan Chalghoumi)[1] الذي يزعم تمثيل جميع مسلمي فرنسا.

يوجد لدى أوتو فينينجر (Otto Weininger) موقف حاسم بخصوص التحرر النسائي، شرحه منهجيا في كتابه «الجنس والطبع Sexe et Caractère»[2]: «جميع النساء الباحثات عن التحرر حقا، هنّ نساء يمتلكن ملامح رجالية بوضوح، ويمكن للْعَينِ المتمرسة أن تكتشف لديهن حضور طباع الرجل بالمعنى الجسدي للكلمة. وهكذا تصبح الدراسةُ عند النساء

---

(1) هذا الرجل من أجهل الناس بالدين الإسلامي وبالفكر وحتى باللغة الفرنسية، ولكنه مع ذلك يروَّج له في وسائل الإعلام الفرنسية على أنه ممثل للمسلمين بفرنسا، وذلك لكونه يحدّث القوم بما يحبون، في جميع القضايا التي تهمهم: العلمانية، محاربة شعائر الدين الظاهرة، مساندة إسرائيل، إدانة الحركات الإسلامية، إلخ. [المترجم].

(2) أوتو فينينجر (Otto Weininger)، «الجنس والطبع Sexe et Caractère»، أعيد نشره لدى (Kontre Kul-ture)، ص 95 إلى 102. (الطبعة الأصلية ظهرة في النمسا عن (Braumuller&Co) عام 1903). [المؤلفة].

موضة، تمثل لديهن - بفعل النشاط الكبير المرافق لها - شيئا خالصا وحقيقيا، مع أنها في كثير من الأحيان، بالنسبة لربة البيت: وسيلة لتحقيق الذات أمام الزوج بإظهار ما هي قادرة عليه؛ وبالنسبة للفتاة: إبراز للاستقلالية أمام قوة الأم».

يحذرنا أوتو فينينجر من مختلف الحركات الأنثوية، التي يراها خطيرة على النساء عموما. وهو ينصح بمنع هذه الحركات التي هي «لدى عدد من النساء، وراء جهد مخالف للطبيعة، مصطنع وكاذب في آخر الأمر».

ولكنه يوصي بأن يُترك للنساء اختيار مصيرهن: «ترك الحرية - بحيث لا يعترض طريقهن أية عقبة - لأولئك النساء اللواتي تدفعهن حاجاتهن النفسية الحقيقية إلى أنشطة رجالية، واللواتي إذن لهن سمات رجالية».

الشبكة التأويلية للأنثويات تمنعهن من التنبه للمعارك الحقيقية

حوار مع الفيلسوفة الفرنسية بيرينيس لوفي (Bérénice Levet)

حاورتْها أوجيني باستيي، ونُشر الحوار في صحيفة لوفيجارو يوم 7 مارس 2016

بيرينيس لوفي دكتورة فلسفة وأستاذة فلسفة في المدرسة المتعددة التخصصات وفي مركز سيفر (Sèvres). لها نحو سبعة كتب فلسفية، منها في خصوص موضوعنا:

- (Le monde rêvé des anges) في نقد نظرية النوع، وقدّم له الفيلسوف ميشيل أونفري. صدر عام 2014.

- «لنتحرر من الأنثوية Libérons - nous du féminisme»، صدر عام 2018.

تنبيه: لم أترجم الحوار كاملا، بل أخذت منه بعضَ المقاطع التي تفيد في موضوع الكتاب.

س: نحتفل يوم 8 مارس بـ«يوم المرأة». بعد وفاة سيمون دو بوفوار بنحو ثلاثين سنة، هل الأنثوية لا يزال لها معنى، أم أنها حققت جميع وعودها؟

ج: إذا كانت الأنثوية ما تزال تحتفظ بمعنى معين، فلا شك أنه ليس المعنى الذي تربطها به الأنثويات الجديدات، المتعلقات بشبكة تأويلية تمنعهن من رؤية المعارك الحقيقية التي يجب خوض غمارها. لقد حصلت المرأة في فرنسا على المساواة والحرية. كيف ما يزال بإمكاننا الحديث اليوم - كما يفعله البعض - عن أساس باطرياركي لمجتمعنا؟ ما هو المجتمع الباطرياركي؟ مجتمع تعتمد المرأة فيه على الرجل في كل شيء، وتحصر المرأة في البيت لممارسة المهام المنزلية. إذا كان مثل هذا المجتمع موجودا في فرنسا، فإنما يوجد في المناطق المفقودة من الجمهورية. هنالك يدوس الرجال على مبادئ المساواة والحرية وتحرر النساء. وهنالك تعيش بعض النساء في حالة الأقلية. ولكن ليست عاداتنا هي المسؤولة عن ذلك، بل استيراد عادات أجنبية عنا إلى بلادنا. وإذا كانت الأنثوية ما تزال تحمل معنى ما، فعليها أن تناضل في مثل هذه المناطق، التي تجد النساء المكافحات للباطرياركية والمنع الديني، فيها أنفسهن وحيدات. باستثناء إليزابث بادنتر، التي تقدّم الحقيقة ومبدأ الواقعية على كل إديولوجيا، من الذي يستطيع أن يسمّي أعداء المرأة اليوم في فرنسا[1]؟

---

(1) المناطق المفقودة من الجمهورية (Territoires perdus de la république): مصطلح عزيز على اليمين المتطرف الفرنسي، ويقصد به الأحياء التي يسيطر عليها المسلمون، ويفرضون فيها ثقافتهم. وتنطلق المجيبة هنا من مسلّمة تسكن الوعي الأوروبي منذ قرون، وتظهر في الكتابات الاستشراقية والأعمال الأدبية والدرامية، وفي كلام السياسيين والمفكرين، وهي أن النظام الإسلامي نظام باطرياركي ذكوري بامتياز، يحتقر المرأة، ويغلق عليها في ما يسمى «الحريم»، ويمنعها من أي نشاط خارج عن خدمة الزوج والبيت. وقد بنيت هذه المسلمة على كثير من الجهل بدين الإسلام وشرائعه، يصل إلى درجات مضحكة أحيانا؛ ولا يزال المتكلمون اليوم عن الإسلام وتراثه في الإعلام الغربي يبرعون في تركيب الجهالات واختراع الخيالات، دون أن يجدوا أمامهم محاورين أكفاء يبينون لهم الحقائق. ولا يمنع هذا أن الأمة الإسلامية عرفت عبر التاريخ، ولا تزال تعرف اليوم بصيغ متفاوتة، بعض التحقير للمرأة ليس هو من الإسلام في شيء، بل هي تقاليد بالية يتوارثها الجهال من المسلمين، ويوجد بعضها في هذه المناطق التي تتحدث عنها المجيبة. [المترجم].

س: تدل الإحصائيات على أن هنالك تفاوتا في الأجور بين الرجال والنساء. هل تسمح محاربة الصور النمطية بتقليص عدم المساواة الحقيقية؟

ج: علينا ألا يُرهبنا هذا الخطاب السائد، وهذه الإحصائيات التي لا يَنفك عن إبرازها (وهي السلاح الوحيد الذي يمكنه أن يبهرنا في هذا العصر كما تقول حنة آرنت)، والتي تسعى إلى إقناعنا بأن المرأة تبقى ضحية أبدية تحت السيطرة الذكورية. تتحدثون عن اللامساواة الحقيقية، ولكن إذا استثنينا اللامساواة في الأجور والتي لا تزال مستمرة ولكن ستستطيع النساء الانتصار عليها حتما، ودون أي تدخل قانوني خاص، ما الأمثلة الأخرى التي يمكن ذكرها؟ لا شيء. لالانتخابات البلدية الأخيرة في باريس كانت تتنافس فيها ثلاث نساء، وإحداهن (Anne Hi-dalgo) هي التي تدير العاصمة اليوم. من انتُخب على رأس منطقة (l'île de France) خلال الانتخابات الولائية لدجنبر 2015؟ فاليري بيكريس (Valérie Pécresse). الحزب الوحيد الذي يمكنه الافتخار بأنه يربح أصواتا كثيرة تسيّره امرأة هي (Marine Le Pen)، والنجم الصاعد فيه هو بنت أختها (Marion Maréchal Le Pen). مَن المتحكم في القنوات التلفزية المعروفة (France – Culture) و(France 2 télévision) والنقل العمومي بمنطقة باريس (Ratp)؟ نساء. من عُيّن على رأس المركز الأوروبي للبحث النووي؟ فابيولا جيانوتي (Fa-biola Gianotti). ينبغي إذن أن نوقف هذا الخطاب الأنثوي المتعلق بخضوع المرأة. (..)

س: يبدو أن الهدفَ الرئيسي للأنثويات هو «عمل المرأة»، ونجاحها في حياتها المهنية. هل المرأة التي لا تعمل خارج البيت من أجل تربية أطفالها تنتمي إلى الماضي؟

ج: كل شيء يدل على أن ربة البيت صارت اليوم في مرتبة اجتماعية لا قيمة لها. هل ربحت النساء بتعويض أوامر بأخرى: كانت تؤمر أمس بالبقاء في البيت، وتؤمر اليوم بالعمل خارجه؟ أنا لا أناضل من أجل رجوع النساء للبيت، فالاستقلالية الاقتصادية مكسب عظيم، بل هي شرط للحرية. ولكن لا ينبغي أن يمنع ذلك من أن نتساءل عن الآثار المتعلقة بتربية الأطفال، وتخلي الجنسين عن المسؤوليات الأسرية. بعد الولادة، لا يكتفي الوالدان بمنح الحياة، بل يُدخِلان الطفلَ في عالم الكبار الذي يسبقه عالَم المعاني التي يجب عليهما نقلُها له. لكن الوالدين المنشغلين بحياتهما المهنية، وازدهارهما الشخصي، تخليا عن هذه المهمة. يقول عالم الاجتماع الكبير كريستوفر لاش: «إن الآباء العصريين يحاولون أن يشعر أطفالهم بأنهم محبوبون ومرغوب فيهم، ولكن هذا لا يمكنه أن يستر برودة كامنة، وابتعادا منهجيا من

الذين لا يملكون شيئا كثيرا يمكنهم نقله للجيل التالي، والذين قرروا إعطاء الأولوية لحقهم الشخصي في تحقيق الذات».

إن أزمة التواصل بين الأجيال، وعزلة الشباب المتخلى عنهم، أصبحت من الظهور بحيث إن على الآباء الرجوع إلى مسؤولياتهم، وإلا فمن الأفضل عدم الإنجاب أصلا.

س: تحت تأثيرِ إيديولوجيا النوع، يبدو أن أفق الأنثوية لم يعد المساواة بل تبادل الأدوار ..

ج: لقد ضلت الأنثوية الطريق حين تبنت مسلّمات النوع. لقد فقدت الأنثوية ماهيتها حين وافقت على هذا المصطلح - الذي يبدو غير ضار - والذي يُحدِث فصلا كاملا بين المعطى البيولوجي والتشريحي من جهة (وهو الذي يعبّر عنه لفظ الجنس) والهوية الجنسية التي هي ثقافية حصرا (والتي يعبر عنها لفظ النوع).

لنذكّر بتحديات هذه النظرية. كانت سيمون دو بوفوار تقول: «لا نولد امرأة، وإنما نصبح امرأة». تعتبر نظرية النوع أن مؤلفة «الجنس الثاني» بقيت متأخرة في تطوير حدسها، وبالتالي فلا بد من متابعة منطقها إلى غايته: إذا كنا لا نولد امرأة، فلِم علينا أن نصبح امرأة؟ إذا كانت الهوية الجنسية موجودة في كل ما هو ثقافي، فلِم لا نحاول الرموز جميعها، ولم لا نلعب بالهويات كلها؟ يتلذذ أتباع النوع بتقادم النوع وبالمرونة الجنسية (أو سيولة النوع) التي تنشرها الماركات العالمية في مجال الموضة. وهم يستنكرون تربية الطفل بشكل مختلف بحسب كونه وُلد في جسم مذكر أو مؤنث، ومنحه المعايير والقواعد التي تخصصها حضارتنا لكل واحد من الجنسين. إن النوع يعمل على تبادل الأدوار بين الجنسين، وفوق ذلك على محو الهوية. إن الأمر يتعلق بمسار بدأ منذ سنوات السبعينيات. بعد محو الهوية الدينية، ثم الهوية الوطنية، هذا أوان تحقيق محو الهوية الجنسية.

المحور الثالث

الأنثوية والرجل والفروق بين الجنسين

لا نوع، ولا سيّد - الأنثوية التفكيكية

من كتاب «وداعا آنستي» لأوجيني باستيي (ص43 – 71)

كنت أحلم بأنني الأساس المطلق، والتتويج الذاتي لنفسي.

سيمون دو بوفوار (مذكرات فتاة مرتبة).

-

نحو معاداة جماهيرية للأنثوية

يمكنني أن أفهم أن توحي الأنثوية البرجوازية بخوف شديد. إن النساء الأربعينيات المتحررات اللواتي يفتخرن بـ«القدرة على تغيير إطار عجلة السيارة»، والصحافيات اللواتي يدّعين التمرد، وينتقدن الرجال بسبب «هشاشتهم الجديدة»؛ يظهرن بمظهر «الغبي المفيد» في أحسن الأحوال، وفي أسوئها بمظهر المسمِّمات المحترفات. هل يعني ذلك أن تبقى المرأة في مطبخها يوم الاقتراع، أو أن تقبل تقديم شراب لزوجها العائد من العمل بكل لطف؟ بالطبع، لا. أنا سعيدة أننا - معاشر النساء - حصلنا على الحق في أن تكون لنا حياة خاصة بنا. وإن كان بعض أصحاب الظنون السيئة قد يناقشون هذا بأن إبدال ثلاثية (قنينة الرضاعة/ تنظيف البيت/ المطبخ) بثلاثية (الميترو/ العمل/ النوم) لم يكن بالضرورة أمرا ذكيا. كنت فقط أظن ببساطة أننا - في إطار السعي نحو المساواة التي نستحقها، وتصالح النوع البشري تحت لواء المساواة في الحقوق المنتظرة - سنطوي الصفحة أخيرا.

هنا، ومنذ نحو عشرين سنة، جاءت المناضِلة الأنثوية الجديدة. وقد كانت غاضبة. ولأنها وارثة «النظرية الفرنسية»[1] ذائعة الصيت في كاليفورنيا، فإنها لا يمكن أن تكتفي مثل سابقاتها، بالطلاق والإجهاض وحبوب منع الحمل. ولأنها تلميذة لأندريا دووركين المناضلة ضد الإباحية، ولجوديث بتلر المناصرة للأقليات في مجال الجنس، واللتين تعدان نفسيهما من تلامذة الفيلسوف ميشيل فوكو، الخصم الأول لجميع أنواع السلطات البيو - سياسية؛ فقد فهمَت شيئا مهما: كل ما هو مركب، فالواجب تفكيكه. إنها تريد - بعد أن تسلحت بمفهوم جديد هو الجندر (النوع) - أن تحارب الشر المعولَم والقديم الذي ليس له سوى وجه واحد: الذَّكر غير المثلي. بعد موت الإله، وموت الأخلاق، بعد موت الرياضيات والسياسة، إنها تريد موت الرجل. «لا نوع (جندر)، ولا سيّد No gender, no master» هي صرخة هذه المناضلة المصابة بمرض الارتياب. تصرفات المغازَلة النبيلة التي تحكم العلاقة بين الجنسين، لا تعدو

(1) (French theory)، الاسم الذي أطلقه الأمريكيون على كتابات الفلاسفة الفرنسيين التفكيكيين لما بعد 68: فوكو، دريدا، دولوز، بودريار، لاكان، ألتوسير، إلخ. [المترجم].

أن تكون «هياكل رمزية للسيطرة» و«صورا نمطية جنسوية» من المناسب أن يُقضى عليها. وإذن بهذه «الراديكالية» تستمر «أنثوية الجندر» في غزو مواقع التصوير التلفزية، للإعلان عن أنه لم يُفعل شيء بعد، وأن العدو لم يُهزم بعد.

لقد قرأتْ هذه الأنثوية كتب دوبوفوار فقط، أما دوبوفوار فكانت قد قرأت كل شيء. تناضل لحذف التمييز الجندري من المراحيض، ولكنها تنظم اجتماعات غير مختلطة للحديث عن إزالة شعر الجسد. تُشتِّتُ جهودَها في معارك متفرقة وملتبسة وتافهة ضد مؤامرة خيالية، ولكنها تحتقر الاهتمامات العملية للنساء. إنها غيرُ ناجعة تماما، بل الأسوأ من ذلك أنها تؤدي إلى نتائج عكسية. وهنا لب المشكلة. لم تكن تفاهتها وعدم جدواها لتشكلا خطورة، لولا أن أنثويتها الجديدة تسهم في خلق معاداة جماهيرية للأنثوية.

من كوميديا إنسانية إلى غيرها، يكفي أن نقارن بين بطلات روايات بلزاك، اللواتي هن نساء من ظروف اجتماعية مختلفة، وبطلات روايات ويلبيك[1]، اللواتي لا خيار أمام الواحدة منهن سوى أن تكون عاهرة أو محرومة جنسيا، لكي نقيس حجم التطور الذي أحدثته الأنثوية في الوعي الجماعي. في الواقع، مَن هي المرأة الأنثوية اليوم في الرأي العام المتوسط؟ إنها امرأة هستيرية تافهة، تنصب نفسها حارسة للفكر؛ هي باختصار امرأة مزعجة. والنساء اللواتي لا يقبلن – مثلي – بمثل هذه التهريجات الطائفية، مضطرات – مع ذلك – لتحمل آثارها الوخيمة.

هل هذا وصفٌ كاريكاتوري شيئا ما، سببُه شدة السخط على هذا الفكر؟ لا، بل هنالك ما هو أخطر، وهو أن هؤلاء الأنثويات يمارسن تأثيرا عريضا على دوائر السلطة السياسية والإعلامية، وعلى الأجهزة التشريعية والقانونية. بعد أن وُلدت في أمريكا، فإن إيديولوجيا الجندر (النوع) وصلت في فرنسا إلى مراكز القرار في الدولة والمجتمع.

بتلر (Butler) منظّرة إيديولوجية وكاهنة كبرى

هل تعرفون جون موني (John Money)؟ لا يحب أنصار الجندر أن تثار هذه الحالة المؤلمة. والحق، أن كل شيء بدأ به ومعه. في عام 1955، اخترع مبدأ «الجندر». كان يعمل على الأطفال الخنثويين، ويعطيهم جنسا معينا بشكل عشوائي، «ثقافيا» في مرحلة أولى، ثم

---

(1) (Michel Houellbecq): أشهر الروائيين المعاصرين الفرنسيين. من أشهر رواياته وأكثرها إثارة للجدل، رواية «خضوع Soumission»، التي يتخيل فيها وصول الإسلام إلى الحكم في فرنسا. [المترجم].

جراحيا بعد ذلك. دفع دافيد المسكين ثمن ذلك غاليا: كان عضوه الذكري قد تعرض للتشويه بسبب خطأ في عملية الختان، فأمر الطبيب موني والديه أن يربّياه على أنه بنت، أعيد تسميتها «برندا». ولكن عند مرحلة البلوغ، وحين أزف موعد العملية الجراحية التي كان من المفروض أن تعطي الطفل مهبلا موافقا لهويته الجديدة، تمردت «برندا»، واتخذت لنفسها اسما ذكوريا «بروس»، في الوقت الذي كانت (أو كان؟) تسعى إلى إعادة الحصول على هويتها الذكورية. بعد هذا «الاضطراب» في نوعه، آل الأمر بـ»دافيد - برندا - بروس» إلى أن ينتحر عام 2002.

بعد أن ظهرت في أفق علم النفس، استلحقت الأنثويات نظرية الجندر، وجعلن منها أحد مجالات العلوم الاجتماعية. كانت البريطانية آن أوكلي (Anne Oakley) هي أول من نظّر عام 1972 للتفريق بين الجنس (البيولوجي) والنوع (الثقافي). ولكن علينا أن نسجل مع ذلك أن كتابها «الجنس، النوع والمجتمع Sex, gender and society» يبدأ بهذه الجملة: «كل أحد يعلم أن الرجال والنساء مختلفون». بدهية ستسارع الموجة الثالثة الأنثوية إلى تدميرها.

لحرصها على تجاوز آن أوكلي، قررتْ جوديث بتلر (Judith Butler) الكاهنة العليا الأمريكية لهذه الإيديولوجيا المرفوعة إلى مقام المعرفة، وبعد أن عملت على الأقليات الجنسية في أمريكا، أن تنقل ميدان الكفاح إلى الجنس نفسه، الذي يصوّر على أنه بناء ثقافي. تبع ذلك مجموعة من الكتب، تَصلُح عناوينها إذا وضعت الواحد بجانب الآخر أن تشكل برنامجا ثوريا: اضطراب في النوع. نحو أنثوية للتمرد؛ تفكيك النوع؛ سرد الذات؛ هذه الأجساد المهمة؛ عن مادية الجنس وحدوده الاستنتاجية.

ما تسعى بتلر إلى إحداث انقلاب فيه هو المشروعية «التي يُزعم أنها طبيعية للتصنيف الثنائي للجنس». غايتها نقل المعركة الأنثوية من الكفاح من أجل المساواة الحقيقية إلى تدمير معايير التغاير الجنسي، كما فعل ميشيل فوكو - مرجعها الأساسي - حين حوّل الصراع الاجتماعي ضد الاستغلال الاقتصادي إلى صراع «مجتمعي» ضد السيطرة الرمزية. إنها تستقي ذخائرها من أساتذة فرنسيين آخرين من أساتذة الشك، مجّدهم ثوار 1968، من جاك لاكان إلى جاك دريدا. إنها تلجأ أيضا إلى جون لانجشو أوستين (John Langshaw Austin)، أستاذ الفلسفة التحليلية الأنجلو - سكسونية، والذي أعاد النظر في تاريخ الفلسفة كله، حين افترض أن «القول هو العمل»، وأن الخطاب يحقِّق في نفس الوقت الذي يُنتَج فيه، العملَ الذي يصفه، وأن ما نظن أننا نلاحظه يرجع إلى إعطاء وضعٍ تختلف صحته باختلاف الظروف. من

هذا المذهب الاسمي المكتمل، والذي تحل فيه الكلمة محل الشيء، استنتجت جوديث بتلر وجوب القضاء على التفريق الجنسي، الذي لا يعدو أن يكون «أدائيا»، أي مجردَ ثمرة للخطاب اللغوي، مجرد مواضعة مفروضة.

هل تملكين مهبلًا؟

تخضع بتلر للمنطق ما بعد الحداثي الذي لا يقرّ بأي تعريف كَوني للحياة الجيدة، فلم يعد من غايتها سوى أن تجعل حياة الناس «يمكن أن تعاش» فقط، أي دون معايير خارجية، لأن المعايير المحددةَ التي يمليها العدد الكبير، تمنع الأقليات من الازدهار. يتعلق الأمر بإلغاء التقاطب الكوني للنوع البشري في جنسين اثنين، لأنه يُحكَم عليه بأنه تقاطب مصطنع وعشوائي وتشويهي، لمصلحة «هوية عابرة» غامضة (كوير queer)، أو – على العكس – لمصلحة عناوين فائقة التحديد بخصوص «التوجه الجنسي»، من قبيل «المثلي الجنسي، الثنائي الجنسي، ..»؛ مع إمكان الجمع بين الأمرين بالطبع. على سؤال «هل تملكين مهبلا؟»، أجابت مونيك فيتيج (Monique Wittig) – مؤسسة «حركة تحرير النساءMLF »، و«المثلية الراديكالية» كما تعلن عن نفسها، مُلهِمة جوديث بتلر والمدرّسة مثلها في بركلي – بهذا الجواب المختصر: «لا». هذه المثالية المتعصّبة – لنستحضر أن بتلر أنجزت أطروحتها عن هيجل، الأستاذ الذي لا يبارى في هذا المجال – التي تَقطع مع الواقعية البيولوجية، هي أيضا مذهب نسبي. في الحقيقة، إذا كان كل شيء ثقافة وخطابا لغويا، فإنه لا يوجد أي قانون أو معيار خارج عن ذاتية الشخص.

بين صدر كتاب «اضطراب الجندر: الأنثوية وتدمير الهوية Gender trouble: Feminism and the subversion of Identity» عام 1990 عن دار روتليدج (Routledge)، بِيع منه أكثر من مائة ألف نسخة. ولكن جوديث بتلر تجد مع ذلك صعوبة في إقناع العالَم العلمي والثقافي ما وراء الأطلنطي. في عام 1998، منحها الناقد دني ديتون (Denis Dutton) باسم مجلة «فلسفة وأدبPhilosophy and Literature» المؤثِّرة التي يديرها، الجائزة الأولى في «مسابقة الأسلوب السيء»، مع تسجيل «الغموض المُظلِم» لكتاباتها. ليس الوحيد في هذا، فقد تعالت أصوات كثيرة داخل الجامعات، من مختبرات البيولوجيا إلى أقسام اللسانيات. استنكرت الأنثوية مارثا نوسبوم (Martha Nussbaum) – الفيلسوفة المتخصصة في الفكر القديم، والخبيرة لدى المحكمة العليا بالولايات المتحدة، والتي اعتنقت اليهودية (التي

رفضتها جوديث بتلر) - هذا المأزق الذي حُشرت فيه مطالبات تُبعِد النساء أكثر فأكثر عن «عدم المساواة الحقيقية» باسم «انهزامية عصرية». في الوقت نفسه، كانت باريس تمجّد بتلر، الابنة المعجزة للخطاب التفكيكي الفرنسي، معجزة وكاهنة متنبئة.

طوباوية الهوية الجنسية الغامضة (كوير)

«يقول بعضهم إن المساواة بين النساء والرجال، حين تُلغى الفروق، ستلغي الإغراء والرغبة الجنسية. طوباوية الهوية الجنسية الغامضة على العكس من ذلك: لِم نريد التوقف في الطريق، لشيء يعدّ تحريرا اجتماعيا أساسيا لأجيال كثيرة منذ سنوات 1970؟» هكذا يقول إيف غايبو (Yves Raibaud) عام 2014. في الحقيقة، لم التوقف في منتصف الطريق؟ لم لا نمضي إلى النهاية؟ هذا هو أساسا النموذج المعياري للجندر، الذي يمد - بطريقة بروميثية متفردة - خيطَ الحداثة المتمثل في أسطورة الإرادة شديدة القوة.

في فجر النهضة، تنبأ بيك دولا ميراندول (Pic de la Mirandole) بالقاعدة الذهبية للأزمنة الجديدة: «لم أمنحك مكانا محددا، ولا وجها معينا، ولا موهبة خاصة، لكي تريد بنفسك مكانك ووجهك وموهبتك». تجيبه سيمون دو بوفوار في مذكراتها بعد أربعة قرون: «كنت أحلم أن أكون قضيتي الخاصة، وغايتي الخاصة». إن نظرية الجندر لا تعدو أن تكون التجذير النهائي لافتراض اللاتحديد هذا. تكتفي بتلر بأن تستأنف الفرضية وتدفع بها أكثر. حين تقول دوبوفوار: «لا نولد امرأة، ولكن نصير امرأة»، تضيف بتلر: «وما الحاجة لأن نصير امرأة؟». إذا كان النوع يُبنى، فإن من الممكن أن يُهدَم، وترفض الهوية «المقرّرة». ومن هنا، فإن سوق الهويات مفتوح، حيث يمكن اختيار الوجه والمواهب، ولكن أيضا الجنس والتوجه الجنسي، في تركيبات لامتناهية، كالذي يوجد في قوائم طعام مطاعم الأكل السريع.

الإنسان فارغ، مجوّف، صفحة بيضاء يكتب فيها حياته. والإمكانات لا حدّ لها. لا طبيعة، ولا ثقافة، القضية كلها قضية إرادة. على الفيسبوك يمكن أن أنقر على أكثر من 56 هوية جنسية لأعرف بنفسي[1]. الطفل السويدي بوب (Pop)، والذي تمت تنشئته في "حياد" جنسي من

---

(1) لا تتوفر ألفاظ عربية مقابلة لمعظمها: (Androgyne, trans, bi - genre, hermaphrodite, ..). ونحمد الله على أن هذه الهويات الجنسية «الخنثوية» ما تزال غير موجودة - أو على الأقل: غير بارزة - في أوطاننا. [المترجم].

طرف والديه، سيطلب منه "اختيار" جنسه حين يكبر. أو ربما، لا يختار أصلا. سيفعل كما يحلو له. انفجرت القضية عام 2009. ومنذ ذلك الحين، في استوكهولم، فتحت خمسُ حضانات - مُصادق على كونها للأقليات الجنسية(LGBT)[1] - أبوابَها، وهي فخورة بكونها حذفت «كل صورة نمطية للاضطهاد الجنسوي» من خطابها، وأنشطتها وخزانات كتبها.

إن مصانع الهوية الجنسية الغامضة (كوير)، تحلم بمعاداة الشمولية، ولكنها تكشف أيضا عن وجهها الآخر الاستبدادي. الأولاد لا يلعبون تلقائيا بدمى الأطفال، والبنات لا يلعبن باللعب الميكانيكية؟ لا يهم! سنلقنهم ذلك بقوة الدعاية والإكراه. سنحررهم من حريتهم. سنحقق سعادتهم دون جنس.

لَم ننتظر العلوم الاجتماعية لنعلم - كما كتب باسكال ذلك من قبل - بأن «العادة طبيعة ثانية، تدمّر الأولى». وإذا لم يكن شيئا، فليس من الطبيعة. وإذا كان من الطبيعة، فإنها مضطربة. وإذا كانت العادة تمحو أو تستر الطبيعة غير الممكنة أو الطبيعة المضطربة، فلا بد من إلغاء العادة. ولكن، وكما يقول باسكال أيضا: «من يريد صنع ملَك، فإنه يصنع شيطانا». التفكيك هو في الحقيقة تدمير. هنا يكمن الإبداع في نظرية النوع: الانتقال من كون اختلاف الجنسين أمرا تاريخيا، إلى كونه باطلا. من إبراز العلاقات الاجتماعية المشفرة إلى تجزيئها المخطط. من الأدب إلى الإيديولوجيا. من بالزاك إلى بتلر.

النظرية غير الموجودة

هل ستقولون لي إنني أخترع أشياء خيالية؟ هل ستستدعون السلطة الوزارية لنجاة فالو - بلقاسم التي صرحت عام 2013 لأسبوعية لوبوان (Le Point): «نظرية النوع، شيء غير موجود! إنها تشبه وحش لوكنيس (Loch Ness)، الجميع يتحدث عنه، ولا أحد رآه من قبل!»؟ هل ستتهمونني بنشر هذه «الإشاعة» المريبة عن «نظرية النوع المزعومة»، كما تكتب وكالة الأنباء الفرنسية؟ هل ستنبزونني باتباع الغرائب، ونظريات المؤامرة؟ ليس الأمر كذلك! حين يصرّ بعض الناس الشجعان على الحديث على هذه النظرية، يدعوهم بعض «الخبراء» إلى التمييز بين «دراسات الجندر»، وهي حقل جامعي يصف بموضوعية نصيب البناءات الاجتماعية من المغايرة بين الرجل والمرأة، وبين «نظرية الجندر»، التي هي خيال يحركه دون جدوى الكاثوليكيون المتشددون.

---

(1) LGBT (lesbian, gay, bisexual, and transgender): اختصار لألفاظ (سحاقية، لوطي، ثنائي الجنس، متحول جنسيا). [المترجم].

هل يتعلق الأمر بتبني «الجهل ومعاداة الفكر، اللذين يشجبان العلم باسم الحس السليم»، كما كتب مجموعة من الباحثين في البيولوجيا، من أنصار النوع، في مقال نشر بصحيفة لوموند في فبراير 2014؟ علينا ألا نتسرع ! من المؤكد أن الابستمولوجيا تدعونا إلى معالجة جدية للبيولوجيا، التي يخبرنا تاريخها بأنه من الخطير تركها في أيدي البيولوجيين وحدهم. من المؤكد أيضا أن بحث «نسبية أنواع الذكورة والأنوثة» يوظف علوما مهمة مثل الأنثروبولوجيا الأساسية وسوسيولوجيا التمثلات، ولكنها أيضا علوم متحركة. من المؤكد أخيرا أن «دراسات الجندر» التي هي عبارة عن دراسة للبناءات الاجتماعية للنوع، يمكن أن تكون بشكل ما مؤصلة وملائمة. ولكن، وخلافا لهذا الميدان المعرفي المفتوح، فإن هنالك إيديولوجيا تُستنتَج منه، وتتميز عنه بافتراضها قيمتها المعيارية في المجال السياسي. «المعرفة – السلطة» كما يقول ميشيل فوكو، مُلهم جوديث بتلر: أية نظرية لا تعدّ شيئا، ما لم ترجع إلى الهندسة الاجتماعية التي أنتجتها، لكي تندمج فيها وتدمّرها.

هل هذا «التنظير» (وعلينا أن نتفادى تسميته نظرية كي لا نتعرض للإقصاء العنيف والمبكّر) علمي حقا؟ قبل أن نرد بأن كل إيديولوجيا مناقضةٌ للعلم بتكوينها نفسه، فإن علينا أن ندرك بأن علميّة دراسات الجندر غير مبرهَن عليها، وأنها تبقى معتمدة على فرضيات مشكوك فيها. أكثر من هذا، وفي كتابه «قانون النوع»، يقارن دغيو جودفريدي (Drieu Godefridi) السقالة النظرية المستخرجة منها، بمعيار الرفض الذي وضعه الفيلسوف كارل بوبر انطلاقا من مبادئ الاستقراء والمفاصلة. بالنسبة لبوبر، ما يميز نظرية علمية عن نظرية ميتافيزيقية (أو إيديولوجيا)، هو قدرتها على أن تتعرض للدحض أو التفنيد. النظرية التي لا يمكن دحضها ولا تفنيدها، أي النظرية غير العلمية، هي نظرية تقاوم الاستدلال على العكس، وتتضمن هذه المقاومة على أنها جزء من النظرية. تريدون أمثلة؟ إذا انتقدتم الماركسية، فهذا يعني أنكم بورجوازيون. إذا انتقدتم التحليل النفسي، فهذا يعني أنكم مصابون بالعُصاب. إذا انتقدتم نظرية الجندر، فهذا يعني أنكم من فاشيي التغاير الجنسي، وأنكم الدليل الحي على أن العالَم محكوم بطبقة ذات معايير تغايرية (من التغاير الجنسي)، تبحث عن إبقاء سيطرتها بجميع الوسائل.

كان هذا المنطق النضالي الذي يرفض كل إمكانية للاحتجاج، سيبقى محصورا في الفضاء التروتسكي الأنثوي للمكاتب النقابية في الجامعات أو في القاعات المؤقتة للاجتماعات، لو أن الدولة – التي تميل دائما إلى إنتاج مواطن مثالي – لم تر فيه فرصة ذهبية. تعترف كارولين دو هاس

(Caroline de Haas) بسذاجة: «هنالك معركة ثقافية، إيديولوجية، وفلسفية يجب خوضها في مساواة النوع. من الطبيعي أن تقع مقاومة ذلك، نحن في طريقنا لتغيير المجتمع !»؛ هذا في الوقت الذي كان الوزراء يبذلون جهودا خارقة لإرباك الأوراق، في عز النقاش حول الجندر.

التجنيد منذ المدرسة

من أجل «تغيير المجتمع»، هنالك جبهتان ورافعتان: اللغة والتعليم. لن نطيل في الأول، فإنه ليس الأخطر وإن كان الأكثر إثارة للغضب، والذي أدى بنا إلى تشويه وبائي للغة في الوثائق الرسمية والمواقع الوزارية. التحدي المصيري وأم المعارك كلها، هو العقول الصغيرة. لقد تم الإعلان عن الاستراتيجية من طرف فانسان بييون (Vincent Peillon) الذي كان وزير التربية الوطنية حينئذ، حين كتب في يناير 2013 رسالة إلى العمداء يقول فيها: «لقد التزمت الحكومة بالاعتماد على الشباب لتغيير العقليات، على الخصوص من خلال التربية على احترام التنوع في الهويات الجنسية». لا شك أنه بالنسبة لهذا المؤيد لفرديناند بويسون الذي يُمدح بكونه مؤسس العلمانية، فإن الثورة الفرنسية لم تنته بعد. كما أن انتقال نجاة فالو - بلقاسم من وزارة حقوق المرأة إلى وزارة التعليم، معبّر أيضا عن كون مطالب لوبيات الأقليات الجنسية والنقابات الطليعية، مسموعة جدا عند رئاسة الجمهورية، ومن خلالها أجهزة الدولة.

لكن يقع أن يصطدم «تغيير العقليات»، الذي يشبه الشعارات الدينية، بتمرد غير متوقع. بعد انطلاقها رسميا في نهاية يناير 2014، تم التخلي عن تلك المبادئ المشهورة للمساواة بعد ستة أشهر من الحشد المكثف، ولم يكن ذلك بسبب الاحتجاجات الكاثوليكية، وإنما بسبب الأُسر المسلمة للضاحية الباريسية. في بعض البلديات، لم يذهب نصف الأطفال إلى المدرسة، في أيام احتجاجية نظمتها المدعو فريدة بلغول، المتحولة من حركة مقاومة العنصرية، إلى التوجه الهوياتي.

في الوقت نفسه، وُضع رهن إشارة المدرّسين مختلف الأدوات البيداغوجية من أجل «منحهم وسائل التفكيك المعرفي للأحكام المسبقة المعارضة للمساواة الحقيقية». يوجد ضمن هذه الأدوات بشكل عشوائي: إعادة كتابة للقصص الخرافية، تجعل من الأميرة عزباء مناضِلة معادية للأمير الوسيم؛ وصف محرف لـ«الرقصة المدرسية لقصة ذات الرداء الأحمر» يحث البنات على التنكر في ثياب الذئاب، والأولاد في ثياب البنات؛ رسم للويس الرابع عشر

يركز على الشرائط والكعب العالي؛ ورقة تقنية تعيد وضع قواعد لعبة الدركي واللص، من أجل مساواة حقيقية مع المنع من إقصاء الخاسرين. هذا دون أن ننسى هذه الكلمة التي تعد من الحشو الذي لا معنى له، والتي جُعلت شعار حياة للمراهقين: «كونوا كما أنتم»، والتي تشبه شعار مطعم مشهور للوجبات السريعة.

إعادة التربية

هؤلاء المراهقون يمكنهم مع ذلك الالتجاء إلى موقع «Ligne Azur» الذي يمكّنهم - في الحالة التي لا يكفي فيها الأمرُ بأن يكونوا كما هم - من اكتشاف «هويتهم الحقيقية». يقدّم هذا الموقع الشبكي الممول من الميزانية العمومية، والمتاح في الإعداديات والثانويات، على أنه «جهاز للدعم والإخبار لكل شخص يتساءل عن توجهه الجنسي أو هويته الجندرية»، و«وسيلة للصراع المنهجي ضد معاداة الأقليات الجنسية، عبر بث «توعية حول مسائل النوع». نجد في الموقع أشياء كثيرة منها معجم للهويات الجنسية المختلفة، وملصقات دعائية تحت شعار: «مثلي - ثنائي - تغايري: من أكون؟»».

إذا كانت نظرية النوع غير موجود، فلأنها ابتُلعت من طرف الممارسة العملية - كما كان يمكن أن يقال في زمن الماوية الظافرة. على غرار الثورة الثقافية، فإن سلطة السلطة المضادة المكرّسة لتربية الأطفال، لا يمكنها أن تمتنع عن إعادة تربية الآباء. في يناير 2014، نشرت «المفوضية العامة للاستراتيجية والمستقبلية» بدورها تقريرا عنوانه «النضال ضد الصور النمطية للنوع»، ثم أعيد تسميته بسرعة «النضال ضد الصور النمطية أولاد - بنات»، بعد انطلاق جدال حوله. إذا كان الإحصاء ليس علما، فالحساب علم دون شك، وفي هذا التقرير الذي عدد صفحاته 236، نجد كلمة «نوع» تتكرر 300 مرة.

يدعو التقرير - من ضمن أمور كثيرة - إلى «إعادة التوازن لتقاسم رعاية الأطفال بين الرجال والنساء داخل الدائرة الأسرية»، و«الرفع من الاختلاط في مهن رعاية الأطفال الصغار»، و«وضع عقود واضحة مع الناشرين لتحقيق عدد متوازن من شخصيات الذكور والإناث، وتوزيع متوازن للأدوار الاجتماعية للرجال والنساء في المقررات الدراسية والأدبيات البيداغوجية».

لم نعد ندري أعلينا الضحك أم البكاء من تسلل الغباء البيداغوجي - البيروقراطي إلى محاضن الأطفال والبيوت الأسرية. من المؤكد أنه ليس من التفكير الشمولي في شيء أن تتعلم

البنت الصغيرة مثلا أنها لا يلزم أن يكون مصيرها حين تكبز أن تكون أميرة كأميرات الرسوم المتحركة، وأن يتعلم الصغير أن كونه يلعب كرة القدم لا يكفي لأن يجعل منه رجلا. ولذلك فإنني أرى أن الشعارات التي رفعتها المظاهرات المعارضة للزواج المثلي، والتي تصور أميرة صغيرة وإلى جانبها «زورو» صغير، تحت عنوان: «لا تتعرض لصوري النمطية !»؛ هي شعارات ساذجة وتؤدي لنتائج عكسية. من الغبي محاولة تمجيد الصور النمطية كما أنه من الخطير محاولة إلغائها؛ إنها ما وُجدت إلا ليمكن تجاوزها، ومعارضتها، وتقويضها. كما أن التخطيط العقلاني والمنهجي من الأعلى، من أجل محوها، هو أمر مثير للقلق أيضا.

الروح التقنوقراطية الفوق - وطنية

ما يقع في فرنسا لا يعدو أن يكون جزءا من حركية أشمل، تدفقت من أمريكا الشمالية على الواجهة الأطلسية لأوروبا، وأغرقت بالفعل الديمقراطيات السكندنافية، التي كان يُظن بأنها هادئة. لأنه فلسفة لاجتثاث الجذور بالدرجة الأولى، فإن «الجندر» يجد سبل توسعه بشكل طبيعي في المؤسسات التقنوقراطية الفوق - وطنية. منذ أكثر من عقد من الزمان، فرضت علينا إيديولوجيا النوع من الأعلى، خاصة من خلال القرارات الصادرة عن بروكسيل[1] وما يدور في فلكها.

وهكذا، تنص اتفاقية للمجلس الأوروبي، وقع تبنيها عام 2011 في إسطنبول، على أن الموقعين: «سيتخذون الإجراءات اللازمة لمحاربة الأحكام المسبقة والعادات والتقاليد وجميع أنواع الممارسات المبنية على دور نمطي للنساء والرجال». تأكيد غير ضروري، يطمح الاتحاد الأوروبي إلى إخراجه من التاريخ، بتصور أسلوب مستقبلي مبني على جميع أنواع التوافقات، حتى المصطنعة منها، ولو كان ذلك على حساب فقدان الذاكرة التنويمي للشعوب والثقافات التي تكوّنه.

يطفح البرلمان الأوروبي بالتقارير التي تمليها لوبيات الأقليات الجنسية القوية جدا، ويتبناها بعض النواب، والتي تكرس انتشار إيديولوجيا النوع. يدعو تقرير «استريلا» المقدم عام

(1) مقر الاتحاد الأوروبي. ومن اللطيف أن نشير هنا إلى أن كثيرا من الأوروبيين صاروا يشتكون من هذا التحكم الذي يفرضه الاتحاد الأوروبي بمؤسساته غير المنتخبة، على الشعوب الأوروبية، في أمور اقتصادية واجتماعية وثقافية، دون الرجوع إلى الوسائل الديمقراطية المتعارف عليها. ويشبه هذا - مع فروق لا تخفى - ما يقع في بلداننا التي تخضع لقرارات المؤسسات الدولية، حتى في القضايا التي تمس الهوية الدينية والثقافية، دون أدنى استشارة للشعوب. [المترجم].

2013، من ضمن مجموعة من الإجراءات الإجبارية لمجموع الدول الأعضاء في الاتحاد، إلى مَأسسة الإجهاض كمبدأ من مبادئ الحقوق الإنسانية، وفتح الباب أمام التناسل الاصطناعي للسحاقيات، وإعطاء الأطفال الصغار تربية جنسية «دون طابوهات». رُفض التقرير بفارق أصوات قليلة. يستأنف تقرير «لوناسيك» الذي تم تبنيه في فبراير 2014، أهم مطالب تقرير «إستريلا»، ولكن بصيغة التوصيات، التي هي صيغة أكثر حذرا وأقل إكراها. يمنح التقرير أهمية خاصة لمحاربة معاداة المثلية والخنثوية في مقرات العمل والتعليم والصحة، ويحث على محاربة أي خطاب يحكم عليه بأنه تمييزي ضد الأقليات الجنسية باسم حرية التعبير، وأيضا إلى قبول طالبي اللجوء المضطَهدين بسبب اختلافهم الجنسي باسم حرية التنقل. كان التقرير في صيغته الأولى يقترح أيضا: «إدراج إمكانية أن يكون للأطفال أكثر من والدين اثنين»، ولكن هذا المقترح الجريء استبعد في الأخير.

آخر التقارير، هو تقرير «نويشل» حول استراتيجية الاتحاد الأوروبي في مجال المساواة بين الرجال والنساء بعد عام 2015، والذي تم تبنيه في يونيو من السنة نفسها، ويدعو إلى تبني نموذج الجندر في محاربة التمييز، «ووضع خارطة طريق مختلفة للأشخاص من الأقليات الجنسية»، و«إدماج رؤية الجندر في التوصيات المتعلقة بكل بلد على حدة». وأخيرا تقترح ماريا نويشل (Maria Noichl) كاتبة التقرير على الدول الأعضاء اتخاذ «إجراءات حث لصالح تكوين مؤهل حول الاستعمال النقدي للإعلام من أجل إعادة النظر في الصور النمطية والهياكل، إضافة إلى مشاركة نماذج الممارسات الجيدة الساعية إلى التأكد من كون الأدوات البيداغوجية المستعملة إلى حد الآن تمثل أدوار النساء والرجال بطريقة نمطية». لم نعد محتاجين إلى التخيل. لم تُستشَر الشعوب قط، ولم تُجْرد تقاليدها، ولم تفحص عاداتها. هذه حقيقة قانون النوع. إيديولوجيا مفروضة من طرف نخبة مجتثة الجذور بشكل موحد. برنامج للهندسة الاجتماعية يتفلت من أي حوار ديمقراطي.

صدام آخر للحضارات

مفارقة بارزة: تتبنى إيديولوجيا النوع الجسدَ من أجل كراهته أكثر. الجسد هو المعطى الثابت الذي لا بد من أن تعتبره، دون أن تكون قد اخترته. مثال على ذلك: رفض الطمث، الذي يعد «ظلما» واقعا على المرأة، على الدولة أن تأخذه بعين الاعتبار. مثال آخر: الرغبة

في أن تعترف بطاقات الهوية بـ«جنس ثالث». يلخص ذلك كله: الرغبة في تجريد أعلى، يشبه لفظ (hen) هذا الاسم المخترع في السويد للتعبير عن النوع «المحايد»، والذي يجد الأطفال الصغار في الحضانة صعوبة في رسمه، مع ميلهم إلى أن يجعلوا له لحية بابا وفستان ماما!

إذا كانت ثنائية الجنس الظاهرة ما تزال ثابتة، وتتكسر عليها الإيديولوجيا دون هوادة، فإن هذا الثابت الإنساني – مع ذلك – يُعاش بشكل مختلف بحسب اختلاف الأماكن. وكما تقول بيرينيس لوفي (Bérénice Lever)، فإن الفرق بين الجنسين هو: «اتفاق أولي يقترح تنوعات متعددة». في فرنسا، هذا التنوع متأثر بسحر التناغم الذي حققته قرون من الحضارة، (..) وأصبح مرادفا للروح الذي يزين العلاقات بين الفرنسيين من الجنسين. إما جوديث بتلر فإنها تسخر في كتاباتها من تأخر فرنسا في مجال التفكيك الجنسي، بالمقارنة مع الولايات المتحدة والسويد والنرويج، وهي دول مطبوعة بأثر الإصلاح.

فرنسا، هذا البلد المتأخر، الكاثوليكي الجمهوري، المتحفظ من الليبرالية والعولمة، البلد الذي ينزل فيه مئات الآلاف من المتظاهرين إلى الشارع احتجاجا على «الجندر»! هل يمكن أن تكون الطهرانية السرية التي تمررها هذه الإيديولوجيا غير متلائمة مع اختلاط الأجناس للسائد عندنا؟ استثناء تسرده كلود حبيب (Claude Habib) في كتابها «Galanterie française»، حيث تبرز أن هذا البلد الذي انتشرت فيه معاني الحب النبيل، هو الوحيد الذي وسع قواعد الحقوق المدنية إلى «الجنس الضعيف». في مسرحية شعرية لكورنيي (Corneille) تقول الفتاة النمطية سابين للشيخ هوراس: «انظروا إلى بكائنا ولا تخلطوا به دموعكم؛ احتفظوا بشباتكم، وتقبلوا تنهداتنا». هل سنترك نجاة فالو – بلقاسم تمنع مسرحيات كورنيي؟ إن الجدل الكئيب حول الجندر هو في حقيقته جدل حضارة.

في الأخير، ما يزعج الأنثوية الجديدة الطهرانية هو الجنس من حيث هو، لأنه الملجأ الأخير للاختلاف وللشيء الذي لم نعد قادرين على تسميته «الطبيعة» (..). وهكذا، فإن من الواجب في رأي هؤلاء الأنثويات مهندسات التحرير، أن تحصر الأعضاء التناسلية للرجال والنساء في دورها الوظيفي فقط. فالجنس أداة كغيره من الأدوات. ووراء هذه الإيديولوجيا ما بعد الحداثية، توجد الرغبة في جعل العالم تعاقديا، فتصبح العلاقة بين الجنسين علاقة استهلاكية، ويُحفظ الاختيار من التساؤل الوجودي عبر القانون، كما يحفظ الحب من الأمراض عبر الواقي الذكري.

نظام أخلاقي جديد

هذه[1] الطهرانية ذات النزعة الصحية، تصل إلى مداها الأقصى في ما يسمى «نظرية الموافقة» Consent theory، والتي صارت رائجة في الجامعات الأمريكية، حيث من الشائع سيطرة مجموعات الأقليات الجنسية، وحيث تغيير الاسم الشخصي من الخيارات المتاحة عند التسجيل، وحيث من المحبذ تحديد الهوية الجنسية من ضمن نحو عشر هويات مقترحة. بحسب هذه الإيديولوجيا داخل الإيديولوجيا، فإن أغلب علاقاتنا الجنسية لا تتم بالموافقة، ما دمنا نعيش في «إطار ذي معايير جنسية تغايرية»، تعارض رغباتنا الدفينة. لا بد إذن من إدخال الحوار والديمقراطية إلى هذه المنطقة التي هي خارج القانون، والتي اسمها مخدع النوم.

في أية علاقة جنسية هادئة، على كل طرف من طرفي العلاقة أن يسأل الآخر «في كل مرحلة» من العلاقة الجنسية، إن كان «موافقا على المضي إلى مرحلة أبعد». هذا الهدوء المدّعى يجب مقارنته بالإحصائية الرسمية للإدارة الفدرالية للتعليم، التي تقول إن طالبتين أمريكيتين من كل عشر طالبات، تصرحان بتعرضهما للاغتصاب خلال سنوات الدراسة، فالتشدد يؤدي - هنا كما في غيره - إلى تصدع عنيف للتوازن النفسي. من أجل تفادي المحاكمات بسبب تهم الاعتداءات الجنسية التي تتزايد في المجتمع الأمريكي الذي يميل كثيرا إلى حل مشكلاته عن طريق القضاء، صارت بعض الجامعات الأمريكية تقترح «ميثاقا للتصرف الجنسي»، وأخرى تقترح «عقودا جنسية» يمكن توقيعها من أجل العلاقات الجنسية «لليلة واحدة». تبيع أليسون بيرك (Alison Berke)، مؤسسة موقع (affirmativeconsent.com) والابنة البارة لبلد المقاولة الحرة، عُدّة بدولارين اثنين، تشتمل على واقيات ذكرية، وحلوى بالنعناع، وقلم واستمارة لعقد صفقة. أمر رومنسي.

إن الجنس المهدّأ والبروتوكولي، الذي يقترحه العالم الجديد ويوجهه إلينا، يمر ولا بد عبر الشجب العنيف لمظاهر الجنسوية التي تظهرها القارة العجوز. كثير من الكتابات الأدبية الأوروبية، التي لا تدخل تحت هذا النموذج المقترح، تنبز بأنها عنف أو اغتصاب. إن روايات

---

(1) آثرت الاحتفاظ بهذا الفصل، مع أن منظور المؤلفة فيه مخالف لمنظورنا الإسلامي، وذلك لفهم حجم المأزق الأخلاقي الذي وصلت إليه المطالب الأنثوية، في أمريكا خصوصا، والذي صار مستنكرا حتى في الأعراف الجنسية الأوروبية .. [المترجم].

الحب التي تتحدث عن الامتلاك والمقاومة والاستسلام، تعلمنا أن فن الإغراء لعبة، تتعالى على أي عقد مكتوب. ترى ما الذي يمكن أن تفهمه الأنثويات الجديدات من ضفتي الأطلسي، واللواتي تمر رؤيتهن للعالم عبر المنظور المانوي للقيود التي تربط المسيطِر على المسيطَر عليه، من هذا الضغط النادر بين الرغبة والحياء والمنح، والذي يختص بعلاقة الحب التي تلتقي فيها حريتان؟ ولكنهن يشجبن بكل وقاحة كل تمثيل لذلك في الفن والأدب، لأن نظرتهن البوليسية تعد ذلك مدحا للقهر الباطرياركي الذكوري.

إن المثل الأعلى للجنس الاستهلاكي، المتحرر من كل ميول، لا يمكن إذن أن يوجد إلا في الدعارة، حيث يسمح المال - هذا الوسيط الكوني التبادلي - بإرساء علاقة مساواة عازلة في علاقة السيطرة المعتادة. هل ينبغي لكي لا تكون المرأة خاضعة، أن تكون عاهرة[1]؟ لا شك أن علينا أن نبحث هنا عن مساندة الدعارة من طرف المؤيدين الأكثر تطرفا للجندر: إذا كان الجنس مجرد ممارسة للعلاقة الجنسية، دون أية حمولة رمزية، فلا ينبغي أن نُصدم إذا كان المال هو الطرف الثالث الناجع، والمستتر، والأعمى والأبكم.

مظلومية النساء

كثيرا ما يتهم مؤيدو الجندر خصومهم، الذين يصرون على رؤية يدهم الخفية في كل مكان، بأنهم منحرفون نحو نظرية المؤامرة. وهم بذلك - ودون أن يعلموا ذلك - يعيدون تحيين كلمة «القشة والجذع»[2] المشهورة، وذلك لأنه إذا كان هناك خطاب يتبنى فعلا نظرية المؤامرة في مشروعه وانتشاره ونتائجه، فهو خطاب الجندر. أفضل مؤشر يدل على ذلك هو تخميناتهم المتعلقة بطبيعة المظلومية الوجودية للمرأة. وقد فُتحت لهم الطريق ومُهّدت من طرف سيمون دو بوفوار في كتابها «الجنس الثاني»، الذي تُصوِّر فيه ظروف المرأة بشكل مفزع. ثم هم يفاقمون هذه الصورة بالاستعانة بالهندسة السياسية للبيو - سلطة. كل شيء في وصفهم يدور على معنى الاضطهاد غير المحدود.

---

(1) إشارة إلى حركة أنثوية فرنسية مشهورة اسمها «لا عاهرات ولا خاضعات» (Ni putes, ni soumises). [المترجم].

(2) كلمة موجودة في الإنجيل: «لم ترى القشة في عين أخيك، ولا ترى الجذع المعترض في عينك؟». وقد وردت أيضا حديثا: «يبصر أحدكم القذى في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه»، عند ابن حبان وغيره. [المترجم].

في عام 2010، تشكلت مجموعة أنثوية في معهد العلوم السياسية بباريس، بمناسبة المظاهرات ضد إصلاح نظام التقاعد. بعض المناضلات، تنبهن إلى أن الأولاد الذكور وحدهم يتحدثون خلال التجمعات العامة، فأنشأن اجتماعات غير مختلطة لتحرير كلمة النساء «المضطَهَدات بالمنطق الباطرياركي». تحت صدمة هذا الإعلان، اعترفت إحداهن قائلة: «ليس صحيحا أننا خجولات، الحقيقة أن الأولاد يضطهدوننا». مهما يحدث، فالقاعدة التي تعمل دائما عند هؤلاء الأنثويات اللواتي يُكثرن التشكي، هي: «ليس هذا خطئي، وإنما هو خطأ «التكييف الاجتماعي».

هذا التراجع إلى الخلف، والذي تشجبه إليزابث بادينتر (Elisabeth Badinter) في كتابها «الطريق الغلط Fausse route»، مبني على العقيدة التالية: المرأة ضحية. وحين نقول «ضحية»، فإننا نقول «مذنب» .. وليس صعبا أن نعرف من هو. لا يوجد انتماء يمكنه أن يصل إلى مرتبة التضامن بين عبيد النظام الباطرياركي، كما تلاحظ بادنتر: «معركة المرأة البورجوازية في الدائرة الباريسية رقم 17، والفتاة ذات أصل عربي في الضاحية الباريسية، هي معركة واحدة». بعيدا جدا عن أنثوية النضال التي تتخذ قدوةً لها العالِمة أو الفنانة العالمية أو البطلة الأولمبية أو القائدة السياسية – التي لا نتحدث عنها إلا حين تتعرض لثرثرة جنسوية ما – ، فإن أنثوية المظلومية لا تعرف سوى المرأة المهانة المضروبة المغتصَبة، واللتي هي الحليف الموضوعي للرجل المثلي والخنثوي، المستعبدين والمطاردين مثلها من طرف الذكر المستبد.

الموضوع المتكرر إلى حد الهوس في مدونة الشكوى هذه، هو العنف الجسدي – وفي غالب الأحيان: الرمزي – الممارس على النساء. أرجو ألا يساء فهمي: علينا أن نفرح لكون النساء المتعرضات لاعتداء، أو الزوجات اللواتي يتعرضن للضرب، لم يعدن يجدن أدنى حرج في تقديم شكوى إلى السلطات، وأن المعتدين يتلقون عقوبات شديدة. ولكن الأنثويات الجديدات يسعين إلى البرهنة على أنه لا توجد أي امرأة في أمان، في أي مكان. الأب، الأخ، للزميل، الأستاذ، الطبيب: كل رجل هو مغتصِب محتمل. وكما تكتبه مونيك فيتينج (Mo-nique Witting): «امرأة تحب من يضطهدها هي امرأة مضطهَدة؛ أنثوية تحب من يضطهدها هي خائنة». تبين إليزابث بادنتر كيف أن الأرقام الفلكية للاعتداءات الجنسية التي ترفعها بعض الجمعيات الأنثوية، هي أرقام متلاعَب بها ويساء استخدامها، خدمة لإيديولوجيا يمكننا تسميتها

بـ«معاداة الرجل»[1]. تشير هذه الفيلسوفة أيضا إلى أن العنف الزوجي يمارس في الغالب من الطرفين معا. «يشتكي الرجال – مثل النساء – من تعرضهم في بعض المناسبات للإهانة وسوء المعاملة». كما أنها تنتفض ضد الفكر المهيمن في هذا العصر، الذي هو أساس تعتمد عليه نظرية الجندر، والذي يتمثل في وضع حالة اتصال بين أنواع العنف المختلفة كائنة ما كانت، منزلية أو شمولية. في الواقع، كيف يمكن للبنت الصغيرة المجبرة على اللعب بالدمية، والمرأة الباريسية التي تتعرض للتحرش في الميترو، والمرأة النيجيرية ضحية الاتجار الجنسي، أن يكنّ جميعا ضحايا لنظام واحد، منظم وعريق في القدم؟

في أبريل 2015، أعلنت دراسة أجراها المجلس الأعلى للمساواة بين الرجال والنساء أن 100 ٪ من النساء سبق لهن التعرض للتحرش في المواصلات العامة. على أساس هذه النتيجة الساحقة، أطلقت الحكومة في بداية الصيف، مخططا للمقاومة الجذرية لهذه الآفة. ولكن حين ننظر عن قرب في تفاصيل الدراسة الاستقصائية يتبين لنا أن المنهجية المستعملة مشكوك فيها. قريب من ستين شخصا فقط سُئلوا، كما يبين موقع «Contrepoints». الأسوأ من ذلك، أن النساء اللواتي وقع اختيارهن للاستبيان، كنّ قد سئلن من قبل بمناسبة لقاءات حول موضوع «النوع والفضاء العمومي»، وهنّ إذن قد وقعت توعيتهن في الموضوع من قبل. تنخرط الحكومة إذن في هذه الحملة اعتمادا على دراسة زائفة، تعتمد فوق ذلك على تعريف موسّع للتحرش، يبدأ من «صفير الإعجاب» إلى «وضع اليد على المؤخرة»؛ ومن النداء بلفظ «آنستي»[2] إلى الاغتصاب في مكان مظلم من القطار. تحذر الحكومة بأن «الحدود بين التحرش الجنسوي والعنف الجنسي، رفيعة جدا». ومع ذلك فإن التقرير يحدد أن «ضحايا الضرب والجرح في وسائل النقل العمومي هم رجال بالأساس». ولكن ذلك مكتوب بخط صغير، لكن لا يهم!

---

(1) تستعمل المؤلفة هنا لفظ (hommophobe) أي «رهاب الرجل»، وتعريبه بـ«معاداة الرجل» أولى. ومن الطريف أنه لفظ يشبه عند النطق لفظ (homophobe) المشهور المتداول، والذي يعني «معاداة المثليين» مع فارق حرف واحد في الكتابة. [المترجم].

(2) عقدت المؤلفة الفصل الأول، الذي سمت به كتابها، لهذه القضية. ولم أترجمه لارتباطه بخصوص اللغة الفرنسية. [المترجم].

إن سرد هذه الصراعات العشوائية، المرتجلة والمتناقضة، يقودنا إلى أن نتساءل أين تذهب الأنثوية، التي هي الصراع الحقيقي من أجل المساواة الواقعية للنساء. إن أردنا الصدق، لا توجد غاية تذهب إليها. إن التحالف في قلب نظرية الجندر بين الحركات الأنثوية وحركات الأقليات الجنسية (LGBT) خطأ تاريخي وهذيان إيديولوجي. موضوعيا، مصالح النساء والمثليين ليست واحدة. يظهر هذا التعارض بوضوح في موضوع «الحمل بالنيابة». هذا الحمل الذي يطالب به الأزواج المثليون، يدخل في اصطدام مباشر بأربعين سنة من الصراعات الأنثوية من أجل تحرير جسم المرأة.

لقد انقضى الزمن الذي كانت فيه الجبهة المثلية للعمل الثوري، وحركة تحرير النساء، يتظاهرون يدا في اليد ضد النظام الأخلاقي والباطرياركية. لقد صدِئت آلية التوافق الثوري الجميلة. بعض المثليين يريدون «الحمل بالنيابة»، الذي لا يتلاءم مع النضال ضد الدعارة، الذي هو الصراع الأساسي للأنثوية التاريخية. ولكن ماري - هيلين بورسيي (Marie – Hélène Bourcier) عالمة الاجتماع التي تضع عمدا شاربا حصلت عليه بفعل الهرمونات، تناضل من أجل أن تتمرد معها «الأقليات الجنسية، وغير الطبيعيين» ضد «تعليمات الاندماج ذات النزعة الجمهورية والكونية».

لقد انفصلت أنثوية «الكوير» المتجاوزة للإنسانية، عن الأنثوية التقليدية. تنتقد الفيلسوفة سلفيان أجاسينسكي (Sylvianne Agacinski)، التي تنبهت باكرا إلى هذا الانحراف، عملية «التقويض» الذي يشكله تبني الأطروحات البتلرية. حين تنفي التمايز بين الرجال والنساء، فإن نظرية الجندر تحرم النضال الأنثوي من أي تماسك وصلاحية. هنالك مفارقة في الواقع، بين مطاردة الصور النمطية في حضانات الأطفال، والسعي إلى فرض التساوي العددي في البرلمانات. وكما يقول دريو جودفريدي (Drieu Godefridi): «الأنثويات الجندريات هن الغبيات المفيدات للنوع البتلري».

تحيا الفروق بين الجنسين ! - الأنثوية الجاهلة

من كتاب «وداعا آنستي» لأوجيني باستيي (ص199 - 218)

أيتها المرأة، أحبك لأنك لن تذهبي للموت في الحرب / لأن رؤية الأسلحة النارية، لن تجعل مبايضك ترتعش.

المغني الفرنسي رونو

حين كنت في مرحلة الطفولة، كنت ما يسمى «فتاة تتشبه بالصبيان»[1]، وهي عبارة تقصد بها الفتيات اللواتي يحلمن بأن يكنّ ذكورا، وهي عبارة أحبها لما فيها من حمولة جنسوية قوية. كنت فخورة بالانتماء لهذا العِرق الذي كنت أعدّه عرقا أعلى، قادرا على الجمع بين امتيازات الجنسين. لم أكن قد عرفت أن كل الفتيات الصغيرات - فيما يقول فرويد - عندهن عقدة «الرغبة في امتلاك قضيب ذكري»، مع تفاوت بينهن في قوة هذه الرغبة. كل أصدقائي كانوا من الأولاد الذكور. كنت أحتقر الإناث، وأخصص نظرات إعجابي، وغمزات حناني، واندفاع تواطئي، للجنس الآخر. دون تزوير، كنت أريد أن أكون ولدا. لأستطيع الجري، والمصارعة، واستعمال السيف، والتنكر في لباس أمير. لأنني كنت أكره دمى «باربي»، القبيحة والتافهة. لأنني - على كل حال - كنت ألعب مع أختي وأخي باللُّعب المخصصة للأولاد. لأنني بدلا من الفستان التقليدي لساندريلا، طلبت أن يُهدى لي في عيد ميلادي الخامس، لباس الفارس المتلألئ، مع سيف بلاستيكي؛ وفي عيد ميلادي السابع، بذلة بيتر بان (Peter Pan). كنت أرفض بإصرار أن ألبس الفساتين التقليدية التي تلبسها أختي بانشراح صدر، ولا أقبل أن ألبس سوى بناطيل الجنز.

لم يحاول والداي قط أن يمنعاني من أن أكون «فتاة تتشبه بالصبيان». على العكس، فإن والدِي الذي كان يحلم بأن يكون له ولد ذكر، تعامل معي كما لو كنت ولدا. هذا الكاثوليكي التقليدي والرجعي، كان يمكنه أن يتظاهر اليوم ضد زواج المثليين. ولكن لم يكن بحاجة إلى أن يُعلّم بطريق الدعاية، كيف تقاوَم الصور النمطية. كان يغسل الأواني المنزلية عند الحاجة، دون أن يُعطَى دروسا تكوينية في المساواة.

صحيح أنهم فرضوا عليّ بمناسبة حضوري لأول قربان مقدس لي، أن أرتدي فستانا أبيض، وأزين جبهتي بإكليل من الورود. هكذا كانت التقاليد. بكيت من ذلك بحرقة. ولكن «الروح

(1) (garçon râté): وترجمته الحرفية (ولد فاشل). [المترجم].

الرياضية» كانت سائدة، فقد كان أخي يبكي أيضا حين يقص شعره، أو يجبر على ارتداء خُفّ خاص يوم الأحد. لا بد من مراعاة الأعراف الاجتماعية. لِم لم أكن أقبل أن أرتدي الفساتين؟ أظن لأنني كنت أريد الانتساب إلى تلك الطائفة، التي تتجول في الغابة، ويمكنها أن تتسخ، وتتعارك. لأكون مختلفة.

أقول لنفسي اليوم، لو أنني ولدت في عائلة سويدية تقدّمية في سنوات 2000، ولو أنني سئلت في سن السابعة عن جنسي، لكنت أجبت «ولد»، دون تردد. ربما كانوا سيتحدثون في الصحافة عني كضحية، ربما كانوا سيعطونني هرمونات ذكرية، ربما كانوا سيجرون لي عملية جراحية، ربما كنت سأتخلى عن جنسي لأتحول إلى ذكر. أحمد الله أنني لم أتعرض في صغري لاستبداد الاختيار الذي يسيطر على عالم الراشدين، هذا السوق الواسع للهويات، والذي يُختار فيه الجنس والجسد تحت الطلب.

الذراع المسلحة للنزعة الاستهلاكية

نشأت في سنوات 1990. في ساحة المدرسة، كنا نلعب جميعا، ذكورا وإناثا، بلعب البوج (POG) والبوكيمون، دون أن ننسى البنانير والقفز على الحبل المطاطي. بعد مرور عقدين من الزمن، رجعت الصور النمطية بقوة. اليوم، تنتشر لعبة «ملكة الثلوج» للبنات، ولعبة «حرب النجوم» للأولاد. وعلى الرغم من وجود «فتيات متشبهات بالصبيان»، وكون البنات أكثر حرية في إبداء رغباتهن في اللعب، ولو بلعب الكرة المستطيلة (rugby)، فإن الأغلبية الساحقة منهن لا يزلن يحببن الدمى.

في الحقيقة، وعلى الرغم من الصراعات الأنثوية الطاحنة، فإن لعب الأطفال لم تكن قط بالنمطية التي هي عليها الآن. يكفي المرء الدخول لمتجر كبير، ليصاب بالغثيان. طوفان من الأزرق والوردي يغرق كل والد يرغب في اقتناء لعبة لطفله، وقبح مانَويٌّ سائد دون منازع. وصل الأمر إلى أن يُقلق رسوخ هذه الثنائية السلطات العمومية. وهكذا، وعلى بعد أسبوع واحد من احتفالات رأس السنة لعام 2014، قدم المستشاران شانتال جوانو ورولان كورتو تقريرا إخباريا حول «أهمية لعب الأطفال في تأسيس المساواة بين الأولاد والبنات»، داعيَين إلى مقاومة «صور النوع النمطية»، تحت راية العريضة المبدئية: «المساواة والعيش المشترك يبدآن من لعب الأطفال». يؤكد التقرير على تطور مقلق: «إن المرحلة الراهنة تتسم بفصل

واضح بين عالمي لعب البنات والأولاد». يستنكر المؤلفان أنه على الرغم من «سير مستمر» نحو التقدم، لا يزال السوق يقسم عَرضه بحسب جنس الأطفال. هذا التطور «الذي بدأ منذ نحو عشرين سنة»، يُترجم بازدياد الفصل بين البنات والأولاد: فضاءات بيع مختلفة، قوائم مبيعات بصفحات للأولاد وأخرى للبنات، لُعب كانت مختلطة من قبل أصبحت بلونين مختلفين، أزرق ووردي.

لِم هذا القلق المفاجئ؟ لأنه في سنوات 1970 – 1980، حين بدأت «الثورة الأنثوية»، كانت لُعب الأطفال أحادية الجنس أكثر من سنوات 1990 – 2000 – 2010. بلغ الأمر أن تُقترح آلات خياطة للجنسين، وهو شيء لا يمكن تخيله اليوم. هذا التطور الكئيب يمكن إرجاعه إلى تشكل مجموعات صناعية دولية والتطور العنيف لطرق الدعاية. بنشرها عرضا عالميا مُمَعيَرا، فإن العولمة الاقتصادية لقطاع لعب الأطفال تجعل التمثيل التعميمي ممكنا. لكي تروق دمية مصنوعة في الصين للأمريكية الصغيرة كما للفرنسية الصغيرة، لا بد من اختزال الأنوثة بشكل كاريكاتوري، لتكون عالمية. يوجد خمسون تدرجا للون الوردي، أصبحت هي العلامة التجارية للمؤنث، الصالحة للجميع وفي كل مكان.

حيث كان الأطفال في السابق يتبادلون لعبهم، ويتناقلونها من الكبير للصغير، بل يلعبون مجتمعين، صار الإخوة والأخوات يجدون تحت تصرفهم لعبا وأكسسوارات وماركات مختلفة ومتمايزة بشكل جذري. اللعب الذكورية تركت مكانها للعب المصنفة بحسب الجنس. كما أن دمى الشخصيات المشهورة (Corolle, Spiderman) تثير فضاءات منفصلة، تجبر الوالدين على الإنتاج والاستهلاك مرتين أكثر من أجل إرضاء الأطفال، الذين صاروا أسيادا متحكمين. يمكن أن نراهن أننا نجد اللعب القديمة أحادية الجنس لدى الأسر المتعددة التقليدية التي تظاهرت ضد زواج المثليين، في حين نجد الأسر العصرية خاضعة لرغبات الأطفال، وتشتري آخر صيحات اللعب الأمريكية.

باتهامها «للنموذج الباطرياركي» للعب الأطفال المقسمة بحسب الجنس، فإن الأنثويات يحرصن على عدم التعرض للنموذج الذي يسعى إلى تقسيم السوق إلى أماكن منفصلة، والنزعة الاستهلاكية اللامحدودة التي حولت الأطفال إلى زبائن، من أجل البيع أكثر وربح قطاعات من السوق. بدلا من الدعوة إلى نمط حياة معتدل وسعيد، وهو النمط الذي يمارسه الطفل بالغريزة، فإنهن يفضلن شجب مؤامرة خيالية تسعى إلى تدريب البنات على أن يكنّ أمهات مستقبليات.

لن نعمل هنا على امتداح الصور النمطية كما في شعارات المظاهرات المعارضة لزواج المثليين. كل من يدخل متجرا للعب الأطفال، لا يمكنه إلا أن يشعر بالفزع من «التقسيم بحسب النوع» الذي ينتشر فيها. لا يلزم أن يكون المرء قد استمع لحماقات «مبادئ المساواة» ليعلم بأن الطريقة المعاصرة لصنع اللعب مضرة، من جهة كونها تحط من قيمة الروح وتُقَوْلِب الجنسين. لكن الفضيحة لا تأتي من النظام الباطرياركي. البشاعة تأتي من تسليع الطفولة.

وكذلك فإن استنكار الصور النمطية في الإعلانات الإشهارية من طرف الأنثويات، تثير ابتسامي. لقد أصبحت واحدة من هواياتهن المفضلة. ويبدو لي ذلك تافها. يشبه الأمر محاولة تفريغ البحر من مائه باستعمال ملعقة صغيرة. إذا علمنا أن الإشهار مبني على نشر الصور النمطية، وأن غايته تسريب رغبات مصطنعة وآلية بين الناس، فما فائدة التعب في محاولة جعله أكثر عدلا؟ البحث عن إشهار غير نمطي، يشبه إرادة حرب سلمية، أو رأسمالية أخلاقية.

بعد ثلاثين عاما من الأنثوية، وعلى الرغم من التحذيرات والتهديدات والوشايات، ومن الطهرانية المتوطنة لدى حارسات الحيطة، فإن النتيجة أن جسد المرأة لم يُختزل قط في بعده الجنسي كما هو الآن. الملصقات، والشاشات الصغيرة والكبيرة تترنح تحت ثقل سيل الإباحية العارم. تعد المجلات الفضائحية وبرامج تلفزة الواقع، آلات لتفريخ بغض النساء، بما تستعمله من نوعية خاصة من النساء ذوات الأجساد المثيرة. إنها صناعة إعلامية إشهارية تعطي صورة مؤسفة عن المرأة. حين طُردت أخلاق الفروسية والإغراء في التعامل بين النساء والرجال باعتبارها عيوبا قروسطية، فإن «حرب الجنسين» لم تزد على أن دفعت نحو الواجهة الغرائزَ الأكثر بدائية. في كتابها «شبيبة متحررة جنسيا (أو تكاد ..)» تصف المتخصصة في الثقافة الجنسية تيريز هارجو (Thérèse Hargot) نظرة المراهقين إلى المرأة اليوم. اللوحة التي ترسمها مفزعة. بعد مرور خمسين سنة من «الثورة» التي كان يفترض أنها حررت المرأة من عبء المنظومة الأخلاقية اليهودية - المسيحية، فإن التصرف الحر في الجسد، تُرجم في حقيقته بوضع أجساد المراهقات تحت تصرف المراهقين، ذوي الرغبات التي يمليها الاستهلاك المستمر للثقافة الماجنة. الفتاة صارت حرة، نعم[1]. حرة في

---

(1) ترددتُ في ترجمة المقطع الآتي، ثم ارتأيت الإبقاء عليه، ليفهم القارئ الواقع المر الذي تعيشه الفتاة الأوروبية، التي يراد اليوم أن تكون قدوة للفتاة المسلمة. وقد حاولتُ تلطيف العبارة، بالتصرف قليلا في الكلام الأصلي، لكن البشاعة تبقى حاضرة بقوة. وإنني أعدّ هذه الفقرة من أفضل ما يُرد به على أتباع الغرب عندنا، الذين يريدون منا أن نتبع الغرب في كل شيء، حتى في الأوحال التي تردى فيها.

أن تمارس الجنس الفموي مع الأولاد الذكور في مراحيض المدرسة، لأن ذلك «ليس شيئا خطيرا». حرة في أن تمارس الجنس من الدبر، فقط «لتجرّب ذلك». حرة في أن يُعيرها صديقُها لأصدقائه في حفلات ماجنة «رائعة». حرة في أن يصوِّر جسدها ويعرض على الفيسبوك على طريقة نجمات الأفلام الإباحية اللواتي يحلم بهن الأولاد، فقط لأن ذلك أمر «أنيق جدا».

عن أية حرية جنسية نتحدث؟ لم يكن الجنس قط معياريا كما هو اليوم. إلا أن المعايير انقلبت: العذرية مستهجنة، الإحساس محتقَر، اكتشاف الجسد منسوخ حرفيا من أداءات الأفلام الإباحية. اللازم الجديد للحياة الجنسية ليس العشق، بل التمتع. انتشرت في ميدان الرغبة أفكار التجربة الجنسية المتعددة، والحقل اللفظي للتنافسية، ومفردات الأرقام القياسية، التي تعامل المرأة على أنها سلعة ينبغي أن تُجرَّب. صار الأمر واجبا اجتماعيا: عليك أن تنجح في حياتك الجنسية كما عليك أن تنجح في حياتك المهنية. تكتب تيريز هارجو: «كل شيء صار موضوع اختيار، من توجهنا الجنسي إلى أطفالنا، من العشق إلى تحديد النسل». نشهد اليوم مفارقة لا تطاق: في حين تحاول الأنثويات بأي ثمن محو الفروق الجنسية التي يرينها عشوائية، فإن هذه الفروق تبرُز بطريقة كاريكاتورية في فضاء السوق. من عمل حضاري، تحولت إلى عمل تجاري.

ما المقصود بالفرق بين الجنسين؟

للتذ كثيرا بهذا المقطع من كتاب «امرأة حرة» لصاحبته فرانسواز جيرو (Françoise Gir-oud) إحدى مؤسِّستي صحيفة ليكسبريس، والذي تصف فيه حالة نسائية خاصة: «الحوار مع اللواتي يسمَّين «نساء حقيقيات» كان دائما أمرا صعبا بالنسبة لي. يحرجني بَوحهن بأسرارهن لي، وهن يشعرن بذلك فيجنّبني الاستماع له. وحينئذ، فلا يكون لديهن ما يقلنه لي. أشاركهن أفراحهن وأتراحهن، ولكنهن لا يشاركنني أفراحي وأتراحي. أحب أن أنظر إليهن إن كن جميلات، أستمع لهن بطيب خاطر، ولكنني لا أعرف أن أجيب كما يتمنين. لا يوجد تواطؤ بيننا». تتأمل هذه الصحفية المرموقة خصوصية النساء، وتدرك بَريقها، ولكنها تبتعد - بنفرة مغلفة بالحنان - عن التواطئ النسائي، الذي تشعر أنها تشارك عمليا فيه، مع كونها منبوذة بالقلب منه.

وإنني لأكتب هذا الكلام، وفي مخيلتي الصورةُ المنيرة للفتاة المسلمة العفيفة الحيية الطاهرة، التي أسأل الله تعالى أن يحفظ عليها عفافها وطهرها، ويبقيها نجما ساطعا، تهتدي نساء العالم به، في هذا العصر العجيب الذي نعيش فيه. [المترجم].

ما الذي يعنيه أن تكوني امرأة؟ سؤال تصعب الإجابة عليه. لقد انتقد الكثيرون – وبحق – محاولة رفع الأنوثة إلى نوع من الأمر الأبدي الموصوف بخصال كلها إيجابية. من جهتي، أفضل الحديث عن لغز غامض. الأبدي ثابت لا يتغير، أما اللغز فمتقلب ويعسر الإحاطة به. الأبدي مجرد، واللغز مجسد: يتجسد في الخصوصيات النسائية الملموسة، والتي هي الدورة الشهرية وحدوث الأمومة. بدلا من اللجوء إلى تعبير شعري لا فائدة منه، فإن الفرق الجنسي – إذا اختزل بشكل عنيف إلى حقيقته الأكثر صرامة وأصالة، يختصر في المعادلة التالية: الرجل يمكنه أن يَغتصِب، والمرأة يمكنها أن تدّعي النشوة الجنسية. حول هذه القدرات المتقابلة، تبنى الحرب – في الحالة الأسوأ – والحضارة – في الحالة الأحسن؛ وحول نموذجهما توضع الأماكن والثقافات، بطرق مختلفة عبر التاريخ.

إن لغز الأنثى لا يمكن تعريفه، بل وصفه فقط. إنه لا يرتبط بالأنطولوجيا بل بالفينومينولوجيا. إنه ليس قضية علوم إنسانية واجتماعية، بل قضية أدب. الرواية هي التي تستطيع حصره جيدا. في رواية «الحرب ليست وجه امرأة» تثير البيلوروسية سفيتلانا ألكسيفيتش (Svetlana Alexiev-itch) بروعة لغز الأنوثة هذا. في الاتحاد السوفياتي، كانت البنات تعامَلن مثل الأولاد. وهكذا جُنِّد نحو مليون فتاة شابة في الجيش السوفياتي خلال «الحرب الكبرى الوطنية». ولكن على الرغم من هذه المساواة المفروضة والحقيقية، فإن الفرق بين الجنسين كان مستمرا في الوجود، سالما وراسخا، مثل قلعة ثابتة للظرف الإنساني، وسط أوحال الخنادق كما في شتاءات الجولاج، حتى في ميادين القتال، حتى في المعسكرات، حتى في الموت المدبّر.

تشرح الحائزة على جائزة نوبل للآداب لم اختارت أن تعطي الكلمة للنساء. «حرب النساء لها خطابها الخاص. يتخندق الرجال خلف الوقائع، تجذبهم الحرب، مثل صراع الأفكار، بينما المرأة تراها من خلال المشاعر». لنسجل أنها لا تشرح السبب، كما يمكن أن يفعل متخصص في علم الاجتماع، بل تكتفي بوصف ما شاهدته. «أكرر ذلك رغم كل شيء: يتعلق الأمر بعالم مختلف عن عالم الرجال. بروائحه وألوانه الخاصة ومحيطه المفصل: 'وُزعت علينا أكياس، ففصلنا منها تنّورات؛ في مكتب التجنيد، دخلتُ من باب لابسة فستانا، وخرجت من باب آخرَ ألبس بنطالا ومعطفا؛ قطعوا ضفيرتي، لم يبق لي سوى قليل من الشعر على رأسي' (..) ولكن مهما يكن الموضوع الذي تتناوله النساء، فإن فكرة واحدة تبقى راسخة في أذهانهن: الحرب جرائمُ قتلٍ قبل كل شيء، وعمل شاق بعد ذلك. وفي الأخير، إنها الحياة العادية: 'كنا نغني،

ونعشق، ونصنع تصفيفات شعر. وعلى الخصوص، كنّ يشعرن بالطابع غير المقبول للقتل، لأن المرأة تعطي الحياة. تهب الحياة».

ما الأنوثة؟ أعلم ذلك في خاصة نفسي، دون أن أستطيع التعبير عنه بغير الوصف. كيف سيكون العالم دون فروق بين الجنسين، أو بالأحرى دون رقة الفرق بين الجنسين؟ سيكون بالتأكيد عالما دون أدب، وعالما دون حياة.

كما تقول كاثرين فروادفو - ميتري (Catherine Froidevaux - Metterie) في كتابها «ثورة المؤنث»، فإن «المبالغة في مطالب المساواة» أدت إلى اختفاء الموضوع المؤنث. لتسممنا بالحمى التفكيكية، لم يعد يحق لنا أن نقول «المرأة» أو «النساء» تحت ذريعة عدم الوقوع في ماهوية بشعة. كانت أنطوانيت فوك (Antoinette Fouque) وفي زمنها، تستنكر الأنثوية التجريدية التي تجعل من محاربة الصور النمطية أولويتها المطلقة، ولو أدى ذلك إلى نفي جميع خصائص الأنثى. هي التي أنجبت طفلا حين كانت مناضلة أنثوية شابة، لم تكفّ طيلة حياتها عن شجب كراهة الأمومة والطفولة التي كان يفرضها عليها وسطٌ فكري متأثر بالبوفوارية المفترسة. كتبتْ هذه المحللة النفسية في عريضتها «يوجد جنسان» المنشورة عام 1995، إشادةً عطرة بالفرق بين الجنسين: «هذه حقيقة واقعية، على التاريخ أن يجعل منها مبدأ رابعا، بعد الحرية والمساواة والأخوة، إذا أراد أن يبقى منسجما مع مثله العليا». أوافقها على ذلك.

ظلمات يوم 4 غشت 2014

ليس ممنوعا أن نطلق اسم «النجاتية»، نسبة إلى الوزيرة نجاة فالو - بلقاسم، على هذه الأنثوية السكيزوفرينية التي تُخبِر عن نفسها - في الوقت ذاته - أنها رفض للفروق بين الجنسين وتعظيم للقضية المجردة للنساء. استطاعت وزيرة الحقوق - وأيضا المدينة والشباب والرياضة والإنسانية - أن تستصدر من رئيس الجمهورية قانون المساواة بين الرجال والنساء - عفوا: بين النساء والرجال، كما ينبغي أن يقال الآن - يوم الاثنين 4 غشت 2014. لا يُرفض طلبا لنجاة. تسجل «صحيفة الأحد» : «أنها إشارة أنثوية إلى ليلة 4 غشت 1789 التي أَلغتْ فيها الجمعيةُ التأسيسية الامتيازات». تظن الوزيرة أنها تواصل وتكمل الثورة[1].

---

(1) أي الثورة الفرنسية، وكانت هذه الليلة هي التي أُلغيت فيها الامتيازات الفيودالية من طرف الجمعية الوطنية. [المترجم].

ولكن البند السادس من إعلان حقوق الإنسان والمواطن يحدد الآتي: «يجب أن يتساوى الجميع أمام القانون، حين يحمي، وحين يعاقب. جميع المواطنين المتساوين في نظر القانون، يحق لهم الوصول إلى أي تشريف، أو مكان أو عمل عمومي، بحسب قدرتهم، ودون أي تمييز آخر سوى فضائلهم ومواهبهم». من الصحيح أن الجمهورية الفاضلة تأخرت في إدماج النساء في معنى المواطنة. كان ينبغي انتظار دوجول (De Gaulle) المحافظ، لإتمام وعد 1789 بإعطاء حق التصويت – في 21 أبريل 1944 – للنصف الآخر من الشعب الفرنسي. ولكن منذ ذلك الوقت، تحولت المساواة في الحقوق إلى مساواتية في الظروف؛ والمساواتيةُ إلى إلغاءِ للفروق. لقد تحول إلغاء الامتيازات إلى إلغاء للفروق. كما لو أن وجود رجال ونساء ينشأ من امتياز مصطنع، كالذي كان يوجد بين الطبقتين الأرستقراطية والعامة، بين النبلاء وعامة الشعب.

إن قانون المساواة بين الرجال والنساء لنجاة فالو – بلقاسم مُرَكّز للنظرة المهجنة للمساواة التي أعلنت في 4 غشت 1789. على الرغم من بعض الإجراءات المعقولة التي يحتوي عليها، مثل تعزيز مقاومة العنف الممارس على النساء أو منع مسابقات الجمال المخصصة للفتيات الصغيرات (mini – miss)، فإنه في مجموعه غيرُ متناسق على صعيد المبادئ، وكارثيٌّ في العلاقات بين الجنسين.

هكذا الأمر بالنسبة لـ«التساوي العددي»[1]، الذي يشكل العقيدةَ العليا للنجاتية، ويوجد في قلب القانون. التساوي في كل مكان. في الرياضة، والتنفيذيات المحلية والشركات الكبرى. في المقاولات الصغرى والمتوسطة، والمجالس البلدية والجماعات المحلية. لكن الأنثوية لا توجد في أي مكان. هذا التمييز الإيجابي، والتعزيز لاختلاف مجرد مفرّغ من مادته، تضاف إليه إرادة منهجية لإلغاء الفروق الملموسة. إن قانون نجاة فالو – بلقاسم يدخل في التفاصيل: منع عبارة «رب أسرة صالح»، حذف إشارة «الاسم كزوجة»، تقليص عطلة الولادة.

لرفضهن أن يُحصرن في ظرفهن النسائي، فإن الأنثويات الجديدات وقائدتَهن الوزيرة، يناضلن بنشاط من أجل التساوي، الذي لا يعدو أن يكون تخفيضا للنساء إلى مرتبة العدم، أو ما يقاربه. بعد مرور عامين على إقرار الزواج المثلي، وبمناسبة انتخابات القطاعات في أبريل

(1) (parité): هو فرض المساواة العددية بين الرجال والنساء، خاصة في المناصب السياسية، ولا يكون ذلك إلا بفرض نظام الحصص (الكوطا). [المترجم].

2015، شهدنا مهزلة «تصويت تغايري»، أُجبر فيها المرشحون على الترشح بشكل «زوجي» أي «رجل وامرأة». كانت النتيجة مدهشة بنجاعتها التي نعلم: إذا كان نصف المنتخَبين قد صار مكوَّنا من النساء، فإن 10 ٪ فقط استطعن الوصول إلى مناصب أساسية.

يقال لنا بطريقة تريد أن تبدو علمية: كل هذا مخالف للحدس، ولكنه مؤقت. في عالم يسيطر عليه عدم المساواة، لا بد من وضع آليات للهندسة الاجتماعية، في انتظار ليلة عظيمة افتراضية، لا يعود فيها من اللازم إجبار المجتمع على أن يكون عادلا، ولا الإنسان على أن يكون أفضل، ما داما أصبحا كذلك عن طيب خاطر. ولكن متى سيكون التساوي العددي غير ضروري؟ متى سنعلن أن المجتمع صار فيه من التشبع بمعاني المساواة ما يغني عن فرض التساوي العددي؟ وعلى الخصوص، من يمكنه أن يعلن ذلك؟

إن التساوي العددي هو مأساة الأنثوية الجديدة. بسببه، لم تعد المرأة معدودة إنسانا بمعنى الكلمة، له خصال ومواهب فردية، وإنما هي مجرد عضو في طائفة من الملائم دعمها. على غرار دكتاتورية البروليتاريا في الماركسية، فإن التساوي العددي في الأنثوية، مقترح انتقالي من المفروض أن يلغى حين يأتي عالم أفضل، أي الشيوعية في الحالة الأولى، والسيادة الملليمترية للنصف مقابل النصف، في الحالة الثانية. ليكن الأمر كذلك. كتبت فرانسواز جيرو قائلة: «ستكون المرأة حقا مساوية للرجل، حين تُعيَّن - في منصب مهم - امرأةٌ غير مؤهلة». لقد حقق التساوي العددي هذه الأمنية الساخرة. سيوجد نساء نائبات ووزيرات ومستشارات إدارة، ليس لأن لديهن مواهب فذة ولكن فقط لأنهن نساء، منتسبات إلى بشرية من جنسين، لا بد من تفكيكها من أجل تحريرها. هل ظهرت لكم المفارقة؟ نفرغ صنفا معينا من أي خصلة مميزة (أن تكوني امرأة، هذا شيء لا وجود له)، وفي الوقت نفسه يكون الانتساب لذلك الصنف تأشيرة مرور لتحصيل حقوق داخل الجمهورية. لا ينبغي إذن أن نستغرب إذا وجدنا امرأة لا عقل لها في البرلمان، أو امرأة لا تقوم بأي دور مهم في مجالس الإدارة، أو وجدنا «نجاة» في الوزارة. حيث يجب أن يوجد تكامل تلقائي بين الرجل والمرأة، التي يمكنها أن تزدهر بعد تحررها بمساواة القانون والمواطنة، فإن التساوي العددي يضع ركائز مساواة حسابية وكمية وزائفة تنجح في أن تنفي - في الوقت نفسه - الدور الخاص للمرأة والتحرر الفردي الذي وعدت به ثقافة الأنوار. إن التساوي يَتجاهل في المرأة - في الوقت نفسه - المؤنثَ والكوني.

يجدر بنجاة فالو - بلقاسم أن تعيد قراءة كتابات جورج ساند (Georges Sand)[1]، الأنثوية بكتبها وحياتها، والتي لم تقلد الرجال قط إلا من أجل تزجية وقتها: «المساواة - كما ذكرت لكم آنفا - ليست هي المماثلة. سيكون الرب ظالما لو أنه أجبر نصف النوع الإنساني على أن يبقى مرتبطا على الدوام بنصف آخر أدنى منه؛ كان سيكون من الأولى لو زاوجه بعِرق من الحيوانات الناقصة. من وجهة النظر هذه، لا ينقص التصورات المنهجية للرجل إلا أن يحلم - كأعلى درجة من التطور - بانقراض كامل لعرق الأنثى والرجوع إلى مرحلة الخنثوية». هكذا تكتب في «الرسالة السادسة إلى مارسي Lettre VI à Marcie» من أجل دفع هذه الإمكانية الحالكة. للأسف، قد وصلنا اليوم إلى ذلك.

تعلن السوسيولوجية ماري هيلين بورسيي (Marie - Hélène Bourcier) عن ذلك بوضوح على شاشات التلفزة: إنها تنبذ «الاستمرارية بين الجنس والنوع، هذا الكنز الوطني الذي تريدون الحفاظ عليه مع إريك زمور (Eric Zemmour). إن فرنسا ليست متحفا للفروق الجنسية». كلا، ليست متحفا لذلك، ولكنها مسرح له، مسرح رائع ورفيع. لنضف أنه كلما ألغيت الفروق الجنسية، فإن ذلك يكون على حساب الاختلاف النسائي. لقد قادت الأنثويات الجديدات النساء إلى التعامي عن خصالهن الذاتية، ومواردهن الذاتية، وثرواتهن الذاتية، لكي يتقيدن بأسوإ مثال ذكوري.

أين الرجال؟

«كنت أرثي لحال الأولاد الذين يتجمعون في قاعات الرياضة من أجل التشبه بالأجساد التي تقترحها عليهم شركات الموضة الذكورية العالمية» هكذا يتعجب تايلر دوردن البطل المضاد في الفيلم السينمائي (Fight Club)، الذي خرج عام 1999. يشعر هذا الشخص المتمرد على الأعراف السائدة بالاشمئزاز من نموذج الرجل ذي العضلات المتغذي بالمنشطات العضلية، الذي تفرضه ماركات الثياب الداخلية الرجالية، فيذهب لممارسة فحولته في حلبات الملاكمة السرية.

أين الرجال من كل هذا؟ لقد تعمدنا إغفال الكلام خلال صفحات عديدة عن مصير هؤلاء المساكين، الذين تلاحقهم هؤلاء النساء المفترسات اللواتي لا همّ لهن سوى انقراضهم. هل نرثي لهم لأنهم فقدوا فحولتهم بفعل الحركة الأنثوية الجديدة التي استغلت انتصارَها لتسُوق عدوَّها الأبدي إلى المجزرة؟ هل يمكن عدّهم أكباش فداء لحركة إخصائية وانتقامية، هي

(1) روائية فرنسية مشهورة، كانت تكتب بهذا الاسم المستعار الرجالي، توفيت عام 1876. [المترجم].

المقابل العكسيّ للمؤامرة الباطرياركية؟ كلا. أرفض أن أستسلم للأناشيد الذكورية التي تجعل من «تأنيثٍ» مفترض للمجتمع السبب في أدوائنا كلها[1].

كيف يمكن التلويح بمثل هذا التمثيل الوهمي، في الوقت الذي يسود العنف والرعب اللذان أنتجتْهما رأسمالية داروينية متلاحمة مع النموذج الذكري؟ إذا كانت بعض الحركات الأنثوية قد انحرفت نحو كراهة الرجل، فإن ذلك لأنها ترى – في ظل الإطار الاقتصادي الراهن – أن الذكر هو منافس لها، أحسن استعدادا، وجاهز دائما، وأقدر على التمتع بعالم يتطلب الإنجاز معيارا على النجاح. لكن هذه الحركات أثمرت في المقابل رجوعا إلى نوع من كراهة المرأة، وجعلت العلاقات بين الجنسين أكثر توترا واحتياطا وتنافسا، وأقل تكاملا. هذه «النقابية» في الخطأ تبطل الحقيقة.

عند دوبوفوار، يوصف الذكر بأنه «الواحد»، فيما توصف الأنثى دائما بأنها «الآخر»، المقابل الجذري، الاختلاف الأسمى الذي خرج من ضلع آدم، فهو ثانٍ بالمقارنة مع الأول. لم يكن بإمكان دوبوفوار أن تعلم أن هذا الآخر – وتحت ضربات الإيديولوجيا التفكيكية – سوف يصبح «الأول» قبل «عين الذات». لأن الهامش صار هو القاعدة، فإن الرجل صار يُنظر إليه على أنه «الزائد» في مجالس الإدارة، في تحرير الصحف، تحت قبة البرلمان وفي استديوهات البرامج الحوارية.

ولكن المؤنث لم ينتصر مع ذلك. الثورة الأنثوية لم تؤد إلى عالم مؤنث أكثر، بل إلى عالم متشاكل أكثر. إلى عالم تُشوه فيه الفروق بالتسليع المزدوج للإشهار والإباحية، أو تُمحى باسم طهرانية النوع (..). الرجل ضحية أيضا لهذا المسار الجهنمي. كلا، المجتمع لا يتجه نحو التأنيث ولا نحو التذكير. المجتمع يفتقر من قيمة الاختلاف بين الجنسين.

يقول بولس الطرسوسي في رسالته إلى أهل غالاطية: «لم يعُد هنالك يهودي ولا إغريقي، لم يعد هنالك عبد ولا حر، لم يعد هنالك رجل ولا امرأة». هذا الوعد المسيحي لا يعني وجوب تذويب الفروق الجنسية في تجريد بشرية تتفلت من جميع الحتميات. إنه يعني فقط أنه إذا كان التأنيث والتذكير من خصائص الشخص، مثل الأصل الاجتماعي والانتماء الأسري، فإنها لا يمكنها تعريفه. لأن الرجل والمرأة حُران، وفي اختلافهما تظهر حريتهما. علينا أن نحافظ على هذا التوازن، في مواجهة رياح النسبية.

---

(1) تعترض المؤلفة هنا – ولكن دون تفصيل كاف – على فكرة «تأنيث المجتمع»، التي يثيرها أمثال سورال وزمور وغيرهما، وسبق ذكر فصول مترجمة عنها في المحور الأول من هذا الكتاب. [المترجم].

انتصار الإيديولوجيا «الأنثوية»

من كتاب «الأنثوية وانحرافاتها» لجان جابار (ص54 - 80)

إيديولوجيا «أنثوية» تنفي فروق الجنسين

إن الإيديولوجيا الجديدة المهيمنة التي رفضت الرؤية المتمركزة على الذكر، وعوضتها برؤية أخرى متمركزة على الأنثى، تجد صعوبة في قبول الازدواجية. إن تصورها للمساواة يدفعها إلى رفض الاختلاف.

1 - صعوبة تحمل الاختلاف عند البشر

جد الإنسان نفسه منزعجا من الاختلاف، كما يلاحظ ذلك توني أناتريلا (Tony Anatrel-la): «إن اللاوعي يعادي الغيرية، وكلَّ اختلاف»[1]. تميل الطبيعة البشرية إلى البحث عن الوحدة التي تعزز الانسجام. حين يلتقي الفرد بأشخاص غير غرباء عنه، فإنه يشعر بأنه «طبيعي»، وهذا الأمر يهدّئه. وعلى العكس فإن «الأجنبية»[2] تزعجه. يشرع في الشك، حين يتمكن الآخرون من أن يكونوا مختلفين. يتساءل إن كان على صواب في أن يكون على ما هو عليه، ولا يجد جوابا يريحه في «طبيعيته». وإذا كانت المساءلة الخفيفة يمكن أن تحفز تفكيره، فإن التساؤلات الكثيرة تقود إلى فقد توازنه. من أجل حل المشاكل المرتبطة بتخوفاتهم، وجد بعض الناس دائما حلولا سهلة. حين يجعلون الاختلاف عيبا، فإن العنصريين يتفادون التشكيك في ذواتهم، ويمنحون أنفسهم الحق في التنفيس عن أنفسهم عن طريق الكراهية. حين يختارون التقليل من النساء اللواتي يُثرن فضولهم، فإن الرجال الجنسويين يطمئنون على هويتهم ويمنحون المشروعية لسلطاتهم.

لأن الإيديولوجيا الذكورية لم تستطع الامتناع عن أن تستنتج من الاختلاف بين الجنسين تفوقا لأحدهما على الآخر، فإن الإيديولوجيا «الأنثوية» الجديدة ترفض - وبحق - هذه الجنسوية، ولكنها تتبنى نزعة مساواتية برفضها جميع الاختلافات.

---

(1) توني أنتاريلا (Tony Antarella)، «الجنس المنسي Le Sexe oublié»، دار (Flammarion، 1990). [المؤلف].

(2) رونو كامو (Renaud Camus)، «عن المعنى Du sens»، دار (P.O.L، 2002). [المؤلف]. وهذه محاولة لترجمة المصطلح الذي اخترعه رونو كامو، وهو «L’étrangèreté». [المترجم].

2 - الاختلاف حين يقدَّم على أنه بناء اجتماعي

إن الإيديولوجيا «الأنثوية» الجديدة تشبعت بنظريات ثقافوية ترى بأن الاختلافات النفسية والسلوكية بين الجنسين هي ثمرة بناء اجتماعي وثقافي[1]. هذه الاختلافات صنعتها التربية من أجل الحفاظ على هيمنة الرجال. قالت سيمون دو بوفوار عام 1949 في «الجنس الثاني» (والذي سيعرف نجاحا جديدا بعد 1968): «لا نولد امرأة، ولكن نصير امرأة»، و«الأنوثة ليست جوهرا ولا طبيعة، إنها حالة خلقتها الحضارات انطلاقا من بعض المعطيات الفيزيولوجية». تتحدث الأنثويات الأمريكيات عن النوع «الجندر». بالنسبة لإرفين جوفمان (Ervin Goffman): «إن الاعتقادات المتعلقة بالذكورة أو الأنوثة مرتبطة ارتباطا وثيقا بسلوك النوع»[2]. وهكذا فإن الثقافة الذكورية المهيمنة، التي تعمل الأسرة والمدرسة والمؤسسات الرسمية على استمرارها، هي التي تكوّن نوعا خاصا من الذكورة والأنوثة. بإعطاء مسدسات مطاطية للأولاد ودمى للبنات، يُصنع ذكور أشداء وعدوانيون، ونساء لينات ومتكتمات[3]. عند البنات الصغيرات، يصل التكييف إلى درجة الكمال من أجل تعليمهن الخضوع[4]. وهكذا، «فإن

---

(1) من المفارقات الطريفة أن معتنقي هذه الإيديولوجيات – وهم اليوم أصحاب الكلمة النافذة في السياسة والفن والإعلام بالغرب – يرفضون أن تكون الأنوثة والذكورة أمرا طبيعيا، بل يعزون الفرق بينهما إلى الثقافة والمجتمع، في حين يرون أن المثلية الجنسية أمر طبيعي، راجع إلى الجينات (وإن كانت بعض الدراسات الحديثة تشكك في ذلك). فهم يجعلون الشيء الطبيعي مصطنعا مفروضا، والشيء الشاذ طبيعيا فطريا! وحين يصل انقلاب الفطر وانتكاس العقول إلى هذا الحد، فإن ذلك نذير انحطاط حضاري قادم لا محالة. [المترجم].

(2) إيرفين جوفمان (Ervin Goffman)، « L'arrangement des sexes»، نص مقدم من طرف كلود زايدمان (Claude Zaidman)، (La Dispute)، 2002. [المؤلف].

(3) ج. فالكوني (G. Falconnet)، «Le Prince charmant ou la femme mystifiée»، دار (Le Seuil – اج. فالكوني ون. لوفوشور (G. Falconnet et N. Lefaucheur)، 1973، «صناعة الذكور La Fabrication des mâles»، دار (Le Seuil)، 1975. [المؤلف].

(4) منذ سنوات السبعينيات، استنكرت كتب كثيرة تكييف البنات، منها:
Elena Gianini Belotti, Du côté des petites filles, Edition des Femmes, 1973 ;
Mr et Mme Lelièvre, Histoire des femmes publiques contée aux enfants ;
Christine Bard, Les Femmes dans la société française au XXe siècle, Collection U Histoire ;
Christine Bard, Un siécle d'antiféminisme ;
Colette Cosnier, Le Silence des Filles, .. [المؤلف].

أسطورة غريزة الأمومة المدمِّرة» هي بالنسبة لإليزابث بادنتر «مزحة تهدف إلى إقناع النساء بأن من واجبهن القيام بالعمل القذر»[1].

يوجد – في دراسات الهوية الجنسية الغامضة (كوير Queer)[2] – فضاءٌ لتكوين الذات بين الجنس التشريحي والنوع الذي هو بناء اجتماعي. هنالك خضوع للمعيار الجنسي، على الفرد أن يتمرد عليه، ليكون له الخيار في هويته الجنسية. ولأن هذه الهوية ليست جوهرا بل مجرد أداء، فإنها تصبح غامضة وغير قابلة للتصنيف. وبذلك يمكن إلغاء الاختلافات بين الرجال والنساء، وبين المثليين والمتغايرين.

وفق هذه النظريات الثقافوية، يكفي تغيير ثقافة الرجل المسيطر لوضع حد لجميع أنواع الظلم الذي تمثله هذه الاختلافات.

في حين تُقدّم – أكثر فأكثر – تربيةٌ «واحدية الجنس» من طرف نساء أو من طرف رجال يتبنون القضية «الأنثوية»، فإن بعض أنواع اللامساواة التي تتلاشى، يمكن أن تَجعل المراقب يعتقد صحة نظرية «الجندر» وضرورة الاستمرار في هذا الطريق. بعض «الأنثويات» لا يشككن في ذلك، ويناضلن ضد أي خلل في التساوي العددي. وبالتالي، فإن رسالة المدرسة هي: «التسوية بين المصائر المدرسية والمهنية للبنات والأولاد»[3].

3 - الاختلاف حين يقدّم على أنه نتيجة تطور

لقد ساهمت النظريات الأنثوية الثقافوية في إعادة النظر في سلطة باطرياركية كانت تفاقِم الاختلافات من أجل تسويغ سيطرتها، ولم تكن تترك سوى مكان صغير للحرية الفردية. ولكنها الآن محل مساءلة وإعادة للنظر. برهن بعض العلماء على أن بعض الاختلافات بين الرجال والنساء

---

(1) إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)، «الحب الزائد: تاريخ حب الأم – القرن 12 إلى القرن 20 L'Amour en plus : histoire de l'amour maternel – XIIe au XXe siècle»، دار (Flammarion، 1980). [المؤلف].

(2) ظهر لفظ (كوير) في الولايات المتحدة بين الحربين العالميتين، ويعني بطريقة قدحية المثليين ذوي السلوك المخنث خصوصا. نظرية «الكوير» تعيد النظر في معنى الطبيعية عموما. [المؤلف].

(3) دومينيك تورسا (Dominique Torsat)، المكلفة بمهمة حول قضايا المساواة والتساوي العددي في وزارة للشبيبة والتربية الوطنية والبحث في حكومة رافاران (Raffarin)؛ حوار مع بياتريس موني (Béatrice Mon-net) في «TDC، «Femmes – hommes, quelle égalité ?، عدد 848، يناير 2003. [المؤلف].

تظهر منذ الولادة، قبل أن تكون أية «نمذجة» ممكنة. عند دورين كيمورا (Doreen Kimura)، الاختلافات لها أسباب بيولوجية مرتبطة بالتنظيم الدماغي. هذا الأخير يتغير بحسب الجنس، ويمكن القول إنه يوجد فعلا «دماغ رجل» و«دماغ امرأة»[1]. يجزم أكسيل كان (Axel Kahn) أيضا بهذا الأمر: «هنالك تفرقة في الدماغ بحسب الجنس لا يمكن الشك فيها، ومهارات خاصة بكل جنس»[2]. تمت أيضا دراسة أهمية الإفرازات الهرمونية في بناء الجنس النفسي. إن اجتياح التستوستيرون للجسد، وهي اللازمة للتكوين الجسدي للولد الصغير، يعطيه ميلا أكبر إلى التنافس ونوعا من العدوانية. أثبتت دراسات حديثة في الفيزيولوجيا العصبية وعلم النفس السلوكي[3] أن هرمونا معينا - هو الأوسيتوسين (ocytocine) - يتحكم في قسط من سلوكات المرأة عند لإلإنجاب، ويعزز «التوافق» بين الأم وتصرفات الطفل. تلاحظ سلفيان جيامبينو (Sylviane Giampino) أن الأم تجد نفسها «في حالة هشاشة نفسية لكي تكون منسجمة مع متطلبات صغيرها (..) وهي حالة انصهار بينهما ضرورية في الأسابيع الأولى»[4]. يتحدث دوني فاس هنا عن «تراجع كثيف رائع»، في حين كان يتكلم آخرون عن حدس الأنثى. أما سارا بلافر هاردي (Sarah Blaffer Hardy)[5] فإنها تعترف - على الرغم من أنها في الأصل تحاول أن تبرهن بأن الجنس التشريحي غير حاسم - بأن هنالك آليات بيولوجية تربط الأم بوليدها.

هذه الأعمال العلمية - التي توصف بالرجعية من طرف الأنثويات الثقافويات، اللواتي يخشين العودة إلى الصور النمطية التقليدية للرجال والنساء - صارت تعرف مع ذلك نجاحا

---

(1) دورين كيمورا (Doreen Kimura)، «دماغ رجل، دماغ امرأة Cerveau d'homme, Cerveau de femme»، دار (Odile Jacob)، 2001. [المؤلف].

(2) أكسيل كان (Axel Kahn) في «Psychologies Magazine»، عدد 202، نونبر 2001، ملف رجال - نساء، «النعش اختلافاتنا». [المؤلف].

(3) مذكورة عند إيدفيج أنتيي (Edwige Antier)، «ثناء على الأمهات Eloge des mères»، دار (Laffont)، 2000. [المؤلف].

(4) سلفيان جيامبينو (Sylviane Giampino)، «هل النساء العاملات مذنبات؟ Les mères qui travaillent sont elles coupables ?»، دار (Albin Michel)، 2000. [المؤلف].

(5) سارا بلافر هاردي (Sarah Blaffer Hardy)، «غرائز الأمومة Les instincts maternels»، دار (Payot)، 2002. [المؤلف].

متزايدا بين الأنثويات. لقد أصبحن يقررن بأنهن – من كثرة حديثهن عن بناء الجندر – نسين الاختلافات الفطرية. تصحح سيلفيان أجاسينسكي كلمة سيمون دوبوفوار، فتقول: «لا نولد امرأة، ولكن نولد بنتا صغيرة أو ولدا صغيرا»[1]. وهكذا فإن الأنثويات من التيار التطوري يعتبرن الآن أن الاختلافات ناتجة عن تأقلم الجنس البشري، وأنها سوف تتطور أكثر. قبل أن تكون هذه الاختلافات نتيجة بناء اجتماعي، فإنها نتيجة تطور طويل.

4 - الاختلاف غير المتقبّل

يبدو أن النظريات التطورية تقبل في الظاهر اختلاف الجنسين. ولكنها – مثل النظرية الثقافوية – لا تتقبل الفروق اللازمة لتشكّل نفسية أي ولد صغير أو بنت صغيرة، والذي يقع في استقلال عن الثقافة التي ينشآن فيها[2]. وهكذا فإن الاختلافات التي هي عند الثقافويين نتائج بناء اجتماعي، هي عند التطوريين نتيجة تقدم أو تأخر في التطور. وفي الحالتين معا، تبدو غير طبيعية.

إن الإيديولوجيا «الأنثوية» التي تبدو محافظة، تتمسك بمواقفها. لأن الرجال استغلوا الاختلافات كثيرا لإنشاء صور نمطية ومحاصرة النساء، فإن الفكر المسيطر الجديد يستمر في رؤية أي اختلاف على أنه شيء غير طبيعي ونوع من الظلم «كما لو أن عدم التماثل مقترن بنوع من السيطرة»[3]. يلاحظ توني أناتريلا (Tony Anatrella) ذلك فيقول: «نحن في مجتمع تنفي فيه التمثيلياتُ المسيطرة الاختلافاتِ، وتؤدي إلى رؤية انصهارية، نحن جميعا باسمها متشابهون ومتساوون، دون أدنى تمييز»[4]. وهكذا، فإن الإيديولوجيا «الأنثوية» المساواتية،

---

(1) سلفيان أجاسينسكي (Sylvianne Agacinski)، «سياسة الأجناس La politique des sexes»، دار Le Seuil)، 1998). [المؤلف].

(2) بول سيسو (Paul Cissou)، «Séminaires Psychogénèse». [المؤلف].

(3) إدموند مارك ودومينيك بيكار (Edmond Marc et Dominique Picard)، «Face à face : les re-lations interpersonnelles»، مجلة (Sciences humaines) Hors série vivre ensemble، رقم 33، يونيو – يوليوز – غشت 2001 [المؤلف].

(4) توني أناتريلا، مرجع سابق. [المؤلف].

حين تجعل «الاختلاف ممنوعا»[1]، تحتاج (هي أيضا) أن تجد مذنبا، والغالب أنها تجعل من الرجل ذكوريا بشعا غير قابل للإصلاح، أو متخلفا عقليا.

إيديولوجيا تُشَيطِنُ الاختلاف الذكوري

إن الإيديولوجيا «الأنثوية» الجديدة تجعل من المساواة في الحقوق، حقا في المساواة. وهي تخلط بين الاختلاف المحتوم بين الجنسين، والقواعد التقليدية الموضوعة من أجل اعتباره. لأن هذه القواعد حوَّلها الرجال لخدمة سيطرتهم، فإنها صارت هدفا منطقيا لانتقادات الإيديولوجيا «الأنثوية». ولكن هذه الأخيرة لم تحاول تصحيحها، بل عملت على إلغائها متذرعة بعدم صحة قوانين الطبيعة. مع هذا الإلغاء لجميع القيود، والذي سمّي «تحريرا»، فإن الأمر يشبه ما لو أن هذه الإيديولوجيا وجدت نظام الجاذبية شديد الإكراه، فقررَتْ أن تطير دون اعتباره! ثم تُنسب الفوضى الناشئة عن هذا الرفع للضوابط التنظيمية إلى الرجال العاجزين عن تقبل «المساواة بين الجنسين». في حين يُرفع المؤنث - المرادف للتقدم والحداثة - إلى مرتبة المثل الأعلى، فإن الذكورة - التي هي رمز الماضي - «تُشيطَن». حين يصبح من المطلوب - مع المعيار الجديد «للمساواة» - أن يكتسب الرجل صفات مشابهة لصفات المرأة، فإنه يوصم بكونه ذكوريا إذا أحب السلطة أكثر من المرأة واستطاع تحصيلها أكثر منها. يُتهم بكونه منحرفا ومتحكما وعنيفا ومتخلفا .. فقط إذا وجد صعوبة في التأقلم مع عشيقات «متحررات».

1 - «شيطنة» الرجل الموجود في السلطة

كان الرجل الذي يسيطر على المرأة ذكوريا، ولا يزال عدم التساوي العددي الموجود في ممارسة السلطات يعدّ من الظلم. ينظر غالبا إلى الرجل على أنه مُسيطِر لأن التصور «الأنثوي» لمعنى «المساواة» لا يأخذ بعين الاعتبار الاختلاف في التكوين النفسي بين الرجل والمرأة. والحق أنه في هذا الميدان - كما في غيره - لا يأتي عدم المساواة دائما من التمييزات الجنسوية.

مهما يكن المكان والزمان، يحاول الرجل - الذي اضطر إلى التخلي عن نموذجه الأول حين كان صغيرا - أن يبني رجولته، ولكنه لا يكون أبدا متأكدا من أنه سيكون رجلا فعلا. يحتاج

---

(1) توني أناتريلا، «الاختلاف الممنوع؛ الجنس والتربية والعنف، ثلاثين سنة بعد ماي 1968 La Différence interdite, Sexualité, éducation, violence, Trente ans après Mai 1968»، دار Flammarion)، 1998). [المؤلف].

إلى الإنجاز من أجل تحقيق الذات. كما يقول جون جراي: "كل رجل يقيس قيمته الشخصية بقدرته على الحصول على نتائج"[1]. تمر طريقة البرهنة على نجاعته وتأكيد هويته بالإنجاز وامتلاك سلطة تعطيه وهم القوة. وهكذا فإن المقام الاجتماعي والحساب البنكي «للسيد» عبارة عن شهادة امتثال، وتجعله في وضع جيد من أجل الحصول على المرأة.

على العكس من ذلك، فإن المرأة التي لم تحتج إلى تغيير نموذجها الهوياتي، يبدو أنها غير محتاجة إلى السلطة كحاجة الرجل. ليست مضطرة من أجل البرهنة على كونها امرأة، إلى أن تعمل ولا أن تملك. إنها تجد تأكيد «قوة أنوثتها الضخمة» وتُعجَب بنفسها حين ترى نظرة الرغبة الرجالية تجاهها. لكي تجذبه، يكفي أن تستثمر أنوثتها. وهي محتاجة مع ذلك إلى اختبار قوتها الإغرائية لتعلم أي نوع من النساء هي بالمقارنة مع غيرها من النساء. ولأجل ذلك، ليس من الضروري أن تقيس ألقابها الفخرية، ولا بيانات راتبها، ولا قوة سيارتها أو حاسوبها، بالمقارنة مع النساء الأخريات. إذا قارنت أوضاعا اجتماعية ما، فإنما تقارن وضع رفيقها الرجل مع أوضاع الرجال الآخرين: إذا كان وضعه أفضل وقد اختارها، فلأنها هي الأكثر جاذبية بين قريناتها. تسأل المرأة مرآتها لتعلم إن كانت الأجمل، لا الأغنى !

تغري المرأة بطبعها الرجال الذين تمثل هي لهم «المرأة». وإذا كانت - مثل الممثلة زسا - زسا جابو (Zsa - zsa Gabor) «لا يمكنها أن تعشق بأقل من مليون دولار»، فإنها تحتاج لأن تكون جذابة ومثقفة شيئا ما. الجمال حينئذ أمر إضافي، مهر طبيعي يسمح بإجراء تبادل بين رأس المال الجمالي ورأس المال الاقتصادي.

على الرغم من أن النساء لا يحتجن إلى السلطة ليكنّ جذابات، فإن عددا كبيرا منهن صار يبحث عن تحقيق الذات مهنيا. لقد قررن أن «يحقق أنفسهن من غير طريق الرجل (..) بطريقة أخرى غير جاذبية وجوههن أو صدورهن»[2]. بعضهن يعطي أهمية كبرى للاستقلالية، فلا يشعرن بالحرية إلا إن كنّ مستقلات. ومن الصحيح أن الاستقلالية المادية صارت ضرورة، حتى

---

(1) جون جراي (John Gray)، «الرجال من المريخ، والنساء من الزهرة Les hommes viennent de Mars, les femmes viennent de Vénus»، دار (Michel Lafon)، 1997. [المؤلف].

(2) فرانسواز جيرو وبيرنار هنري ليفي (Françoise Giroud et Bernard - Henri Lévy)، «الرجال والنساء Les hommes et les femmes»، نشر «Olivier Orban»، 1993. [المؤلف].

بالنسبة للمتزوجات في ظل تكاثر حالات الطلاق. ولكن، في حين «يكون الرجل فخورا بمالِه كدليل على موهبته»[1]، فإن المرأة لا تجد في ذلك أي فخر. على العكس، بعضهن يتساءلن إن كن معشوقات فقط من أجل هذا المال الذي يمتلكنه. السلطة لا تضيف شيئا للمرأة، إن لم يكن بعض الاستقلالية التي يمكن أن تتحول إلى وحدة، عند بعض النساء الرافضات للزواج.

بعض النساء يشعرن بأن سلطة الرجال نوع من الظلم، ولا يقبلن بأن يحرمن منها. لِم لا أحصل على كل شيء حين أشعر بأنني قوية جدا؟ مع ذلك، فهؤلاء «النسوة الخارقات»، اللواتي «يُردن كل شيء»[2]، صرن يعترفن أكثر فأكثر بالعجز عن الحصول على كل شيء في الوقت نفسه. إنهن مجبرات غالبا على الاختيار بين العمل والأسرة، ما دام إنجاب الأطفال يعد لديهن كابحا في مسيرتهن المهنية. في الواقع، غالبا ما يعطين الأولوية لما يحفزهن أكثر. في حين يبحث الرجال عن صورتهم في العالم الخارجي وينشغلون بمستقبلهم المهني، فإن النساء يخترن حياة اجتماعية تتلاءم مع حياتهن المهنية والأسرية. إنهن يجدن في الأسرة – أكثر من العمل – إمكانية إظهار خصالهن التواصلية والتمتع بذلك. المرأة التي حملت وليدها تسعة أشهر تشعر بالارتياح حين تكون معه. إنها تشعر بأنه جزء منها، في حين يعده الرجل – المتأخر دائما – جسما «أجنبيا» عنه. إن «الانشغال الأمومي الأولي» يسمح لهن بفهم احتياجات الطفل أكثر من أي شخص آخر، وأيضا بنوع من المكافأة عند إرضائه. كما يسجل ذلك ألدو ناوري (Aldo Naouri)، فإن «المرأة – الغلاف لا توجد لا في الجهد ولا في التضحية. إنها تأخذ لنفسها – في أي عمل تقوم به – منفعة فورية بقدر الفرح الذي تثيره». «إنها في الحقيقة تعتني بنفسها، وتحب نفسها من خلال الطفل الذي يعد «امتدادا» لها»[3]. «غريزة الأمومة» هذه تجعله يعرف إلى أي حد هي حيوية بالنسبة إليه. والمسؤولية الضخمة التي تشعر بها تعزز شعور القوة الكبيرة لديها (ولأجل ذلك، يمكنها الإسهام في إشعارها بالذنب حين تحسب أنها ليست كاملة).

---

(1) المرجع نفسه. [المؤلف].

(2) المرجع نفسه. [المؤلف].

(3) موريس ماشينو (Maurice T. Maschino)، «هل توجد أمهات جيدات؟ Y a - t - il de bonne mères?»، نشر (Belfond)، 1999. [المؤلف].

في حين يحلم الرجل بالسلطة لأجل علاماته الخارجية، فإن المرأة - التي كما يقول الرئيس السابق فاليري جيسكار ديستان (Valéry Giscard d'Estaing): «ليس لديها نفس انتفاخ الكبرياء الذي للرجل» - يمكنها الاستغناء عنها أو البحث عنها فقط كوسيلة لتحقيق مشروعات وخدمة الآخرين. لأنهن شديدات الارتباط بالعدالة (فقد اكتشفن مبكرا أنهن محرومات من القضيب الموجود لدى الذكور)[1]، فإنهن ينجحن كثيرا في ميدان القضاء. على العكس، وخلافا للرجال المحبين للمضي بعيدا في مسيرتهن المهنية، فإنهن لسن مشغوفات بالسلطة الخالصة. لسن مستعدات للصراع مثلهم من أجل الألقاب، ومن باب أولى لَسن مستعدات للتخلي مثلهم عن نزاهتهن من أجلها. صحيح أن هنالك عددا قليلا من المنتخَبات في ميدان السياسة، ولكن هل عدد المرشحات مثل عدد المرشحين؟ ألم تعنوِن صحيفة (La Croix) يوم 8 مارس 2000، عاما قبل الانتخابات البلدية لعام 2001: «أحزاب تبحث بحرص شديد عن نساء»؟ في الواقع، لا تقدّم السلطة لهن قدرا كبيرا من الرضا. وبالمقابل، فإذا كانت السلطة تزيد من قدرات الإغراء عند الرجال، فإنها تنقص منها لدى النساء. تعترف بذلك فرانسواز جيرو: «السلطة، أية سلطة، تنزع من المرأة التي تمتلكها من الجاذبية أكثر مما تضيفه لها»[2]. لسن مجبرات على التقدم لميادين السلطة بوجه جذاب. في السياسة، لا تُقبل المرأة إلا بوجه أمومي. الرجال الذين لديهم هشاشة نفسية، يميلون إلى تفضيل الهشاشة عند شريكتهم، فيهتمون بلينها أكثر من مقامها الاجتماعي. ولأنهم يخشون أن تستعمل المرأة ضدهم قوة الأنوثة الهائلة، فإنهم لا يرغبون في أن يكون لديها سلطات أكبر.

في حين يفضّل الرجل الشريكة القادرة على تخصيص وقتها له، فإن المرأة تنجذب بالرجل الذي ليس معجبا بها وحدها، بل يهتم بغيرها أيضا. فهي تخشى الرجل غير المستقل، الذي يصبح «ملتصقا» بها بسرعة. تحتاج على العكس أن تجد رجلا «في مستواها»، لتعجب به، وتجد فيه ما

---

(1) يتبنى المؤلف هنا التحليل الفرويدي المعروف، والذي يتصور أن البنت الصغيرة تحس بنوع من الحرمان المزعج حين تكتشف أنها لا تمتلك قضيبا كما عند الذكور. ولا شك أن هذا التحليل - كأغلب المحاور التي يقوم عليها التحليل النفسي الفرويدي - هو إلى التنظير الفلسفي أقرب منه إلى الحقيقة العلمية. وقد انتُقد كثيرا من أوجه مختلفة، خاصة من جهة أنه ينفي النشاط الجنسي المستقل لدى الأنثى، ولا يعرّفه إلا بالنظر إلى كونه نقصا عن مثيله لدى الذكر. [المترجم].

(2) فرانسواز جيرو وبيرنار هنري ليفي (Françoise Giroud et Bernard – Henri Lévy)، مرجع سابق. [المؤلف].

يقابل قوتها الذاتية. عند جان - كلود كوفمان (Jean – Claude Kaufmann): الأمير الساحر ليس هو «الذكر الآخر، ولكنه نفس الأنثى»[1]. تلك الراعية الفقيرة تنتظر أن يأتيها الأمير الرائع، لكي يحوّلها إلى أميرة. لا بد أن يكون متميزا عن الجماهير، بل أن يكون منتميا للنخبة. إذا كان وسيما، فإنه يحسّن حظوظه، ولكن كما يقول تاليران (Talleyrand): «الوسامة إنما تُربحك خمسة عشر يوما إضافية، لا غير». لكي تلاحظه المرأة، عليه أن يتميز بسلوكه وهيئته وسمعته، أكثر من وسامته. لكي تشعر المرأة بأنها الأجمل، ينبغي أن يكون الأفضل. وكما أنها لا تطيق أن ترتدي امرأة أخرى لباسا مشابها للباسها، فإنها لا تقبل أن تكون مع رجل غير أصيل.

السلطة إذن عند الرجل، تعدّ - وفي الوقت نفسه - وسيلة للتميز عن المرأة - التي هي المرجع الأول - وليحقق إعجابها به. يحقق له ذلك دون شك مزيدا من الجاذبية بمنحه نوعا من الشهرة والأمان اللذين يحتاج لهما. هذا البديل عن الإنجاز يعطيه هالة تساعده على أن يكون خفيفا ويكون قادرا على منح الأمان. لأنه قوي ومنيع، فإنه يُطَمئن المرأة التي هي بدورها تحتاج إلى أن تلتقي من جديد بالانصهار الأولي وأن تكون مدلَّلةً من طرف الأم الحامية. لقد عبر دانيال سيبوني (Daniel Sibony) عن ذلك بتعبير جميل: «العشيق، هو الأم». هذا الأمير الساحر، الذي تحوّله السلطة إلى أم كاملة، يعيد تنشيط المرأة - الطفلة غير المستقلة[2]. بهذا البطل العصري تحلم قارئات روايات هارلكان (Harlequin). يُقدِّم الرجل القادر على إهداء الورود والمجوهرات، والليالي الرائعة في المطاعم الفاخرة، والرحلات السياحية إلى الأماكن الساحرة، شيئا يقارب العناية الإلهية، ويعطي الدليل على قيمة المرأة التي ينفق من أجلها هذه النفقات. إنها تشعر بتأكيد قوتها حينئذ. وهكذا يتحول «تزوسZeus » إلى مطر من ذهب ليُغريَ «داناييDanaé »[3]، ولا تتردد العديد من النساء في الإقرار بحصول إثارة جنسية لهن بفعل

---

(1) جان - كلود كوفمان (Jean – Claude Kaufmann)، «المرأة الوحيدة والأمير الساحر - دراسة عن حياة المرأة منفردة La femme seule et le prince charmant, Enquête sur la vie en solo»، نشر (Nathan، 1999). [المؤلف].

(2) آنيك هويل (Annick Houel)، «رواية الحب وقارئته Le roman d'amour et sa lectrice»، نشر (Harmattan، 1997). [المؤلف].

(3) إشارة إلى القصة المعروفة في الميثولوجيا الإغريقية، والتي يدخل «تزوس» إلى القلعة التي سُجنت فيها «دانايي» على شكل مطر من ذهب، يسقط على الأميرة فينشأ من اتحادهما طفلٌ هو «بيرسي Persé» إلخ. [المترجم].

الصفات التنشيطية للدولارات. لقد زعم هنري برنشتاين (Henry Bernstein) – المؤلف الدرامي في بداية القرن العشرين والمعروف بكونه زير نساء – أنه لا توجد امرأة يمكنها الصمود أمام رسالة يومية متضمنة لباقة من الزهور!

يلاحظ لاكان (Lacan) أن: «الرجل يرغب في المرأة، وأن المرأة ترغب في رغبة الرجل». تقدم رغبة الرجل للمرأة تأكيدا لكونها «امرأة»، وحين «تسيطر على عقل» رجل ما، خاصة إن كان مشهورا ومرغوبا، فإنها تشعر بسعادة مشابهة لتلك التي يشعر بها الرجل حين «يسيطر على جسد» المرأة. الكثير من النساء يمكنهن الاكتفاء بهذه المتعة. الكثير منهن لا اهتمام لهن بجسد الرجل، بقدر اهتمامهن بالأثر الذي لهن عليه. (..) تعترف المصممة والكاتبة سونيا ريكل (Sonia Rykel) قائلة: «ما يهمني هو المتعة الآتية من النظرة. أحتاجُ إلى أن يُنظَر إليّ، وأن أشعر بالرغبة عند الرجل. كأنني لم أشعر قط برغبة نحو الرجال: ما أرغب فيه عندهم، هو رغبتهم نحوي. (..)». إن العين المنتبهة والراغبة تثير رغبة المرأة، التي يمكنها بدورها أن تغير نظرتها للرجل وحتى لمظهره». تقول إيزابيل ألونزو (Isabelle Alonso): «حين أحتاج إلى أن أرى شريكي وسيما، فإنه يصبح كذلك بالضرورة بمجرد أن أرغب فيه». من المعلوم أن بعض مشاهير الرجال الجذابين، لم يكونوا يجذبون النساء إليهم بمظهرهم.

إن السلطة تسمح للرجل بجذب المرأة بسهولة أكبر. إن سمعة تفوقه في فن الإغراء تقوّي مرتبته بالمقارنة مع نظرائه. وبعد ضمان إرضائه لـ»حاجاته»، فإن الرجل الجذاب يبدو أكثر استقلالية وبالتالي أكثر إغراء. تتضاعف هيبته. وقدرته على جعل الآخر نرجسيا، تصبح أقوى بالنسبة للجنس الآخر. كلما كانت الفريسة مرموقة وصعبة المنال، يكون الظفر بها ذا قيمة أكبر. في حين يرغب دون جوان في أن يكون العشق الأول لجميع النساء، فإن المرأة تبحث على الخصوص على أن تكون العشق الأخير لهذا الرجل، أي تلك التي تستطيع منعه من التفلت.

الرجال يحبون السلطة. «لا يفكرون إلا فيها، ولا يعملون إلا من أجلها»، تلاحظ هوجيت بوشاردو (Huguette Bouchardeau) بخصوص السياسيين. تؤكد ذلك السياسية الفرنسية يان بيات (Yann Piat): «منافسونا مستعدون لأي شيء من أجل امتلاك السلطة، والاحتفاظ بها. أما نحن فلا». هل يمكن أن تفسر التربية هذا الفرق الكبير في البواعث؟ هل تأخر العقليات هو الذي يحث المرأة على أن تدفع زوجها إلى امتلاك السلطة بدلا من أن تسعى إليها بنفسها؟

هل وصل التكييف إلى درجة شعورها بأنها مجبرة على الاعتناء بأسرتها؟ وهذا التكييف - لو كان موجودا - ألا يمكن أن يكون قد تغيّر؟ إذا كانت إليزابث بادنتر تطلب قبل عشرين سنة «مِن كل مَن ليست موهوبة في مجال الأمومة، أن تُترك لحال سبيلها دون إزعاج»[1]، فإن ماري باسكال دلبلان - نوبيكور (Marie Pascal Delplanq - Nobécourt) تتحسر اليوم لأن «المرأة تتجرأ على أن تكون ربة بيت»[2]! أليست تربية البنات في الأسرة وفي المدرسة - في الغالب - من مسؤولية النساء اللواتي لا يمكن اتهامهن بأنهن يعلّمن الخضوع للرجال؟ تقول ماري رواني (Marie Rouanet): «أود أن يكون لدى النساء قدر أكبر من التسامح والعطف تجاه الرجال، وأن يكون لديهن من حسن النية ما يجعلهن لا ينكرن - إلى جانب كون ذلك عبءا - السلطة والمتعة الموجودتين في الاعتناء بالمطبخ والبيت والأطفال»[3].

في مجتمع ليبرالي تُقبل فيه فكرة أن يتلقى بعض الأشخاص مرتبا يفوق بمائة ضعف مرتب غيره من العمال، فإن الإيديولوجيا «الأنثوية» لم تعد تكتفي بالمساواة الرسمية، بل تطالب بمساواة حقيقية[4]. لأن الرجال سيطروا على النساء، ولأن بعضهم لا يزالون يفعلون على الرغم من القوانين الجديدة، فإنه يُنظر إلى كل عدم مساواة بين الجنسين في المحفّزات - ومن باب أولى في الأداء - على أنه نتيجة تمييز جنسوي. أصبح كل خلل في التساوي العددي ظلما، المذنب فيه هو جميع الرجال. بعد أن ثبّتت نظرتَها للمساواة، صار بإمكان الإيديولوجيا «الأنثوية» السخرية من ذكورية الرجال، ومنح نفسها الحق في إخراسهم إن لم يقبلوا الاعتراف بـ«أخطائِهم».

---

(1) إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)، مرجع سابق. [المؤلف].

(2) بعبارة أخرى، انتقلت الإيديولوجيا الأنثوية من المطالبة بحق المرأة في ألا تكون أمًّا، إلى جعل ذلك واجبا، لدرجة الإنكار على من تريد أن تكون ربة بيت! [المترجم].

(3) ماري رواني (Marie Rouanet)، ملف «رجال - نساء» مجلة (Psychologie)، نونبر 2001. [المؤلف].

(4) فرانسواز جاسبار وكلود سيرفان - شرايبر وآن لوجال (Françoise Gaspard, Claude Servan - Schreiber et Anne Le Gall)، «إلى السلطة أيتها المواطنات ! الحرية والمساواة والتساوي العددي Au pouvoir citoyennes ! Liberté, égalité, parité»، نشر (Le Seuil، 1992). [المؤلف].

2 - «شيطنة» الرجل في مواجهة لباس المرأة

فرضت أديان عديدة فرقا في اللباس بين الرجل والمرأة. الديانات المسيحية واليهودية والإسلامية .. كانت - ولا تزال - توصي المرأة بالتستر في الأماكن العامة. ولأن هذه القاعدة اختُزلت في إجبار مُذِلّ من طرف أنصار «مقاومة الرذيلة والدفاع عن الفضيلة»[1]، فقد صارت رمزا على اضطهاد المرأة. في رد فعل لها على المتطرفين من كل جانب، فإن الإيديولوجيا «الأنثوية» تدافع - باسم «الحرية» و«المساواة» بين الجنسين - عن حق المرأة في ارتداء ما تشاء من الثياب. وهكذا، وتبعا لسياسة «كل لباس إلا التشادور[2]»، فإن عددا متزايدا من النساء صرن يلبسن ثيابا لم تكن قط بهذه الدرجة من عدم الاحتشام. فرانسواز جيرو (Françoise Giroud) نفسها تذكر «هذه التنورات القصيرة لدرجة تعذر مقاومة الرغبة في دس اليد تحتها، هذه السيقان العارية الطويلة، هذه الصدور التي تكاد تكون عارية، هذه البناطيل الملتصقة، هذه الجرابات الضيقة التي تسمى فساتين، والتي ترسم كل قطعة صغيرة من الجسد»[3]. لقد أصبحت الملابس العارية في الأماكن العامة (صدر عارٍ على الشواطئ، ثوب مشقوق ما بين النهدين، تنورة قصيرة جدا ..) متفشية إلى درجة أنها يُفترض أن لا تصدم أحدا من الناس. لقد تم تعويد الناس عليها، لتكون المرأة «حرة» مثل الرجل. تحرر النساء يمرّ إذن عبر لباسهن وحركاتهن. لقد صارت نساء كثيرات لا يتحملن أن يتم تعريفهن بالنظر إلى جنسهن، ومع ذلك فهن يعرضن بأمان وبراءةٍ علامات أنوثتهن الفياضة. لأنهن نساء يحببن أن يكنّ موضوعا للرغبة، فإنهن يتصرفن وفق غريزتهن، فيستدعين نزوات الرجال، الذين يجب عليهم استدعاء عقولهم، بأن يتصرفوا بحكمة، وأن لا يُظهروا سوى رغبة «عائمة»[4]!

---

(1) «ميليشيات مقاومة الرذيلة والدفاع عن الفضيلة» هو الاسم الذي أُعطي لميليشيات طالبان. [المؤلف].
بالطبع، لا يمكننا أن نطالب المؤلف - المنتمي إلى بيئة علمانية منذ قرون - بتفهم معنى «الإيجاب الشرعي» في الإسلام، ومسؤولية الحاكم في تطبيق هذا الإيجاب. كما لا يمكننا مطالبته بفهم المعاني السامية للحجاب الشرعي الإسلامي، التي تحقق للمرأة عزة في المجتمع، ترفعها من مقام الاشتهاء البهيمي الرخيص، إلى مقام الإنسانية المكرّمة. [المترجم].

(2) لباس المرأة الأفغاني المشهور، والذي صار - في الغرب - علامة على إخضاع المرأة. [المترجم].

(3) فرانسواز جيرو وبرنار - هنري ليفي (Françoise Giroud et Bernard - Henry Lévy)، مرجع سابق. [المؤلف].

(4) جان - كلود كوفمان (Jean - Claude Kaufmann)، «أجساد النساء، نظرات الرجال، Corps de femmes, regards d'hommes»، نشر (Nathan)، 1998. [المؤلف].

يجب على النظرة التي لم يعد لها شيء يمكنها تعريته، أن تبقى هاربة ومجهولة الهوية. على الرجل المعرّض للإغراء ألّا ينظر إلى ما هو موجود ليثيره. وعليه - على الخصوص - أن يتفادى إظهار رغبة يمكن تفسيرها بأنها «عرض جنسي غير مرغوب فيه»، وبعبارة أخرى: تحرش جنسي. وحين نعلم أن أي رغبة مثارة وغير مشبعة، لا تأتيه إلا بشعور بالحرمان، فإنه بإمكاننا أن نفهم قلة تصرفه الطبيعي. مع ذلك، ولو أن الرجال لم يكونوا يعانون من عقدة الشعور بالذنب تجاه النساء، أما كان بالإمكان - تقليدا للرجل مِسعر الحرب الأمريكي - أن يتهموا أنصار الموضة المتحررة بالتعري، أو حتى بالتحرش الجنسي؟ أليس هذا العرض للأجساد «تصرفا غير لفظي ولا جسدي، ذا حمولة جنسية»[1] و«عرضا جنسيا غير مرغوب فيه»؟ ألا يشعر الرجال بـ«الاعتداء» المستمر عليهم، ودون موافقة منهم، من طرف بيئة تتجه أكثر فأكثر نحو الإباحية؟ ألا يحدث لهم أن يكونوا مأسورين بالإثارة لدرجة فقدان عقولهم، دون أن يكونوا قد سعوا لذلك؟ من الممكن الضحك من ذلك، لو لا أن بعض الرجال يفقد فعلا عقله لدرجة «ألا يعلم أين يسكن»، ولدرجة التنكر لزوجته وأطفاله؛ وأن بعضهم يطلقون العنان - بسبب الحرمان - لتلقائيتهم، بل حتى لغرائزهم. إذا كان استغلال السلطة الرجالية في التمتع بـ«أخذ أجساد» النساء دون رغبتهن جريمة بشعة، فهل من الضروري أن يكون استغلال قوة الأنوثة عند بعض النساء للتمتع بـ«أخذ عقول» الرجال هو الأصل الطبيعي؟ كما يقول توني أناتريلا (Tony Anatrella): «في هذه الحالة، نحن في صميم الإنكار الجسدي، المغلف بالتعرّي، لأن الأمر يتعلق فعلا بإظهار ما هو جنسيّ في العادة»[2].

لأن المرأة غالبا لا تشعر بالإثارة أمام الرجل العاري، فإنها تجد صعوبة بالغة في تصور الرغبة التي تثيرها في نفوس الرجال. إنها تميل إلى الحكم على أي سلوك مخالف لسلوكها بأنه غير طبيعي. في حين كانت الثورة الجنسية الداعية إلى التلقائية تسعى إلى تحرير الرغبة، فإنه يُطلب اليوم من الرجل أن يتحرر منها عبر التحكم فيها. إن قواعد السلوك - أو بالأحرى: غياب القواعد - تفترض أن الرجل الجديد يمتلك التحكم في لاوعيه! وإن لم يستطع ذلك، فإنه يوصم بكونه مختلّا، ويستحق أن يشار إليه بأصابع الاتهام.

---

(1) هذه هي الألفاظ المستعملة في مشروع التعليمات الأوروبية ضد التحرش الجنسي. [المؤلف].

(2) توني أنتاريلا، مرجع سابق. [المؤلف].

3 - «شيطنة» الرجل الغيور

أدّى رفض اعتبار الاختلاف بين الجنسين إلى تغيير قواعد الوفاء بين الزوجين. لقد استشعرت التقاليدُ الدينية بشكل براجماتي مخاطر أية عثرة في العلاقات بين الرجال والنساء. كما أنها منعت المرأة من إظهار مفاتنها كي لا «يفقد الرجال عقولهم»، فإنها منعت بشكل جذري على الرجل والمرأة معا أية علاقات عشق خارج الزواج، بل حتى أن يكونا في بعض الأوضاع الحميمية: «يجب تفادي الاتصال بين الأشخاص من جنس مختلف .. يقول القديس جيروم: «لا شيء أخطر على الرجل من المرأة، ولا على المرأة من الرجل». إذا أردت أن تكون عفيفا، فعليك بالفرار من هذه الفرص المشؤومة، التي تلتقي فيها أو تتحادث مع الأشخاص من الجنس الآخر، إلا في حالة الضرورة الزمنية أو الروحية؛ وفي هذه الحالة، عليك أن تحترم القواعد التالية. القاعدة الأولى: ألا تختلي بالآخر أبدا، ولا تكون معه في مكان سري، بل يكون اللقاء بحضرة شخص آخر، فإن تعذر ذلك فليكن اللقاء على الأقل في مكان يمكن للآخرين رؤيتكما فيه بسهولة. القاعدة الثانية: العجلة بقدر المستطاع، وبكلمات قليلة، تبتعد عن الخطابات الطويلة، التي لا فائدة منها غير تضييع الوقت. والقاعدة الثالثة: الاحتفاظ خلال هذه اللقاءات بلهجة محترمة ورصينة، بأن تكون طريقتك في العمل والكلام محترمة، وبعيدة عن الألفة ..»[1]. لأن الأديان استشعرت خطورة الزلل المرتبط بالإغراء الجنسي، فإنها فضلت منع جميع فرص اللقاء بدلا من العمل على تدبيرها. لقد كانت القواعد بسيطة جدا، إن لم نقل إنها تبسيطية. ولأنها كانت صارمة جدا، فقد أصبحت اليوم متجاوَزة، إذ أن إنكار الاختلاف بين الجنسين جعلتها تبدو سخيفة وغير مقبولة[2].

صار اليوم بإمكان الرجال والنساء، سواء أكانوا متزوجين أو لا، الالتقاء بمن شاؤوا، متى شاؤوا، وكيفما شاؤوا. فقَد الزواج خطه المتجانس، ولم يعد يُنظر إلى المتعة كفاكهة خطيرة،

---

(1) «السلوك المسيحي لقضاء اليوم بشكل مقدّس»، بداية القرن العشرين. [المؤلف].

(2) لست أحتاج إلى التنبيه هنا على أن المؤلف يحكم على هذه القواعد انطلاقا من البيئة الفرنسية المغرقة في الانفتاح الجنسي، وأن أغلب المجتمعات الإسلامية لا تزال تنظر إلى هذه القواعد – وإن لم تطبقها دائما – على أنها معقولة ومفيدة في تحقيق مجتمع سليم من التهتك الأخلاقي. على أن الأصل في فكرة المؤلف – وهو أن التشدد في الفصل بين الجنسين يمكن أن يكون له نتائج عكسية – لا يخلو من موافقة للحق، حتى داخل المجتمع الإسلامي. والعبرة عندنا بالالتزام بما صح في الشريعة في هذا الباب، دون زيادة ولا نقص يكون منبعهما من التقاليد والأعراف، وقد يكون الضرر بهما أكبر من النفع. [المترجم].

ولكن كفاكهة يجب تناولها وقضمها بكل شراهة. بل عند بعضهم: «المتعة الجنسية هي الأساس الرئيسي للسعادة عند الإنسان. الاستئثار الجنسي والوفاء والزواج، كل ذلك لا يمكن تسويغه خارج اختيار حر، متبادل وزمني، يعتمد على الرضا»[1]. وهكذا، فإن البعض يمنح نفسه «وفاء تعدديا»، إذ «يمكن دائما أن تعشقي أكثر من رجل واحد». ولكن، وعلى الرغم من أن تحرير الأخلاق واختلاط الشعوب، اللذين يساعدان على تكثير اللقاءات، صعّبا احترام عقد الوفاء، فإن هذا الأخير يبقى مع ذلك شرطا للحياة الزوجية. ولكن بنود هذا العقد صُحِّحت وأعيد النظر فيها. إن الزواج العصري و«الأنثوي» لا يحتفظ إلا بواجب واحد يتساوى فيه الرجال والنساء: الامتناع من المعاشرة الجنسية مع شريك آخر. لقد أُهمل اليوم منعُ الخلوة بشخص من الجنس الآخر، والذي كان يسمح للرجال بحصر النساء في أماكن مخصوصة، وذلك من أجل تحقيق «المساواة». لقد أُلغيت قاعدة يبدو أنها لا علاقة لها بالوفاء، وتضع على مستوى واحد المعاشرة الجنسية ومجرد المحادثة. ولكن على النساء أن يتفهمن هذه المقارنة.

حين تختلي امرأة برجل من أجل الحديث في موضوعات حميمية، فإنها تضع نفسها في وضع إغراء. إنها تغري الرجل وتجلب إثارته غالبا، دون أن تريد ذلك، ولا حتى أن تعِيَه. من أجل ذلك، لا تحتاج المرأة بالضرورة إلى العلاقة الجسدية: تلاحظ فرانسواز جيرو أنه في لعبة الإغراء هذه «تبحث المرأة عن ضمان أنها لو أرادت، فإن ذلك سيحصل. ولكنها لا تحرص بالضرورة على تحصيل غنيمتها»[2]. هل يمكن أن يكون هذا الانفعال الواعي - بدرجات متفاوتة - أمرا دون أهمية؟ إذا كان الأمر كذلك، لِم إذن لا يمكنهن المجازفة بأن تحصل امرأة منافسة على المتعة نفسها في وضع مشابه مع هذا الشريك؟ ألَسْن أول من يرفض أن يكون لشريكهن لحظات من «الصداقة» أو فقط لحظات خلوة مع «صديقة»، وإن لم يزيدا على الكلام معا، والضحك معا؟ كيف يمكن تفسير هذه الغيرة، لو أنهن لم يشعرن بأنفسهن بهذه القدرة والمتعة في «تحطيم» الرجال والتلاعب بهم؟ أليست هذه اللذة التي

---

(1) جورج فالكوني ونادين لوفوشور (Georges Falconnet et Nadine Lefaucheur)، «صناعة الذكور La fabrication des mâles»، نشر (Le Seuil)، 1975. [المؤلف].

(2) فرانسواز جيرو وبرنار - هنري ليفي (Françoise Giroud et Bernard - Henry Lévy)، مرجع سابق. [المؤلف].

للنساء في «أخذ عقل» رجل ما، مرادفة للذة التي للرجل في «أخذ جسد» امرأة ما، والتي لا يكون متأكدا أبدا من أنه قد أغراها فعلا؟ إنهن يرفضن تقاسم هذه المتعة مع امرأة أخرى، والمجازفة بفقد الشريك. كما أن الرجل لا يحب أن يأخذ رجل آخر جسد «امرأته»، فإن المرأة لا تحب أن تأخذ امرأة أخرى عقل «رجلها». في هذه الحالة، يُفاجَأ الرجال غالبا بغيرة المرأة: إنهم لا يفهمون ذلك. حينما «تأخذ امرأة ما عقولهم»، فهم لا يلاحظون ذلك (لفرط فقدهم عقولهم)، وعلاوة على ذلك، فإنهم لا يجدون في ذلك أدنى متعة. مطالبتهم بالتوقف عن هذا البوح - الإغراء لا يضايقهم كثيرا ما داموا ليس لديهم نية الإغراء، والمرور إلى الفعل الجنسي. إذا تحدثت امرأته مع «صديق» في حال خلوة، فإنه يمكن أن يخشى أن «تُسرَق» منه «امرأته». لأنه ساذج، فإنه يمكن أن يصطدم مع هذا الذي يمكن ألا تكون لديه أية نية إغراء، ولكنه متعرض لإغراء من المرأة التي تجد لذتها في ذلك. إنه لا يكتفي بالخطأ في الهدف حين لا يتوجه باللوم لتلك التي له معها «عقد»، بل يزيد بأنه في الغالب يحبس غيرته ويشعر بتأنيب الضمير لكونه شعر بها. في الحقيقة، إذا أظهرها بشكل أو بآخر، فإنه يُصنف على أنه ذكوري متملّك، أو مختل. وفي الحالات كلها، فإن الرجل هو الذي يجد نفسه مذنبا، فيما تكون شريكته - التي شعرت بمتعة، واعية أو لا - متيقنة من براءته. ولكن لِم يمكن للمرأة أن تفعل مع «صديقها» ما لا تطيق أن تفعله امرأة أخرى مع «رجلها»؟ وإذا كانت هذه المتعة «غير مهمة»، فلِم يشكل الحرمان منها مشكلة؟

إذا أردنا تحقيق مساواة مع احترام الاختلاف، وإذا كان يُطلب من الرجل التخلي عما يهمه أكثر، أيْ إقامة علاقات جسدية مع نساء أخريات، ألا يكون من الواجب أن يُطلب من المرأة التخلي عما يهمها أكثر: متعة إثارة رغبة الرجل بالاختلاء به والتحدث في موضوعات حميمية؟ ولكن اليوم، وعلى العكس، فبقدر ما تُشعِر الإيديولوجيا «الأنثوية» الرجل بالذنب إذا لم يتحكم جيدا في طبيعته، فإنها توصي المرأة المتحررة باتباع طبيعتها إلى أقصى حد ممكن. والرجل إذن دائما «غبي» لكونه قَبِل أن تُغريه امرأة «بريئة»، أو لكونه استمع لنداء غرائزه. إنه في النهاية ذَكَرٌ لدرجة عدم قدرته على التصرف مثل امرأة!

4 - «شيطنة» الرجل العنيف

أظهرت «الدراسة الوطنية حول العنف الممارس على النساء في فرنسا»[1] أن امرأة واحدة من كل عشر نسوة تتعرض للعنف الزوجي. حين تترجَم هذه الإحصائية إلى «امرأة من كل عشرة هي امرأة تتعرض للضرب»[2]، فإن المقالات والتحقيقات المتلفزة في الموضوع، تبرز أن العنف هو مِن صنع الرجال بالدرجة الأولى.

يمكن للرجال أن يكونوا عنيفين، خاصة أنهم لا يقدّرون دائما آثار عنفهم. لأنهم يعيشون حدث الضرب وسوء المعاملة الجسدية الذي قد يقع لهم على أنه حدث عارض يمكنهم تقبله - إذا لم يتكرر - فإنهم أهملوا طويلا الصدمة النفسية التي يمكن أن تشعر النساء بها حين يتعرضن لاعتداء جسدي من طرف الرجل. وهذا كما أن الرجل في العلاقة الجنسية يمكنه الوصول بسهولة إلى المتعة، فإنه يميل إلى الظن بأن المرأة مثله في ذلك. وهكذا فإن معاشرة امرأة ما، كان يرادف غالبا عند رجال كثيرين التعدي عليها جسديا، والاغتصاب إنما هو الزيادة في جرعة الإجبار. ولأنهم لم يكونوا يشعرون بصعوبة خاصة في مثل هذه الحالات، فقد كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن الأمر كذلك بالنسبة للنساء: كان الاختلاف الجنسي يُنفى. كانوا يقللون من أهمية الاعتداء، ويجعلون من ضعف الأنثى عيبا، الجنس الآخر - الذي يقال عنه الجنس الضعيف - هو المسؤول عنه. وكان ذلك عندهم علامة على دونيته.

في الوقت نفسه، كان يُطلب من النساء محادثة الرجال بصوت منخفض ومع غض البصر. وقد جعل عدد من الذكوريين من ذلك إكراها، واستغلوا الأمر بغبطة.

من أجل التعامل مع قرون من سيطرة الرجل، وإرضاء المطالبة بمساواة حقيقية، أُلغيت القواعد الصارمة المتعلقة بالسلوك الخاص للنساء، وأصبحت القواعد الخاصة بالرجال قاسية أكثر.

لا يستطيع الرجال اليوم الإحساس بالصعوبة التي تجدها المرأة في منح جسدها، ولا الكارثة التي يمثلها لديها أي عنف جسدي يمارس عليها، ولكنهم على الأقل، حين يسمعون النساء يتحدثن عن ذلك، فإنهم يتصورون الأمر شيئا ما، فيحاولون التصرف بطريقة مغايرة.

---

(1) بقيادة ماريز جاسبار (Maryse Jaspard)، وتحت إشراف كتابة الدولة لحقوق النساء، 2001. [المؤلف].

(2) ماري - فرانس هيريجوين (Marie - France Hirigoyen)، «نساء تحت السيطرة Femmes sous emprise»، نشر (Oh Editions، 2005). [المؤلف].

للأسف، لا يتمكن جميعهم من النجاح في ذلك، ولكنهم قبلوا تشريعا يعاقب بشدة على التحرش والاغتصاب.

لقد صار الرجل مستعدا أكثر لأخذ خصوصية الأنثى بعين الاعتبار. ولكن، وفي حين يبدو أن عددا متزايدا من الرجال لم يعد لديهم أدنى رغبة في ازدراء المرأة، فإن الإيديولوجيا «الأنثوية» المساواتية تتجاهل الهشاشة البنيوية لدى المرأة (بعض الأنثويات المتطرفات يرفضن لهذا السبب معاني المغازلة النبيلة من طرف الرجل)، ولدى الرجل أيضا. الهشاشة المحتملة عند الرجال الذين لا يطيقون النظرة القاسية أو الكلمة الجارحة الآتية من المرأة، لا تأتي – في نظر الأنثويات – إلا من سوء تربيتهم. والهشاشة الجسدية عند النساء والملتبسة بالمعاناة النفسية، هي – في نظرهن أيضا – نتيجة التربية الجنسوية والاعتداءات المتعددة التي تعرضن لها. وهذا يعطيهن الحق في التعويض، ويبرر عدوانيتهن. بضمير مرتاح، يمكن للإيديولوجيا «الأنثوية» أن توافق على تشريع أحادي الجنس (بينما نشأت في الأصل لحماية النساء) يعاقب بشدة – وبحق – على العنف الجسدي الذي يمارسه الرجال، ولكن على العكس تحرر المرأة من أي تحفظ في تعاملها مع الرجل. إنها تجد نفسها دون حدود، ويمكنها أن تتبع طبيعتها وتطلق العنان لعواطفها. بل صار ذلك توصية توصي به الأنثوية. تعنوِن صوفي دو هيريديا (Sophie de Hérédia) في مجلة (Cosmopolitan) لشتنبر عام 2002: «كفاكن حبسا لعواطفكن. أطلقن العنان للتعبير! من أجل تفادي الضغط والاكتئاب والمشكلات الصحية، من الأفضل تحرير الوحش الكامن فيكن بين الفينة والأخرى، ولا يهم ما يمكن أن يقع من الأضرار الجانبية». في هذه الغابة الجديدة، لا يعدو الاعتداء على الذَّكر – إن لم يكن جسديا – مرتبة الحادث العَرَضي غير المهم.

يقع كثيرا أن تطلب المرأة – التي يسهل عليها التعبير عن مشاعرها – من شريكها أن تكون له نفس القدرة، وأن يعبر بطلاقة عن عواطفه. إنها تحاول الولوج إلى نفسية الرجل التي تجد صعوبة في التفتح. في حين صار الرجال الراغبون في امتلاك جسد المرأة مستعدين لجميع المقدمات، فإن النساء الراغبات في ولوج عقول الرجال لا يحترمن شيئا من القواعد الموصلة لذلك. لأنهن لسن مجبرات على ذلك، فلا يرغبن في تضييع الوقت في مغازلة نفسية الرجل، التي لا يعترفن بهشاشتها أصلا. والرجال الذين يشعرون بنوع من الاعتداء بسبب ذلك، ينطوون على أنفسهم أكثر، ويشعرون بتأنيب الضمير بسبب برودة عواطفهم. وهكذا فإن بعضهم –

وبطلب من شريكاتهم - يقضون عطل آخر الأسبوع في التنمية الذاتية، من أجل تعلم إطلاق العنان لأنوثتهم، التي يملكون منها بقدر ما لدى المرأة، ولكنها منحبسة عندهم بشكل مَرَضي.

لأن المرأة لا تحس بنفس الهشاشة النفسية التي لدى الرجل، ولأنها لا تتصورها أصلا، فإنها لا تأخذها بعين الاعتبار. إنها تترك لنفسها أحيانا الحبل على الغارب في تصرفات متعجرفة، يكون لها أثر مدمّر على الرجل الهش. ويكون هذا العنف النفسي القوي صادما للرجل، خاصة أنه لا يستطيع بنفسه التعرف إليه ولا يستطيع - من باب أولى - تفسيره. حين يشعر به، دون أن توجد له أسباب موضوعية، فإنه يستحيي من الأمر، ويميل إلى إنكاره. ما يعيشه مثل زلزال غير مفهوم وغير معترف به عنده، يسبب له غالبا رد فعل من الغضب يضاعف إحساسه بالذنب. ويتقوى هذا الأخير بأنه يمكن أن يكون - خلال غضبه - قد قال كلمات أو فعل أشياء يعلم أنها غير مقبولة. ثم هو يشعر بالخجل لأنه يفهم الألم الذي يمكن أن يسببه حين يكون عنيفا جسديا مع المرأة، ولا يفهم بنفسه العنف النفسي الذي يصيبه، لأنه لا يترك آثارا ملموسة. ومثل كثير من الضحايا الذين لا يُعترف لهم بما تعرضوا له، فإنه يتعرض لإذلال آخر، حين يصبح المذنب الوحيد.

إن الرجال الذين يواصلون إنكار هشاشتهم النفسية مع رغبتهم في أن يكونوا في انسجام تام مع النساء، لم يعودون راغبين في مساندة تقاليد يحكم عليها بأنها «متجاوَزة تماما». لقد التحقوا بالتشريع الجديد وبالإيديولوجيا الأنثوية. المساواتية الكامنة في هذه الأخيرة تفترض أن الرجل والمرأة يشعران بالعنف النفسي بالطريقة نفسها وبالحدّة نفسها؛ وهذا مرة أخرى إغفال للّاوعي. في الحقيقة، هل يستوي الرجل الذي يعرف أنه محدود ويحتفظ بصورة امرأة «إلَهةٍ شديدة القوة»، مع امرأة تعلم أن الرجل محدود وتحتفظ بصورة لنفسها في أسمى قوتها؟ هل اعتداء «إلهة» على إنسان، يرادف اعتداء إنسان على «إلهة» من جهة النتائج والآثار؟

إن اعتداء المرأة على الرجل يحيله على الإخصاء الأول. حين كان صغيرا، وفي الوقت الذي تستمر البنت في التماهي مع أمها «شديدة القوة»، فإنه يضطر إلى التخلي عن رغبته الأولية من أجل التماهي مع آخر - هو الأب - لا يعرفه، وليس لديه شيء رائع بالمقارنة مع الأم. يشعر هذا الرجل الصغير أنه تم التخلي عنه، وأنه لم يعد شيئا. يتم كبت هذا الإخصاء النفسي الرهيب ليتمكن الولد من بناء نفسه، ولكن الجرح يبقى مفتوحا أبدا. ومما يصعّب التئام هذا الجرح أنه في هذا المجتمع الذي صارت الأنوثة فيه هي المثل الأعلى، لم يعد يوجد أي تدريب لتعليمه

كيف يصبح رجلا، ولا شيء ليتمكن من الفخر بكونه رجلا. على العكس، فإن أفضل طريقة لإسقاطه اجتماعيا هي أن يتبنى ما يميزه عن المرأة. ولأنه غير متأكد تماما من كونه رجلا، بل لا يعرف أصلا معنى ذلك، فإن أي لوم شديد يجعله يشك في حقيقته. التشكيك فيه بعنف، بأن يقال له مثلا: «أنت لست رجلا»، هو اليوم أكثر من أي وقت مضى ضربةٌ قاسية، وأسوأ ما يكون من الشتم. كل مواجهة مع «قوة» الأنثى العظيمة، تحيله على «ضعفه» هو. (..)

إن الهشاشة البنيوية عند المرأة تبدو مختلفة. تعترف بذلك إليزابث بادنتر فتقول: «لقد أعطى الرب للنساء ميزة أن يولدن من بطن من الجنس نفسه، وأعفاهن بذلك من جهد التميز والمعارضة الذي يطبع بشكل دائم مصير الذكور»[1]. تنشأ البنت دون الحاجة إلى التخلي عما تتماهى معه. يوجد افتراق لازم لها عن الأم، ولكنه لا يكون مفروضا في نفس مرحلة الوعي التي عند الولد. أن يجب عليها التمايز عن شخص من الجنس نفسه ليس بالضرورة «ميزة» للمرأة، ولكنها مشكلة أخرى لها تأثيرات أخرى. ألا تتساءل عن المرأة التي يجب أن تكونها بالمقارنة مع النساء الأخريات، أكثر من تساؤلها عن كونها امرأة؟

لقد أعطت الإيديولوجيا القديمة الأولوية للرجل ولحمايته ضد «الخطر» الذي يراه في قوة «المرأة». وكرد فعل على ذلك، انشغلت الإيديولوجيا «الأنثوية» بالدفاع عن المرأة ضد سلطة الرجل. وهكذا وقع الانتقال من غلو إلى غلو آخر: في حين يقع شجب كل تمييز، فإن القواعد الجديدة أحادية الجنس وضعت لغاية واحدة، هي حماية النساء من العنف الجسدي الذي يمارسه الرجال. باسم «المساواة»، لم تعد هشاشة الرجل في مواجهة العنف النفسي تؤخذ بعين الاعتبار. إحساس المرأة أمام هذا العنف هو المرجع الذي يسمح بتحديد القانون، في حين يُنظر إلى إحساس الرجل بأنه علامة على «لا محدوديته». يطلب إذن من ذلك الذي «لم تكن له ميزة الولادة من بطن من الجنس نفسه» أن يعمل على تطوير ذاته لتدارك تأخره عن المرأة، مع شكرها على تسامحها معه في انتظار شفائه.

يتم نفي العنف النفسي الذي تمارسه النساء على الرجال، الذين يجدون أنفسهم مشيطَنين، لأنهم وحدهم المسؤولون عن العنف الزوجي. والحق أنه إذا أدرجنا الاعتداءات اللفظية

---

(1) إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)، «XY» الهوية الذكورية «XY De l'identité masculine»، نشر (Odile Jacob)، 1992. [المؤلف].

في العنف الزوجي، ووضعناها على قدم المساواة مع أنواع العنف الجسدي الأخرى، فإنه - كما يعترف بذلك الديمغرافي هيرفي لوبرا (Hervé Le Bras) والقانونية مارسيلا ياكوب (Marcela Iacub) - «يمكن أن يكون عدد من الرجال يعانون أيضا من هذه الابتلاءات الموجودة في الحياة المشتركة»[1]. ومن ناحية أخرى، إذا كانت آثار العنف النفسي على الرجال مماثلة لآثار العنف الجسدي على النساء، فيمكن حينئذ ألا تكون نسبة (الجنس المسيطِر - الجنس الضحية) بالسطحية التي تريد الإيديولوجيا المهيمنة إقناعنا بها ..

إيديولوجيا «متمركزة حول الأنثى» و«جنسوية»

لقد تقهقرت الإيديولوجيا الذكورية التي استغلت قواعد العيش المختلفة بحسب الجنس لتحتقر المرأة. أما الإيديولوجيا «الأنثوية» التي أصبحت مهيمنة، فقد ادعت محاربة الجنسوية، أي «سلوك الذين يتعاملون بشكل مختلف مع الرجال والنساء»[2]، وأرادت تحقيق المساواة وإلغاء أي فكرة لِدُونية أحد الجنسين على الآخر. وفي خضم مخاطبتها لـ«هويات متماثلة»، فإنها لم تكتف بإعادة النظر في تحريف القواعد بل في القواعد نفسها. وهكذا فقد شرعت في مسيرة لرفع التمايز، وطلبت من الرجال والنساء أن تكون لهم سلوكات متماثلة. وعلى هذه السلوكات أن تتوافق مع المعايير الجديدة التي وضعتها الإيديولوجيا الأنثوية. وهكذا فكل رجل يعمَل أو يفكر أو يشعر على نحو يخالف النساء، ينبغي إسقاطه. والرجل الذي يتميز كثيرا محكوم عليه بأنه فاشل. وعلة ذلك التربية الناقصة والمختلة التي تلقاها، إلى جانب تطوره البطيء جدا؛ وهو لذلك متأخر جدا بالمقارنة مع النساء اللواتي بلغن نضجهن الكامل. تعبر إليزابث بادنتر عن ذلك دون مداراة: «إن صنع رجل سيكون دائما أطول وأصعب شيئا ما من صنع امرأة .. المرأة تحبس أنفاسها وهي تراقب بحنانٍ هؤلاء المتحولين»[3]. من خلال صفات التضامن الأمومية عندهن، فإنهن يقبلن هذا «الرجل المريض» لأنه صالح «للتحسين» (تُعنوِن إليزابث بادنتر مقدمة الجزء الثاني من كتابها «XY الهوية الذكورية»: «نحو شفاء الرجل

---

(1) هيرفي لو برا ومارسيلا ياكوب، «Hervé Le Bras et Marcela Iacub»، «الأزمنة الجديدة Les Temps Modernes»، 623، فبراير - مارس - أبريل 2003. [المؤلف].

(2) التربية المدنية، الفصل الخامس، نشر (Nathan)، 2001. [المؤلف].

(3) إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)، مرجع سابق. [المؤلف].

المريض»). وهذا سهل ما دام يكفي أن «يترك أنوثته تجتاحه»، ليكون مثل المرأة، مرتاحا في الوقت نفسه مع ذكورته ومع أنوثته. وإذا رفض أن يعالج نفسه ويتحسن، فهو ذكوري متجاوَز، متمرد على التقدمِ.

تجعل إليزابث بادنتر من «الخنثوية» الحالة المثالية. ولكنها حين تتمنى أن ترى رجالا يمتازون بالعطف والحماية والدفء ويعرفون كيف «يحفزون أنوثتهم»[1]، أليست تبحث في الحقيقة عن امرأة، بل عن أمّ، تريدها أن تتجسد في هذا «الرجل المتصالح» الجديد؟ حتى فاليري زرجين (Valérie Zerguine) نفسها تتساءل في مجلة (Marie Claire)[2]: «ألا يمكن أن تكون المرأة من كثرة حرصها على تغيير الرجل، تحاول إعادة خلقِه على صورتها؟». وإذا لم تكن «المرأة» هي ما تبحث عنه بعض النساء، ألا يمكن أن يكون بحثهن عن الطفل الذي يمكن التماهي والانصهار معه من جديد؟

ألا يمكن أن يكون تعامل الرجال مع النساء بدونية طيلة آلاف السنين، هو بسبب كونهم يعتبرونهن في غير «مستواهم»؟

إن الإيديولوجيا «الأنثوية» - مثل الإيديولوجيا الذكورية - لا تتحمل الاختلاف الطبيعي بين الجنسين. لا تقبله إلا لتُطَمئن نفسها بأن اختلاف الآخر إنما هو عيب مآله إلى الاندثار. وهكذا، ومع كونها تزعم رفض فكر التعالي والدونية، فإنها تبقى ملتصقة بالثنائية عبر نصب المقارنة بين نساء مزدهرات وسليمات ومتقدمات، ورجال وقحين ومرضى ومتخلفين. إنها لا تحكم بالدونية على مجموع الجنس الآخر، ولكن على سلوك فردي يسمى منحرفا. وهي تُظهر - من خلال هذه الخدعة الذكية - أنها ليست جنسوية. والحق أنه يوجد فعلا احتقار للآخر، حين لا يتلاءم مع المعايير التي تفرضها. يعدّ هذا التمركز على الأنثى الذي يعطي الأولوية للقيم المؤنثة، والذي يَعدّ الرجال متخلفين أو «مرضى»، المقابل المؤنث للجنسوية الذكورية التي كانت تعدّ النساء «رجالا ناقصين»[3].

كما في المثاليات الشمولية، تُعالَج صعوبة تقبل الاختلاف غالبا بمحاولة إلغائه. بعد المحاولات المستمرة للوصول إلى وحدة الطبقة ووحدة العِرق، تسعى الإيديولوجيا

---

(1) إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)، مرجع سابق. [المؤلف].

(2) عدد يونيو 2001. [المؤلف].

(3) - أرسطو. [المؤلف].

«الأنثوية» إلى بلوغ وحدة الجنس. ليس الهدف إيجاد قواعد للعيش المشترك بين الرجال والنساء المختلفين، بل بناء «رجل جديد». تنتظر إليزابث بادنتر هذا الأخير عما قريب، ولا تتردد في التأكيد بأن «الرجل القديم يحتضر، ليترك المجال لرجل آخر مختلف»[1]. ولكي نسترجع الوحدة في بطن الأم، يُطلب من «الرجل الجديد» أن يمتثل لصورة المرأة[2]!

إن سلوك وأحكام بعض «الأنثويات» لا تقل في عدم تسامحها عن تصرفات بعض الذكوريين؛ وإذا وُجدت مساواة بين الرجل والمرأة في هذا العالم الذي يقل فيه الاختلاف، فإنها للأسف مساواة في القدرة المتبادة على ممارسة العنصرية والجنسوية. الفرق الوحيد بين هذين النوعين من الجنسوية، هو أن جنسوية الرجال صارت اليوم مُدانةً ومستحقة للإدانة، فيما صارت «جنسوية» الإيديولوجيا «الأنثوية» هي المعيار.

لقد قصم تصورٌ معين للمساواة ظهرَ الإيديولوجيا الذكورية التي كانت تسوغ كبت الرجال والتحكم - عبر وظائف ذكورية - في «القوة الشديدة» المتخيل وجودها عند النساء. في الواقع، لا يتعلق الأمر بأخذ السلطة من طرف النساء (يوجد تمثيل ضعيف للنساء في مناصب السلطة الاقتصادية والسياسية) بل تناقص في السلطات التي كانت للرجال من أجل التحكم في النساء. يؤثر التأنيث الناتج عن ذلك في الأسرة والمدرسة والعدالة والسياسة والدين والإعلام وجميع مناحي الحياة. لقد صار اليوم من المقرر في جميع المجالات، وباسم «الحرية» و«المساواة»، أنه لا يصح كبح التعبير عن الأنوثة التي أصبحت المرجع الجديد. ربما لم يصل الأمر إلى أن يكون العالم كله بأيدي النساء، ولكنه صار مؤنثا أكثر فأكثر. تعبر الإعلانات من قبيل «لم تحترم طبيعة النساء قط مثل اليوم» أو «الأنوثة بخير. شكرا»، عن هذا التوجه العصري. وهكذا وبعد انهيار السد الذي نصبه الرجل لترويض وتصريف سيل الأنوثة الجارف، إلى حد إنكاره أصلا، عاد هذا السيل إلى منحدره الطبيعي، وجماله الأخاذ، وقوته اللامحدودة .. وربما أيضا إلى قوته المدمرة ..

---

(1) إليزابث بادنتر (Elisabeth Badinter)، مرجع سابق. [المؤلف].

(2) هيلين فيشيالي (Hélène Vecchiali)، «ليكونوا هكذا. لا يوجد نساء حقيقيات دون رجال حقيقيين. Ainsi soient - ils. Sans de vrais hommes, point de vraies femmes»، نشر (Calmann - Lévy)، 2005. [المؤلف].

المساواة بين الجنسين ونظرية النوع

من كتاب «خدعة الأنثوية الرهيبة» للوسي شوفي (ص88 - 110)

آه! الاختلاط والمساواة بين الرجال والنساء! الثورة العجيبة للقرن العشرين! ولكن متى بدأت الفكرة بالضبط؟ ومن الذي يستفيد منها فعلا؟

الاختلاط والمساواة بين الجنسين في المدرسة

بحسب عالم الاجتماع ميشيل فيز (Michel Fize)، الباحث في المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS)، فإن اختلاط الجنسين في المدارس كان دائما موجودا في فرنسا، وحتى قبل الثورة الفرنسية، و«خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر، كان عدد المدارس المختلطة أكثر من عدد المدارس التي تفصل بين الجنسين. في بداية سنوات الخمسينيات، كان 40٪ من الإعداديات مختلطا. عرف عقدُ الستينيات تعميمَ الاختلاط لا اختراعَه».

ولكن «كان من الواجب انتظار عام 1924 مع مرسوم «ليون بيرار Léon Bérard» لتحصل البنات على نفس التعليم الإعدادي والثانوي الذي يحصل عليه الأولاد. منذ ذلك الحين، صار مضمون التعليم واحدا للجنسين، وإن كانا منفصلين».

تشرح إيفلين فوما (Yveline Fumat)، أستاذة علوم التربية في محاضرة بفريبورج عام 2007 أنه إلى غاية 1950 – 1960 كانت برامج التعليم الابتدائي تحتوي على مضمون تعليمي خاص بالبنات: الخياطة، الأعمال اليدوية، رياضة الجمباز[1] ..

علمتُ بسؤال أمي وجدتي أن التعليم الخاص بالفتيات كان موجودا فعلا. استفادت جدتي (المولودة عام 1928) وأمي (المولودة عام 1952) في المدرسة الابتدائية من دروس الخياطة والتغذية وإعداد قنينة الرضاع والاعتناء بالرضيع. وفوق ذلك لم تكن المدرسة مختلطة. أمي فقط عرفت المدرسة المختلطة، وذلك ابتداء من الإعدادي.

---

(1) محاضرة عنوانها «الأولاد والبنات: المساواة أخيرا؟ Filles et garçons : enfin l'égalité ?»، موجودة على الشبكة. [المؤلفة].

أنتمي إذن إلى الجيل الأول من نساء عائلتي، الذي استفاد من تعليم متساو تماما بين الجنسين من الحضانة إلى الجامعة، في ظروف مختلطة.

منذ ثلاثين سنة إذن، ومن خلال «ثلاثة أجيال من حقوق المرأة» - كما تقول وزيرة حقوق النساء نجاة فالو - بلقاسم - ، صار الرجال والنساء يتلقون تربية بالطريقة نفسها من الحضانة إلى الجامعة، مع الحرص على تكريس «المساواة» بينهما.

بما أن التمدرس إجباري في فرنسا من سن السادسة إلى السادسة عشرة، فإن مجموع الرجال والنساء الفرنسيين الشبان يُربّون بالطريقة نفسها لمدة عشر سنوات على الأقل. جميع الذين يبدؤون تمدرسهم في الحضانة قبل العام الأول من عمرهم، وينهون دراستهم الجامعية في سنة الثالثة والعشرين، سيكونون قد قضوا ما يقارب 23 سنة في تعلم الأشياء نفسها، وهم يُشَجّعون على تحقيق الغايات نفسها. لن تتعلم البنات كيفية تحضير وجبة غذائية متوازنة، ولا الخياطة ولا الاعتناء بطفل من باب أولى. لقد أنزِل خيار الأمومة إلى مرتبة ثانوية، وصار أمرا تفصيليا لا ينبغي الانشغال به كثيرا.

وهكذا، ومثل الكثير من الأولاد والبنات في نفس سنّي، تعلمتُ المبدأ الإجمالي التالي: «لا بد من الاجتهاد في المدرسة لتحصيل مهنة جيدة فيما بعد (فيها مُرَتب جيد)، من أجل تحقيق السعادة». السعادة إذن متفرعة - عند الكثير من أبناء جيلي - عن المقام الاجتماعي، والموارد المالية، والممتلكات المادية.

في الثانويات الأمريكية، يتلقى تلاميذ السنة الأخيرة - من الأولاد والبنات - دمية إلكترونية على شكل رضيع، لتوعيتهم بصعوبة إنجاب طفل خلال التمدرس، والإكراهات التي يأتي بها المولود. تبدأ الدمية الإلكترونية في الصراخ بقوة مرات متعددة خلال الليل، وعلى التلميذ أن يُدخل فيها لمدة 15 دقيقة مفتاحا محتاجا إلى شيء من الضغط، ليجبر المراهق (أو المراهقة) على البقاء مستيقظا خلال هذه المدة من أجل إسكات الدمية. جربتُ بنفسي هذا الجهاز خلال السنة الأخيرة من التعليم الثانوي، حين كنت مع أسرة استقبال في أمريكا. حصلتُ - مثل جميع الأمريكيين في مثل سني - على هذا الرضيع الإلكتروني لمدة ليلة واحدة. المفارقة أنهم يسعون إلى تحسيس المراهقين بمخاطر الأمومة المبكرة، عن طريق إبراز صعوبة الاعتناء بالطفل حين نكون مضطرين للدراسة. ولكن الاعتناء بالطفل حين نكون مضطرين للعمل ليس أقل صعوبة. أعتقد بأن القضية مطروحة بشكل مقلوب. يبدو لي أن من الأفضل تدريب الفتيات على الأمومة

وتحدياتها، وهياكل الاستقبال الموجودة وأسعارها، وأهمية مكانة الأب، وصعوبة المواءمة بين الحياة المهنية والحياة الأسرية. باختصار، ينبغي توعيتهم بجميع مظاهر الأمومة من أجل مساعدتهم في اختيار الشُّعَب الدراسية وطرق المستقبل، بدلا من إرهابهم برضيع إلكتروني. من المفيد أيضا التركيز في مخاطبة الشبان الذكور على أهمية دور الأب، والمسؤوليات التي للرجل تجاه أطفاله، من أجل تذكيرهم بحسّ الواجب، الذي صاروا اليوم يميلون إلى تناسيه.

حين تصطدم النظريات بالواقع

يبدو لي أن الدمى الإلكترونية المذكورة آنفا صُنعت لتشمئز النساءُ من الأمومة عموما، وليس فقط لأجل التحذير من الأمومة في زمن المراهقة. ولكن الإيديولوجيا الأنثوية المتحكمة في الحكومة الفرنسية تذهب إلى أبعد من ذلك. إنها تعمل على محو النوع لدى الأطفال، كما تشهد على ذلك التجربة التي أقيمت في حضانة بمنطقة سانتوين (Saint – Ouen)، حيث يكافح الفريق البيداغوجي ضد الصور النمطية المرتبطة بالنوع «والتي تحصر الأطفال في أدوار مختلفة بحسب الجنس»[1]. يشجّع المدرسون «البنات على استعمال المطرقة في ورشة العمل اليدوي، والأولاد على التعبير في ورشة العواطف».

ستقولون إنها فضيحة؟ هل نُخرج مرة أخرى هراء نظريات النوع؟ كلا، لا داعي للقلق، فإن السيدة نجاة فالو - بلقاسم تؤكد: «نظرية النوع غير موجودة!». غاية الأمر أنهم يفككون هوية أطفالكم اعتمادا على أعمال جوديث بتلر (الفيلسوفة الأنثوية الأمريكية، السحاقية ومؤلفة كتاب «اضطراب في النوع Trouble dans le genre»)، وكريستين دلفي (مؤلفة وباحثة في المركز الوطني للبحث العلمي، سحاقية ومؤسسة المجلة الأنثوية المادية «قضايا أنثوية جديدة Nouvelles questions féministes»)، ومونيك فيتيج (روائية ومنظرة لتجاوز النوع، مناضلة و«سحاقية راديكالية» بحسب أقوالها). الأمر غير مطَمئِن .. أليس كذلك؟

تظهر الكثير من الدراسات اليوم بأنه، على الرغم من القصف الإعلامي والمدرسي حول المساواة بين الجنسين، فإن النساء يخترن في الغالب مهنًا مخصصة تقليديا لهن، ومحصورة في بعض المجالات.

---

(1) دليلا كرشوش (Dalila Kerchouche)، «لنطرد الأولاد الذكوريين ! Exit les baby machos !»، ببورطاج عن هذه الحضانة بمناسبة زيارة نجاة فالو - بلقاسم ودومينيك برتينوتي، (Le Figaro Mad-ame)، يوم 11 شتنبر 2012، موجود على الشبكة. [المؤلفة].

يبيّن مرصدُ المساواةِ بين الجنسين في فبراير 2013 أن «الفتيات في فرنسا يمثلن 58 ٪ من الطلبة في الجامعة في 2009 – 2010 في مقابل 43 ٪ في 1960 – 1961. تحسّن الوضع بوضوح خلال السنوات الخمسين الأخيرة. ولكن لا تزال الفوارق موجودة في اختيار الشعب التخصصية. تمثل الفتيات 70 ٪ من طلبة الآداب والعلوم الإنسانية، ولكن أقل من 30 ٪ في مجال العلوم الأساسية. في التعليم الثانوي أيضا، تعدّ الفتيات أقلّ في الشعبة العلمية. الدول التي تعدّ النساء فيها أكثر نشاطا هي أيضا الدول التي سوق العمل فيها هو الأكثر تقسيما بحسب الجنس. في فرنسا اليوم، 98 ٪ من العمال المنزليين و80 ٪ من عمال الصندوق ووكلاء التوزيع هم من النساء. النساء حاضرات بقوة في مجالات التربية والعمل الاجتماعي والعناية بالأشخاص ..».

تذكّر ماري – كريستين ويدمان كوب (Marie – Christine Weidmann – Koop)، الأستاذة بجامعة شمال تكساس، في كتابها «تكوين النساء في فرنسا: التطور والمفارقة في وضعية مستمرة La formation des femmes en France : évolution et paradoxe d'une situation qui perdure»، بأنه «منذ الحرب العالمية الثانية، تطورت وضعية النساء في فرنسا بفعل عدد من الإصلاحات في مجالات مختلفة. ولكن تطبيق التشريعات الجديدة لم يصاحبه تغيير في العقليات، ولا تزال الفروق بين الجنسين مستمرة في فجر القرن الحادي والعشرين». يبدو أن المؤتمر العالمي حول النساء، الذي عُقد في بيكين عام 1995، قد شكّلَ عاملا محفّزا، فقد ضاعفت الجمعيات الأنثوية من نشاطها، كما خُلقت جمعيات جديدة. ظهرت خلال السنوات الأخيرة منشورات كثيرة مخصصة للنساء، سواء أكانت كُتبًا أو أعدادا خاصة من المجلات المهنية. كما أن الحكومة الفرنسية ضاعفت جهودها لصالح النساء من خلال مزيد من التأنيث في الوظيفة العمومية، خاصة في النظام التربوي حيث تصاغ العقليات منذ الصغر».

كثير من الناس – مثل السيدة ماري – كريستين ويدمان كوب – مندهشون من هذا الواقع، ويسمونه «مفارقة»، دون فهم أسبابه.

يشرح بعضهم – مثل دومينيك ميدا (Dominique Méda) أستاذة علم الاجتماع بجامعة باريس وباحثة في معهد الأبحاث متعددة التخصصات في العلوم الاجتماعية – بأن ذلك راجع إلى تزايد أعداد الدوام الجزئي المفروض، والصور النمطية المتجذرة في التوجيه

المدرسي والتي يجب محاربتها[1]: «لا بد أولا من مقاومة هذا التوجه نحو تطوير الدوام الجزئي المفروض. يمكن أيضا حث الرجال على التوجه نحو مهن «نسائية» والعكس. عموما، ومن أجل اقتلاع عدم المساواة من الجذور، لا بد من تطهير المجتمع كله من الصور النمطية المتعلقة بالنوع، والتي تفسر جميع أنواع عدم المساواة: عدم تشجيع البنات الصغيرات في الأقسام الابتدائية، الصور النمطية المتعلقة بالمهن «النسائية» و«الرجالية» التي تنشرها الأُسر والمدرّسون ووسائل الإعلام طيلة زمن التمدرس، الأحكام المسبقة المرتبطة بالأدوار الأُسرية والتي تمنع من التقسيم المتساوي للمسؤوليات المهنية ..».

يبيّن آخرون – مثل علماء مركز (Hubertine Auclert) المتخصص في تعزيز ثقافة المساواة بين الرجال والنساء – بأن عدم المساواة بين الجنسين راجع إلى الأدوات البيداغوجية[2]. يصل الأمر إلى إحصاء عدد التراجم في الكتاب المدرسي: «11 ترجمة لنساء، من ضمن 339 ترجمة مضمّنة في كتاب التاريخ للسنة الثانية».

يتّهم آخرون – مثل ماري دورو – بيلا (Marie Duru – Bellat) أستاذة العلوم الاجتماعية بمعهد الدراسات السياسية بباريس منذ 2007، والباحثة بالمرصد السوسيولوجي للتغيير بالمركز الوطني للبحث العلمي – الاختلاط، ويشرحون بأنه يؤدي إلى صور نمطية مرتبطة بالنوع بسبب المواجهة بين الجنسين[3]: «تبرز دراسات كثيرة تنامي الصور النمطية المتعلقة بالجنس واختلاف السلوك في المجموعات المختلطة: التفضيلات المدرسية واختيارات الشعَب تبدو عند الشبان من الجنسين، أكثر ملاءمة للصور النمطية في المدارس المختلطة منها في غير المختلطة. في هذه المدارس، يذكر الأولاد أنهم مهتمون أكثر باللغات والبيولوجيا، والبنات أنهن مهتمات بالفيزياء والتكنولوجيا، مع

---

(1) نايري ناهابيتيان (Nairi Nahapetian)، حوار مع دومينيك ميدا، «المسيرة الطويلة للمساواة بين الرجال النساء - La longue marche de l'égalité hommes – femmes»، (Alternatives économ- iques – Poche)، عدد 47، يناير 2011. [المؤلفة].

(2) مركز (Hubertine Auclert)، «ملخص الدراسة: تمثيلية النساء في الكتب الدراسية للتاريخ .. Synthèse de l'étude : la représentation des femmes dans les nouveaux manuels d'histoire»، شتنبر 2011. [المؤلفة].

(3) ماري دورو – بيلا (Marie Duru – Bellat)، «ما يسببه الاختلاط للتلاميذ »، مجلة المرصد الفرنسي للظرفية الاقتصادية (OFCE)، ص114، يوليوز 2010. [المؤلفة].

توجيه دراسي فيما بعد أقل توافقا مع الصور النمطية للمهن الرجالية والنسائية. يكوّن التلاميذ بالتدريج تصنيفا على أساس الجنس للعلوم والمهن، وأيضا للذات وللآخر: الفيزياء مادة خاصة بالأولاد، ولأنني بنت فلا يمكنني التفوق فيها ولا منافسة الأولاد في هذا المبدان. هذه التمثلات، التي تظهر أكثر في الأقسام المختلطة، تتجذر بعمق عند التلاميذ، وتصبح جزءا من هويتهم الجنسية».

ولكنها مع ذلك تَختِم بالقول: «إن أي رجوع واضح ومعلَن في الوقت الراهن إلى عدم الاختلاط، يتجاوز التخطيط البيداغوجي الجزئي والبراجماتي، سيكون ذا طابع رمزي كارثي».

باختصار، يُجهِد باحِثُونا أنفسَهم لفهم هذه المفارقة. بالنسبة لي، أرى أن سببَ المفارقة يوجد في قلب أساس التفكير لديهم، لأنه يستبعد من النقاش أهمية الطبيعة في تصرفاتنا في مجال الاختيار المهني. في الواقع، يوجد لدى النساء ميل طبيعي، ومراكز اهتمام مختلفة عن الرجال، واللواتي يرغبن في إنجاب الأطفال ويخترْن الاعتناء بهم، سيخترن بالبداهة مهنةً لا تستلزم مسؤوليات كثيرة، بتوقيت مرِن وإمكانية الدوام الجزئي. الأمر بهذه البساطة. لن تُغيّر في الأمر التربيةُ ولا الاختلاط ولا التساوي العددي. تؤكد ناتاشا بولوني (Natacha Polony) على الأمر في حوار مع مجلة أتلانتيكو (Atlantico) عام 2011: «يتجِهُ الرجالُ نحو المهن التي لها قيمة اجتماعية، فيما تعطي النساء أهمية أقلّ لهذا البُعد. تختار النساء مهنا تمنحهنّ وقتا أكثر للاعتناء بأطفالهن».

من الطريف أيضا أن نرى استنكار الدوام الجزئي من طرف الأنثويات، وعدّه أحد الأسباب الرئيسية للهشاشة لدى النساء. لم يفهَمْن أنّ هذا النوع من الدوام ليس مفروضا، بل هو مطالَب به من طرف النساء الراغباتِ في أن تبقى لهنّ قدمٌ في ميدان العمل، مع الاحتفاظ بشيء من الوقت لأطفالهن.

نظرية النوع، أصولها وأهدافها

في مواجهة المفارقة المفصّلة آنفا، يحسب الجامعيون المتجاهلون للواقع البيولوجي، أنهم سيجدون الأجوبة على أسئلتهم في الدراسات المتعلقة بالنوع (الجندر)، أو ما يسمى نظريات النوع. ظهرت هذه النظريات في سنوات الثمانينيات، وقد استلهمها واضعوها من تأكيد سيمون دو بوفوار عام 1949 في كتابها «الجنس الثاني»: «نحن لا نولد امرأة، ولكن نصبح امرأة». إذا لم يكن لهذا التأكيد في تلك المرحلة «أي أثر سوى لدى المثقفين العصريين والتيار الأنثوي»[1]، فإن نظرية النوع تطورت خصوصا في الولايات المتحدة .. وذلك قبل أن

(1) الأسقف جينو (Mgr Ginoux)، «تدريس نظريات النوع، انحراف خطير L'enseignement des théories du genre, une dérive dangereuse»، مقال منشور على موقع (eglise.catholique.fr). [المؤلفة].

تمضي الأنثوية الجديدة إلى أبعد من ذلك في نهاية القرن العشرين. تسعى هذه النظرية إلى فك الارتباط بين النوع (الاجتماعي) للفرد والجنس (البيولوجي)، مؤكدة أن النوع تصنعه البيئة السوسيو - ثقافية وتاريخ الفرد، وليس الجينات الوراثية.

ويسمح هذا بالتأكيد على أن كل فرد يمكنه بناء نفسه بحسب إرادته، ويمكنه أن يخترع لنفسه اختيارات بديلة في الحياة الجنسية. أكبر منظّرات هذه الدراسات عن النوع هي جوديث بتلر، التي ألفت كتاب «اضطراب في النوع Trouble dans le genre»، الصادر في الولايات المتحدة عام 1990، والمترجم للفرنسية عام 2006. تقول: «لسنا عاملين مختارين في هذه القصة، ليس لدينا حرية أن نلعب هذا الدور أو ذاك. نحن مجبرون على الالتزام بالمعايير المذكرة أو المؤنثة، للحصول على هوية معترف بها لدى الآخرين، ليمكننا العمل والتفكير، وباختصار لننتمي إلى البشرية».

مع هذه النظرية، يعتقد الجامعيون الموافقون عليها بأن من الممكن تغيير الأشياء عن طريق صناعة أفراد محايدين. لن تنظر البنت إلى نفسها كأمّ مستقبلية، وسيعتقد الولد أن البنات هن أولادٌ مثل الآخرين. وهذا سيسمح أخيرا بالوصول إلى الحالة المثالية في المجتمع: المساواة التامة بين الجنسين على الصعيد المهني، مع التساوي العددي في جميع القطاعات.

جهود مبذولة لتحقيق المساواة مهما يكن الثمن، إلى درجة السخافة

لقد رأينا سابقا أن بعض الأساتذة الجامعيين يحلمون بمجتمع من الأفراد لهم طموحات متساوية تقريبا، بغض النظر عن خصائصهم الفزيولوجية. ولكن، هل من الخطير فعلا أن تختار كثير من النساء في فرنسا مِهنا في مجالات الصحة والعمل الاجتماعي، وأن يختار عدد كثير من الرجال العمل في قطاع البناء؟

اهتمت بعض الدول الأوروبية الأخرى مثل النرويج، بنظرية النوع، كما يُظهر ذلك الشريط الوثائقي[1] للنرويجي هارالد إيبا (Harald Eia). يبيّن الوثائقي أن النرويج تواجه اليوم «مفارقة بخصوص المساواة في النوع»، لم يستطع علماء الاجتماع النرويجيون تفسيرها. وُصفت النرويج عام 2008 بأنها أكثر الدول احتراما لمساواة النوع. يذكر هارالد إيبا بأن الأفراد في النرويج أحرار تماما في اختيار مِهَنهم، مهما يكن نوعهم. يوجد الرجال والنساء في جميع قطاعات العمل، ولكن

(1) هارالد إيبا (Harald Eia)، «مفارقة المساواة في النوع Le paradoxe de l'égalité des genres»، التلفزة النرويجية، 2010. [المؤلفة].

بعض القطاعات (مثل البناء) مكونة من الرجال أساسا، وبعضها (مثل الصحة) من النساء أساسا. بحسب بعض الدراسات، 90 ٪ في مهنة التمريض نساء، و90 ٪ في الهندسة رجال، وذلك منذ سنوات الثمانينيات. يبقى توزيع المهن على الجنسين ثابتا بشكل مدهش.

يقترح هارالد إيبا – اعتمادا على دراسات لعلماء إنجليز وأمريكيين مختلفين التقى بهم – تفسيرا معينا لهذه المفارقة: «في مجتمع حر ومساواتي، يصبح الرجال والنساء غير متساوين لأن لديهم الفرصة لاتباع اهتماماتهم الخاصة». بعبارة أخرى، بقدر ما نكون أحرارا في الاختيار، بقدر ما يكون بإمكاننا أن نختار مجالا يهمنا أو يمكن أن نزدهر فيه بشكل أفضل.

برهن بعضُ العلماء الأمريكيين والإنجليز المذكورين في هذا الوثائقي، من خلال دراسات مختلفة، بأن للبيولوجيا أهمية في اختيارات الأفراد وتوجهاتهم بحسب النوع. هذه النتائج تُعارض إذن مسلّمة العلماء النرويجيين التي تنبذ البعد البيولوجي بشكل منهجي، دون استكشافه أصلا.

أحدث الوثائقي ضجة كبيرة، وأدى إلى إيقاف الدعم الحكومي للأبحاث حول نظرية النوع.

في السويد، حيث نظرية النوع أكثر تجذرا مما هي عليه في فرنسا[1]، طبقتْ مدارس عديدة هذه الإيديولوجيا، وأقل ما يمكننا قوله هو أن النظرية بدأت تُربك أصدقاءنا السويديين. هذه بعض النماذج السريالية ..

تستعمل حضانة «Egalia» في استوكهولم ألفاظا محايدة لتعيين الأطفال: «نستعمل الضمير أو لفظ «شخص» أو «Kompis». الضميران الشخصيان «هو han» و«هي hon» ليسا ممنوعين، ولكنهما يستعملان بالتناوب مع الضمير المحايد (hen)»[2].

تشرح مديرة المدرسة لمعارضي هذا النوع من التدريس بأن «الفكرة ليست أن يتساوى الجميع، ولا أن يُحرموا من أي شيء، ولكن أن يُربّى الطفل مثل فرد واحد. ليس في نيتنا إلغاء الجنس البيولوجي، ولكن عملنا منصبّ على الجنس الاجتماعي».

---

(1) الدول الاسكندنافية معروفة بسبقها في هذه المجالات، لكنه سبق لا تفرد! فما تقرره هذه الدول، يصل بعد سنوات معدودة إلى الدول الأوروبية الأخرى. والمشكلة الكبرى: أن ما يقرر في عموم أوروبا، ينتقل بعد زمن معين، وبعد ممانعة ومماطلة، إلى بعض دولنا الإسلامية. نسأل الله السلامة من مضلات الفتن. [المترجم].

(2) كاتارينا لاجروال (Katarina Lagerwall)، «المساواة بين الجنسين منذ الصغر L'égalité des sexes dès le plus jeune âge»، مجلة (courrier international)، 1 مارس 2012. [المؤلفة].

تشجّع كريستينا هنكل (Christina Henkel)، المكوِّنة والمتخصصة في المساواة بين الجنسين في الوسط المدرسي بالسويد على استعمال الضمير المحايد في المدارس، وتقدّم مثالا آخر: «أسرد دائما مثال لفظة (snippa). أثار الآباء قضية لِم لا يوجد لفظ يدل على العضو التناسلي للبنات، فتخيلنا لفظ (snippa) (وهو مأخوذ من لفظ (snopp) الذي يعني العضو الذكري للأولاد). في البداية، وجد المدرّسون بعض الصعوبة في استعماله، ولكن اللفظ فرض نفسه سريعا. بعد خمس سنوات، صار لفظا طَبيعيا. الجميع يقول (snippa)»[1].

يوجد أيضا آباء لا يصرّحون بجنس أطفالهم كي لا يؤثروا في توجهه. مثال ذلك حالة الطفل السويدي المدعوّ (Pop). لا يصرّح والداه بجنسه، ويشرحان الأمر: «نريد أن يكبر (Pop) بحرية، وليس في قالب نوع محدد. من القسوة إنجاب طفل وعلى جبهته طابع أزرق أو وردي. ما دام نوع (Pop) محايدا، فإنه لن يتأثر بالطريقة التي يتعامل بها الناس مع الأولاد أو البنات»[2].

في أبريل 2013، اقترح نائب سويدي قانونا يجبِر الرجال على التبول في وضع الجلوس، من أجل تعزيز المساواة بين الرجال والنساء[3].

وأخيرا، في ماي 2013، أحدثت ثانوية (Sodra Latin) باستوكهولم غرفة محايدة لتبديل الملابس، من أجل التلاميذ الذين يشعرون بالحرج من التعرّي أمام بنات أخريات أو أولاد آخرين. تشرح رئيسة مجلس التلاميذ (Camille Trombetti) في الجريدة المحلية بأن ذلك «للتلاميذ الذين لا يتمنّون أن يُعيَّنوا كرجال ولا كنساء»[4].

---

(1) هذا أحد أمثلة نضالات الأنثوية التافهة، في المجال اللغوي خصوصا، والتي تبتعد كثيرا عن حقوق المرأة وهمومها، وتتعلق بمثل هذه الأوهام اللفظية، التي لا تقدم ولا تؤخر. [المترجم].

(2) ستيفان كوفاكس (Stéphane Kovacs)، «بوب، ست سنوات، الطفل السويدي دون جنس Pop, 6 ans, l’enfant suédois sans sexe»، صحيفة (Le Figaro)، 17 فبراير 2013. [المؤلفة].

(3) حين يتحدث بعض الدعاة والعلماء عندنا في قضايا شرعية مرتبطة بالطهارة أو اللباس والزينة مثلا - على أهمية هذه المباحث في المنظومة الفقهية الإسلامية - تقوم قائمة العلمانيين والتنويريين، ويحتجون قائلين: «الناس في الغرب صعدوا إلى القمر، وأنتم تتحدثون في هذه الأمور!». لكن الأشقر السويدي لا يُنتقد، وله أن يتكلم في ما يشاء! [المترجم].

(4) «سابقة في السويد: غرفة لتبديل الملابس دون نوع Une première en Suède : Un vestiaire sans genre»، (directmatin.fr)، 4 ماي 2013. [المؤلفة].

إذا استمر الحال هكذا، فقد تُمنع السويديات لاحقا من الحمل بسبب التمييز تجاه الرجال .. أو لعلهم سيخلقون أفرادا ليسوا رجالا ولا نساء، عن طريق البتر المنهجي للخصائص الجنسية عند الولادة (القضيب، الرحم، المبايض، الخصيتان) والحقن اليومي بهرمونة متساوية للجميع؟

يجعلنا هذا الواقع السويدي نفكّر في الأمر، وأرجو أن نتمكن من التفاعل، خاصة حين نرى السرعة التي تُدرج بها حكومتُنا هذه الإيديولوجيا في النظام التعليمي الفرنسي. لقد أصبحت نظرية النوع الوسيلة المفضلة لدى الحكومة لمحاولة تحسين «المساواة بين الجنسين»، كما يشهد على ذلك التعديل الذي تبنته لجنة الشؤون الثقافية بالجمعية الوطنية يوم 28 فبراير 2013. شرحت النائبة الاشتراكية جولي سوماروجا (Julie Sommaruga) هذا التعديل، بأنه يسمح بأن تصبح «التربية على مساواة النوع» رسالة تامة للمدرسة الابتدائية. إن الغاية من ذلك هي «تفكيك الصور النمطية الجنسية، باستبدال الجنس والفروق الجنسية المبنية على البيولوجيا، بمفهوم النوع الذي يبرز أن الفروق بين الرجال والنساء ليست مبنية على الطبيعة، بل هي مبنية تاريخيا ومنتَجة اجتماعيا». نعم، الفروق بين الرجال والنساء ليست مبنية على الطبيعة، عند برلمانيينا ..

سحب أعضاء مجلس الشيوخ هذا التعديل، قبل أن تتقدم نائبة أخرى هي باربارا بومبيلي (Barbara Pompili) بتعديل آخر مماثل للأول. أمام حدة الاختلاف في الآراء، وخوفا من أن يرفض أخيرا، سحبتْ باربارا بومبيلي تعديلَها في بداية شهر يونيو 2013.

ولكن وزير التربية الوطنية آنذاك استمر في اتخاذ إجراءات توافق «تفكيك الصور النمطية للنوع»، كما تشهد على ذلك الرسالة التي وجهها في يناير 2013 لعمداء الأكاديميات، والتي يشجع فيها تدخل جمعيات الأقليات الجنسية في المؤسسات التعليمية. يؤكد في رسالته على أن «الحكومة التزمتْ بالاعتماد على الشباب في تغيير العقليات. أتمنى إذن أن تشجعوا تدخلات الجمعيات في الوسط المدرسي، لمحاربة الأحكام المسبقة المعادية للمثلية. كما أنني أدعوكم إلى نشر حملة التواصل المتعلقة بخط «ligne azur» في بداية السنة الدراسية، وهو خط الاستماع للشباب في مجال التوجه والهوية الجنسية».

كما أنه في دورية بتاريخ 10 أبريل 2013، أكّد على أهمية مقاومة الصور النمطية للنوع: «من أجل المساهمة في مقاومة أنواع العنف والصور النمطية المتعلقة بالنوع، وللسماح لكل أحد بأن يصنع لنفسه سلوكا مسؤولا، فإن على المدرسة أن تعزز التربية على الحياة الجنسية منذ المدرسة الابتدائية. لقد أنشئت مجموعة عمل في الموضوع، وستقدم مقترحات من أجل تطوير هذا التعليم الضروري».

إضافة إلى ذلك، وكما ذكرتُ من قبل، جرّبتْ مدرسة في سانت - أوين منذ 2009 نظرية النوع هذه على الأطفال بين ثلاث وست سنوات. يرجو الفريق البيداغوجي بذلك محاربة الصور النمطية للنوع التي «تحصر الأطفال في أدوار مختلفة بحسب الجنس». كما أن مقررات علوم الحياة والأرض تشرح - على شكل تأكيد له قيمة الحقيقة الثابتة - لتلامذة الثانوية الذين هم في طور المساءلة الوجودية، أن «الجنس البيولوجي يعرفنا ذكرا أو أنثى، ولكن لا يمكن مع ذلك وصفنا بوصف مذكر أو مؤنث».

وأخيرا، أنشأت النقابة الرئيسية للمدرّسين في ماي 2013 ملفا لمساعدة الأساتذة على «التربية ضد معاداة المثلية منذ المدرسة الابتدائية»، وذلك باقتراح «أدوات نظرية وتطبيقية»، منها مثلا كتابُ صُوَرٍ يمكن دراسته في القسم، عنوانه «أبي يلبس فستانا». ومن ضمن «أهداف» الكتاب، يوجد: «المساهمة في تفكيك الصور النمطية».

أرى أن هذا كله يشكل فضيحة كبرى، وأجدني خائفة من الأثر الذي يمكن أن تشكله هذه الإيديولوجيا المنحرفة على أطفالنا وعلى الأجيال الآتية.

الإفلات من العقاب، التحكم في الكلمة، والآثار على الأشخاص

تبدو لي هذه الرغبة في المساواة مطلقا خطيرة جدا، لأن محاولة تحييد وتوحيد الأفراد يمكن أن تؤدي إلى تدمير الأسس التي تقوم عليها البشرية كلها. في الواقع، يقوم استمرارنا على قيد الحياة على الفروق الجنسية، والتغاير فيما بيننا، وقدرتنا على تعليم الأجيال اللاحقة دون إرباكها. يؤلمني حقا أن أرى تحطيم الجوهر المؤسّس للأسرة المتوازنة، باسم اضطهاد مزعوم للرجل على المرأة. هذا السباق المحموم نحو المساواة المطلقة أمر سخيف - كما يقول آلان سورال - فإن «كون النساء ينجبن الأطفال ليس ناتجا عن اضطهاد اجتماعي من طرف الرجل، بل من الطبيعة؛ واحترام الأب ليس استغلالا ولا خضوعا، ولكنه هيكل تمثيلي متفرع عن ثنائية الجنس». كل من الرجل والمرأة ضروري للآخر، «ولا يمكنهما العيش منفصلين، ولا بد من أن يكون بينهما حب ومعاشرة لكي تستمر الحياة».

بموازاة تعامل الحكومة بنفاق مع نظريات النوع (نفيُ وجودها، مع نشر مبادئها في الوقت نفسه)، فإنها دافعت بشراسة (ووحشية: القنابل المسيلة للدموع والهراوات للمتظاهرين السلميين) عن زواج المثليين. يجعلنا هذا نعتقد أن رغبة الحكومة ليست حماية التوجهات

الجنسية للأفراد، بل تعزيز المثلية والخنثوية لدى الجميع. كأن التغاير الجنسي نفسه أصبح محل نظر. نسمع مثلا كارولين فورست (Caroline Fourest)، الكاتبة والمناضلة السحاقية، تصرّح علنا في وسائل الإعلام وبطريقة مستفزة: «هنالك متغايرون ينجبون أطفالا منحرفين وجانحين، بل هذا ما يقع في 98٪ من الحالات».

وكذلك يرددون على مسامعنا الكلمات المنحرفة لبيير برجي (Pierre Bergé)، مدير صحيفة لوموند (Le Monde)، ورجل الأعمال المليونير: «جميع الأطفال المتعرضين لسوء المعاملة، يقع لهم ذلك في أسر المتغايرين». (..)

بخصوص قضية المساواة بين الجنسين، يشير أوتو فينينجر (Otto Weininger) أن الأمر لا ينحصر في الفروق البيولوجية الظاهرة، بل يتعداها إلى فروق نفسية ثابتة بين الرجال والنساء، خاصة في تصور العالم. تسمح نظريته بإعادة النظر في مشروعية «المساواة بين الجنسين» لصالح عبارة أكثر ملاءمة هي: «التكامل بين الجنسين».

يقترح أوتو فينينجر قانونا أسماه «الانجذاب الجنسي»، ويعرضه كالآتي: «الجزءان اللذيان يسعيان للالتقاء من أجل اتحاد جنسي، يأتي أحدهما دائما من الرجل والآخر من المرأة، وهما موزعان بنسبة مختلفة لدى كل منهما».

يفترض أيضا أن كل فرد يشتمل على جزء مؤنث وآخر مذكر، هما متفاوتان ولكن يكمل بعضهما الآخر: «لكل فرد بالضبط من الأنوثة بقدر ما ينقصه من الذكورة. إذا كان مذكرا بالتمام، فإنه يطلب شريكا مؤنثا بالتمام؛ والعكس أيضا».

يميّز أيضا بين عدد من الخصائص السلوكية أو النفسية الملازمة للأشكال الجنسية الوسيطة. وهكذا يصف «الرجال المؤنثين» بكونهم رجالا «يحتاجون بشدة إلى الزواج مبكرا، ويكونون سعداء بمشاركة الحياة مع امرأة مشهورة، شاعرة أو ممثلة. وهم أيضا يهتمون بأجسادهم أكثر من الرجال الآخرين، ويسعون إلى جلب الأنظار إليهم، لأنهم نرجسيون إلى حد ما..».

على العكس، هنالك النساء المذكرات السلطويات، اللواتي «يهملن أنفسهن، ويحتقرن كل ما يمتّ بصلة إلى العناية بالجسد والأناقة والجمال». هؤلاء النساء ممثّلات «بشكل ما من طرف نساء حركات التحرير النسوية».

ثم يسرد أوتو فينينجر مجموعة من الفوارق النفسية التي تميّز بين الرجال والنساء عموما. (..)

يذكر مثلا فرقا على مستوى الوعي. يوجد «عند الرجل نفس المحتوى النفسي الذي عند المرأة ولكن بطريقة أكثر تنظيما؛ فحين تفكر المرأة بطريقة متَعية ملتبسة تتحكم فيها المشاعر والأحوال النفسية الغامضة، فإن الرجل يفكر عن طريق تمثلات واضحة ومتميزة، ترتبط بها مشاعر معبر عنها، تسمح بالتجريد في التعامل مع الأشياء. عند المرأة: الفكر والإحساس شيء واحد؛ وعند الرجل هما شيئا منفصلان متمايزان..

بالنسبة لأوتو فينينجر، تنتظر المرأة من الرجل التوضيح، والتيقظ لحالة وعيٍ معينة لا تمتلكها. هذا الذي يفسر انجذاب الفتيات للرجال ذوي «التفوق العقلي»، فإنهن يرين في هذا التفوق معيارا للذكورة. وعلى العكس، فإنهن يشعرن «بنوع من النفور من الرجل الذي يكتفي بأن يوافقهن حين يتكلمن، ولا يستطيع أن يعبر عما يردن قوله بطريقة أفضل منهن».

وأخيرا، يرى أوتو فينينجر أن هنالك فرقا آخر بين الجنسين على صعيد العبقرية (لا على صعيد الموهبة): «يمكن أن يكون لدينا موهبة في الرياضيات مثلا، تسمح لنا بهضم أصعب فصول هذا العلم، ولكن دون أن يكون لدينا عبقرية فيه، أي أصالة وتفرد وتوجه نحو الإنتاج الشخصي». بالنسبة له: العبقرية صفة ذكورية لا يمكن أن تتوفر في المرأة.

بعد الأنثوية التي أبعدت النساء تدريجيا عن دور الأمومة، نشهد تقدم زواج المثليين ونظرية النوع. وكل ذلك يؤول إلى غاية واحدة هي التي يسعى إليها حكام العالم الحقيقيون: الأسر الكبرى التي تتقاسم رأس المال العالمي.

وهذا ما يعتقده السياسي والكاتب الفرنسي رولان هورو (Roland Hureaux): «وهكذا رجعنا إلى التقسيم الذي كان يحكم المجتمعات القديمة: أقلية تستفيد من ميزات الحياة الأسرية «العادية»، وحماية العشيرة، وهوية واضحة؛ وجماهير من العبيد يعيشون في حظائر، ويفرق بينهم بحسب تقلبات البيع والشراء، ولا يمتلكون المال ولا المراجع العاطفية والأخلاقية، وفوق ذلك لا يمتلكون هوية واضحة».

المحور الرابع
الأنثوية والأسرة

المرأة الاقتصادية – الأنثوية الرأسمالية

من كتاب «وداعا آنستي» لأوجيني باستيي (ص181 – 198)

تعتقد الأنثوية أن المرأة تكون حرة حين تخدم مشغّلها، ومستعبَدة حين تعين زوجها.

ج. ك. تشيسترتون

كان العمل يعدّ قديما عقوبةً إلهية، لكنه اليوم أصبح - في مجتمعاتنا المادية - حقا من الحقوق. يعدّ العاطلون عن العمل، المطرودون من المقام الاجتماعي الذي يوفره الشغل، أناسا هامشيين ومنبوذين. أما النساء فقد كن دائما عاملات. في الحقل والمعمل والبيت، لم يكففن قط عن العمل. لقد جمعن بين العمل اليومي وأعباء الولادة. لقد عشن إذن هذه القدرة الجديدة على الالتحاق بالجماهير الأجيرة، كنوع من التحرر.

أُلغي مبدأ الأجرة النسائية عام 1945. وفي 13 يوليوز 1965، تبنى البرلمان قانونا لإصلاح النظام الزوجي، يحقق الاستقلال القانوني للمرأة المتزوجة. يمكنها منذ ذلك الوقت أن توقع على عقد تشغيل وأن تفتح حسابا بنكيا دون الحاجة إلى موافقة الزوج. أصبحت المرأة أخيرا منتجة ومستهلكة كالآخرين، أي كالرجال. بعد مرور خمسين سنة، أكثرُ الشكاوى المقدمة من طرف الجمعيات الأنثوية - بالطبع: بعد مقاومة الصور النمطية - متعلقةٌ باستمرار اللامساواة في الأجور بين الرجال والنساء. وهي لامساواة موجودة فعلا.

بحسب الأرقام المنشورة من طرف المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية (INSEE) في خريف عام 2015، فإن معدل الأجرة الشهرية الصافية هو 1943 أورو للنساء و2399 أورو للرجال، أي بفارق 19 ٪. إذا كان هذا الفارق يتقلص في أسفل السلم الاجتماعي (تقريبا 7 ٪ عند العمال اليدويين)، فإنه يتوسع في الدرجات العالية (19,8 ٪ عند الأطر). يبدو أنه، على الرغم من التقدم الذي تحقق في ميدان المساواة، فإن هنالك عتبة ثابتة، تجعل النساء - في المعدل - يربحن أقل من الرجال.

ولكن هذا الفرق ليس ثمرة تمييز منهجي، يجعل عمل النساء يستحق في ذاته أجرة أقل؛ بل له تفسيرات محددة. أولا، وعلى الرغم من قرن من الأنثوية، فإن الرجال والنساء لا يختارون نفس النوع من المهن، إذ 17 ٪ فقط منها تبدو مختلطة فعلا بين الجنسين. وثانيا، فالنساء يعملن أقل، إذ ثلثهن يفضل الدوام الجزئي (31 ٪ لهن في مقابل 7 ٪ للرجال). بالنسبة للكثيرين،

هو أمر اختياري. لماذا؟ خصوصية المرأة - إن كان من اللازم بيانها - هي الأمومة والعلاقة الخاصة التي تربطها بأطفالها الصغار. هنا أيضا، وعلى الرغم من التوصيات الأنثوية، فإن النساء لا يزلن يفضلن الاعتناء بأطفالهن. ولكن هذه الميزة الخاصة ليست معتبرة إطلاقا في النظام الاقتصادي الراهن.

اليوم، إذا كان التمييز المحض عند تشغيل النساء موجودا، فإنه يرتبط بالأساس بالطابع المُعوِّق للأمومة. هذا ما يشرحه مدير شركة صغيرة بقوله: «نحن نعيش في زمن يصعب فيه الثقة بالآخرين. نتحمس لشخص ما، وبعد مرور ستة أشهر، نصاب بخيبة ظن. شغّلت لتوي فتاةً أراها رائعة. لكن، يمكن أن تحمل قبل نهاية السنة. هذا من المخاطر المحتملة، ولكنني سأجازف بذلك». ليس جميع المشغلين مستعدين لهذه المجازفة. المقاولات الصغيرة والمتوسطة تتفادى تشغيل النساء في سن الإنجاب، محتجين بصعوبة سد الثغرات في مراحل الأمومة المتكررة.

النساء يحملن؛ وهذا فرق يميزهن عن الرجال، ولا يمكن تغييره. ولكن عددا كثيرا منهن يريد مواجهة الحياة على الجبهتين معا، وهن ينجحن في ذلك. ولكن لهذا التوفيق ثمن باهض. هذا ما سمعته مرارا، ورأيته أيضا بأم عيني[1]. كان لوالدتي خمسة أطفال، مع استمرارها في حياتها المهنية كطبيبة. لو أنها لم تنجبنا، لكانت حياتها المهنية ستكون مختلفة بالبداهة. اختارت العمل في الطب العام بدلا من الخاص - الذي يوفر أجرة أعلى - لأنها تحتاج إلى دوام جزئي لا يوجد في الخاص. لأنه يتفلت جزئيا من منطق الأداء الأسّي، والربح السريع، فإن الشغل العمومي يضمن للنساء الراغبات في ذلك توازنا بين البيت والحياة المهنية. لذلك فإن النساء يملأن فضاء التعليم، لما فيه من مرونة التوقيت، ووفرة العطل المدرسية، ومرونة مكان العمل. وهي محاسن يقابلها تأثير سلبي على الأجرة.

إن الاقتصاد يمارس نوعا من الاقتصاد في أجساد النساء. يقول عالم الاجتماع الأمريكي المنتقِد لسراب الحداثة كريستوفر لاش (Christopher Lasch): «الذين يسمحون لأطفالهم

---

(1) يظن الكثيرون عندنا أن هذا الصراع على جبهتين خاص بمجتمعاتنا التي لا تزال المرأة فيها مجبرة على الاضطلاع بمهام عمل البيت أيضا فوق عملها خارجه. وأنت ترى - في كلام المؤلفة هنا وفي مواضع أخرى من الكتاب الذي بين يديك - أن هذه المعاناة المزدوجة موجودة في الغرب أيضا. [المترجم].

بتبطئتهم، هم الخاسرون في السباق نحو النجاح». الأمومة لدى النساء تشكل عائقا أمام توسع السوق، الذي لا يعترف سوى بالمصالح الملموسة والأرباح الفورية. أية امرأة عاملة بين 30 و40 سنة، ستقول إن هذا همّ حقيقي ودائم. همٌّ لا تتحدث الأنثويات عنه أبدا. بدلا من تكييف الاقتصاد مع المصير الفيزيولوجي للنساء واحتمال كونهن أمهات، فإن الشغل الشاغل للأنثويات هو تكييف النساء مع الهياكل التقنية للاقتصاد. كأنهن أفضل صديقات لفيسبوك وآبل، وبرنامجِهما لتجميد البويضات عند العاملات عندهما.

احتقارربة البيت

إن الاحتقار الذي تتعرض له النساء اللواتي يفضلن البيت على الحياة المهنية، يستحق المساءلة. في القديم، كانت أصابع الاتهام توجه للمرأة التي تتجرأ على التخلي عن مهامها المنزلية لصالح العمل خارج البيت، أما اليوم فالأمر على العكس تماما. تقول جيزيل حليمي (Gisèle Halimi) الأنثوية التاريخية عام 2009: «أن تكون المرأة ربة بيت يبقى اختيارا، وهو محترم؛ ولكنه اختيار لا يتماشى مع مسيرة تحرير النساء».

اليوم، لا نعَلّم الفتيات الصغيرات أن يكن أمهات في المستقبل، بل نربيهن على الاشمئزاز من البيت، خاصة في الأوساط البورجوازية. في الحفلات البرجوازية الخاصة، حين تذكر إحدى النساء أنها ربة بيت فقط، فإن ذلك يثير الدهشة، وتكون المرأة معرضة للإهانة دائما. كتاب «الجنس الثاني» لدوبوفوار، وكذلك مذكراتها، مليئان بازدراء الحياة في البيت؛ فهي تكتب مثلا: «إن العمل التي تؤديه المرأة داخل البيت لا يمنحها الاستقلالية؛ إنه ليس مفيدا للمجتمع بشكل مباشر، ولا مستقبل له، ولا ينتج شيئا».

من المؤكد أننا يمكن أن نفهم بسهولة أن يكون الترقي الفكري أفضل من المطبخ وأعمال البيت، أو حتى من تربية الأطفال. (..) ولكن الحياة اليومية للأجيرات، بالنسبة لملايين النساء، بعيدة عن أن تشبه الحياة التي اختارتها لنفسها دوبوفوار، بين القراءة والكتابة. هل عملهن اليومي في المصنع، أو الإدارة، أو الشركات، يحقق لهن فعلا التحرر المطلوب؟

كيف يمكن التأكيد على أن عمل المرأة في البيت ليس «مفيدا للمجتمع بشكل مباشر»؟ على العكس، فهذه أنثوية حقيقية وشخصية يسارية – سيلفيان أجاسينسكي – تكتب: «تعد تربية الأطفال واحدة من أنبل المهام، وأكثرها نفعا للإنسانية. إن الاهتمام بالأطفال ساهم في ربط

النساء ببيوتهن. هل هو ربط مصطنع ومفروض، كما يقال؟ على النساء الإجابة بحرية عن هذا السؤال، حين لا يبقى لديهن حياء من المطالبة برغبتهن في هذا المجال».

في نظام لا يعترف بهدف آخر غير تحقيق أقصى قدر من الإنتاجية، ما المكانة التي يمكن أن تحتلها التربية، وعلى الخصوص التربية الأسرية؟ إنها تنتسب إلى مجالين هما: العمل المجاني، الذي يتطلب تبرعا ذاتيا؛ والمقاولة طويلة الأمد، التي تفترض كثيرا من الصبر. ولكن الآباء اليوم تخلوا عن التربية، لشدة إرهاقهم بحياتهم المهنية، وتركوها للوزارة التي تحمل هذا الاسم، والتي نعرف مدى جودتها ونجاعتها. من سيعاتب الأم المرهقة بعد يوم من العمل الشاق، إذا هي وَضعت في المساء – ولتنال بضع دقائق من الراحة – أطفالها أمام التلفاز، وأطعمتهم خليطا صناعيا مجمّدا بعد تسخينه في الفرن المَوجي؟ يؤول بنا هذا إلى التساؤل عن حالة الامّحاء الثقافي الراهنة، وعن كون هبوط المستوى العام راجعا إلى ضعف المدرسة أم إلى اختفاء الأسرة. هذا سؤال خطير، خاصة أن استبيانات الرأي واضحة في هذا المجال، فالربع تقريبا من النساء في العالم الغربي يطمحن بشدة إلى تكريس أنفسهن لأطفالهن وحياتهن الأسرية.

العنف الاقتصادي الحقيقي

لانشغالهن بمحاولة الإدماج المتكلف للظرف النسائي في نموذج الشغل القائم، فإن الأنثويات الجديدات يبقين في الغالب متعاميات عن العنف الاقتصادي والاجتماعي الحقيقي الممارَس على النساء. ولكنه عنف موجود ولا يمكن إنكاره. لقد عَوضت العاملات العمّالَ من الذكور في المهن غير المستقرة. التأنيث إذن يتناغم مع الهشاشة الاجتماعية. وهكذا وفي عام 2013، فإن المهن ناقصة التأهيل كانت للنساء بنسبة 62 ٪، في مقابل 56 ٪ عام 1990. بقدر تقدم الأفكار الأنثوية، ومبدأ المساواة في العقليات، فإنه يتم إضعاف وضعية العمل النسائي. ثلاثة أرباع العاملين بأجرة ضعيفة هم من العاملات. إذا كنّ غير حاضرات في المهن المحتاجة إلى جهد عضلي كالعمال اليدويين والتقنيين وعمال البناء – أو على الأقل لسن حاضرات الآن، وقد يتغير ذلك في المستقبل – فإن النساء ممثلات بوفرة في القطاع الثالث ذي التأهيل الضعيف: المساعدات المنزليات، السكرتيرات، البائعات، الممرضات. ولكن المهنة التي نجد فيها كثيرا من النساء، هي – وليس ذلك مفاجئا – مهنة عمال النظافة، حيث تمثلن الأغلبية الساحقة من العدد القريب من 870000 يشتغلون في هذه المهنة. خلافا لما تريد إيهامنا به

مطارِدات الصور النمطية، اللواتي يعلّمن الفتيات الصغيرات أن يكنّ رُبانات طائرة مدنية، فإن عاملة النظافة ليست خيارا: إنه العمل الذي نلتحق به حين لا يكون لدينا أي خيار آخر.

«امرأة، 48 سنة، حاملة للباكالوريا، دون تجربة، تبحث عن عمل من أي نوع». هكذا تبدأ الدراسة الكبيرة التي أطلقتها عام 2009 فلورنس أوبينا (Florence Aubenas) الصحفية الكبيرة في صحيفة لوموند. لقد قررت في عز الأزمة الاقتصادية أن تسجل نفسها باسم مستعار في قطب التشغيل، وتعيش تجربة البطالة. ستصبح عاملة نظافة. تسرد الدراسة هذه الأشهر الستة السحيقة، والحياة اليومية لنساء «مرهقات وغارقات في الشغل»، أو يضيعن أوقاتا ضخمة في البحث عن عمل. إنه سرد بعيد جدا عن «سعادة العمل» التي تمدحها النسويات الجديدات. كتب الفيلسوف الماركسي ميشيل كلوسكار (Michel Clouscard) ومنذ بدء الثمانينات: «كيف لا يكون الرجل الذكوري أنثويا، والحال أن الأنثوية هي المشروع القديم للذكورية بعد تكييفه مع الليبرالية المتقدمة، إلى الديمقراطية الاجتماعية الليبرتارية؟ بنفاقه الجنسوي، أراد أن «تنجح» المرأة في طلاقها، كما نجحت في «إجهاضاتها». وكذلك، بإطلاقه المرأة في عالم الشغل، فقد نجح في أن يجعل منها عاطلة عن العمل». في الواقع، ما المشترك بين عاملة يدوية في شركة «لوجابي Lejaby»، وبورجوازية باريسية؟ كيف يمكن بأي شكل أن تلتقي مصالحهما الاقتصادية؟

هنالك – مع ذلك – وجع اقتصادي إضافي تتعرض النساء له. يوجد في فرنسا اليوم أكثر من مليون ونصف أسرة أحادية الوالد، وفي 85 ٪ منها، الوالد الموجود هو الأم. وكل واحدة من خمس أسر أحادية الوالد، تعيش تحت عتبة الفقر. النساء هن أول ضحايا تمزق الأسرة الغربية. الأب هو الذي يهرب. والأم هي التي تبقى وحدها لتربية الأطفال. الحق في الطلاق له مذاق مرّ. ومما يعزز المشكلة، أن حكومة هولاند - فالس، وبذريعة سياسة تقشف متنكرة في زي الجهد الوطني، قلصت بشكل كبير من الإعانات العائلية، مما أثر بالدرجة الأولى على الأمهات. يقال الشيء نفسه عن عطلة الوالدين، والتي صارت تسمى «العطلة المقتسمة من أجل تربية الطفل»، فإن مدتها ستة أشهر، ويمكن تمديدها إلى عام كامل، بشرط أن يأخذ الأب نصفه. ولكن - كما نعلم - فإن 97 ٪ من هذا النوع من العطل إنما يهم الأمهات. ولذلك فالهدف المعلن من طرف الدولة هو «إرجاع النساء للعمل» من أجل تحقيق المساواة. ونعلم أيضا، أن الأب في الأسر المتواضعة، لا يريد أو لا يستطيع الاستفادة من هذا الإجراء. وإذن فهذه ستة أشهر ربحتها الميزانية العمومية للدولة، ومجموع ذلك نحو 290 مليون أورو.

زمن خيبة الأمل

يكتب ج. ك. تشيسترتون (G. K. Chesterton): «أعترف بأن النساء تعرضن لسوء المعاملة، وحتى للتعذيب؛ ولكنني أشك أن يكون ذلك قد وصل إلى مثل مستوى الواقع اليوم، وذلك بسبب هذا التوجه العصري غير المفهوم لجعل المرأة في الوقت نفسه ملكة في البيت وعاملة تنافسية خارجه». لم يستعمل هذا الكاتب المحب للمفارقات، أدنى حذر في عبارته هذه. ستكتب فرانسواز جيرو (Françoise Giroud) الكلام نفسه تقريبا بعد مدة من الزمن: «بوصفي امرأة، بروليتارية للرجل الذي سرقت منه وسائل الإنتاج، نعم أنا حرة .. بوصفي أجيرة، بروليتارية للمجتمع، لا، لست حرة، لا اليوم ولا أمس». اكتسبت النساء حريتهن الاقتصادية بالنسبة للرجال. ولكن ماذا سيفعلن بهذه الحرية؟

لم تقترح الأنثويات سوى لوح نجاة واحد للنساء: الدخول في النظام الاقتصادي دون إعادة النظر فيه، ومع السعي إلى أن تكون المرأة المساوية المماثلة للرجل. «لا يمكنها أن تتحرر إلا بتماثلها مع الرجال»، تكتب دوبوفوار. في هذا إغفال حقيقة أن الرجال ليسوا أحرارا بالضرورة، وأن النقل الحرفي للنموذج الذكوري دون أخذ الميزات الخاصة بعين الاعتبار، يمكن يؤدي بتحرر المرأة إلى نوع جديد من الاستعباد.

لقد انقضى الزمن الذي كان فيه ميشيل ساردو (Michel Sardou) يغني عن نساء الثمانينيات اللواتي تحلمن بأن يكنّ «مديرات شركات بجوارب سوداء» أو حتى «جنرالات لسلاح المشاة». في عام 2010، أخرج المغني نسخة محيّنة لهذه الأغنية الأسطورية. يتعلق الأمر فيها بالحديث عن خيبة الظن عند النساء اللواتي التحقن بالعمل خارج البيت. «منذ سنوات 80 / صارت النساء رجالا بدوام كامل / إنهن نساء مكتملات / لا يحتجن لزوج / قائدات في المجتمع / لهن اهتمامات أخرى / مجالس إدارة / اجتماعات مطولة على العشاء / مرور سريع عند المزيّن / وضع مساحيق التزيين في المصعد / يرجعن للبيت مرهقات كل مساء / لا يرغبن في مشاهدة التلفزة / فقط واجهة مجلة / ثم قرص منوّم». بالطبع أثارت الأغنية احتجاج الأنثويات الجديدات وحلفائهن. تستنكر حركةُ الشبيبة الاشتراكية الأغنية قائلة: «هذه الكلمات مناقضة تماما لنظرة المساواة بين الرجال والنساء التي ندافع عنها، وتبرز موقفا ذكوريا نضاليا جدا». وهذا مؤشر على أن المغني المذكور - بغض النظر عن ابتذال كلمات الأغنية والمقطع المصور الذي

يرافقها – قد استطاع أن يضع أصبعه على حقيقة مُرة. إنها حقيقة أن النساء لايمكنهن تجاهل أنهن لا يمكنهن الحصول من التحرر الاقتصادي على ضمانة لحرية حقيقية.

النساء والحياة العادية

من الأشد الأمور إزعاجا لدى الأنثويات الجديدات، احتقارهن العميق للأجيال السابقة من النساء اللواتي لم تكن لديهن الكبرياء الكافية للتمرد على ظروفهن المهينة، بل وجدن فيها أحيانا نوعا من الارتياح. بحسب هذه الفكرة السائدة، فإن تاريخ النساء ينقسم إلى مرحلتين اثنتين. الساعات السوداء الطويلة جدا، ثم التحرر الباهر في سنوات 1960، حين انتقلت المرأة «من الظل إلى النور»، بحسب العبارة المشهورة. لكن الأمور ليست بهذه البساطة.

برهنت ريجين بيرنو (Régine Pernoud) في كتابها «المرأة في عصر الكاتدرائيات» بأن «البيت» – وهذا لفظ يسبب قروحا في الأوساط الأنثوية – كان وسيلة رائعة تمكّن المرأة من الاندماج في قلب المجتمع. (..) كان هذا الفضاء الذي يجتمع فيه الأقارب، يجعل من المرأة المركز الذي تتمحور حوله الحياة. لن يصبح للفظ «ربة بيت» معناه السلبي إلا في المجتمع البرجوازي للقرن 19، حين يصبح مرادفا للترفه والكسل عند السيدات، المطرودات من الدوامة الصناعية لعصرهن. وهذا التوجه سيكرس أكثر خلال النصف الثاني من القرن العشرين[1].

في كتابه «النساء والحياة العادية»، يبين كريستوفر لاش كيف أن الثورة الأنثوية في الولايات المتحدة، وُلدت كرد فعل على السيطرة المتزايدة للضاحية على نمط الحياة الأمريكي. الصورة النمطية لربات البيت «housewives» كما يظهرن في بعض المسلسلات التلفزية، أي الزوجة المخلصة التي تنتظر زوجها بهدوء في مطبخها الكبير الذي عوضت فيه الآلاتُ بشكل تدريجي مواهبَها التي كانت من قبل لازمة، هي نتاج خالص للعصر الصناعي. كان هنالك دائما تمييز بين عمل النساء وعمل الرجال. ولكن مع الحداثة فقط، حُصرت المرأة في «البيت»، كما يشرح لاش ذلك. «إن البيت الحديث، الذي يفترض تفريقا جذريا بين الحياة المنزلية وعالم الشغل، هو من مخترعات القرن 19. إن تدهور

---

(1) علينا أن نستحضر أن المؤلفة يمينية محافظة، تعتد بالتاريخ الفرنسي المتدين قبل الثورة الفرنسية، أكثر من اعتدادها بتاريخ الحداثة الذي بدأ منذ فجر القرن 19. وهذا التوجه موجود عند كثير من المثقفين والمفكرين الفرنسيين اليمينيين، وقد عبر عنه بوضوح إريك زمور في كتابه «المصير الفرنسي» الذي أحدث ضجة كبرى عند صدوره عام 2018. [المترجم].

الإنتاج المنزلي وتطور العمل المأجور، جعلا من الممكن - بل الضروري - تصور الأسرة كانسحاب شخصي من عالم عمومي، تسيطر عليه أكثر فأكثر الآليات غير الشخصية للسوق».

إن التمثيل التبسيطي للمرأة التي تبقى في البيت مع الأطفال في حين يذهب زوجها للعمل، ليس أمرا تقليديا. إنه من مصنوعات ثورة الشغل المأجور. الآن، العمل الوحيد الذي له قيمة ما، هو العمل الذي يقابله أجر معين. كل ما لا يمكن تبادله في السوق، ولا يمكن تحويله إلى قطع نقدية، يستحق الازدراء. لذلك وقع تجاهل عمل النساء. لذلك أيضا، ظنت المرأة العاملة خارج البيت أنها متحررة. تحكي سيلفي، إحدى الأمهات العاملات من الصباح الباكر إلى وقت متأخر في المساء، من أجل لقمة العيش: «في عصرنا، إذا لم تكن تعمل، فإنك غير معتدّ بك في المجتمع، حتى مع معارفك. يمكنني أن أقول لكل أحد: إن ثمن الكراء المحدد في 250 أورو، أدفعه من أجري الخاص».

يواصل لاش قائلا بأنه، وخلافا للأفكار الجاهزة المتكررة في الدعاية الأنثوية، فإن الدور الاجتماعي للنساء في القرن 19 كان مهما. داخل جمعيات الإحسان التطوعية، وحركات التربية والإصلاح، عملن على تغيير القسوة الأولية للمجتمع الأمريكي. هنّ من فرضن حظر الكحول[1]، بواسطة الجمعيات المضادة للكحول! يُضاف لذلك، وإذا مررنا من الغرب إلى الشرق، فإن المساواة المهنية وفي الأجور بين الرجال والنساء ليست ضمانا للحرية والاستقلالية لكل واحد منهما: المجتمع السوفياتي، المتشدد في باب المساواة بين الرجال والنساء، دليل واضح على ذلك.

نساء مواطنات لا مهنيات

«لست أسعى إلى تشجيع النساء على ترك محلات عملهن ولا دفعهن إلى وضعية عدم استقلال اقتصادي، ولكن على العكس أسعى إلى تبصيرهن بأن الحياة المهنية ليست محرِّرة لهن كما ليست كذلك للرجال، ما دامت محكومة بمتطلبات اقتصاد المقاولات». ما يشجبه لاش أيضا هو الوهم العام الذي يخلقه عالم الإنتاج والاستهلاك المبالغ فيهما، حيث مبادئ الاستقلالية والنفع واحترام الذات لا تدار إلا بمنطق النمو.

ثم هذا الوهم قاس بالنسبة للمتحررات حديثا حين نعلم - كما يقول لاش - "أن عمل النساء لا يغيّر محل العمل خلافا للوعود التي نقدمها الأنثويات. حين نضع امرأة على رأس

---

(1) (prohibition): منع قانوني لإنتاج واستيراد ونقل وبيع المشروبات الكحولية، استمر من 1920 إلى 1933. [المترجم].

مقاولة، أو مكتب محاماة، أو صحيفة، أو دار نشر، أوقناة تلفزية، أو جامعة، أو مستشفى، فإن ذلك لا يجعل المؤسسات أكثر ديمقراطية، ولا أكثر إنسانية".

لذلك، فإن القفزة الثورية المدعاة لا تكتفي بالاصطدام بكثافة السلطة الاقتصادية، بل تعرف انعكاسا تاما في حركيتها. "إن الحركة الأنثوية، بدلا من أن تُحضِّر رأسماليةَ المقاولة، تعرضتْ للإفساد من طرفها. لقد تبنّت عاداتها الفكرية التجارية. على غرار صناعة الإشهار، فإن حركة النساء تبنت "الاختيار" شعارا، ليس فقط في قضية الإجهاض ولكن أيضا في حملاتها على الأسرة التقليدية". لا يوجه لاش هنا الاتهام لما يسميه "النرجسية المعاصرة" للفرد اللامعياري بقدر ما يوجه أصابع الاتهام لتحول الأسرة إلى ترسانة للسوق، يتحول الأقارب فيه إلى أناس يحددهم العمل المأجور وحده، لأنه أصبح مركز ثقل الوجود. وهكذا، وبعيدا عن "توزيع المهام المنزلية"، الذي يعد أفقا ممدوحا من طرف الأنثويات، فإننا نتوجه نحو "إلغاء المهام المنزلية"، بسبب الخلاط الكهربائي، والبرّاد، والشاشة المسطحة، والمدرسة الحاضنة للأطفال.

لقد كان الهوس الرئيسي للأنثويات هو إدماج النساء في العالم المهني على قدم المساواة مع الرجال. تَمَّ إخضاع التحكم في الخصوبة بكل الوسائل من أجل هذه الغاية: تحييد الإعاقة المرتبطة بالوظيفة التناسلية. كان الواجب على أنثوية حقيقية ومستحقة لهذا الاسم، أن تدعو إلى مراعاة خصوصيات وصعوبات النساء، من أجل إحداث انقلاب، أو على الأقل تعديل، في الاضطهاد الذي يمارسه الاقتصاد. في هذا الاتجاه، فإن نظرية "العناية" - التي سببت الكثير من السخرية في فرنسا حين ذكرتها مارتين أوبري (Martine Aubry)، في حين لا تثير الضحك بتاتا حين يجعل الفيلسوف فردريك وورمس (Frédéric Worms) من العناية لحظة أساسية في الحياة - تحيل على التأنيث الضروري للاقتصاد، والذي يمكن أن يساهم في تليين عالم المنافسة والأداء والاستهلاك، الذي يسود دون حدود ولا مشاركة.

إن تعزيز اندماج الحياة المنزلية في الحياة المهنية، وإعادة تشكيل الشغل بحسب متطلبات الأسرة من جهة، وإعادة النظر في إيديولوجيا النمو والإنتاجوية والمهنية، والتي تقود النساء إلى ضرورة الاختيار بين الحياة المهنية (مع وجود مجتمعي) والبيت (مع نزول القيمة في المجتمع) من جهة أخرى: هذان هما واجهتا التحول النسائي في العالم. ما نستفيده من تشسترتون وكلوسكار ولاش، هو أن الأنثوية ليست سوى قناع لاستسلام النساء أمام القيم الذكورية. فالأنثوية تبِعت الرأسماليةَ الليبرالية الليبرتارية حذو القذة بالقذة، وتكفلت بالمساهمة في انتشارها. والواقع أن تسليع العالم لا يؤدي لتحقيق الذات لا للنساء ولا للرجال.

مجتمع دون آباء ولا معالم

من كتاب «الأنثوية وانحرافاتها» لجان جابار (ص81 - 124)

يقول جيرار مندل (Gérard Mendel): «لست متأكدا من أننا نقيس جيدا حجم الاضطراب والخوف، الناشئَين اليوم عند الرجال والنساء، من الفراغ الذي خلّفه الذوبان التدريجي لمبدأ كون الذَّكر هو محور العالم؟»[1].

بعد قرون من الإنكار والازدراء للمرأة، قادت أزمة المراهقة التي تمر منها البشرية إلى تأنيث للمجتمع. ما يزال الرجال - المتهمون بأنهم أصحاب «المسؤولية الكاملة عن جميع شرور الحضارة» - يتبوؤون مناصب السلطة، ولكن الإيديولوجيا الذكورية أزيحت عن عرشها، ومعها جميع موروثاتها. لقد سقطت - الواحدة تلو الأخرى - جميعُ القواعد التقليدية، وجميع الضوابط التي وُضعت للتحكم في قوة الأنثى الساحرة والمخيفة في آن واحد. لم يعد المؤنث الآن تحت السيطرة، فصار يعبر دون تحفظ، وصار له نزوع إلى أن يُغرِي أكثر وأن يفرض نفسه. ولكن هل تسمح هذه «الحرية الفوضوية» المراهِقة التي حلت محل النظام التحكمي المستصغِر للمرأة، أن نقترب من المثل الأعلى الديمقراطي الراشد؟ لا شك أن هذه الإيديولوجيا الجديدة ليست مسؤولة عن جميع الشرور الجديدة، ولكن انحرافاتها مثقلة بالآثار الوخيمة، وتقود إلى نتائج مخالفة لما كان متوقعا. أليس الإنسان هو الخاسر في هذا السباق الاستدراكي، الذي تتصدره الأنثى اليوم؟

نهاية سلطة الآباء

لقد سمحت الغزوات «الأنثوية» للمرأة بأن تكون أكثر حضورا في المجتمع. لقد صار لها الآن وضع أساسي بقرب الأطفال، وفي الأسرة حيث وصلت إلى مقام لم يكن بالإمكان تخيله قبل خمسين سنة. لقد نُبذت جميع الاختلافات في المهام والأدوار، وحتى في الوظائف بين

(1) جيرار مندل (Gérard Mendel)، «تعلم العيش مع عدم اليقين Apprendre à vivre avec l'incertitude»، نشر (Robert Laffont)، 1979. [المؤلف].

الجنسين. لقد وضع قانون 1970 المتعلق بسلطة الوالدين، الأم على قدم المساواة مع الأب. ولكن، وحتى إن لم يكن الطلاق وطرد الأب البيولوجي، فإن الأم تصبح هي القائدة الحقيقية للأسرة، التي ظهر فيها اختلال جديد في التوازن.

الغالب اليوم أن يكون الطفل تحت مسؤولية امرأة. إن خصائصها الجسدية (الارتباطات المتعددة بين شطري الدماغ، وضعف الفصل بين العاطفي والعقلي بالمقارنة مع الرجل..)، وهيكلة نفسيتها المستقلة عن الثقافة، وكونها حملت الجنين لمدة تسعة أشهر، كل ذلك يربط بينها وبينه روابط عاطفية قوية جدا. تبقى الأم أحيانا مدة طويلة بعد الإنجاب، في وضع تناضح مع الطفل. إنها تراه غالبا كقطعة منها. تُشعرها "غريزة الأم" لديها بآلام الطفل واحتياجاته كما لو كانت آلامها واحتياجاتها. لأنها تحس بنعمة هذا الانصهار، وتستفيد من غياب الأب أو من تواطئه، فإنها تميل إلى استباق إرضاء جميع رغبات الطفل، كي لا يكون محروما من أي شيء. إنها تسعى إلى إشباعه كما يقوم هو بإشباعها. هذه الرغبة صار بالإمكان اليوم تحقيقها أكثر من أي وقت آخر، بسبب ارتفاع مستوى المعيشة. وهكذا فالطفل - كما كان في بطن أمه - يتلقى كل شيء قبل أن يطلب، ويعدّ ذلك أمرا طبيعيا. إنه يشعر بأنه "كل شيء" عند أمه، كما أنها "كل شيء" عنده. وهو يحافظ على قوته، خاصة أن الأهمية التي تُمنح له، يمكن أن تكون على حساب تلك التي تمنح لطرف ثالث. إن خصال الأمومة الضرورية لحياة المولود الجديد، ليست بالضرورة ميزة في مسار إدماجه تحت سلطة القانون.

إن وظيفة السلطة صعبة دائما. بل يمكن أن تكون مزعجة. حين كانت مرادفة لوظيفة الأب، كانت مدونة وحتمية.

لم تعد السلطة اليوم "أبوية" بل "متعلقة بالوالدين معا". لأنها لم تعد ترجع إلى الوظائف التقليدية، فإنها تقود غالبا إلى توزيع متساو لسلطات متماثلة. لم يعد الأبوان "المتساويان" في حاجة لاتباع قواعد سلوكية صارمة. بمساعدة من الإيديولوجيا المهيمنة، يمكنهما على العكس اتباع طبيعتهما. تتغير السلطة التي تنتج من هذه الانقلابات في الأسرة، ويصبح "الاشتراك فيها" - والذي يريد القانون أن يكون متساويا - مختل التوازن في الواقع. والسبب أنه لا يأخذ بعين الاعتبار النظرة المختلفة التي يوجهها الطفل لأمه وأبيه. تعطي الأشهر التسعة للحمل مكانة مختلفة للأم، وسبقا كبيرا على الأب "الأجنبي". في الأشهر الأولى بعد الولادة، تبقى تلك التي حملت الطفل في حالة انصهار معه، وتعد ذلك عالمها الوحيد. إذا وُجد أب يمكن تسميته "أبا

أموميا"[1] بتعبير بوريس سيرولنيك (Boris Cyrulnik)، فإنه يبدو ملتبسا بالأم، ولا يوجد إلا من خلال رغبتها هي. إذا كان تنصيب الأب يقع غالبا دون مشاكل إذا كان موجودا، فإن وضع قيمته اللازمة لكي يدخل حقيقة في وظيفة الأب، يقع اليوم بصعوبة أكبر.

مع سلطة الوالدين التي تُفهم على أنها إمكانية اقتسام الأدوار نفسها من طرف الأبوين، فإن الرجل لا يتلقى تنصيبا في السلطة من طرف الأم. لم تعد الأم تمارس الوظيفة التقليدية التي تستدعي بموجبها الأب ليمارس وظيفة الأبوة مع الطفل. لم تعد تجد الحاجة إلى ذلك. لقد صار التعبير المشهور «سوف ترى حين يرجع أبوك من العمل» شذوذا. لأنها حصلت - بعد سنوات من النضال - على «الحرية» و«المساواة»، فإنها لم تعد تقبل بوضع مرادف للدونية وعدم الاستقلالية. إنها تريد ممارسة وظيفة السلطة باسمها الخاص، وتسعى - حين تكون مع شريكها - إلى إظهار وجهة نظرها. وفي الغالب، أليس رأيها هو الذي يؤخذ به؟ لأنها لا تحب العقوبات، ومن باب أولى أن يتعرض طفلها لعقوبة من شخص آخر، فإنها تفضل أن تعتني بالأمر بنفسها. إنها متيقنة بأن «الأم أعلم بما يصلح لها ولصغيرها» من أي شخص آخر.

في الأسرة المثالية، يُفترض أن يتشاور الوالدان ويتفقا قبل العمل. ولكن، من الممكن ألا يستطيع أحدهما إقناع الآخر، ويكون من اللازم اتخاذ قرار معين. مَن سيُقدِم إذن على الخطوة الأولى ويقترح حلا، خاصة حين يتعلق الأمر بإرضاء طلب الطفل أو رفض ذلك؟ في حين وضع القانون حدا للسلطة الأبوية وأعطت الأم الحق في التأكيد على سلطتها، فإن أية مبادرة من الرجل يمكن أن ينظر إليها على أنها علامة سيطرة ذكورية وقحة، أما حين تأتي من المرأة فهي علامة على التحرر. إن المرأة التي تجد الدعم في القانون وفي الإيديولوجيا «الأنثوية» تصبح متسيّدة. أما الرجل الذي يُطلب منه أن يكون أكثر أنوثة (أكثر تسامحا ولطفا ورعاية)، فهو بالضرورة أكثر ترددا. لذلك يترك غالبا المبادرة بيد المرأة، فهو لا يملك خيارا آخر. في الحقيقة، إذا أراد الاعتراض وفرض سلطته، فإن حظوظه قليلة في أن يُسمع له، لا من طرف شريكته، ولا من طرف الطفل الذي يفضّل أن يبقى في «القوة الشديدة» مع أمه. يبدو الأب مزعِجا، أو خصما، ويعلم أن أبوته صارت مرتبطة بالتوافق بينه وبين شريكته.

---

(1) بوريس سيرولنيك (Boris Cyrulnik)، «Sous le signe du lien»، نشر (Hachette Littératures)، 1989. [المؤلف].

إن الأم – حين تأخذ القرارات أو فقط حين لا تُظهر الحاجة للاستماع للرجل وبالتالي إيجاد مكان له في الأسرة – تستمر في الظهور أمام الطفل بمظهر الإله الذي لا يمكن لأحد أن يحدّ من سلطته. حين لا تقبل التفريط في هذه الصورة، فإنها تبقى المرجع الوحيد ولا تترك للأب أي دور في امتلاك أهمية مماثلة. أما الأب فهو محدود و«عاجز»، ويجد نفسه غالبا متجاهَلا عند أخذ القرارات. يمنعه العتاب الذي يتلقاه أحيانا حين تنقصه المبادرة أو حين لا يؤدي المهمة المنوطة به بنجاح، من امتلاك أدنى مصداقية. العبارات من قبيل: «كُن سلطويا» والتي توجّه له أحيانا من طرف المرأة القائدة حين تتجازها المشاغل، لا تزيد على أن تصغّره أكثر، وتجعل منه مرؤوسا. لأن الأم – المرجع لا تأخذه بعين الاعتبار، ولا يستحق بالتالي أن يُستمع إليه، فإن الطفل لا يستمع إليه. لا يمكنه أن يكون واسطة قيادية بين الأم والطفل. ولأنه عاجز عن فرض الممنوع الأول، فإنه لا يمكنه تعليم القانون لطفل «لا يمكنه إلا متابعة أحلامه الموحِّدة مع والدته»، كما يقول برنار ذيس (Bernard This)[1]. بالنسبة لجان بيير دوريف – فارمبون (Jean Pierre Durif – Varembont): «حين يضيعُ بُعدُ المنع هذا في علاقة الأم بالطفل، فإن هذا الأخير يسعى دائما إلى احتلال المكان الشاغر للأب في علاقة غير طبيعية، مع الآثار المتعلقة بالالتباس الهوياتي التي نجدها متجسدة في اضطرابات النطق وصعوبات تعلم القراءة والكتابة»[2].

يغير الأب العصري الفاقد للسلطة عاداته، ويكرس نفسه – خاصة إن لم يكن يمضي وقتا كافيا مع أطفاله – لمجال اللعب والعواطف. إنه يطلق العنان لأنوثته، ويصبح «الأب المداعِب»، وبذلك يتفادى الصراعات مع زوجته وأطفاله، ويساهم في المحافظة على الانسجام الأسري. ألا يتحدث الأبوان غالبا بصوت واحد، هو صوت الأم؟ يجد الأب نفسه – كما تقول إيفلين

(1) برنار ذيس (Bernard This)، «الأب عقد الميلاد Le père acte de naissance»، نشر (Le Seuil)، 1980. [المؤلف].

(2) جان بيير دوريف – فارمبون (Jean Pierre Durif – Varembont)، «الوظيفة المتقاطعة للوالدية La fonction croisée de la parentalité»، ضمن «Places du père. Violence et paternité»، تحت إشراف (Joel et Marie – Pierre Clerget)، نشر (Presses universitaires de Lyon)، سلسلة (Champs)، 1992. [المؤلف].

سوليرو (Evelyne Sullerot) بخصوص «صمت الرجال عن هزيمتهم»[1] - «متحررا من واجب القرار والسلطة والمسؤولية، الذي كان من قبل حكرا على الآباء». لأنه لم يعد صلبا بما يكفي وغير قادر على إظهار اختلافه، فإنه يجد نفسه محشورا في دور مساعد للأم ضعيف الأداء، وهو فيه «مؤنث غالبا»[2] كما تقول جوليا كريستيفا (Julia Kristeva). إنه يجازف بأن يُحكم عليه بأنه غير نافع ومزعج من طرف الأم الخارقة، التي - «بوصفها أمًّا جيدة جدا»[3] - تشعر بالمسؤولية الكبيرة التي على عاتقها، فتفضل العمل بكل حرية.

لأنه غالبا غير موجود، ولأنه لا يريد أو لا يستطيع ممارسة وظيفة الأب، فإنه يترك الأم تمارس وحدها «سلطة الوالدين». في الأسرة، كما في المجتمع عموما، هنالك «تبخر للرجل»، وللأب على الخصوص.

في حين صارت المساواة مطلوبة، أصبح الكثيرون - ومنهم عدد متزايد من النساء - يسألون: «أين ذهب الرجال؟»[4]. إن انتهاء «السلطة الأبوية» يقود غالبا إلى انتهاء سلطة الآباء، وتتحول سلطة الوالدين إلى «سلطة الأم». هذا الانقلاب بعد قرون من الذكورية، كان سيبدو تافها، أو حتى مجرد عودة للأمور إلى نصابها، لولا أن ممارسة هذه «السلطة» الجديدة تشتمل على مساوئ كثيرة، لدرجة تهديد معنى السلطة نفسه.

أطفال خارج القانون

أصبح موضوع السلطة اليوم، وبشكل متزايد، في قلب النقاشات. ولكن، إذا كان النقص في السلطة مقلقا أحيانا، فإن كونها - بسبب الإيديولوجيا «الأنثوية» - صارت بيد الأم أكثر فأكثر، ليس موضوع تشكيك. والحق أن هذه السلطة التي بيد الأم تشتمل على مواطن ضعف،

---

(1) إيفلين سوليرو (Evelyne Sullerot)، «أي آباء؟ أي أبناء؟»، دار فايار، 1992. [المؤلف].

(2) جوليا كريستيفا (Julia Kristeva)، «كيفية العيش مع الرجال Comment vivre avec les hommes»، مجلة (L'événement du Jeudi) من 13 إلى 19 غشت 1992. [المؤلف].

(3) جابرييل روبن (Gabrielle Rubin)، «الأمهات الجيدات جدا Les mères trop bonnes»، نشر (L'Harmattan)، 2000. [المؤلف].

(4) ليليان سيشلر (Liliane Sichler)، «أين ذهب الرجال Où sont passés les hommes ?»، نشر (La table ronde)، 2000. [المؤلف].

ليست بالضرورة راجعة لدونيةٍ مفترضة في النساء، كما يعتقد الذكوريون. وذلك أن نجاعة السلطة لا تتعلق فقط بجودة الشخص الذي يمارسها، ولكن بالنظرة التي للطفل تجاهه. يمكن للأم مثلها في ذلك مثل الأب – وإن كان ذلك صعبا بالنسبة لها في الغالب – أن يكون لها متطلبات واضحة مع طفلها، بل أن تكون قاسية جدا معه. ولكن، هل هذه القسوة إيجابية دائما، وهل هي فعّالة على المدى الطويل؟

إن البنت الصغيرة التي تتماهى مع الأم، تشعر بأنها يحتمل أن تكون شديدة القوة، وبالتالي تكاد تكون مساوية للأم. ولأجل ذلك، تتفهم بصعوبة أن تكون محدودة. لا يبدو لها المنع مخلوقا لها، ولا تُدرجه في كيانها. وحين يضع شخص ما منعا معينا، فإنها تتلاعب به. تستسلم حين يلائمها ذلك أو من أجل الإغراء. أما الولد الذي يعلم بأنه مختلف، فإنه يخشى الأم بقدر ما يحبها. يمكن تفسير العتاب الذي توجهه إليه هذه "الإلهة"، في حالة الدونية التامة هذه، بأنه نبذٌ يعيد تنشيط الإخصاء الأولي. من أجل ذلك، فإن قسوة المرأة هي دائما جرح عاطفي مباشر، وفظيع بالنسبة للولد الصغير.

تنقل الأم – التي هي المرجع الأعلى – مجموعة من القيم لطفلها. ولكن، وعلى الرغم من العنف النفسي لتدخلاتها، فإنها يمكن أن تجد صعوبة في إدخاله تحت تأطير القانون. سواء أشاءت ذلك أم لا، وإذا لم تنبع قسوتها مع الطفل من طرف ثالث مستقل، فإنها تكون دائما محرّفة بشكل أو بآخر. تجد نفسها معه في وضع لا يسمح بالاحتفاظ بمسافة لازمة. على الرغم من أنها تتمكن من التحكم في حساسيتها، وأن كلماتها وتصرفاتها لا لبس فيها، فإنها لا تستطيع منع طفلها من أن يشعر بها كإلهة فوق القوانين. يشعر الطفل بأن أمه تقرر ما تشاء حين تشاء، فينبهر بهذه القوة الشديدة، ويسعى إلى تقليدها. وإذا أصرت الأم وأصبحت مستاءة، فإنه يستسلم ليُرضيها، وليستمر إعجابها به. يخضع خوفا من أن يفقدها، مستسلما بذلك لابتزاز عاطفي. لا يُدمج فكرة المنع ذاتيا، لأن الأمر لم يتعلق قط بالقانون، بل فقط برغبة الأم.

إذا كانت "سلطة الأم" هذه تبدو لأول وهلة ناجعة، فإن الطفل الذي ينضبط فقط لإرضاء أمه، يمكن حين ينفصل عنها في المراهقة أن يجد صعوبات في تقبل الحدود، وقبول وجاهتها.

في الواقع، هل يمكن لـ"سلطة الأم" – مثل سلطوية الذكوريين المستبدين – أن تساعد على إدخال الطفل في القانون، حين يكون الشخص المكلف بالنطق به لا يبدو أنه يتحدث باسمه فعلا؟ ألا يكون الانتقال من السلطة الأبوية إلى "سلطة الوالدين" غير المفهومة جيدا، مسؤولا عن التطور

لا نحو سلطة الأم، ولكن نحو نقص السلطة؟ ألا يمكن أن نقول إنه بدلا من وجود "أب جديد"، فالذي يوجد أكثر فأكثر إنما هو أب مساعد للأم الخارقة، وبالتالي اختفاء الأب والأم معا؟ الأب لم يعد يؤدي وظيفة الأب، والأم لا يمكنها الدخول في وظيفة الأم إلا عند استدعاء الأب.

في مجتمع يدعو إلى الاستماع للطبيعة المؤنثة، أي: للقرب والتلقائية والانسجام، يبدو النقص في السلطة في بعض الأُسر أمرا طبيعيا. ولكن – وكما يقرره توني أناتريلا – : "استمرار سلطة الأم في مجال التربية يلغي عمل الرمزية الأبوية التي تُدخل معنى الاختلاف والقانون والواقع"[1]. منذ لحظة الانطلاق، يقع الافتراق عن الأم بصعوبة، ويبقى الأطفال في وضع ملتبس. كما أن الانتقال من لغة الأم المباشرة إلى لغة الأب المؤسِّسة أمر صعب، فإنه لا توجد أية قاعدة ولا أي واجب ليفرض نفسه عليهم، إن لم يكونوا هم أنفسهم قد صادقوا على ذلك من قبل. يكبرون وهو يتّبعون اختيارات تبنوها بحسب إحساساتهم الآنية. وفي الغالب، يهدمون القواعد دون التفطن لذلك. هذا الطفل – السيد ليس فقط معارضا للقانون، بل هو خارج عن القانون. هو «خارج عن القانون» بالمعنى الأصلي للكلمة، أي أنه لم يدخل في القانون أصلا، فهو لا يعرف ما هو. بعض العناصر من أجيال ما بعد 1968 لا تعرف من القانون سوى منتَجه الفرعي، وهو الشرطة، والتي لا تمثل بالنسبة إليهم سوى عقبة أمام حقهم في الاحترام والحرية.

في حين كان الشباب من الأجيال الماضية يتمردون على قوانين صارمة جدا كانوا قد أدمجوها ذاتيا ولكن دون أن يقبلوها، فإن أطفال اليوم «دون أب» لا يمكنهم انتهاكها، ما داموا يجهلونها. ما الذي يعارضه هؤلاء المراهقون، ما داموا – بعد طفولة دون حدود داخل الأسرة – يكبرون في مجتمع متسامح يقدس التغاضي الشبابي؟ تسجل المحللة النفسية كلود هالموس (Claude Halmos) : «أن الأطفال والمراهقين عام 2001، لم يعودوا يختنقون تحت ثقل تربية صارمة جدا، ولكنهم – في أحيان كثيرة – يتخبطون في الفراغ. فراغ حياة دون مراجع ولا بوصلة، وعالَم دون منارات للتوجيه، وكل ذلك بسبب تخلي الراشدين عن شرح القوانين وضمان احترامها من خلال حضور تربوي حازم ومطَمئِن. بالنظر إلى النتائج، ليس هذا الفراغ التربوي بأفضل من الثقل القديم. إنه مدمّر مثله تماما»[2].

---

(1) توني أناتريلا (Tony Anatrella)، مرجع سابق. [المؤلف].

(2) كلود هالموس (Claude Halmos)، «الحاجة اللازمة للحدود L'indispensable besoin de limites»، ملف التربية، مجلة (Psychologie)، عدد 204، يناير 2002. [المؤلف].

أطفال مدللون ينقصهم الحرمان

إن الأب الذي لم يعد محتاجا إلى أن يكون واسطة قيادية ويؤخر إرضاءَ الطفل، لا يعمل على أن يُدمج هذا الأخيرُ الحدودَ ذاتيا، ويفهم معنى الحرمان. يقع التحفيز المبكر للطفل، الذي صار موضوعا لألوان من العناية، ومن ترقبات الوالدين، في دور الأم. تُحلّ جميع مشكلاته قبل أن يتخيل الاستراتيجيات للخروج منها، ويُحذّر من أن يكون إنسانا كاملا. باستباق الطلب، يُحذف وقت الرغبة والحلم[1]. إن الشخص الذي يعمل بدلا منه، بدلا من أن يصاحبه ويشجعه، لا يزيد على أن يرسخه في معاني السلبية ويمنعه من اكتساب مسؤولية قراراته وحركاته، مع معنى ومتعة الجهد والنجاح. لكونه يرغب في حمايته، فإنه يسيء إعداده للحياة: يحرمه من اكتشاف قيمة الأشياء. في حين ينبغي أن يكتسب الطفل في سن ما بين عامين وأربعة أعوام احترامَ السلطة ويتعلم قبول الإكراهات، فإنه يبقى على العكس في انطباع كونه يمكن أن يحصل على أي شيء بمجرد أن يرغب فيه، بل يكفي أن يفكر فيه ليحصل عليه. تلاحظ ماري نويل كليمان (Marie Noelle Clément): «يقصد الوالدان اليوم الإحسان حين يلبيان جميع رغبات الطفل، ولكنهما يتركانه بذلك فريسة لقوته الذاتية ..» [2]. يجد الطفل - السيد صعوبات في الاندماج الاجتماعي. بالنسبة لتوني أناتريلا «إذا لم يكن للعلاقة بالوالدين معنى يتجاوز رغبات الطفل الآنية التملّكية، فإنه لن يستطيع التشبع بمعاني قواعد الحياة واللغة، وسينفك عن المجتمع جزئيا أو كليا. تنبني نتائجه المدرسية أيضا على هذه التجربة العلائقية: سيعترض على تعلم أدوات الثقافة التي تتجاوزه بالضرورة»[3]. يصبح من أتباع الفكر السحريَ. في حين كان ديكارت يوصي «بتغيير رغباته بدلا من تغيير نظام العالم»، فإن الطفل المدلل يشعر بإمكانية تغيير نظام العالم بدلا من تغيير رغباته، ما دام يكفيه أن يريد ذلك. ولأنه لم يقِسها قط مع الواقع، المصنوع من الإكراهات

---

(1) إيتي بوزين (Etty Buzyn)، «بابا، ماما، اتركوا لي وقتا لأحلم ! Papa, Maman, laissez - moi le temps de rêver !»، نشر (Albin Michel، 1995). [المؤلف].

(2) ماري نويل كليمان (Marie Noelle Clément)، «علم نفس الأطفال في مدرسة الوالدين Pédopsy-chiatrie à l'école des parents»، مجلة (Le Nouvel Observateur)، عدد 1982، من 31 أكتوبر إلى 6 نونبر 2002. [المؤلف].

(3) توني أناتريلا (Tony Anatrella)، مرجع سابق. [المؤلف].

والتخلّيات، فإنه يجد نفسه غير مؤهل لمواجهته. يقع الانتقال من «مبدأ المتعة» إلى «مبدأ الواقع» بشكل سيء. منذ عام 1972، كتب فريد هيشنجر يحذر الآباء: «إن تربية الأطفال دون تحصينهم ضد وقائع ومنافسة العالم الخارجي، لا يعدو أن يكون تهريبا لهم نحو جزر من السعادة، وجعلهم عاجزين عن التأقلم مع الواقع الخارجي أو تغييره بما هو أفضل»[1].

يعيش الأطفال المدللون الذين ينقصهم شيء من الحرمان، مثل آلهة لا حدود لها. لأنهم محميون بشكل مبالغ فيه من طرف عالمهم الأمومي ولأنهم يشعرون بأن كل شيء مباح، فإنهم يحسّون أحيانا بأن الكرم الكبير الذي يظهره الوالدان تجاههم هو نوع من النقص في الاهتمام. يعدّ غياب الإطار هذا مصدرا للخوف والمعاناة. ولأنهم لا يعرفون كيف يعبرون عن ذلك، فإنهم يظهرونه في صورة اضطرابات في الخطاب، أو البكاء غير المنقطع، أو الحركة الزائدة، أو نزوات تصعّب حياة الوالدين. ولأن هؤلاء الأطفال - السادة اعتادوا على «مص دماء» أمهم، فإن يمكن أن يتحولوا إلى أطفال - طغاة[2]، محتاجين دائما إلى أن يُعتنى بهم. ولأنهم لم يدمجوا الممنوعات ذاتيا، فإنهم مضطرون دائما إلى اختبار الحدود ويجدون متعة في إثارة محيطهم ومعارضته. يمكن أن يأتي هؤلاء الأطفال المدللون المستبدون من جميع الأوساط: في الأوساط الميسورة، يشملهم الوالدان بألوان من الأشياء المادية لتعويض نقص الحضور؛ وفي الأوساط الفقيرة، يدللون و«يُحضنون» لتعويض نقص الرفاهية.

هؤلاء الأطفال الأنانيون إلى أبعد الحدود، والذين لم يدفنوا المستحيل، لا يفهمون - عند خروجهم من رفاهية الوالدين اللذين ضحوا بأنفسهم كي لا ينقص أطفالهم شيء - أن حالة «انعدام الجاذبية» هذه لا يمكنها أن تدوم. ولأن بعضهم يبدون كما لو حصلوا على هذه الجنة الخيالية بسهولة، وأن لهم «الحق في المساواة»، فإنهم يرون أن ذلك دَين على الآخرين

---

(1) فريد هيشنجر (Fred M. Hechinger)، «مع أو ضد سامرهيل Pour ou contre Summerhill»، نشر (Petite Bibliothèque Payot)، 1972. [المؤلف].

(2) ديديي بلو (Didier Pleux)، «من الطفل السيد إلى الطفل الطاغية De l'enfant roi à l'enfant tyran»، نشر (Odile Jacob)، 2002. كريستيان أوليفيي (Christiane Olivier)، «الأطفال السادة، ليس بعدُ Enfants – rois plus jamais ça»، نشر (Albin Michel)، 2002. صوفي دي ديزير (Sophie des Déserts)، «زمن الأطفال الطغاة Le temps des enfants tyrans»، مجلة (Le Nouvel Observateur)، 1 - 6 نونبر، 2002. [المؤلف].

تجاههم. تعوِّض متطلباتُ إرضاء التوقعات والاستفادة من الكمال، تقبلَ الحرمان. يبدو طبيعيا رفع شكوى عند أي توصيل طلبية معينة فيها خلل ما. يقول دوني فاس: «بدلا من أن تُعاش الحياة كهبة، فإنها تُطلب كحق: من حقي أن أكون بصحة جيدة، من حقي أن يكون لي طفل، من حقي أن أكون جميلا، من حقي أن لا أموت!»[1].

في حين كان الدين يوصي أحيانا بحرمان النفس وتعذيبها للفوز بالنجاة بعد الموت، فإن الأطفال - السادة لم يعودوا يرغبون في انتظار جنة افتراضية، ولم يعد لديهم أدنى تحمل للحرمان. إنهم يعدّون ذلك ظلما، ويطالبون بحقهم بالتشبث بتحقيق جميع أحلامهم. يريدون «كل شيء، حالا». ولأنهم لم يدفنوا قط قوّتهم الشديدة الأصلية، ولأنهم على يقين من القدرة على «التمتع دون عراقيل»، فإنهم يجدون أنفسهم ضمن تلك الأجيال الرافضة لكل ما ليس متمحضا في إرضائهم[2]. ما كان من قبل لذة ممنوعة، يخلطونها بالفرح والسعادة، أصبح اليوم كأسا مقدسة، وغايةً لسعي محموم. بما أن الأشياء متساوية ولا شيء له قيمة ما، فإنه لا يهم أين يجدونه. كل شيء يصبح موضوعا للاستهلاك (الأشياء المادية، المخدرات، الجنس ..)، والكمية وحدها تهم من أجل ملء الفراغ. يلاحظ كلود أوليفنستاين أن «الشبان ليس لهم مثل أعلى. لا أرى عندهم أية فكرة للثورة، بل فقط البحث عن المتعة العارضة، والتي هي غاية في ذاتها. في هذا الاتجاه، فإنهم يتناولون المخدرات من أجل تأقلم أفضل، وليكون لهم قسط من الراحة». ليس الآخر إنسانا، بل مجرد شيء يمكن استعماله لجلب متعة معينة. الطفل نفسه يصبح منتجا مختارا بحسب الجنس واللون والطول ومعدل الذكاء من طرف آباء يمكنهم عما قريب أن يطالبوا بتوصيل للضمان.

لم يعد المراهقون الجدد الخائفون من اعتداءات العالم الخارجي، يرغبون في أن يكبروا، ولا أن يهجروا «بلد اللامكان» حيث الأطفال ملوك، وحيث «الربيع دائم». هؤلاء المتشبهون ببيتر بان (Peter Pan) في العصر الحديث[3]، يلجؤون إلى الطفولة التي تبقى

(1) دوني فاس (Denis Vasse)، «الحياة والأحياء، حوارات مع فرانسواز موكنستورم La vie et les vivants, conversations avec Françoise Muckensturm»، نشر (Le Seuil، 2001). [المؤلف].

(2) جان كوترو (Jean Cottraux)، «تكرار سيناريوهات الحياة، غدا حكاية أخرى La répétition des scénarios de vie : demain est une autre histoire»، نشر (Odile Jacob، 2001). [المؤلف].

(3) - دان كيلي (Dan Kiley)، «متلازمة بيتر بان Le syndrome de Peter Pan»، نشر (Odile Jacob)، 2000. [المؤلف].

المرجع لِجَنّة يرفضون أن يفقدوها. لأن الأطفال دون أب لم يعرفوا الحرمان، ولأنهم عاجزون عن الخروج من الانبهار أمام القوة الشديدة، فإنهم لا يستطيعون الحصول على الرغبة التي هي في جوهرها «العجز عن الوصول إلى الموضوع الذاتي وتبنيه»[1]. ولأنهم اعتادوا على المتعة دون جهد، فإنهم لا يرغبون في الدخول في حياة الراشدين، التي تخفض قيمتَها الثقافة الاجتماعية «الأنثوية». لقد محوا كل الموروثات وهم يريدون الاستفادة من الحاضر فورا، ولذلك فهم لا يودون المجازفة باستشراف مستقبل لا يستطيعون تخيله. إن «أثر الأم» يولّد مجتمعا للفورية لا يمكن إلا أن يكون محبطا. بدلا من التقدم خطوة تلو أخرى بمشروعات واقعية يمكن تحقيقها، يفضّل الأفراد - المتخمون بعناية الأم والواعون بحقوقهم - أن ينتظروا تحقق أحلامهم اللامحدودة. من أجل تحمل الواقع، يمنحون أنفسهم أشياء تُعيدُهم إلى زمن الطفولة، ويدمنون عليها سريعا. يمكن لهذا الرجوع إلى الأم أن يعيد شحن بعضهم وتحريكهم، ولكن يمكنه أيضا إغراق آخرين ينتقلون من عدم الرضا إلى «قابلية الاكتئاب».

حين يكبر هؤلاء الأطفال «المهدَرون» الذين يدّعون التحرر من كل تدين، فإنهم - فيما يبدو - ينتظرون معجزة «المجتمع» التي ستوجد في مكان ما، ولن يشاركوا فيها. وحين لا يستطيع هذا المجتمع إرضاءهم، فإنه يصبح إلهًا شريرا يبرر الانطواء نحو الفردانية. لقد أصبح المثل الأعلى الثوري لحقوق الإنسان - والذي جرّ الأمة كلها للقتال تحت رايته - زائفا ويجر على العكس إلى ضعف شعور الانتماء للمجتمع. بعد الفردانية السياسية جاء دور الفردانية الخاصة المنشغلة برفاهيتها الذاتية، والتي يمكن اختصارها في هذا الشعار: «كل ما ليس لي، هو عامل قمع تجاهي»[2].

لم يعد بعض الأفراد الفاقدين لمشروع جماعي، يحددون أنفسهم داخل المجتمع إلا من خلال صفات المساهمة والاستفادة من نظام إعادة التوزيع. إنهم يؤدون الضرائب، وإذن فلهم الحق في أن ينالوا ما يرغبون فيه، وأن يحصلوا على الأقل على ما يحصل عليه الآخرون.

---

(1) فرانسواز جيرو وبرنار - هنري ليفي (Françoise Giroud et Bernard - Henry Lévy)، مرجع سابق. [المؤلف].

(2) جان - بيير لو جوف (Jean - Pierre Le Goff)، حوار مع (F. Ernenwein) و(J - F. Bouthors)، مجلة (La Croix)، 19 - 20 أبريل 1998. [المؤلف].

عند أدنى فشل، فإن «ديمقراطية العناية»[1] التي غذّت جميع أحلام المساواة عندهم، تُشعرهم بأنهم تعرضوا للظلم. يشعرون بأنهم ضحايا مجموعة مسؤولة عن جميع مصائبهم. يقوي هذا لإلإحساس بكونهم ضحية، سوسيولوجيا منتسبة إلى أحداث 68. تتحول «الهابتوس Habi-tus» عند بورديو (Bourdieu) إلى مجموعة من المخططات الذهنية الموحدة والحاسمة، ولا تسمح لهم نظريته عن «إعادة الإنتاج الاجتماعي» بمقاومتها بل تدفعهم إلى القَدَرية[2]. لم يعد العقد الاجتماعي يعمل عند هؤلاء الضحايا «الحِقديين»[3] الأبديين. إن الحق المقدس للأفراد في «الإيديولوجيا المتمركزة على الدماغ» يدفعهم إلى الدفاع عن أنفسهم تجاه الجماعة، ويعزز أسطورة الإنسان المستقل القادر على بناء نفسه بمجرد علاقته بنفسه، دون محاسبة من أي أحد. إن الفردانيين المنشغلين بتنميتهم الذاتية يرفضون أية تنشئة اجتماعية لهم ولأطفالهم. إن البعض يجهلون القوانين والقواعد الاجتماعية ويخالفون الآداب بكثرة. يصبح العنف عندهم عنفا مضادا، والاحتيال والسرقة شكلا من أشكال المقاومة المشروعة.

إذا أردنا أن نستعمل العبارة العزيزة على آلان فينكلكروت (Alain Finkielkraut)، هنالك «تسارع لحقوق الإنسان» يمكن أن يؤدي إلى مساواتية طوباوية تماما ومخالفة للمثل الأعلى الديمقراطي[4]. في الواقع، يكون الصراع المشروع من أجل العدالة أحيانا ذريعة جيدة للمطالبة بالحق الفوري في الرفاهية، إن لم يكن الحق في المتعة الفردية الفورية، مع ضمير مرتاح. ليس المطالب به هو «الحق في المساواة»، بل الحق في الاعتداد بالتفرد الخاص. لم يعد الأمر يتعلق بالنضال من أجل الخير المشترك بل بالاستفادة منه، ولو على حساب حقوق الآخرين. يصبح حق الأفراد هو الدفاع عن المصالح الخاصة، ويصبح معارضا «للعيش المشترك». إن المساواة

---

(1) دومينيك شنابر (Dominique Schnapper)، «ديمقراطية العناية، دراسة عن المساواة العصرية La dé-mocratie providentielle, essai sur l'égalité contemporaine»، نشر (Gallimard، 2002). [المؤلف].

(2) جان كلود كوفمان (Jean Claude Kaufmann)، «الأنا، نحو سوسيولوجيا للفرد Ego, pour une sociologie de l'individu»، نشر (Nathan، 2001). [المؤلف].

(3) الحقد هو اجترار الضرر المتعرّض له. [المؤلف].

(4) مارسي جوشي (Marcel Gauchet)، «الديمقراطية ضد نفسها - La démocratie contre elle même»، نشر (Gallimard، 1985). [المؤلف].

التي يطالَب بها في مقابل الآخر الذي لديه أكثر، تُنسى غالبا حين يكون الآخر لديه أقل. الذي لديه أكثر يبقى المفضّل في «فرنسا العليا» التي تبذر أموال الفقراء، والذي لديه أقل يبدو كأنه منتفع ومنافس يمكنه أن يستأثر بأموال دافعي الضرائب. هذا الشعور بالخيانة وانعدام الثقة يكرس الانعزال الطائفي في المجتمع. يبحث البعض – من أجل طمأنة أنفسهم – عن رفاق في «المشقة» للدفاع عن مصالحهم المشتركة. يخلقون لأنفسهم هوية معينة في إطار حيٍّ أو منطقة أو من خلال انتماء ديني أو عرقي .. يؤدي بهم نقص الطموح الجماعي، والحرص على حماية مصالحهم الخاصة، إلى البحث متجمعين عن مأوى يحميهم داخل تجمع هوياتي. نشهد تجمعا للأشخاص المتشابهين في الجنس والأصل الجغرافي والاجتماعي، وعودة للقبلية[1]. إن الفرد المحب للعدل يجعل من نفسه – مع نظرائه – المدافع عن الاتساق في مواجهة «الغرابة»، ضد الآخر المختلف ذي التفرد الواضح، والذي ينتقل من وضع المنافس المزعج إلى وضع العدو.

إن الأطفال – السادة الكبار إما يعتمدون كثيرا، وإما لا يعتمدون أصلا على رجال السياسة لتلبية طلباتهم المبالغ فيها. في الانتخابات، إما يرفضون الاختيار بعدم التصويت، وإما يستعملون ورقة التصويت للتعبير عن مشاعر عدم الرضا. في انتظار مخلِّص ما وبسبب نقص المشاركة العاطفية، يكونون أحيانا مستعدين لاتباع قائد ذي كاريزما (فوهرر) مستعد لإبقائهم في حالة وهم انصهاري. لا تهم الشرنقة، ما دام السُّكْر حاصلا! يسير في اتجاه هؤلاء رجالُ السياسة، الذين يُطلب منهم أن يكونوا مثل الأمهات شديدات القوة القادرات على إرضاء جميع الطلبات. إنهم إذن لا يسعون إلى إقناعهم بالرجوع إلى مقتضى العقل بل فقط إلى التأثير فيهم لجذبهم إليهم. يجتهد المرشحون للسلطة – وفي سبيل أن ينجحوا في الانتخابات – في أن يكونوا أكثر أمومة، فيجعلون من القرب الدواء الناجع لعدم اهتمام المواطنين بالمصلحة العامة والسياسة. بدلا من الانفصال عن المصالح الخاصة من أجل تأسيس مشروع جماعي، فإنهم يريدون جميعا أن يكونوا في الاستماع لـ«فرنسا السفلى». وهو يجازفون بأن يعَدّوا «أمهات سيئات»، يفضّل عليهم الزعماء الشعبويون الذين يمكنهم أن يعِدوا بـ«عالم آخر»، ويقولوا لهم دون مخاطرة بتخييب ظنهم: «لقد كان لي حلم متعلق بكل واحد منكم. لا تخافوا من أن

---

(1) توماس فالبير (Thomas Vallières)، «عودة القبلية Le retour du tribalisme»، مجلة (Marianne)، عدد 279، من 26 غشت إلى 1 شتنبر 2002. [المؤلف].

تحلموا»[1]. ولكن هؤلاء الديماغوجيين يستفيدون من الجمهورية أكثر مما يدافعون عن قيمها.

مع ذلك فإنه لا يمكن للبقاء في الطفولة أو العودة إلى الأم، أن يحققا الرضا عند الأطفال المدللين. إنهم عاجزون عن بلوغ جميع المتَع، ولذلك فهم بؤساء خاصة كما يقول باسكال بروكنر (Pascal Bruckner): «يصبح الناس أشقياء من كونهم غير سعداء. ينظر إلى الشقاء على أنه خطيئة أو نقص»[2]. يصبح الواقع غير محتمل لديهم. إن رفض تحمل الإحباط حين يأتي، لأن الأنا لا يريده ولأن الأنا الأعلى ضعيف جدا، يمنعهم من بلوغ البهجة وإيجاد معنى لحياتهم. يتحدث دوني فاس (Denis Vasse) عن «الطغيان الأعمى: طغيان المتعة دون حدود»[3]. ويذهب بيير لوجوندر (Pierre Legendre) في الاتجاه نفسه: «نزعم اليوم قيادة البشرية تحت راية مبدأ المتعة: لا يمكن أن يقود ذلك إلا إلى وحشية من نوع جديد»[4]. «عما قريب سنموت من نقص في الحرمان» كما يقول كلود أوليفنستاين (Claude Ollivenstein) بعد لاكان والأبيقوريين.

أطفال عاجزون عن التعلم

حرم انحراف الإيديولوجيا «الأنثوية» الأطفالَ من أب قادر على أن يعلمهم الحدود. يبقون إذن في معاناة والتباس كبيرين. يعبر بعضهم عن ذلك بالأعراض «المعترف بها» (النشاط الزائد، اضطراب النطق، اضطراب الكتابة، اضطراب الحساب، ..)، ويعبر آخرون بصعوبات في تقبل الجهد، والتركيز واتباع القواعد (قواعد الإملاء والنحو والحساب .. وأيضا قواعد الأدب والانضباط والحياة المجتمعية ..). لا يكون هؤلاء الأطفال «الخارجون عن القانون» في الغالب متكيفين مع التعلّم عموما، ولا مع المدرسة خصوصا. ولأن المدرسة تسعى إلى

---

(1) من نشرة «الجبهة الوطنية» بين الدورين الأول والثاني من الانتخابات الرئاسية لماي 2002. [المؤلف].

(2) باسكال بروكنر (Pascal Bruckner)، «النشوة الدائمة. بحث عن واجب السعادة L'euphorie perpétuelle. Essai sur le devoir de bonheur»، نشر (Grasset)، 2000. [المؤلف].

(3) دوني فاس (Denis Vasse)، «سفاح المحارم والغيرة Inceste et Jalousie»، نشر (Le Seuil)، 1995. [المؤلف].

(4) بيير لوجوندر (Pierre Legendre)، برنامج في (France – Culture)، «شاهد على الزمن المتغير Le témoin du temps qui change»، 23 دجنبر 1994. [المؤلف].

التأقلم مع هؤلاء الأطفال في وضعية صعبة (لتربيتهم وتعليمهم)، ولأنها لا تنجح مع الجميع، فإنها تصبح هدفا لجميع الهجمات وتفقد بنفسها المصداقية التي تحتاج إليها لتكون فعّالة معهم ومع الآخرين.

لقد تعرضت المدرسة قديما لكثير من النقد، في القرون الوسطى مع القديس أنسلم، وفي العصور الحديثة مع إيراسموس وميلتون وجون لوك وآخرين. بالنسبة لميلتون، التعليم "خطأ قديم واقع من الجامعات التي علاها الصدأ الاسكولائي للعصور البربرية". مع دمقرطة المجتمع وتزايد عدد التلاميذ، تناسلت الانتقادات.

خلال سنوات 1960، تضاعفت أعداد "زبناء" المدرسة التي كانت ما تزال تطبق مناهج قديمة. كان اتهامها من طرف الطلبة عام 1968، ذا بُعد تدميري. بعد عودتهم للدراسة بعد الربيع والعطلة، استمرت مطالبهم، بشيء من الاعتدال، ولكن بعدد متزايد من الشبان أولا، ثم من غيرهم فيما بعد. في السنوات اللاحقة، استقطبت إيديولوجيا 68 والإيديولوجيا "الأنثوية" المزيدَ من الطلبة، ولكن أيضا من المدرّسين، القدامى والجدد، ومن الآباء أيضا. لم يعد الآباء - الذين لهم أحيانا حسابات مع المدرسة - يقبلون أن يتعرض أطفالهم للطرق التقليدية التي تحمّلوها سنوات من قبل.

إن الأُسر المتشبعة بتلك الإيديولوجيا الجديدة، والتي لم تعد تعترف للرجل بالوظيفة القمعية للأب من أجل تربية الأطفال، لا ترغب من باب أولى أن تعطي هذه الوظيفة للمعلّم، الذي لا تعرفه. ولأنهم لا يستطيعون تحمل كل شيء لوحدهم، فإن الآباء والأمهات استمروا في إرسال أولادهم للمدرسة، ولكن كما لو كانوا مجبرين على ذلك (التعليم إجباري، لا المدرسة). ولأنهم يشعرون بأنهم ضحايا، فإنهم يطلبون الكمال، وحق الرقابة على هيئة التدريس، التي لم تعد تقدم لهم خدمة بل تفَوتِر لهم طلبية مفروضة.

بمبادرة من إدجار فور (Edgar Faure) ثم جان - بيير شوفينمان (Jean – Pierre Chevènement)، دخل «آباء التلاميذ» إلى مجالس الإدارة ومجالس الأقسام المدرسية. استعمل بعضهم ذلك كحصان طروادة يمكنهم من الدخول إلى القلعة التي يُنسج فيها مستقبل أطفالهم. لتلافي أن يتفلت منهم الطفل، يواجِه مواطنون دافعون للضرائب بسلطة مضادة، سلطةَ الموظفين. في حين من الضروري تحقيق التعاون بين الراشدين المكلفين بالتربية، فإن بعض

الآباء يتواطؤون مع الطفل للدفاع عنه ضد المدرسة[1]. وهكذا، وكما أصبح عدد من الرجال غير مطاعين من زوجاتهم وتحولوا إلى آباء مساعدين أموميين دون سلطة على أطفالهم، فإن المدرّسين الذين لم يعد الآباء يمنحونهم ثقتهم أصبحوا عند الأطفال - التلاميذ خدَمًا سيئين، دون مصداقية، لا يستحقون الاحترام ولا الطاعة.

يُكَرَّس تردد الآباء «المتحررين» في الاعتراف بقيمة المدرسين للسماح لهم بممارسة السلطة في المدرسة، بالنبذ العام للقيم التي كان يدافع عنها النظام التعليمي التقليدي والباطرياركي. قادت هذه المراجعات، خلال ثلاثين سنة، إلى تحول جذري للمدرسة.

تصبح المدرسة - مثل سائر المجتمع - حداثيةً، وتتبنى القيم التي تسمى أنثوية. تريد الإيديولوجيا «الأنثوية» والأمومية الجديدة، وهي تعارض سلطة المعلمين القدامى، أن تجعل الطفل - السيد في مركز النظام المدرسي. إنها ترفض باسم الديمقراطية أي تراتبية، أو وظيفة قيادة أبوية فوق اللزوم. من أجل تعزيز «المساواة»، يكتسب الطفل - الذي كان من قبل خاضعا - حقوقا جديدة، والراشد واجبات بقدر ذلك. نزل الأستاذ الذي يدرّس - والذي ألحِق بالأستاذ المسيطِر - من عرشه، لكي تستقر علاقات جديدة. مع «الوعي السيء الذي يحيط بمفهوم السلطة» والبحثِ عن القرب وعدم العنف، فإن العقوبات التي يُحكَم عليها بأنها قاسية جدا أُلغِيت، ليحل محلها التفهم والتعاطف وحتى الإعذار. لكي لا يُرى التفاوت، فإن الترتيب يختفي، ويُعوَّض الانتقاء بالتوجيه لإعطاء فرصة للجميع. صارت رغباتُ الفردِ المستقل تؤخذ بعين الاعتبار أكثر فأكثر: أصبحت المدارس أجمل، وألغيت الطرق الانضباطية اللاإنسانية، وتحسن تكوين المدرّسين والمناهج البيداغوجية، وتخففت البرامج، وأنقص العمل في البيت .. صار الراشدون العاملون في المدرسة أكثر حماية للتلاميذ، وأكثر استماعا لهم لمساندتهم ومنع أن يصبحوا ضحية «للعنف البيداغوجي»[2]. في الواقع، كما تقترحه جمعية آباء التلاميذ في المدارس العمومية «من الواجب على المدرسة أن تتأقلم مع التلميذ لا العكس، لأنها

---

(1) موريس ماشينو (Maurice T. Maschino)، «الآباء في مواجهة الأساتذة Parents contre profs»، نشر (Fayard)، 2002. [المؤلف].

(2) فرانسوا دوبي (François Dubet)، «في المدرسة. سوسيولوجيا التجربة المدرسية A l'école. Sociologie de l'expérience scolaire»، نشر (Le Seuil)، 1996. [المؤلف].

متمركزة على الطفل لا على المواد المدرَّسة». إن «التربية المتكيفة» التي تنبذ معنى رفع التلميذ وإخراجه مما يعرفه مسبقا، يمكن أن تنحرف إلى نقيض التربية والتعليم. إن أخذ من صار يسمى «المتعلّم» لا التلميذ، بعين الاعتبار ومساعدتَه، يتحول أحيانا إلى حضانة أمومية. وهكذا فإن المصاحبة في الصعوبة، هي في حقيقتها تجنيب التلميذ هذه الصعوبة، لا غير.

يمكن أن تتحول متطلبات «المساواة» إلى التباس في الأجيال والوظائف. يلاحظ توني أناتريلا أنه في «جمهورية الأطفال، يعجز الراشدون عن احتلال مكانة الأطفال، فيلجؤون إلى وضعها تحت إدارتهم»[1]. تحت شعار «حقوق الأطفال» و«حسن معاملتهم»، يغطسهم البعض في اللاعنف، إلى درجة إغراقهم في «حوض الحب الكوني»[2].

في هذه الحمى المساواتية، يصل الأمر بـ«مدرسة الاحترام» إلى التعارض مع احترام المدرسة. التلاميذ الذين يطالبون - وحُقّ لهم ذلك - بالحق في الاحترام، لا يعطونه للراشد إلا إذا استحقه بأن يكون سلوكه مثاليا. لم تعد سلطته محايثة. عليه أن يستعمل موهبة خاصة لكي يُطاع دون استعمال الحق في القيادة. في عالم تسيطر عليه الصورة وأصبحت فيه المشروعية إعلامية أكثر فأكثر، صارت مشروعية الأستاذ تحتاج إلى تبرير وتتعرض لمراجعات دائمة. لم تعد هذه المشروعية نابعة من منصبه داخل المؤسسة، بل من تقويم التلاميذ. لا تنبع حتى من مقدار المعرفة التي يملك. بالعكس، وفي الوقت الذي يدافع كل أحد عن الحق الشخصي في الاختلاف، فإن الانتزاع من الجذور الذي تقدمه الثقافة يصبح غير محتمَل، والذين يسعون إلى نقلها غير مرحَّب بهم. إنهم يصنّفون ضمن «فرنسا الراقية»، ويبدون إذن نخبويين ولا يحترمون الأنانية الطفولية. «الإنسان الديمقراطي» يرفض كل ما يتجاوزه. والمفكر الذي يدرس ويفكر ويتكلم باتباع قواعد اللغة، لا يُسمع له. عليه أن يفسح المجال للأصوات المتفردة والمخلصة التي تمنح التعبير لعواطفها «في حالتها الخام».

ولأن المدرّس لم تعد عنده مشروعية الوظيفة ولا المعرفة، فإنه لم يعد يعوّل سوى على الكاريزما الشخصية. ولأجل ذلك، فعليه أن يحسّن من طرق «التواصل» عنده، كما يفعل رجال

---

(1) توني أناتريلا (Tony Anatrella)، مرجع سابق. [المؤلف].

(2) آلان فينكلكروت (Alain Finkielkraut)، «الثورة الثقافية في المدرسة La révolution culturelle à l'école»، صحيفة (Le Monde)، 19 ماي 2000. [المؤلف].

التسويق. عليه أن يخلق علاقات دافئة، ويمرر أحاسيس جميلة، ويمدح، ويغري. باسم قيم التمركز حول التلميذ، «لم نعد نمارس التربية، بل الإغراء - تربية»[1].

مكانُ تعليم الديمقراطية أصبح مكانا للديمقراطية[2]. يدخل الفرد الراشد الباحث عن مراعاة الفرد التلميذ، في مفاوضة ذات طبيعة نقابية معه. عليه أن يتأقلم مع رغبات الزبون المتزايدة، والذي طُلب منه - باستفتاء وطني - أن يذكر ما يريد تعلمه، وكيف يريد تعلمه. بالنسبة لريجيس دوبري (Régis Debray)، كما «أننا نكيّف الإرادة العامة بحسابات الآراء، والاقتراع باستطلاع الرأي، فإننا صرنا نكيف موسوعة المعارف بنفسية الأطفال»[3]. تحولت «حرية التعبير» الجديدة إلى الحق في قول أي شيء، ومناقشة أي شيء. وهكذا يمكن للتلميذ المواطن أن يحتج - بالدرجة نفسها - على الآراء والمعارف والمناهج والبرامج والقوانين .. في مدرسة المواطَنة، يصبح التلميذ مقدسا، ويثبّت لديه الشعور بإمكان إخضاع العالم لرغباته. إذا لم يشعر بالرضا التام، فإنه يمكنه أن يبرر عدم اهتمامه بمادة معينة ورغبته في طرد الأستاذ الذي لا يلائمه. ولأن بعض التلاميذ لا يستطيعون إيجاد المتعة في اللحظة الحاضرة، فإنهم يهربون، يكثرون التنقل المَرَضي. يصبح من المستحيل - مع هذه الصعوبات البالغة في استشراف المستقبل البعيد والغامض - أن يبذلوا الجهد الكامل في التمدرس وفي العمل للمدى البعيد.

وتزداد مطالب التلميذ بقدر ما تُتناول مطالبه بتعاطف من طرف الراشدين، الذين يشعرون بتأنيب الضمير لعجزهم عن تلبية رغباته. بعضهم يتفهمون نقص التحفيز لدى التلميذ، بل يعذرون تغيبه و«ثورته المشروعة»[4]، الدالة على شخصيته. ما يزال بعضهم متأكدين - كما كان جون لوك

---

(1) دانيال مارسيلي (Daniel Marcelli)، «الاكتئاب ومحاولة الانتحار في المراهقة Dépression et tentative de suicide à l'adolescence»، نشر (Masson)، 2001. [المؤلف].

(2) برنار دوفرانس وباسكال فيفي (Bernard Defrance et Pascal Vivet)، «العنف المدرسي، الأطفال ضحية العنف في المدرسة Violences scolaires, les enfants victimes de la violence à l'école»، نشر (Syros)، 2000. [المؤلف].

(3) ريجيس دوبري (Régis Debray)، «إلى السيد وزير التعليم A Monsieur le ministre de l'éducation»، صحيفة (Le Monde)، 3 مارس 1998. [المؤلف].

(4) فرانسوا رو (François Roux)، «في حالة ثورة مشروعة En état de légitime révolte»، نشر (Editions Indigène)، 2002. [المؤلف].

عام 1693 - «أن الدراسة يمكن أن تكون لعبة، واستراحة للأطفال، وأنه يمكن الإيحاء لهم بالرغبة في التعلم إذا قدّم لهم التعليم كشيء مشرّف وجميل ومريح، أو كمكافأة»[1]. وكما في الفلسفة المتَعية النيلية (نسبة إلى ألكسندر سوثرلند نيلل (Alexander Sutherlan Neill))[2]، فإن الهدف من التربية هو العمل في البهجة، واكتشاف السعادة. بالنسبة للمربي الجديد الذي يتبع نصائح علماء النفس الإنسانويين، فإن الأولوية لمساعدة الأطفال على «اكتشاف جمال الأنا الغريزي المقموع لديهم»[3]. مع انتصار الأنانية، يصبح الطفل - «الامتداد النرجسي» للوالدين و«مركز» جميع أنواع العناية - «نجما». تتحول مشاركتُه المطلوبة للبحث عن الأسئلة والتعبير عنها بنفسه، إلى تعبير تلقائي يستحق العناية والمكافأة. في المدرسة التي ألغي فيها الفرز بين الكتابي والشفهي، يجب على الأستاذ أن يستمع بشكل فردي لهؤلاء العباقرة الذين يظنون - لأنهم طوروا شيئا من البلاغة الخطابية - أنهم وصلوا إلى نضج كبير، أو أنهم أصحاب عبقرية مبكرة[4]. بل على المدرّس أن يظهر إعجابه بلغوهم. يلاحظ توني أناتريلا «أننا نمضي وقتنا في تتبع النزوات في حالتها الأولية، باسم التلقائية التي يبدو أنها أكثر واقعية من التفكير»[5]. وإذا كان المربّي رجلا غير متصالح تماما مع أنوثته، فلعل من الواجب عليه أن يستوعب بعض الهرمونات النسائية ليكتسب هذا «التقهقر المكثف المذهل» كما يسميه دوني فاس (Denis Vasse)، ويتمكن من أن يكون على مستوى التلميذ ليتابعه؟ حين يجتهد المدرّس في إعطاء هؤلاء الأطفال المدللين نصيبهم من الإحسان، فإنه ينتقل من الإنسانية إلى العمل الإحساني الخيري. ويصبح صانعا للاحتفاظ بالطفل في وهم القوة، وأنه يعرف كل شيء ولا يحتاج للتعلم.

---

(1) جون لوك، «تأملات في التربية 1693، «Pensées sur l'éducation. [المؤلف].

(2) ألكسندر سوثرلند نيل (Alexander Sutehrland Neill)، «الأطفال الأحرار في سومرهيل Libres enfants de Summerhill»، نشر (Librairie François Maspero)، 1970. [المؤلف].

(3) روسمان (M. Rossman)، «مع أو ضد سومرهيل Pour ou contre Summerhill»، نشر (Petite Bibliothèque Payot)، 1972. [المؤلف].

(4) ديدي بلو (Didier Pleux)، «من الطفل السيد إلى الطفل الطاغية De l'enfant roi à l'enfant tyran»، نشر (Odile Jacob)، 2002. [المؤلف].

(5) توني أناتريلا (Tony Anatrella)، حوار مع هنري تينك (Henri Tincq)، صحيفة (Le Monde)، 2 - 3 أبريل 1995. [المؤلف].

تحاول المدرسة - التي أصبحت حضانة إلى غاية التعليم الثانوي - أن تقدّم للتلميذ «جَنّته الآنية»، بأن لا ترهقه بأي عمل صعب. هذه الجنة تمرّ عبر الاقتناع بالحرية والكرامة، المرادِفتين لإلغاء جميع الإكراهات والجهود. الدروس بالنسبة له تصبح دائما مملّة جدا، وصعبة جدا. يوجد الكثير من المعلومات في المدرسة، والكثير من الثقافة الماضَوية. الوسائل المستعملة مملّة، فيما «توجد طرق أخرى أشد إثارة من قراءة كتاب»[1]. من أجل أن يهتم به جمهوره، يجب على المدرّس أن يبدع في الترفيه. أو ربما عليه أن يدخل في المعرفة شيئا من الإثارة الجنسية - كما في التلفزة - ليَربح بعض المشاهدين؟

لا يقبل التلميذ التقويم، حين يكون الهدف الوحيد هو الإرضاء الفوري، وتتحول مساواة الفرص إلى حق النجاح للجميع. إن العلامات السيئة لا فائدة ترجى منها، وإنما تؤدي إلى إقصاء التلاميذ الضعفاء، وتقتل معنوياتهم. وللخروج من هذه الحالة البشعة، فعلى المدرّس أن يكثر من الملحوظات الإيجابية. للخروج من مخاطر التقويم بـ»تلميذ ضعيف»، لا بد من أن يكون للتلميذ نتائج حسنة: لم تعد التمارين والعلامات تُمنح وفق متطلبات محددة ولكن وفق معدل بيداغوجي متوسط، يوصَى ببلوغه. وهكذا عُوّض الحكم الديمقراطي الذي يسمح بالخروج من الالتباس ويعطي قيمة للعمل في وقت معين على تمرين معين (في الديمقراطية، يكون الحكم على العمل لا على الشخص)، بإعطاء القيمة للأنا عند الطفل، تحت ذريعة تشجيعه. كما تقول إليزابث ألتشول (Elisabeth Altschull): «عَوَّض تقديسُ الأنا عند التلميذ، مسؤوليةَ تكوينه»[2]. لم تعد هنالك وسيلة إذن لإثبات النفس، لدى الذات ولدى الآخر. إن «المكافأة» التي تأتي دون بذل جهد في الوفاء بالعقد، تعطي الحق في عدم بذل الجهد أكثر. تنزع المسؤولية عن التلميذ، ويُحال إلى معاني السلبية، ثم يجد نفسه أعزل من كل سلاح حين يأتي الفشل فيما بعد. والاكتئاب يكون أكبر بقدر ما يدخله من العلاقات المرتبطة بالمشاعر، والتي تزيد من قوة الالتباس عنده. لأنه يعيش فيما يشبه الحضانة، ولكونه يظن - بسبب ذلك - أنه محبوب، فإنه يعيش في نوع من الشرنقة الانصهارية. وحين تأتي النتيجة

---

(1) ماري دانيال بيرولي (Marie Danielle Pierrelée)، «لماذا يملّ أطفالكم في القسم؟ Pourquoi vos enfants s’ennuient en classe ?»، نشر (Syros، 1999). [المؤلف].

(2) إليزابث ألتشول (Elisabeth Altschull)، «L’école des ego, Contre les gourous du péda-gogiquement correct»، نشر (Albin Michel، 2002). [المؤلف].

السيئة، فإن يعيشها مثل فراق مؤلم، بل مثل هجران يبرّر عنده نبذ «الخائن». بدلا من أن يكون التقويم حكما ضروريا ومحترما ومكوِّنا، ممنوحا عن بعد، فإنه يصبح تبادلا عاطفيا منحرفا، يتعلق به تحفيز التلميذ. في هذا الخليط الذي تجد الأطراف كلها فيه نصيبها من الثناء، فإن الوظيفة التربوية وذوق التعلم يختفيان.

لقد غيرت المدرسة – التي لم تَستقبل قط من قبل مثل هذا العدد من التلاميذ – إطار العيش والانضباط فيها، وبرامجها ومناهجها البيداغوجية، بالاتجاه دائما في نفس اتجاه الإيديولوجيا الأنثوية المهيمنة. ومع ذلك، فإن المطالب متشددة أكثر، ومتناقضة أحيانا. يستثمر الآباء أكثر فأكثر في المدرسة، وبشكل مبالغ فيه، مع أن ثقتهم فيها في تناقص. يطلبون منها أن تعمل كل شيء، ويعاتبونها لأنها عاجزة. في حين أن «رسالة المدرسة هي على الخصوص التعليم والتنشئة الاجتماعية، التي تعتمد على المكتسبات الأسرية»، فإن العديد من الأسر لم تعد تؤيد عمل المدرسين التربوي. دخلت المدرسة في مسار انحدار في المردودية وصارت محتقَرَة بشكل غير مسبوق، على الرغم من أن أماكن الدراسة لم تكن قط جميلة ومريحة كما هي الآن، وأن المدرّسين لم يكونوا قط بهذه الدرجة من التكوين الجيد، وأن الكتب المدرسية لم تكن قط موثقة وجذابة مثل اليوم، وأن المناهج البيداغوجية لم تكن قط بهذه الجاذبية، على الرغم من النقائص فيها وفي المدرّسين الذين يطبقونها.

إن رفض الفروق في المواهب ورفض أي نوع من الانتقاء، صار يفرض اليوم على المدرسة أن تجمع بين تنوع المسارات وواجب النجاح للجميع. بالنسبة للتلميذ الذي يعتقد أن له الحق في النجاح، فإن الشهادة لم تعد تعطى وفق الاستحقاق، بل لأن المدرسة ديمقراطية[1]. تجعل ضرورة المساواة من أي فشل في المدرسة فشلا للمدرسة، التي تصبح بذلك آلة للإقصاء. يزعم بعضهم أن المدرسة لم تعد مصعدا اجتماعيا بل مصعدا نحو المقصلة. بل يتحدث بعضهم عن المصير المدرسي المقدّر مسبقا منذ الحضانة[2]. تُتّهم المدرسة بأنها لم تعد فعّالة، وأنها تحافظ على التراتبية الاجتماعية.

---

(1) ريمون بودو، ناتالي بول و محمد الشرقاوي (Raymond Boudou, Nathalie Bulle et Mohamed Cherkaoui)، «المدرسة والمجتمع. مفارقات الديمقراطية Ecole et société, Le s paradoxes de la démocratie»، نشر (PUF، 2001). [المؤلف].

(2) فيليب ميريو ومارك جيرو (Philippe Meirieu et Marc Guiraud)، «المدرسة أو الحرب الأهلية L'école ou la guerre civile»، نشر (Plon، 1997). [المؤلف].

يتهمها البعض بالمشاركة في المؤامرة الكبيرة التي تهدف إلى إقصاء الأكثر فقرا؛ وأنها جنسوية تهمّش الفتيات من أفضل التخصصات. لم تعد فرصة جيدة، بل قدرا محتوما، أو كمينا منصوبا.

يتحول نقد نتائج المدرسة من طرف الضحايا الحاقدين إلى نقد للبرامج والمناهج، وبالطبع لهيئة التدريس. البرامج ثقيلة وناقصة في الوقت نفسه ولا تسمح للأطفال عند الخروج من المدرسة أن تكون لهم بضاعة معرفية نافعة؛ والمناهج غير ملائمة، ومنفّرة وغير ناجعة؛ والمدرسون سيئون لأنهم يجمعون بين العيوب البشرية وعيوب الموظفين إضافة إلى النقص في النظام الذي يضعونه. هم الذين يتحملون مسؤولية الفشل، أو لِنَقُل: مسؤولية النجاح الناقص للتلاميذ.

إن المدرّسين الذين يتعرضون للإنكار من خارج المدرسة، لا يتلقون الدعم من المؤسسة نفسها، التي هي بالمقابل في قمة العطف على الأطفال. يلاحظ ذلك آلان فينكلكروت (Alain Finkielkraut) فيقول: «لا توجد سابقة في التاريخ الأوروبي لِما يظهر اليوم من بغض الأساتذة والمدرسة، من طرف المؤسسة المدرسية نفسها، ومن طرف ما يسمى القوى الحية للمجتمع»[1]. تبدو التربية الوطنية أحيانا عاملة في صف التلميذ - الضحية أكثر مما تعمل في دعم الأساتذة الذين يجتهدون في إدخالهم إلى إطار القانون. إن المؤسسة المدرسية نفسها تساهم بديماغوجية في التوجه العام الذي يسعى إلى «مَأْسَسة» رفض المؤسسات.

تعطي المناهج البيداغوجية بكثرة تقلبها - على الرغم من أنها تبدو نافعة للتلاميذ الراغبين في التعلم - البرهانَ على أنها ناقصة، إن لم تكن فاشلة. لأن المناهج يعاد فيها النظر باستمرار لمحاولة إرضاء مطالب المستهلكين التي تزداد صعوبتها باستمرار، فإن الحجة تقوم على أن الأجوبة الصحيحة لا بد أن توجد، وأن تلك التي اختارها النظام مختلة، ما دامت لا تقدم الحلول المتوقعة. وبعد ذلك، لا تبقى سوى خطوة وحيدة نحو احتقار المدرسة. بهذا التوقف الطويل حول موضوع تحفيز التلاميذ، والحرص على الإصلاح المستمر ليقع تحفيزهم، فإنهم يحصلون على مبررات كافية على ألا يكونوا محفّزين، وبالتالي على ألا يشتغلوا ما داموا لم يتحفزوا بما فيه الكفاية. بالنسبة لآلان فينكلكروت: «تستمدّ الثورة الثقافية سبب وجودها من الكارثة التي تتسبب فيها». ويضيف توني أناتريلا: «إن الإصلاحات البيداغوجية للتربية الوطنية،

---

(1) آلان فينكلكروت (Alain Finkielkraut)، «الثورة الثقافية في المدرسة La révolution cuculturelle à l'école»، صحيفة (Le Monde)، 19 ماي 2000. [المؤلف].

التي هي الآن في طور الإعداد، تدل على عدم تبصر نفساني، لأنها تعزز أعراض النفسيات الصبيانية»[1]. إن هذه الإصلاحات المستمرة يمكن أيضا أن تؤدي - عمدا أو لا - إلى إحساس المدرسين بالذنب بسبب ما يُنكَر عليهم من ماضوية وعجز عن التأقلم.

في المدرسة، رسالة المدرّس هي التربية والتعليم، ويحتاج أن يُطاع ويُحترم من طرف التلاميذ. وهو يحتاج إلى ذلك خاصة أنه يضع القواعد والحدود، وأن ما يطلبه يكون صعبا دائما، ولا تُدرك فائدته على الفور. ولكن كيف يمكنه أن يكون كذلك، إذا كانت الممنوعات كلها قد أُذيبت، وإذا كانت وظيفته تسير في مواجهة الإيديولوجيا المهيمنة؟ كيف يمكن أن يطيعه الأطفال «الخارجون عن القانون» الذين يرون ويسمعون آباءهم يشككون في مصداقيته، ويرفضون أن يثقوا فيه أو يسلّموه السلطة؟ كيف يمكنهم ذلك وهم يرون ويسمعون وسائل الإعلام تصف ما يفعله بالتمييزي والمملّ وغير المفيد ولا الناجع ..؟ كيف يمكنهم ذلك وهم يرون ويسمعون المتحكمين في البيداغوجية الرسمية يقفون إلى جانب توسيع حقوق التلاميذ أكثر من الاحترام اللازم للواجبات؟ في حين ينتظر الآباء نتائج مدرسية حسنة، فإن ما يتلقاه التلاميذ في البيت والإعلام والمدرسة نفسها، يسوّغ نقص التحفيز لديهم. المفارقة أنه يُطلب منهم العمل في حين يُبرّر لهم ألا يكونوا راغبين فيه: إذا لم يعملوا كانوا مخطئين لأنهم لم يطيعوا، وإذا عملوا وأطاعوا المدرّس كانوا مخطئين أيضا لأن هذا الأخير لا يستحق أن يُطاع. يجري الأمر كما لو كان يُطلب منهم ألا يُطيعوا! في هذه الحالة الملتبسة، يجد التلاميذ أنفسهم أمام واجب لا يستطيعون الوفاء به. في حين اتُّهِمت المدرسة التقليدية بصناعة مصابين بالعُصاب، فإن مدرسة اليوم يصعب عليها جدا أن تفيد أطفالا دون أب، بل - في هذا السياق - يمكنها أن تنتج مرضى نفسيين.

أطفال لديهم ضعف في الاستقلالية

يقول لوي روسل في «الطفولة المنسية»: «نحن مغرمون جدا بأطفالنا، نحن لا نحبهم بما يكفي»[2]. يحسب كثير من الآباء أنهم يدافعون عن «قضية الأطفال» حين يبالغون في حمايتهم. إنهم ينفقون من مالهم وجهدهم، لكي يحصلوا في المقابل على شيء من العاطفة وعلى صورة تعطي انطباعا جيدا.

---

(1) توني أناتريلا (Tony Anatrella)، «العنف والنقص التربوي Violence et carences éducatives»، مجلة (La Croix)، 4 أبريل 1999. [المؤلف].

(2) لوي روسل (Louis Roussel)، «الطفولة المنسية L'enfance oubliée»، نشر (Odile Jacob)، 2001. [المؤلف].

صار حب الأطفال مرادفا لتدليلهم، وتركهم يفعلون ما يجب منعهم منه، وفعل ما عليهم أن يتعلموا فعله بأنفسهم. وينشأ هؤلاء الأطفال السادة المعتادون على الإرضاء، غير جاهزين للمستقبل.

يصبح الآباء العصريون أصدقاء، من أجل تكريس العلاقات الطيبة مع أطفالهم. يتخلون عن وظيفة الأب، ويجعلون أنفسهم طرفا في علاقة «متماثلة». ولكن هذا القرب الكبير والمصطنع يؤدي إلى نتيجة معاكسة: يلاحظ توني أناتريلا «أنه في هذه الظروف، لا يمكن أن توجد العلاقات، فإنها تصبح خطيرة جدا: لكي توجد، لا بد أن يُعترَف بالآخر في اختلافه، على بعد مسافة معينة وفي مكانه الصحيح. يقود الالتباس في العلاقات التي نخلق، إلى نوع من التوجس، بل إلى نبذ للآخر»[1]. الذي يقع في الحقيقة هو أن كل واحد ينكفئ على نفسه في فردانية متخوّفة.

يخلق الاستثمار الزائد، أو حتى نوع من المازوكية الأمومية المتأخرة أحيانا، علاقات غير متوازنة. التبادل قليل. يعطي الوالدان المنحصران في دور الأم وحدها، كل شيء، دون أن يجبر الطفل على أن يشكرهما. ولأن هذا الأخير لا يجد الفرصة لردّ الدين الذي عليه نحوهما، فإنه يبقى مرتبطا بهما دائما. إنه يبقى مركز حياة الأم «شديدة الحضور»، فيتحمل لذلك مسؤولية ضخمة. بالنسبة للطبيب النفسي فيليب جامي (Philippe Jeammet): «هذه ضريبة قرب عاطفي زائد عن الحد، يقتل استقلالية الطفل ويمنعه من بناء فضائه النفسي الخاص، وهويته الخاصة». حين تتكرر في أفواه هؤلاء الأطفال تعبيرات من قبيل «اتركني وشأني» أو «أنت تزعجني»، فليس ذلك علامة على الاستقلال بقدر ما هو دليل على عدم خروج الطفل من فلك أمه.

في حين كانت الأجيال السابقة تهجر المنزل لتفرض وجودها، فإن شباب اليوم الذين لا يصطدمون كثيرا بوالديهم، يؤخرون موعد الافتراق عنهم إلى أبعد حد ممكن. يترك شباب اليوم حضن الأم متأخرين، خوفا من المخاطر الخارجية. إن الخطاب ذا النزعة الأمنية يُعيدهم إلى الطفولة، ويحتفظ بهم في الشرنقة بدلا من إعدادهم لمواجهة الصعوبات.

تترك الأسرة «الديمقراطية»[2] في الغالب الأطفال يتصرفون كما يشاؤون، كي لا تفرض عليهم شيئا، ولا تحرمهم من الحرية وتحترم حقوقهم. لأن هؤلاء الأطفال - الراشدين لا يمكنهم

---

(1) توني أناتريلا (Tony Anatrella)، مرجع سابق. [المؤلف].

(2) فرانسوا دو سنجلي (François de Singly)، «Le soi, le couple, la famille»، نشر (Nathan)، 1996. [المؤلف].

الاعتماد على الراشدين - الأطفال المعطّلين، فإنهم يجدون أنفسهم لوحدهم لممارسة تربية ذاتية انطلاقا من لا شيء[1]. يخترعون قيمهم الخاصة مبكرا، دون قدوة، ويبحثون عن الطريق لوحدهم. يتناولون استقلاليتهم دون أن يتعلموها. دون إرث ودون تجربة، تبدو الأسس التي يحاولون بناءها غير صلبة. يُحمى هؤلاء الأطفال من جميع ألوان الحرمان التي يجب عليهم تعلم تدبيرها، وفي الوقت نفسه، يمكن أن يواجهوا مشكلات تتجاوزهم، في غياب تام للأمن. قبل أن يطلبوا ذلك، بل حتى قبل أن يجدوا الوقت للإحساس بالرغبة فيه، يُجبرون على الاستقلالية من طرف آباء يتحررون من أعبائهم التربوية لتفادي الصراعات. يذكر جان - بيير لوجوف (Jean – Pierre Le Goff) بأنه «مندهش من خطاب استقلالية التلاميذ، ومنهم الصغار جدا، والذي يدل بوضوح على رفض تحمل مسؤولية السلطة، والخوف من الصراع، ويحجب استقالة من طرف الراشدين»[2]. هؤلاء الراشدون يميلون إلى نسيان أعمارهم وأعمار أطفالهم. إن التعامل مع الأطفال مثل راشدين هو أقرب طريقة لمنعهم من أن يكونوا راشدين في يوم ما.

كثيرا ما يطلب الآباء المعاصرون - في هذا الالتباس العصري في الأجيال والأدوار - من الأطفال إصلاح أو تحقيق ما لم ينجحوا فيه بأنفسهم. يشجع البعض البنت مثلا على أن تلبس ثيابا لا تتلاءم مع تطورها النفسي. وتصبح البنت حينئذ صديقة للأب الذي يحقق بذلك حلم الإغراء بالواسطة.

يمكن للأطفال أيضا أن يعوضوا غياب الآباء ويقدموا لهم دعما «عاطفيا». يتحولون إلى متواطئين مع الآباء في الحياة الشخصية، ويؤدون دور المستشار وكاتم الأسرار. تخلق علاقات الإغراء الموضوعة للوصول إلى التجانس نوعا من الارتباك أحيانا. يخلق القرب الشديد بين الطفل والأب الذي يسعى بكل جهده إلى أن يحقق إعجابه به، إلى مناخ من «سفاح المحارم[3]».

---

(1) جيزيل هارو - ريفيدي (Gisèle Harru – Révidi)، «آباء غير ناضجين وأطفال راشدون Parents immatures et enfants – adultes»، نشر (Payot)، 2001. [المؤلف].

(2) جان - بيير لوجوف (Jean – Pierre Le Goff)، حوار مع إرنينفاين وبوترز (F. Ernenwein et J – F Bouthors)، مجلة (La croix)، 19 - 20 أبريل 1998. [المؤلف].

(3) كاثرين بيرجري - أمسيليك (Catherine Bergeret – Amselek)، «أن نولد ونكبر بطريقة أخرى Naitre et grandir autrement»، نشر (Desclée de Brouwer)، 2001. [المؤلف].

كان جوتولد إفرايم ليسينج يقول: «ما نسميه عنفا، ليس بشيء. العنف الحقيقي هو الإغراء»[1].

لا يستطيع الأطفال الذين لا يشعرون بالأمان مع آباء – أصدقاء شديدي اللطف، أن ينفصلوا عنهم لتحقيق الذات. بقدر ما يكون الآباء يعانون من الهشاشة والنقص، بقدر ما يخاف الأطفال من فقدان إعجابهم بهم، أو من مواجهتهم للتطور نحو المزيد من الاستقلالية. يحتاجون – من أجل الإحساس بالأمان – أن يحتفظوا في أذهانهم بصورة والد كامل. إنهم لا يكفون عن البحث عنه، وينتقلون من خيبة أمل إلى أخرى.

إن الأطفال المطالبين بحقوقهم والذين لا يترددون في تبني مظهر شديد التميز – بشرط البقاء في مظهر الشباب – هم في الحقيقة خائفون من البقاء منفردين. يبقَون معتمدين على غيرهم في سن يجب عليهم فيه أن يحلّقوا بأجنحتهم مع روح نقدي قوي ليكونوا أحرارا. إنهم في أمس الحاجة إلى الإحساس بالأمان في أية مجموعة يكونون فيها، لدرجة أنهم لا يطيقون الدخول في نقاشات حول موضوعات يمكن أن تجر إلى سجالات، وبالتالي إلى انقسامات. إن الصمت عندهم مفضّل على خطر الإضرار بالوحدة، والتي تصبح غاية في ذاتها. حتى في أوراق الفلسفة التي يقدمونها، يقتصر التعبير لديهم على أن يقولوا ما يشعرون به لا ما يفكرون فيه. تقديم الحجج يمكن أن يؤدي إلى خطر الانقسام، في حين أن مشاركة المشاعر الآنية يمكنه أن يوصل إلى الوحدة. يلاحظ باسكال بروكنر أن «العاطفة هي وحدها القادرة على جمعنا بالآخرين، وتسمح بإعادة بناء ما يشبه المجتمع المتماسك، على خلاف التفكير الذي هو متهم دائما، ولا يؤدي إلا إلى الانقسام»[2]. إذا قبلوا التجند في مهمة معينة، فإن ذلك يكون ظرفيا في قضايا مجمع عليها. يكون ذلك صحيحا في القضايا الإنسانية مثلا، أو في قضايا أخرى مثل قطع الطريق على المرشح جان ماري لوبن[3] في الدور الثاني من الانتخابات الرئاسية في فاتح ماي 2002. أما الانخراط

---

(1) جوتولد إفرايم – أمسيليك (Gothold Ephraim Lessing)، '1729 – 1781'، « Emilia Galotti»، 1772. [المؤلف].

(2) باسكال بروكنر (Pascal Bruckner)، «إغراء البراءة La tentation de l'innocence»، نشر (Le livre de poche)، 1995. [المؤلف].

(3) الأمين العام لحزب «الجبهة الوطنية» اليميني المتطرف، وقد استطاع الوصول إلى الدور الثاني مع اليميني جاك شيراك، فوقعت تعبئة تاريخية اتحد فيها اليمين واليسار لانتخاب شيراك وقطع الطريق على لوبن. [المترجم].

في نقابة أو حزب سياسي فإنه يُنظر إليه على أنه حبس أو مصدر للمواجهات. وكذلك يهرب أغلب الشباب من مسؤولياتهم، التي يفضلون تأخيرها إلى وقت «هرمهم».

في الواقع، بقدر ما تكون الاستقلالية مبكرة بقدر ما تعطي مراهقين غير مستقلين، يحاولون التعلم ذاتيا لإيجاد هوية خاصة بهم.

أطفال غير متعلمين يتعلمون ذاتيا

يعيش المراهقون الذين لم يكن لهم نموذج قوي يقتدون به لبناء أنفسهم، مثل الأطفال الخدّج في الحاضنة، بعيدا عن الوقائع. يشعر هؤلاء الشبان الذين تنقصهم التنشئة الاجتماعية، والذين قد يبدون مرتاحين ومزدهرين، بأنهم مهجورون. ولأنهم لم يجدوا في الطفولة فرصة التنافس مع راشدين مقاومين، فإنهم يجدون صعوبات في إيجاد مواقع لهم. يبدو الخوف الناشئ من ذلك مختلفا بحسب الجنس.

تبدو الفتيات الخارجات عن القانون عموما أحسن تكيفا مع عالم يجعل انعدام الحدود مثلا أعلى. لكن قد يشعرْن أحيانا بالاضطراب حين يستحيل تقليد نموذج المرأة "التي لا حدود لها"، فيشعرن بأنهن لسن شيئا. تسقط بعضهن في الاكتئاب، أو يعذبن أنفسهن للشعور بأنهن موجودات فعلا. وقد يكون هذا التعذيب على صورة تناول المخدرات، أو فقدان الشهية، أو الشره المرضي، أو تشويه الوجه ..

في المجتمعات التقليدية، يجد الأولاد تدريبات مؤسسية للتعلم، ينظمها الراشدون لتمكينهم من الانتقال إلى مقام الرجولة، لكن لا يوجد شيء من ذلك في المجتمعات الغربية المسماة "متحضرة". لقد اختفت تلك التدريبات منذ زمن طويل، لأنها حُكِم عليها بأنها ذكورية ولا تراعي المساواة بسبب كونها خاصة بالأولاد. أنهى قانون أكتوبر 1997 الذي وضع حدا للتجنيد الإجباري، آخر طقوس التدريب للخروج من حال المراهقة إلى مرحلة الرشد. صار الأولاد المساوون للبنات يتلقون تربية "أحادية الجنس"، بل تربية مؤنثة بشكل متزايد[1]. لتفادي

---

(1) في عام 2019، أعيد إقرار التجنيد الإجباري في المغرب، بعد عقود من إبطاله. لكن الطريف، أنه صار يشمل الذكور والإناث معا، وذلك تحقيقا لمقتضيات الإيديولوجيا الأنثوية المساواتية. وتبين بذلك أن أحد آخر معاقل التدريب على الرجولة كما يشرح ذلك المؤلف، يمكن تحويله بسهولة إلى معقل للمساواة المزعومة بين الجنسين. [المترجم].

تحولهم إلى ذكوريين، يُمنعون من تعلم أن يكونوا رجالا. ولكن هؤلاء الأولاد الذين رباهم آباء «أنثويون» على قيم الأنوثة، يجدون أنفسهم غالبا يبحثون عن الهوية والمعنى. يمكن أن تكون مظاهر هذا النقص متنوعة. بعض الشباب يعتنون بمظهرهم، لأنهم لا يجدون هوية حقيقية ولا مشروعا جماعيا ينتسبون إليه. إنهم يحسبون أنهم يتحكمون في العالم الذي يتفلت من أيديهم، بأن يمنحوا أنفسهم الإحساس بالتحكم في أجسادهم التي يعيدون تشكيلها وتصحيحها كما يحلو لهم. إنهم يخترعون طقوسا تدريبية لم يعد الراشدون ينظمونها، ليجدوا لأنفسهم هوية رجالية. يمكن أن تنحصر هذه التدريبات الذاتية في محاولات للحصول على الاستقلالية، أو للبحث عن أحاسيس قوية، ويمكن أن تكون إيجابية. ويمكن بالعكس أن تصبح كاريكاتورية، وخطيرة للأسف. إنها تتشكل غالبا في تصرفات خطيرة، فردية أو جماعية، هي «محاولات خرقاء ومؤلمة للدخول إلى العالم، والانتقال إلى مرحلة الرشد» كما يقول دافيد لو بروتون (David le Breton). «تجد التصرفات الخطيرة مصدرها في التخلي والتجاهل الأسريين، في الإحساس بعدم الأهمية عند الآخر، ولكن أيضا – وعلى العكس – في الحماية المبالغ فيها، خاصة من لدن الأم»[1]. إن الأفراد الذين لم يُعاقبوا قط على مخالفاتهم، يعاقبون أنفسهم. ويكون ذلك من خلال لعب خطيرة، أو من خلال التشويه الذاتي، أو الاستهلاك المبالغ فيه من الكحول والمخدرات، أو اعتداءات يمكن أن تؤدي إلى الموت. إنهم يسعون إلى أن يلعبوا مع الراشدين الذين يلتقون بهم، لعبة المواجهة التي لم يعرفوها مع الأب. إنهم محتاجون إلى الثناء والتمجيد، لأنهم لا يعرفون قيمتهم ولا قيمة حياتهم. تصبح الوقاحة اللفظية والشجارات والسرقات والنهب، مجالات لتحقيق الذات، حين لا يجدون طريقة للاعتراف بهم. يشرح دافيد لو بروتون: «بالمواجهة الفعلية مع العالم، واللعب بالحياة واقعيا أو مجازيا، والتعرض لخطر فقدها، فإنهم يفرضون جوابا على سؤال هل الحياة تستحق أن تعاش أم لا»[2]. إنهم يجدون في التجارب التي يشاركونها مع «العصابة» الإحساس بالوجود الذي لم يجدوه في الأسر اللامبالية أو «الحاضنة». مع المجموعة، يخلقون أسرة بديلة، ويصنعون «أخا كبيرا»

---

(1) دافيد لو بروتون (David Le Breton)، «رهان للوجود Un pari pour exister»، مجلة (Les cahiers pédagogiques)، عدد 411، فبراير 2003. [المؤلف].

(2) دافيد لو بروتون (David Le Breton)، «سلوك خطر، من لعب الموت إلى لعبة الحياة Conduites à risque. Des jeux de mort au jeu de vivre»، نشر (PUF)، 2002. [المؤلف].

يعوّض الأب بشكل مقبول. في هذا المكان الانتكاسي، يُبرِزون ما يحسبون أنه فحولتهم. كما كان آخرون في الشبيبة الهتلرية، متّحدين في العواطف نفسها، يقنعون أنفسهم أنهم سيكونون رجالا فعلا، ويجدون الفخر في ذلك.

يخترع الأطفال - خاصة الأولاد - الذين ليس لهم آباء ولا مراجع، نماذج كاريكاتورية انطلاقا من لا شيء. بالنسبة لبوريس سيرولنيك (Boris Cyrulnik): «عند عدم وجود «أب نفسي»، لا يمكن للطفل أن يتملص من القوة الشديدة للأم المفترسة. لكي يجد ما يشبه التحرر، فإنه يبحث عن أب خارج الأسرة، عن بديل أبوي. يجد حينئذ زعيم عصابة، أو عضوا سياسيا، أو أبا كارزميا، أو مؤسس طائفة دينية. لقد جعله غياب الأب مستعدا للخضوع من أجل التخلص من الأم!» [1]. في سنوات الثلاثينيات، وجد بعض الألمان الذين تعرض آباؤهم للإذلال، في النازي صورة الرجل المحترم، وفي هتلر زعيما كارزميا، والمنقذ الذي كانوا ينتظرون لاستعادة شرفهم المفقود. يوجد أصحاب السترات السوداء في سنوات الخمسينيات، والهوليجان (Hooligans)، وحليقو الرؤوس (Skin – heads)[2]، وزعماء العصابات، في الإشكالية نفسها. والإرهابيون اليوم هم غالبا أطفال دون جذور ولا أب يمكن تقليده، يسيِّسون معاناتهم ليمنحوا لثورتهم دافعا، ويجدوا لهم هوية. يلتقي سبب الصراع مع الحاجة لإيجاد وحدة وتضامن وصداقة. ويكون العمل النضالي وسيلة لإظهار فحولة غير مؤكدة، صارت ضامرة لأنها لم تجرّب قط. يسقطهم الاحتياج للأمن والوحدة طبيعيا في التطرف أو القومية أو العنصرية: هذه المشاعر الطبيعية الكامنة لا تجد صعوبة في الظهور متى احتاجت مجموعة ما إلى مسح ذل الآباء الساقطين.

في مواجهة الفراغ الذي يتركه الآباء الهاربون، يصبح «حنق الحياة» عند هؤلاء الشبان حماسة لصناعة المعنى وضمان قيمة الوجود. حين لا يمكن التميز بالمواهب، فالواجب المرور

---

(1) بوريس سيرولنيك (Boris Cyrulnik)، «تحت علامة الرابط Sous le signe du lien»، نشر (-Hachet te)، 1989. [المؤلف].

(2) أصحاب السترات السوداء: حركة شبابية ظهرت في فرنسا في سنوات الخمسينيات تحت التأثير الأمريكي على أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.
الهوليجانز: الذين يمارسون العنف وأنواع الشغب بمناسبة التظاهرات الرياضية.
حليقو الرؤوس: العنصريون المقتنعون بتفوق العرق الأبيض، ويمارسون العنف ضد الأقليات العرقية. [المترجم].

إلى العمل. ثم لا يهم «الإنجاز»، وإنما المهم أن يلاحظك الآخرون. إن رغبتهم اللامحدودة في الاعتراف يمكن أن تجعلهم يرتكبون الأسوأ. ولأنهم لا يجدون نماذج أخرى يقتدون بها، فإنهم يأتسون بالأبطال المعاصرين، والمفترسين، والمجرمين الخارجين عن القانون، الذين ترفع الأفلام قيمتهم. بل يمكن للنهب والاعتداء والجريمة أن تصبح حلا. «بدلا من أن لا يريدوا شيئا، فإنهم يريدون اللاشيء»[1]. إنه إذن شعار «أقتل إذن أنا موجود» للمدعو ريتشارد دورن (Richard Durn) الذي استطاع من خلال عمله الوحشي أن يخلّد اسمه عند الأجيال القادمة[2].

يزداد هذا الفراغ عند المراهقين دون أب، حين يشعرون بأنهم – ما داموا ليسوا أغنياء ولا مشاهير – لا يتلاءمون مع القيم الجديدة لمجتمع فرداني يكرس المظاهر. حين يلتحق نقص الرابط بالإحساس بالإقصاء من المجتمع كله، فإن ظاهرة التهميش تتعزز، وتبرر عند البعض جميع أنواع العنف اليائسة.

حين يتولّد العنف من اللاعنف

من أجل إلغاء العنف الذي اتُّهمت السيطرة الذكورية بالمسؤولية عنه، هاجمت إيديولوجيا انتفاضة 68 الأنثوية والسِّلمَوية وظيفةَ الأب وأرادت تحرير طبيعة الأنثى. لقد أزيح العقل الصارم لتكريس العلاقات التلقائية والمسالمة. ولكن، وكما يلاحظ ذلك دانيال سيبوني (Daniel Sibony)، «فإن العنف الشديد يمكن أن يُنتَج باسم رفض العنف»[3]. كما أن اتفاقيات ميونيخ لم تمنع الحرب الثانية، فإن بعض أنصار السلام المتحمسين يجدون أنفسهم دون قصد أنصارا للعنف. بل يكون هذا العنف تناسبيا مع اختفاء الصراع، ويمكن أن يكون أشد من العنف الذي أريد اجتنابُه.

في المجتمع المؤنث الذي يجب أن يسود فيه الانسجام، فإن الخصومة والاختلاف يجب أن يختفيا بين الأقارب. ولأنه لم يعد من «الطبيعي» إظهار العدوانية ضد شيء ما أو شخص ما، فإن العلاقات بين الأشخاص تصبح كاريكاتورية. «لم يعد الشركاء يرون إمكانية التواصل

---

(1) نيتشه. [المؤلف].

(2) قاتل مستشاري البلدية بمدينة نانتير (Nanterre) في 26 مارس 2002. [المؤلف].

(3) دانيا سيبوني (Daniel Sibony)، «الكراهية هي حين لا تقتسم مع الآخر La haine, c'est quand on ne veut plus rien partager»، حوار مع إيزابيل توب (Isabelle Taubes)، مجلة (Psychologie Magazine)، عدد 202، نونبر 2001. [المؤلف].

خارج تماثل صارم أو عدم تماثل دقيق؛ إنهم يجعلون العلاقات صلبة في إطار صور نمطية وكاريكاتورية للعلاقة بالآخر»[1].

يفيد الحب واللاعنف أحيانا في تسويغ تساهل بعض الآباء العصريين الذين لا يعلمون أي قيمة يدافعون عنها. لم تعد القيم التي يحكم بأنها معيارية جدا تَظهر للعلن، وذلك للبرهنة على الاتصاف بـ»التسامح». تُخنق النقاشات من طرف آباء لطفاء يفضلون الظهور بمظهر «إيجابي» ويخافون من إبراز الاختلافات. كما هجرت وظيفة الأب، فقد هُجر الصراع، الذي يقول عنه هرقليطس إنه «أب كل شيء»، ويجب - كما يقول الفيلسوف الفرنسي إتيين جرييو (Etienne Gruillot): «تهدئته أحيانا، ولكن يجب تحمله دائما»[2].

لقد اعتاد الأطفال على الريح، فصاروا في المراهقة عواصف. لم يجدوا أدنى اعتراض من لدن الآباء - الأصدقاء، فلم يستطيعوا تحرير عدوانيتهم الطبيعية، مع أنهم كانوا محتاجين لهذه المواجهة لبناء أنفسهم والتحول إلى راشدين. تظهر تلك الصراعات المكبوتة من جديد بعد سنوات، بعنف مضاعف ضد الآخرين أو ضد ذواتهم. وكما تلاحظ ذلك نيكول جامي (Nicole Jeammet): «فالآباء الذين يُرضون جميع الرغبات، فلا يمنحون طفلهم أي مسوغ للثورة ولا للعتاب، يجبرونه على توجيه كراهيته إلى نفسه»[3]. ذلك العنف المحتقن لعدم وجود منافس، يمكن أن ينفجر لأدنى سبب، ويأخذ أبعادا ضخمة.

لقد أصبح العديد من الشبان الذين لم يتعلموا أن يطلبوا مع احتمال الرفض ولا أن يعبروا عن الخلاف، يتواصلون مع آبائهم بالرسائل المضمونة أو بواسطة المحامي. وهكذا يجد بعض الآباء أنفسهم مدعوين للمحكمة من أجل طلب النفقة، لإعالة أطفالهم الذين كانوا متيقنين أنهم يرتبطون بهم بعلاقات جيدة.

---

(1) إدموند مارك ودومينيك بيكار (Edmond Marc et Dominique Picard)، «وجها لوجه: العلاقات بين الأشخاص Face à face : les relations interpersonnelles»، مجلة (Sciences Humaines)، عدد 33، يونيو - يوليوز - غشت 2001. [المؤلف].

(2) إتيين جرييو (Etienne Gruillot)، « Petite chronique de la vie comme elle va»، نشر (Le Seuil)، 2002. [المؤلف].

(3) نيكول جامي (Nicole Jeammet)، «العنف الأخلاقي Les violences morales»، نشر (Odile Jacob)، 2004. [المؤلف].

يترك التعبير عن الأفكار والمواجهة بينها بشكل مخدوم، مكانَه للتلقائية والعمل الفوري. تعوض الضرباتُ حينئذ التفكير والكلمة. لأن الأطفال لم يعرفوا المنع، فإنهم يجدون أنفسهم وجها لوجه مع غرائزهم. يصل الأمر ببعضهم إلى ضرب آبائهم، الذين يشعرون بتأنيب الضمير ويستسلمون للابتزاز. كان أفلاطون يقول: «إذا خاف الآباء من الأبناء، وخاف الأساتذة من التلاميذ، فإن الطغيان لا يكون بعيدا».

يشعر الكثير من الشبان اليوم بأنهم مقصيون وضحايا دون أن يعرفوا الأسباب ولا المسؤولين. ولأنهم لا يستطيعون تحليل وضعهم ولا إيجاد موضوع لمعاناتهم، فإنهم يصابون بنوع من السعار بسبب عجزهم عن مواجهة خصم معين. يشعرون بأنهم منبوذون. ولأنهم لا يقدرون على توجيه كراهيتهم لشخص ما أو شيء ما، فإنهم يشعرون بالكراهية، وكفى. الكراهية - كما يقول جان بودريار (Jean Baudrillard) - «عنف افتراضي. عنف عصبي إن صح التعبير، كما نتحدث عن حمل عصبي، وهو مثل هذا الأخير لا يولد منه شيء، ولا يؤسس أي شيء. الكراهية أكثر بعدا عن الواقع، وأبعد منالا في تمظهراتها من العنف المجرد. ولذلك يصعب معارضتها، سواء بالوقاية أو بالقمع. لا يمكن إزالة التحفيز عنها، ما دامت ليست لها حوافز ظاهرة. لا يمكن نزع التعبئة عنها، فإنه لا تعبئة فيها أصلا. لا يمكن معاقبتها، لأنها في الغالب تعاقب نفسها بنفسها. إنها مثال الهوى، الذي يواجه نفسه بنفسه»[1]. ينقلب هذا العنف العقيم الذي لا موضوع له، على الأفراد أنفسهم. يجعلهم يكرهون أنفسهم، ويجرهم في دوامة من التحقير الذاتي المؤلم.

لا يبقى للعنف أية حدود، حين تُنسى جميع الجذور، وتختفي الأخلاق، وتتساوى قيمة الأشياء، ويصبح الفرد مركز الكون، ويمكنه تسويغ أي شيء بمجرد قوله «هذا اختياري». يسقط البعض في العدمية الأشد تدميرا، وتصبح الوحشية هي الاستعمال اللاهي «للحرية». كان أحد شخصيات دوستويفسكي يقول: «إذا لم يكن الله موجودا، فكل شيء مباح». يسمح غياب الحدود بتدمير كل شيء. وهذا إغواء يزيد بقدر ما تصبح قوة الإضرار وسيلة للأخذ بعين الاعتبار.

---

(1) جان بودريار (Jean Baudrillard)، « Le degré xerox de la violence»، صحيفة (Libération)، عدد 2 أكتوبر 1995. [المؤلف].

خلافا لما كانت تتمناه الإيديولوجيا «الأنثوية» السلموية، فإن رفض كل نزعة «اصطناعية» للطبيعة، ورفض أي تطور، ونبذ العقل المُخصي، لا يقود إلى السلم، بل إلى «نزع الإنسانية» وإلى أشد أنواع العنف وحشية.

الإيديولوجيا «الأنثوية» أمْ الذكورية؟

كانت الإيديولوجيا «الأنثوية» تريد محاربة عنف المجتمع الذكوري، لكنها ساهمت في صناعة أطفال شديدي العنف، ولا يمكن التحكم فيهم. لكن الأسوأ أنها حين وضعت مسؤولية تربية الأطفال في أيدي الأمهات، لظنها أنها تمنع بذلك تناسل الذكورية، فإنها في الحقيقة جعلت هذه الأخيرة تظهر في أشكال أخرى أكثر تخلفا، لدى بعض الشبان.

حين خلطت الإيديولوجيا الأنثوية بين التحرير من الإكراهات وبين الحرية، فإنها تترك الطبيعة الإنسانية تعبر عن نفسها دون قيود. لم تعد الأنوثة مستترة، بل صارت على العكس معروضة بفخر مثل أية مادة استهلاكية. وهي تسبب اضطرابا للأطفال الذكور الذين يجدون أنفسهم ممزقين بين الارتباط بنموذجهم الأول وبين ضرورة التحول إلى رجال. (..)

صار بعض الأولاد اليوم يقتدون برجال سلطويين في الظاهر. والغالب أن هؤلاء الرجال لا يكونون "آباء" بل طغاة يمارسون القانون بأنفسهم بدلا من الحديث عنه. يمكن أن يتحول الأطفال الذين يقلدونهم إلى جانحين خارجين عن القانون، مستبدين مثل الذين يقتدون بهم. ولكن أغلبية الأولاد لم يعودوا يشكَّلون من خلال تربية فحولية وذكورية، بل ينشؤون - على العكس - في بيئة يغيب عنها الأب فعليا أو رمزيا. ليس لهؤلاء الأولاد أي سند يكون مرجعا لهم، ويعينهم على إيقاع الفصل اللازم. لم تعد الذكورة مشروعة، وصارت الأنوثة هي الأصل. كل ما يرونه يؤكد لهم أن الأم - وبالتالي "المرأة" - هي المرجع المثالي. لم يعد بمقدورهم الافتخار بجنسهم في الواقع، وكل شيء يدفعهم إلى البقاء في فلك الأم. في مرحلة المراهقة، ليس لهم أي طقس تدريبي يعينهم على الدخول إلى مجتمع الرجال. ولأن الكبت كان مكرّسا في مجتمع ذكوري بشكل مبالغ فيه، فإن الحاجة إليه صارت اليوم أمرا منفيا. صار الشبان مدللين في بيئة حاضنة، يُنصحون فيها بتطوير أنوثتهم.

لم يعد بعضُ المراهقين ذوي الهوية الهشة، والمتروكين دون أي سند، يعرفون ما عليهم أن يكونوا، ولا ما عليهم فعله ولا إظهاره. حين يكون الأب موجودا ولكنه مسيطرٌ

عليه، فإن الولد الهش يمكن أن يشعر بأنه ليس في أمان مع الأم[1]، فيسعى إلى الاعتراض عليها - وعلى النساء عموما - لتأكيد خصوصيته. «إذا كانت الأم مسيطرة والأب ممحوّا، فإن الولد يحاول - في رد فعل على ذلك - أن يعوّض بشكل زائد، ليواجه أمه، ويدافع عن أبيه، ويحمي هويته المهدّدة. وهذا الذي يعطينا ذكوريين»[2]. في مرحلة عمرية يجب عليهم فيها الشروع في تحمل هشاشتهم البنيوية، لا تبقى لهم وسيلة أخرى للتخلص من سيطرة المرأة سوى نبذها بعنف، ونبذ جميع «قيم الأنوثة» معها. خوفا من أن لا يُحترم اختلافُهم، فإنهم يبالغون فيه ويخترعون مظهرا رجاليا كاريكاتوريا. في السباق المحموم نحو المظاهر، يختار بعضهم رياضة «كمال الأجسام» ليمنحوا أنفسهم صورة الفحولة، التي ليسوا متأكدين من تقديمها. في السباق نحو الأداء، يعاني آخرون مما يسمى «عقدة غرفة تغيير الملابس»، بسبب خوفهم من أن لا يكون لديهم عضو ذكري كبير بما فيه الكفاية. يتعلم آخرون أن يكونوا رجالا «حقيقيين»، بالاقتداء بأكثر الرجال اختلافا عن النساء، وأكثرهم قدرة على السيطرة عليهن وتعنيفهن. لأنهم لا يستطيعون الاقتداء برجال يعانون من الذل التام (بسبب الثورة الصناعية، أو بسبب الهزيمة واتفاقية فرساي، أو تحرر المرأة، أو البطالة ..)، قدّس الكثير من الشبان الألمان في سنوات الثلاثينيات القيادات النازية، التي «تضخم الفحولة إلى درجة كاريكاتورية» كما يقول بوريس سيرولنيك[3]؛ واخترَع الأمريكيون رامبو، بعد هزيمة الفيتنام؛ وشبابُ الضاحية، لديهم زعيم العصابة، أو القائد المتطرف. يقول فيليب جوليان: «بقدر ما تنحط الصورة الاجتماعية للأب، بقدر ما يطالب الطفل بأخرى، تكون أكبر وأقوى وأجمل»[4]. لأجل الإحساس بالقوة، يوجد انكفاء داخل «منزل الرجال»، ونوع من «التوتر

---

(1) كلير بريسي (Claire Brisset)، «عالم يفترس أبناءه Un monde qui dévore ses enfants»، نشر (Liana Lévy)، سلسلة (Opinion)، 1997. [المؤلف].

(2) ستيفان كليرجي (Stéphane Clerget)، «لأطفالنا أيضا جنس Nos enfants aussi ont un sexe»، نشر (Robert Laffont)، 2001. [المؤلف].

(3) بوريس سيرولنيك (Boris Cyrulnik)، مرجع سابق. [المؤلف].

(4) فيليب جوليان (Philippe Julien)، « Le manteau de Noé, Essai sur la paternité»، نشر (Desclée de Brouwer)، 1991. [المؤلف].

الفحولي»[1]. بل قد يصبح الفيلم الإباحي، الذي قد يشاهَد في سن مبكر، هو المرجع لدى بعضهم.

لا يوجد عند هؤلاء الشباب، تجنيد من طرف ذكور مهيمنين، بل يوجد فقط غياب صورة الأب. خلافا للذكورية التقليدية المرموزة التي كانت تنتقل عبر التقليد، فإن ذكورية جديدة دون حدود، تنمو الآن بسبب نقص التربية، وضياع المعالم. وهؤلاء الذكوريون الجدد أخطر من السابقين. في حين كان الذكوريون السابقون يعيثون فسادا ولكن في إطار محدود بمعايير المجتمع الباطرياركي، فإن الذكوريين الجدد المنتمين للأجيال التلقائية يتبنون أدوارا كاريكاتورية، اخترعوها بأنفسهم خارج أي إطار. إنهم ينشطون في هذه الشخصيات التي لا يتحكمون فيها، خوفا من أن تَغلبهم النساء «المتحررات»، اللواتي يسببن لهم الإعجاب والخوف في الوقت نفسه. يزيد غضبهم ويصبح عنيفا، بمقدار شعورهم بالإذلال بسبب عجرفة النساء اللواتي يسمحن لأنفسهن بكل براءة - لأن الإيديولوجيا «الأنثوية» تشجع على ذلك - بلبس ثياب والقيام بتصرفات لم تعد تأخذ اختلاف الجنسين بعين الاعتبار. يُحيي هذا الإذلالُ الشعورَ بالخجل والغضب، من الذكور الذين لم يقبلوا الحرمان من قوتهم الشديدة. ليبرهنوا لأنفسهم على أنهم مختلفون عن النساء، وليشعروا بالفخر لكونهم رجالا، فإنه يتعين عليهم أن يكونوا أقوى منهن ليخضعوهن: الشتم والعنف الجسدي يصبحان وسيلة بلوغ ذلك. يعاد اختراع الذكر المهيمن في الاغتصابات الجماعية. حين يغتصب جمع من الذكور فتاة ما، فإن هؤلاء «الأبطال الجدد» يحسبون أنهم يحققون عملا شجاعا، يمكنه إرجاع الشرف المفقود للرجال!

يمكن لبعض الأطفال من المهاجرين، أن يجدوا تسويغا لسلوكهم في تأويل معين للثقافة الإسلامية التي لا يعرفونها جيدا. لأنهم يشعرون بالإذلال بسبب الحرمان من هوية جنسية حقيقية (لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للأجيال الأولى من المهاجرين) ومن هوية وطنية (حين استبدل بها آباؤهم وعودا بالإدماج)، فإنهم يؤَسلِمون ذكوريتهم، بالالتحاق الكاريكاتوري بالمرجع الهوياتي الوحيد الذي يمكن أن يجمعهم ويطمئنهم.

---

(1) دانيال فيلزر - لانج (Daniel Welzer - Lang)، «المقاربات الجديدة للرجال وللمذكر Nouvelles approches des hommes et du masculin»، نشر (Presses universitaires du Mirail)، 2000. [المؤلف].

حين لا تسمح الإيديولوجيا «الأنثوية» للأولاد بإيجاد نماذج ذات قيمة خلال عملية بنائهم الذاتي، فإنها تساهم في تجديد الذكورية. وتساهم في ذلك أيضا بتدمير صورة المرأة بدلا من الدفاع عنها. في مجتمع يؤكّد على قيم الشباب والأنوثة، فإن النساء يبدو أنهن محكوم عليهن - لكي يعشن - بأن يكنّ شابات ومتحررات، ويفِضن أنوثة، إن لم نقل: مثيرات جنسيا. لقد صرن يقدَّمن في هذا الدور الذي يقلق حتى بعض الأنثويات على أنهن نساء - سلع، أو حتى «نساء - محارم ورقية»، لهن «تاريخ انتهاء للصلاحية يتناقص باستمرار». وأيضا تطالب بعض الأنثويات الرافضات للاعتراف بالفروق بين الجنسين، باستقلالية تامة. حين يقصين العشيق والزوج، فإنهن ينفين الحياة الجنسية. إنهن يختزلن المرأة في الأمومة، في حين كانت الأنثوية تريد الخروج من هذا الدور الحصري، الذي حبسها فيه الذكوريون.

في هذا العالم الذي يعيش أزمة مراهقة، يبقى الرجل والمرأة أطفالا معجبين بصورة «المرأة» القوية، ولا يستطيعان تحمل صورة قوة الإنسان الحقيقية. ينكر الذكوريون هذا الإعجاب ويسعون لإقناع أنفسهم وإقناع الآخرين بتفوق ذكورتهم. تبقى بعض «الأنثويات» معجبات بوهم القوة الشديدة «للمرأة». مع «التحرر»، تظن بعض النساء أنهن يستطعن تحقيق أنفسهن نساءً، مع أنهن يتابعن وهمًا في الحقيقة. الرجل ليس رجلا فعلا، والمرأة - حين لا تجد أمامها رجلا - تبقى في المتخيَّل، ولا تصبح امرأة فعلا. إنها متحررة من الإكراهات، ولكنها ليست أكثر حرية من الرجل. كلاهما يعيشان نفسيهما موضوعا لا ذاتا. الإنسان لا يزال غير موجود. (..)

يقول جيرار مندل: «إن الخطر ليس ربما في كوننا قلَبْنا ودمّرنا جزئيا ما كان موجودا (مما بعض أجزائه السلبية تظهر اليوم في الترسبات الراهنة)، بل في غياب أي حل بديل. إننا غير واعين بأننا صرنا نحاول المشي بتوازن على حبل ممدود فوق فراغ ثقافي واجتماعي، لا نعتمد سوى على وهم - أو سراب - أن هذا الفراغ غير موجود، وأنْ لا شيءَ تغير»[1].

(1) جيرار مندل (Gérard Mendel)، «تعلم العيش مع اللايقين Apprendre à vivre avec l'incertitude»، نشر (Robert Laffont)، 1979 [المؤلف].

عمل المرأة داخل البيت وخارجه

من كتاب «خدعة الأنثوية الرهيبة» للوسي شوفي (ص11 - 25 و47 - 51 و76 - 82)

ربة البيت، كابوس الحداثة

[هذا مقال ساخر للكاتبة سارا برونيل (Sarah Brunel) منشور على الشبكة، يشجب بطريقة دقيقة ومضحكة، نوعا من التفكير ينتشر في مجتمعاتنا – المؤلفة لوسي شوفي][1].

توجد اليوم في حياة المرأة أشياء من المناسب إخفاؤها، لأن إظهارها يؤدي إلى الموت الاجتماعي، وإلى عاصفة من الاستهزاء، مع التصنيف ضمن خانة «امرأة متجاوَزة وعديمة الفائدة». من ضمن هذه الأشياء: اعتراف المرأة بأنها «ربة بيت».

لحسن الحظ بالنسبة لي، لست ربة بيت. لديّ نشاط مهني بأجر، وعندي رئيس في العمل كثير الصراخ وضعيف الكفاءة، وزملاء تافهون، وحاسوب، وفنجان قهوة، وساعة للتنقل صباحا ومساء، وملفات أحتاج إلى إنهائها في عطلة نهاية الأسبوع. أنا إذن امرأة «حققتْ ذاتها»، امرأة «مزدهرة». لذلك يمكنني أن أتكلم في الموضوع بكل هدوء. وأشكر بشدة المجتمع كله، من أمي إلى تقنيي الإشهار، مرورا بالكتّاب والممثلين والمنشطين التلفزيين، الذين حذروني منذ الصبا، بشراسة من الوضع الظلامي والمخزي لـ«ربة البيت».

في الحقيقة، كنت سأتجنب هذا الخطر حتى لو لم يحذّروني، وذلك لأنه لم يكن باستطاعتي – مع أثمنة الكراء الحالية وثمن المشتريات من السوق الممتاز – أن أعيل أسرتي دون أن يوجد مرتّب ثان في الأسرة. إنه «مكسب اجتماعي» يأخذ شكل «ضرورة اقتصادية»، هذه هي الحرية العصرية .. في الوقت نفسه، وما دمنا مجبرات على كل حال، فمن الأفضل ادعاء أنه اختيار رائع ..

– هل أنت بائعة في هذا السوق الممتاز بدوام جزئي، من أجل الحصول على بعض المال الإضافي؟

---

(1) أحسنت المؤلفة بوضع هذا المقال الساخر في صدر كتابها، لأنه – على الرغم من أسلوبه «العامي» – يعطي القارئ أهم مفاتيح فهم إشكالية عمل المرأة خارج البيت وداخله، بين النظرة الأنثوية، والضغط الاقتصادي، والتحولات النفسية والاجتماعية لدى الرجل، والتحولات العميقة في الأسرة، وأمور أخرى؛ كل ذلك من منظور امرأة غربية غير «متهمة» بتدين ولا أدلجة. تحاول الأنثويات طمس مثل هذه الأصوات، مع أنها في تزايد مستمر داخل المجتمعات الغربية. [المترجم].

– لا، أبدا، بل لكي لا أكون ضحية العبء الباطرياركي المتخلف الملازم لوضعية ربة البيت.

الحق أن زميلاتي اللواتي يشجبن مهنة «ربة البيت» في المنابر الحرة بالصحف المعروفة لوموند (Le Monde) أو ليبراسيون (Libération)، لسن بائعات ولا سكرتيرات ولا سائقات حافلة. إنهن في الغالب محاميات، ومسؤولات ترويج، ومخرجات أفلام قصيرة، وفنانات تشكيليات مدعومات، وصحافيات، ومديرات تواصل .. ولا شك أن ذلك يغيّر طريقة إدراك النقاش شيئا ما.

علينا أن نقول إننا معاشر النساء المشغولات بأداء الفواتير، وإطعام الأطفال الصغار، والذهاب في عطلة مرة واحدة في السنة إلى رمال أولون (Sables d'Olonne)، ليس لدينا الوقت الكافي للتفكير في «الهرمنيوطيقا التاريخية السياسية لوضعية المرأة». لذلك، فمن حسن الحظ أنهن هنا، أعني مناضلات الأنثوية من الأحياء الراقية، فهن سيفكرن بدلا منا، وسيحاربن «ميولنا الرجعية» (وهي الميول التي من أجلها رفض اليسار طويلا تمديد حق التصويت للنساء، بدعوى انتظار أن تقوم المدرسة الجمهورية بتربيتنا كما ينبغي ..) ويحرّرْننا على الرغم منا! ليحفظهن الرب! أيتها القديسة إليزابت بادنتر، نحن ندعو لكِ في صلواتنا!

علينا مع ذلك أن نعترف بأن المرأة حينما لا تكون «ربة بيت»، فإنها لا تكون «معتمِدة» على رجل ما. أن يكون هذا الرجل هو الذي اختارته المرأة بحُرية، وهو الذي تحبه وتتوخى أن تعيش بقية حياتها معه، أمر لا أهمية له .. الاعتماد على رجل ما، شيء سيء ومهين .. بل يحط من الكرامة، ما دام قد استقر في الأذهان أن الإنسان العصري لا قيمة له من الناحية الاجتماعية، إلا إن كان قادرا على يربح ماله بنفسه، دون اعتماد على غيره.

وهكذا، فإن الاعتماد على رئيس مصلحة صغير ومحبَط، وعلى تقلبات الأسواق المالية، شيء آخر! إنه مسبب للرضا النفسي أكثر!

هل تشكّون في ذلك؟ لنأخذ هذا المثال:

– إعداد القهوة للزوج صباحا: علامة خضوع تنتمي إلى العصور السابقة. ألا يمكنه أن يعدّ قهوته بنفسه؟ هل أنتِ خادمته؟

– إعداد القهوة في الطابق الثاني عشر من عمارة مكيّفة للإطار العالي القابع في المكتب الأخير: علامة استقلالية وتطور اجتماعي، مضمونة ومؤطرة بعقد لمدة محددة، وبالحد الأدنى للأجور.

هل فهمتنّ الآن، أم أنكن تردن فقط أن تكنّ خادمات، همّهن رعاية الأطفال والاعتناء بحديقة منزلية صغيرة وشغل الوقت في جمعية خيرية، بدلا من مواجهة المغامرات العجيبة والتحديات الرائعة لعالم الشغل؟

هذا دون الحديث عن الفرص الجنسية المتاحة في العمل، وهي كثيرة ومنوعة ومستورة، وأفضل من الفرص التقليدية مع السبّاك أو ساعي البريد .. ولكن هذه قضية أخرى[1] ..

وعلى ذكر عقد الشغل بمدة محددة، فعلينا الاعتراف أنه بالنظر إلى ما صار عليه الرجال اليوم، والقيمة التي يعطونها لميثاق الزواج والتقلص الهائل في «حس الواجب» عندهم، فإن الزواج صار يشبه هذه العقود المؤقتة .. وفي هذه الظروف، لا يمكننا أن نتجاهل أن «الاعتماد على رجل ما» صار أمرا عشوائيا .. خاصة بعد أن صار الطلاق ميسورا (وهذا أيضا فتح تقدمي عظيم من أجل «تحريرنا» ..). من قبل، كان الرجل قد يذهب إلى العاهرة عند الحاجة. أما اليوم، فقد صار يهرب معها «لتجديد حياته» .. مكالمة هاتفية مع المحامي، توقيعان اثنان، حقيبة، وتم الأمر! ربما تكون هذه خطوة كبيرة في مسار التنمية الاجتماعية للعاهرات، لكن بالنسبة لنا نحن – اللواتي لسن عاهرات – فالأمر ليس جيدا البتة.

وعلى هذا فمن اللازم عدم الخطأ عند اختيار الزوج، بل اللازم أخذ معايير متعددة بعين الاعتبار، ليس من بينها ضخامة الحساب البنكي والبرج الفلكي .. كما يوجد في بعض المجلات، فإن ذلك لا يضمن الاستمرار في الزواج[2].

---

(1) التحرش والاغتصاب والخيانة الزوجية والهوس الجنسي، بسبب القرب الشديد بين الجنسين في أماكن العمل، قضية مهمة جدا، مرت عليها الكاتبة مرور الكرام بأسلوب ساخر. وهي قضية تهدد استقرار الأسرة، وبالتالي النسيج المجتمعي كله؛ لكنها من الطابوهات التي يستحيل إثارتها بشكل رسمي في الإعلام الغربي. [المترجم].

(2) لا يملك من يتأمل التشريع الرباني في مجال الزواج والأسرة، إلا أن يندهش من هذا التكامل والتوازن والشمول، الذي لا يمكن أن يصدر إلا من الحكيم الخبير. ضع هذا في ذهنك، وأنت تقرأ هذه الفقرة التي وصلت إليها الكاتبة «بفطرتها»، واجعل بدلا من «المعايير»: «الدين والخلق»، وهما اللذان يضمنان «حس الواجب» الذي تتحدث الكاتبة عن أفوله من دنيا الرجال اليوم. واستحضر هذا كله وأنت تقرر أن الإسلام حين يجعل الإنفاق مسؤولية الرجل، ورعاية البيت مسؤولية المرأة الأولى، فإن ذلك لا يكون مثمرا إلا بتوفر المعيار الأخلاقي والديني عندهما. [المترجم].

ولكن هذه قضية أخرى أيضا ..

وإذن، فإنني أقول هذا كله لأخبركم بأنني سعيدة جدا لأنني لست ربة بيت، معتمدة على رَجُلها المغفل، وخاضعة لأطفالها الوحوش، وأنني أرثي لمن هي في مثل هذه الحالة!

بعد أن قلت هذا، سآخذ نصف حبة من دوائي المضاد للاكتئاب[1]، ثم أذهب للسرير!

ليلة سعيدة (وطويلة) لكن جميعا!

سارا برونيل

مقدمة كتاب «خدعة الأنثوية الرهيبة»

بلغتُ الثلاثين من عمري، ووصلت إلى منعطف في حياتي. لقد مررت من ظروف مختلفة جدا، وجربت تناقضات عالمنا الغربي، وعلى الرغم من سني، أشعر أنني عشت أعمارا عديدة.

لقد استطعت اليوم أن أحدّد السمّ الذي كان يلتهمني من الداخل، واستطعت أن أتخلص منه. إنه "الأنثوية".

بسبب الأنثوية ومجتمع الاستهلاك الذي يدعمها، صنعتُ لنفسي يوما إثر يوم فخّا، لم ألبث أن وقعت فيه.

أكتب اليوم هذا الكتاب بصفتي امرأة، لأستنكر هذه الخدعة العجيبة التي تسمى الأنثوية، ولأحذّر الفتيات والنساء والأمهات المستقبليات من شراكها المنصوبة.

أكتب لأطَمئِن جميع اللواتي يعانين من عدم رؤية أطفالهن، وأيضا من أجل اللواتي كرّسن حياتهن لأسرهن، ولذلك يُحتقَرن بسبب اختيارهنّ هذا، أو بسبب ضعف مستواهن الدراسي. أريد أن أقول للأولَيات بأن بإمكانهن أن يقررن التوقف عن العمل ليصبحن ربات بيوت، وللأخريات بأنهن ما ضيّعن شيئا حين تخلين عن الحياة المهنية. أريد أن أُظهِر من يختفي حقا وراء مسعورات الازدهار عن طريق العمل، ومن هم جلادونا الحقيقيون.

أريد أيضا أن أذكّر الجميع، رجالا ونساء، بأن الأهم في الحياة، هو الأسرة.

---

(1) وهذا أيضا من المسكوت عنه في الثقافة الغربية المهيمنة: المعاناة اليومية للمرأة العاملة خارج البيت، والتي تضطر أيضا في كثير من الأحيان إلى العمل داخله أيضا، خاصة عند هروب الرجل من مسؤولياته، فعليا أو رمزيا. وهي معاناة لا يبقى معها إلا المشكلات النفسية المستحكمة. [المترجم].

هذا الكتاب وجهة نظري، ولا أنوي أن أجعل منه أمرا عاما، كما تفعل البرجوازياتُ الأنثويات في كُتبهن، حين يدّعين تمثيل النساء جميعهن.

لأدعم آرائي، استقيتُ شهادات نساء من آفاق مختلفة. ومن أجل فهم ما دفعني لتأليف هذا الكتاب، سأذكر بعض العناصر من مسيرتي الشخصية.

***

في المدرسة العمومية، كنت منذ الصغر في أقسام مختلطة. تعلمتُ تدريجيا كأنه أمر بدهي، ومثل جميع الأفراد من سنّي - من الأولاد والبنات - أن النجاح في الحياة يمرّ عبر الاجتهاد في المدرسة، من أجل تحصيل شهادة عالية، للعيش بسعادة دون أي حرمان.

حتى قبل أن يكون للأولاد في مثل سنّي طموحات مهنية، كنت أرى نفسي طبيبة بيطرية أو عالمة في السلوك الحيواني مثل جين جودال (Jane Goodall) أو إطفائية! بالنسبة لي، كان بإمكاني أن أفعل أي شيء إذا حققت وسائل ذلك، حتى المهن المخصصة عادة للأولاد.

ولكنني مع ذلك، كنت دائما مرتبكة حين ألاحظ الآتي: في زمن جدتي، كان من الشائع ألا تعمل المرأة لتعتني بأطفالها؛ أما جيل أمي، فالغالب على النساء فيه العمل خارج البيت. أثرتُ القضية أحيانا، ولكنني لم أفهم الجواب قط. لم أستطع أن أفهم لِم يُكافح شخص ما من أجل الذهاب للعمل، في حين أنه ليس مجبرا عليه. كانت هذه الفكرة تترعرع في ذهني وأنا صغيرة، دون أن تتجذر فيه فعلا.

مثل كثير من الآباء العطوفين والموافقين لروح عصرهم، شجعني والداي على أن أكون ضمن «الأفضل» في قسمي الدراسي، لأحضّر مستقبلي جيدا. لقد ساعداني دائما.

كان أمي المعلّمة تزيح عن كاهلي تماما مسؤولية أي عمل منزلي. لم أكن أعمل أي شيء في البيت: لا كي الملابس ولا عمل المطبخ ولا الغسل الأواني ولا غسيل الثياب، ولا حتى توظيب سريري .. لم تكن تريد أن تشغلني بهذه المهام الفرعية التي يمكن أن تلوّث تعليمي. يمكنني أن أقول إذن إنني عشت جيدا .. ولكن بيئتي كلها كانت مشغولة بالمدرسة والنجاح المدرسي. كانت أمي تدفعني إلى التعلم دائما أكثر، وكانت نتائجي مثالية، مما كان يجعلها فخورة، خاصة أمام زملائها وأمام أولياء التلاميذ الآخرين. كان من المخجل أن يكون لديك ابنة كسولة غير مؤدبة، وتعيش في «فشل دراسي».

كنت إذن في تلك المرحلة مصدر فخر لوالديّ ولجدودي.

حصلت مثل كثير من بنات جيلي (44,2 ٪ عام 2002)، على الباكالوريا العلمية بميزة في بداية سنوات 2000. ولأنني كنت متعبة من الدراسة ومن الطاقة التي كرستُ لها منذ الطفولة، فقد اخترتُ مسارا جامعيا قصيرا. بعد عامين مرهقين لتحصيل الدبلوم الجامعي التكنولوجي (DUT) في البيولوجيا، بدأت أول عمل لي في مختبر تحليلات في البيولوجيا الطبية. وبموازاة ذلك التقيت بزوجي المستقبلي، وبعد عام واحد – أي في سن الثانية والعشرين – صرت حاملا بطفلي الأول، وكان ولدا. كنت في قمة السعادة!

ولكن خلافا لتوقعاتي، انقلبت حياتي الهادئة والساكنة، وتلقيت واقع الحياة على وجهي بشكل صادم. الواقع المجرد، الذي لا يخبرك به أحد في الكتب، الواقع الذي يجب أن تعيشه لتفهمه حقا.

لأنني كنت فخورة بحملي، فقد أعلنت الخبر السعيد لأسرتي. ومنذ ذلك اليوم، بدأت رحلتي مع الخجل ..

الخجل! الخجل الشديد .. أن أكون حاملا، يشبه ما لو أخبرتهم أنني مصابة بأشد الأمراض خطرا وحطا من الكرامة. لقد دفعوني منذ كلماتي الأولى إلى الإجهاض. اتصل بي – فيما بعد – بعضهم يوميا، ليطلبوا مني وهم يبكون، أن أوقف حملي. حاولوا إرهابي بذكر صعوبة تربية الأطفال. رسموا لي لوحة سوداء، لدرجة ترويعي من الأمر. كنت أبكي صباح مساء. لم يكونوا يتوقفون عن تكرار القول بأنني «أسير في اتجاه مسدود»، بأن «حياتي قد انتهت»، بأنني «لم أعش حياتي»، وبأنني إذا احتفظت بهذا الطفل، «فإن حياتي منذ هذا الحين ستكون ضائعة» ..

شرح لي والداي بأنني لا يمكنني أن أعتمد عليهما في هذا الأمر، فلن يساعداني، وأنني قد اتخذت هذا الخيار وعليّ تحمل عواقبه. هذا الخطاب شائع عند الآباء، ولكنه متناقض جدا. في الحقيقة، أندهش دائما حين أسمع والدين يرفضان – من الناحية المبدئية – مساعدة زوجين شابين، تحت ذريعة أنهما ما يزالان شابين (وقد يكون هذان الزوجان لم يطلبا شيئا منهما أصلا)، في حين يبادر الوالدان إلى مساعدة زوجين ثلاثينيين شديدَي النشاط، قد أعدّا العدّة لكل شيء (غرفة واسعة للطفل مجهزة بآلة مراقبة، مكان في الحضانة محجوز قبل الولادة، خزانة ملابس مرتبة للسنوات ما بين 0 و3، حساب ادخار من أجل الدراسة المستقبلية، إلخ).

انتقلتُ من مرتبة «الفتاة المثالية» إلى مرتبة الخلل، الأضحوكة، الخزي. لم أكن أفهم شيئا من الزلزال الذي أحدثتُه. كنت شابة، ولكن ليس إلى هذه الدرجة! في سن الثانية والعشرين، كنت في المرحلة العمرية (بين 20 و40) التي تكون المرأة فيها في أعلى درجات خصوبتها. كان يبدو لي من الطبيعي إذن أن أكون حاملا في هذه المرحلة من عمري! ثم، وعلى الرغم من أن زوجي قرر متابعة دراسته في مدرسة المهندسين بعد الدبلوم الجامعي التكنولوجي، فقد قررنا معا أن ننجب في هذه اللحظة، في حماسة الحب الذي كنا نعيش فيه، متأكدَين أن حبنا هذا سيستمر دائما. كنا شابين بالتأكيد، ولكن كنا في كامل المسؤولية عن اختيارنا. وبسبب تكويننا، كنا متأكدين أننا سنجد عملا في أي وقت.

بدأ والداي وأقاربي يمرّران لي تلك الحجة الوحيدة المتداولة اليوم في عالمنا الغربي: «في عصرنا، علينا أن نربح كثيرا من المال، ليمكننا ضمان المستقبل والعيش بسكينة». كانت أمي تكرر على مسامعي بحرقة: «ألن تتجاوزي مستوى سنتين بعد الباكالوريا؟». وأما صديقاتي فكنّ يقلن لي: «قيمتك أكبر من هذا! يمكنك أن تكوني طبيبة أو أي شيء آخر .. لديك القدرة على ذلك، إنها لخسارة أن تتوقفي هنا».

تحت تأثير هذا الخجل وهذه الملحوظات الدائمة، بدأت أولا ببذل جهل خارق لأبرهن للجميع بأنني أم جيدة على الرغم من سنّي. أصررتُ مثلا على الإرضاع لمدة ثلاثة أشهر على الرغم من بعض التشوهات في جسدي. والمفارقة أن بعضهم أصر على تفسير إصراري بأنه بسبب قلة نضجي. في هذه المرحلة، ذكرتْ لي إحدى صديقات العائلة بطريقة ساخرة أن النساء الثلاثينيات يقدّمن رضاعا اصطناعيا - وذلك أليق من الرضاع الطبيعي - ، فليس من الواجب عليّ أن أجبر نفسي على ذلك.

ثم - بعد ذلك - أردت أن أثبت بسذاجة للجميع - ولعائلتي بالدرجة الأولى - بأنني لست غبية غير ناضجة، بل أنني عاقلة وناضجة .. حين أتم ابني عامه الأول، استقلت من عملي كتقنية مختبر لأستأنف الدراسة. حصلت على إجازة مهنية بميزة «حسن» في الوقاية البيولوجية من الالتهابات، ثم على ما يعادل الماستر1 (لقب مسؤول الأنظمة المدمجة «الجودة، السلامة، البيئة» بميزة حسن) ثم شهادة الماستر2 (في التدبير والجودة الشاملة، شعبة التدبير المدمج «الجودة، السلامة، البيئة» بميزة حسن أيضا). لمدة ثلاث سنوات، جمعت بين دور الأمومة ودراساتي العليا.

استطعت - وأنا أتحلى بهذه الشهادات - أن أسترجع بعض القيمة في أعين عائلتي وأصدقائي، وأن أشعر بشيء من الطمأنينة. بعد ثلاثة أشهر فقط من البحث عن عمل، حصلت على منصب مهندسة في شركة عالمية للتدقيق والاستشارات في مجال السلامة والبيئة، بمرتب 2000 أورو كبداية.

كنت في قمة السعادة .. كنت أخيرا سأصبح «شخصا حقيقيا»، يستحق الاحترام ..

كان العمل مُثريا جدا. كنت أتعلم الكثير، وأبذل الكثير من الجهد. ولكن العمل كان مهلكا للوقت والصحة: كثير من القلق، تنقلات كثيرة، أسبوع من 50 ساعة على الأقل .. لم أعد أرى ابني، الذي كان يقضي وقته بين المدرسة ومراكز الترفيه والمربّية. بعد أربعة أشهر مرهِقة، أنهيت مرحلة الاختبار بنجاح: كان مشغّلي راضيا عن عملي، ويريد الاحتفاظ بي. لكنه كان نصرا مرّ المذاق. كنت أشعر أنني أعيش حياة شخص آخر، وأنني صرت على طرف النقيض من جميع قيمي الأخلاقية وطموحاتي. وفوق هذا، وخلافا لما كنت أتوقعه، استمرت الانتقادات في التهاطل عليّ من محيطي. عاتبوني لكوني لا أعتني بطفلي وبيتي بما يكفي، وأنني في العمل دائما، وقلقة جدا. في الواقع، لم أعد أرى ابني ولا زوجي إلا لماما. كنت دائما متوترة ومرهقة. كان البيت مثل حظيرة خنازير. لم يكن بإمكاننا، أنا وزوجي - الذي كان يعمل كثيرا كذلك - أن نفعل كبير شيء معا. كانت برامجنا ممتلئة لدرجة أننا لم نكن نستطيع إنجاز بعض التفاصيل الإدارية، ولا تنظيم عطلة نهاية أسبوع مريحة، ولا حتى تغيير مصباح كهربائي .. وفوق هذا، كان عملي يكلفني الكثير ماديا. كنت أنفق كثيرا في مصاريف العناية بابني، الذي كان سلوكه يتدهور.

بعد مدة من التفكير، قررت أن أقدم استقالتي، لتقويم الوضع.

خلال أوقات التفكير الطويلة التي تلتْ ذلك - والتي كنت فيها أدور في حلقة مفرغة - أتاني إلهامٌ، لم يكن بإمكاني الحصول عليه إلا في تلك اللحظة بعد أن عشت كل تلك التجارب. كان الإلهام بدرجة من الوضوح، جعلتني ألوم نفسي لأنني لم أتفطن للأمر من قبل.

اكتشفت ببساطة أن النساء لسن رجالا، على الرغم من جميع ما تُعلمنا المدرسة إياه في مجال المساواة بين البنات والأولاد. في الواقع، في مرحلة معينة من الحياة، على النساء الاختيار بين حياةٍ مهنية وحياتهن الأسرية. محاولة الجمع بينهما يرادف ببساطة محاولة اللحاق بأرنبين سريعين في الوقت نفسه، وهما يتجهان في اتجاهين متضادين.

على سبيل المثال، لا تؤخذ الرغبة في الأمومة بعين الاعتبار في اختبارات التوجيه الدراسي. والحق أن هذا المعطى أساسي، ويمكنه أن يغيّر جذريا توجيه الفتاة الصغيرة. تناسي هذا الأمر يؤول إلى حجب حقيقة أساسية في البشرية: فتيات اليوم هن أمهات المستقبل.

لِم ندفع بالفتيات إلى الدراسة الجامعية، في حين أن كثيرا منهن ستكون لهن أسرة قبل سن الخامسة والثلاثين، وسيكون انشغالهن الأول بالتالي هو نجاح زواجهن وتربية أطفالهن؟

قبل أن أنجب ولدي، لم أكن أعرف كيف أطبخ، ولا كيف أحضّر قنينة الرضاع الاصطناعي، ولا كيف أغير الحفاظات، ولا كيف أخيط حاشية ثوب أو سترة صوفية .. باختصار، لم أكن مكوّنَة لأكون أمًّا! لم أكن أعرف الخطوات اللازم اتباعها خلال الحمل، ومختلف أنواع المساعدة المتوفرة، وأنماط الرعاية .. تعلمت إذن من خلال التجربة! أليس هذا غريبا، بالنسبة لدور مهم كهذا؟

في وقت ما من حياتهن، تجد نساء جيلي أنفسهن مثلي أمام هذا المأزق المؤلم: «هل عليّ أن أضحي بأطفالي أم بحياتي المهنية؟».

اخترت اليوم أن أكون ربة بيت، على الرغم من الصورة الفظيعة لهذا الوضع في العالم الغربي، ولأن الموارد المالية لزوجي تسمح بذلك، وإن لم تصل إلى درجة الثراء. ولكن، لم يكن بإمكاني أن أتحمل تبعات هذا الاختيار لولا شهاداتي، التي هي برهان ذكائي. كان تحمل الملحوظات الجارحة للمجتمع أيسر عليّ، فقد بقي رأسي مرفوعا أمامها، وظللت واثقة من قيمي.

كانت الشهادات إذن هي الترياق في مواجهة سمّ الأنثوية، الذي كان بإمكانه أن يتسرب إلى ذهني. ولكن، هل يجب حقا إجبارنا على الحصول على شهادة جميلة، لنشعر بأنه يُسمح لنا باختيار الاعتناء بالأسرة دون تلطيخ رصيدنا الفكري؟ على المجتمع أن يتساءل عن الرغبة الحقيقية للطالبات في العمل. ربما لستُ الوحيدة .. قد يكون عدد من الفتيات يدرسن فقط للبرهنة على كفاءتهن الفكرية أو لاكتساب معارف دون أن يكون في نيتهن العمل فيما بعد. في اليابان، تحصل الفتيات على شهادات لرفع قيمتهن في سوق الزواج، رجاء أن يتقدم لهن رجل في مرتبة اجتماعية مريحة، يمكنهن العيش معه. ألا يعد خسارةً ما تنفقه الدولة والأسَر على الدراسة الجامعية للفتيات الراغبات في أن يكنّ أمهات فيما بعد، وتكريس وقتهن لتربية أطفالهن وسعادة أسرهن؟

في مجتمعنا الذي قَلبتْ فيه التياراتُ الأنثوية الحياة اليومية للأُسر، سأبرز في مختلف فصول هذا الكتاب، الوجه المظلم للدعاية الأنثوية، أي حقيقة ما تعيشه النساء الغربيات اليوم، وحقيقة ما تواجهه. سأطرح السؤال أيضا عن طموحاتهن وسأحاول أن أفهم إن كانت هذه الرغبات العميقة مختلفة حقا عن رغبات جدّاتنا. سأحاول التعريف بمختلف مكوّنات الأنثوية: أصولها، ممثلاتها، والمستفيدون الرئيسيون منها. سأظهر من يختبئ حقا وراء الابتسامة الناصعة للمرأة العاملة، وكيف هو حال ربة البيت اليوم، من هن الأمهات الشابات حقا وكيف يعشن الحمل والرضاعة. سأفكر أيضا في مكانة الرجال، وتكيفهم مع التطورات المجتمعية النابعة من المطالب الأنثوية. وأخيرا، سأنظر في قضية الأطفال، وتربيتهم ومكانتهم في المجتمع العصري[1].

العودة إلى البيت: الاختيار الحياتي الجديد لحاملات الشهادات

يشهد العالم اليوم ظاهرة تصيب أنثوياتنا الهرِمات بالارتياب. في المدن الكبرى المتقدمة عبر العالم كله، تعبّر النساء الشابات من الأجيال الجديدة، وخاصة من حاملات الشهادات، عن الرغبة في العودة إلى القيم الأسرية التقليدية. يتزايد عدد اللواتي يتركن النشاط المهني ليصبحن ربات بيوت، ويعتنين بأطفالهن وأزواجهن، وبأسرهن عموما.

هذا استعراض مختصر للدول التي تتبنى فيه النساء بكل فخر وضعهن كربة بيت.

الصين

بحسب موقع مجلة «يومية الشعب Le Quotidien du Peuple» (الوسيلة الإعلامية الرئيسية في الصين في مجال بث الأخبار)، فالنساء الصينيات الأكثر تعليما يرغبن في أن يكنّ ربات بيوت[2]. يذكر المقال المنشور في 27 يناير 2003 أن «دراسة على نحو 2000 أسرة صينية، من طرف اتحاد نساء مقاطعة هايدان بمدينة بيكين، تظهر بأن أكثر من 60 ٪ من النساء المأجورات يتمنين أن يكنّ ربات بيوت بشكل كامل، وأن 30 ٪ فقط مصرات على البقاء في العمل إلى التقاعد».

---

(1) ترجمتُ بعض هذه القضايا من كتاب المؤلفة، وبعضها الآخر من كتب أخرى، كما يجد القارئ ذلك متناثرا في محاور هذا الكتاب. [المترجم].

(2) استبيان «ربة بيت بدوام كامل: أمنية أغلب النساء الصينيات Femme au foyer à plein temps : le souhait de la plupart des femmes chinoises»، مجلة (Le Quotidien du Peuple)، 27 يناير 2003. [المؤلفة].

في نونبر 2012، قدّمت المجلة الصينية (Nandu zhoukan) في الصفحة الأولى ملفا عن «الموجة الجديدة لربات البيوت»[1]. يخبرنا المقال أن «ربة البيت الجديدة شابة (جيل 1970 - 1980)، حاملة لشهادة جامعية، أم لطفل أو طفلين، تسافر على الأقل مرة واحدة في السنة، تتسوق من السوق الممتاز مرة في الأسبوع، وتشتري الأطعمة الصحية بين الفينة والأخرى ..» الصورة المثالية للشابة الحضرية من الطبقة المتوسطة الصينية.

اليابان

بحسب صحيفة (Japan Times)[2]، يتزايد عدد النساء والرجال اليابانيين الذين يرون أن مكان المرأة في البيت. تظهر دراسة أنجزتها وزارة الداخلية اليابانية عام 2012 بأن «51 ٪ من الأشخاص المستجوَبين يتمنون أن تبقى النساء في المنزل، في حين يعمل أزواجهن لتلبية حاجاتهن».

إضافة إلى ذلك، فحسب تقرير[3] لعام 2004 أنجزته مدرسة تكوين الأساتذة: «في اليابان: قسم كبير من حاملات الشهادات الجامعية يتخلين عن الدخول إلى سوق الشغل، ويفضلن استعمال الشهادة لرفع قيمتهن في سوق الزواج».

هولندا

يُبرِز كتاب[4] «لو استقبلت من أمري ما استدبرت .. Et si c'était à refaire..?» لآن - ماري جانسجينون (Anne - Marie GansGuinoune) (أستاذة جامعية في قسم اللغات والثقافات

---

(1) «من تريد أن تصبح ربة بيت؟ Qui veut devenir femme au foyer ?»، (Chineplus)، 17 نونبر 2012. [المؤلفة].

(2) - مانابي هيروكي (Manabe Hiroki)، «ربات البيوت، يا للخسارة .. Femmes au foyer, quel gâchis ..»، (Courrier International)، 7 يوليوز 2011. [المؤلفة].

(3) كريستيان بودلو (Christian Baudelot)، «آثار التربية Les effets de l'éducation»، مدرسة تكوين الأساتذة، 15 يناير 2004. [المؤلفة].

(4) آن - ماري جانسجينون (Anne - Marie Gans - Guinoune)، «لو استقبلت من أمري ما استدبرت .. مهاجرات فرنسيات في هولندا يحكين .. Et si c'était à refaire.. ? Des Françaises immigrées aux Pays - Bas racontent ..»، نشر (L'Harmattan)، 2009. [المؤلفة].

الرومانية بجامعة جرونينج (Groningue) بهولندا)، وجهةَ نظر الفرنسيات المهاجرات إلى هولندا بخصوص الوضعية النسائية والأسرية في هولندا: «إن المرأة الهولندية العاملة لا تعمل بدوام كامل غالبا، بل تختار عملا بدوام جزئي لأنها تريد الحفاظ على توازن بين حياتها الأسرية وحياتها المهنية. من النادر جدا – على سبيل المثال – أن تترك الأم طفلها في الحضانة اليوم كله. البقاء في البيت للقيام بالمهام العائلية، يدخل ضمن التقاليد الهولندية العريقة. في سنوات الخمسينيات، كانت العاملات يتركن العمل حين يتزوجن. عموما، جميع ربات البيوت اللواتي التقيت بهن راضيات إجمالا، ولسن متقوقعات في فضائهن الأسري، ولا مقطوعات عن المجتمع، بل العكس تماما».

النمسا

في النمسا، تشير دراسة لوزارة الأسرة[1]، أن «60 ٪ من الشابات المستجوبات يرين أن الزواج مهم جدا. وإضافة لهذا، فإن الشابات النمساويات يحلمن بالرجوع إلى المطبخ، لأنهن يعتقدن بأن الأطفال يجب تربيتهم خلال السنوات الثلاثة الأولى من أعمارهم في المنزل من طرف الوالدين. وبما أن 55 ٪ منهن يرغبن في الأطفال، ومن ضمنهن 62 ٪ يرغبن في طفل ثان، فإن الانسحاب لمدة معينة من عالم الشغل يبقى الحل الأمثل. ولكن الحل الوسط عند 85 ٪ من النساء المستجوَبات هو عمل بدوام جزئي لتكميل الموارد الأسرية».

الولايات المتحدة

أظهرت دراسة[2] للمجلة الأمريكية فوربس (Forbes) أن «84 ٪ من النساء العاملات و66 ٪ من ربات البيوت، متفقات على أن التخلي عن الحياة المهنية من أجل تربية الأطفال نوع من الرفاهية المادية»، ونحو النصف من الأمهات العاملات يرين أنهن سيكنّ أسعد لو لم يكنّ عاملات.

يبدو من خلال المقال أن عددا متزايدا من حاملات الشهادات المتجذرات في الحياة المهنية يحلمن بأن يكنّ ربات بيوت للاعتناء بأطفالهن وأسرتهن، مثل آن – ماري سلوتر (Anne – Marie Slaugh-ter) المستشارة السابقة لهيلاري كلينتون، والتي اختارت الاستقالة للاعتناء بأطفالها المراهقين.

---

(1) لورانس إستيفال (Laurence Estival)، «النمساويات يردن البقاء في المنزل Les Autrichiennes veulent rester au foyer !»، موقع (Myeurope.info.fr)، 24 ماي 2011. [المؤلفة].

(2) نقلا عن: جوليا ديون (Julia Dion)، «مهنة الأحلام: ربة بيت؟ Le job de rêve : mère au foyer»، مجلة (Elle)، 16 شتنبر 2012. [المؤلفة].

فرنسا

تتعجب مجلة (Marie – Claire)[1] عام 2008 من تنامي عدد ربات البيوت في فرنسا، ومن وجود حاملات للشهادات بينهن: «لكن الأرقام هنا، وهي تسخر من الأنثويات: من مجموع النساء اللواتي توقفن عن العمل وهن أمهات لطفل عمره أقل من ثلاث سنوات، تمتلك 15 ٪ منهن مستوى جامعيا من ثلاث سنوات بعد الباكالوريا فأكثر. وفي المجموع، أكثر من نصف الأمهات ربات البيوت يمتلكن الباكالوريا على الأقل. وهكذا، وبعد أربعين سنة من نشر «الجنس الثاني» لسيمون دو بوفوار، فإن محاميات ومهندسات ونساء من الأطر العليا يعتقدن أنه لم يبق لديهن ما يمكن البرهنة عليه في جانب الدراسة والحياة المهنية، يطردن المربّية ويفضلن أن يرضعن أطفالهن بأنفسهن، ويحضّرن أطباقا شهية لأزواجهن».

تحقير ربة البيت والأم الشابة

من الغريب أن مجتمعنا – من خلال وسائل الإعلام الجماهيرية التي تَعلَم كل شيء وتستطيع فعل أي شيء فيما يبدو – يَنشر الكثير من الصور النمطية الناتجة عن أحكام متسرعة وعشوائية على الرغم من تيارات «الحرية مهما يكن ثمن»! وهكذا، يُشهَّر بنوعين من النساء: ربات البيوت والأمهات الشابات. فهاتان اليوم وضعيتان مخجلتان ورجعيتان. لسوء حظي، اجتمع فيّ العيبان، فأنا أم شابة وقد اخترتُ أن أكون ربة بيت على الرغم من عقد عملي غير محدد المدة كمهندسة في مجال البيئة!!

يُنظر بشكل سيء في مجتمعنا للأمهات الشابات. ترى النساءُ الملتزمات بالتفكير السائد – وهنّ إذن أنثويات – أن الأمهات الشابات قليلات النضج، ضعيفات حس المسؤولية، قليلات التعليم. الفكرة الغالبة أنهن لا يمتلكن ما يكفي من الشهادات، وليس لديهن الوسائل المادية والعقلية لتربية أطفالهن. الأطفال الذين تربيهم هؤلاء الأمهات سيكونون إذن بؤساء[2].

تسبب حدث «ميثاق الحمْل» لسبعة عشر تلميذة ثانوية بأمريكا عمرهن 16 سنة (في السنة الدراسية 2007 – 2008) قررن الحمل في الوقت نفسه بشكل اختياري، في صدمة قوية لدى

---

(1) كورين جولدبرجر (Corine Goldberger)، «ربات البيوت محبطات؟ Désespérées, ces femmes au foyer ?»، (Marie – Claire)، 2008. [المؤلفة].

(2) هذا القالب الاستدلالي الجاهز، هو نفسه الذي يُستعمل في بلادنا لتسويغ منع زواج القاصرين والقاصرات (أي: البالغين شرعا، الذين لم يبلغوا سن الثامنة عشرة). [المترجم].

الرأي العام. لم يتساءل أي أحد عن سبب هذا الاختيار على الرغم من الدعاية المدرسية والإعلامية لفائدة مختلف وسائل منع الحمل. الفكرة الرائجة أنهن مجموعة من 17 ساذجة عديمة المسؤولية. كما حُمّلت الكنيسة الكاثوليكية المسؤولية عن ذلك: «هذا الانفجار في الولادات أثار من جديد النقاش حول منع الحمل، في هذه المدينة المتمسكة جدا بالكاثوليكية. استقال الطبيب والممرضة من المدرسة في شهر ماي، بعد أن رُفضت محاولاتهم لتقديم وسائل منع الحمل للتلاميذ»[1].

يبدو لي أن التفسير الصحيح ليس هنا. في الولايات المتحدة، لا بد من انتظار إنهاء الـ(college) – ما يوازي الجامعة عندنا، أي أربع سنوات بعد الدراسة الثانوية – ليعترف المجتمع بأنك قادر على الإنجاب. ولكن مصاريف الجامعة باهظة، والكثير من الشبان مضطرون إلى الاقتراض لتمويل دراستهم. بعض الفتيات إذن مجبَرات على انتظار إنهاء الدراسة وسداد هذه الديون، من أجل بدء الادخار للزواج، وبعد ذلك يمكن – أخيرا – التفكير في إنجاب الأطفال. في كثير من الأحيان، لا بد من انتظار سن الخامسة والثلاثين.

تجد بعض الفتيات في سن الخامسة عشرة، الراغبات بشكل طبيعي في الزواج وتأسيس أسرة، أن حلمهن يتبخر بسبب ضغط المجتمع الراهن. يرين أن من الواجب عليهن تأجيل حلمهن إلى زمن لاحق، بعيد .. أي على الأقل بعد عشرين سنة. أظن أن هذا الواقع المرّ هو الذي يفسّر جزئيا سعي أولئك الفتيات إلى أن يعشن كل ذلك الآن، دون انتظار، وهو شعور شائع في مرحلة المراهقة. إضافة إلى ذلك، وكما يشرحه ميشيل روش (Michel Rouche)[2] بخصوص المراهقات الحوامل: «من المستحيل ألا يكنّ واعيات بوسائل منع الحمل، من خلال المدرسة الإعدادية والثانوية. إذن ما الذي يعنيه هذا العمل الغريب؟ أيعني ذلك أن غريزة الحياة، والرغبة اللاواعية في الإنجاب تبقى أقوى من المنع؟ لقد أُلغي منع اللذة، ولكن عُوِّض بمنع إنجاب الأطفال. نريد إذن إسقاط هذا المنع الجديد».

أوحى «ميثاق الحمل» هذا بشريط سينمائي عنوانه «Pregnancy Pact» عام 2010 بالولايات المتحدة، وصدرت نسخة فرنسية عام 2011 عنوانها «17 filles».

---

(1) كيثيفان جورجستاني (Kéthévane Gorjestani)، «سبعة عشر مراهقة يوقعن اتفاقية حمل جماعي – Dix sept ados font un pacte de grossesse collective»، (20 Minutes)، 25 يونيو 2009. [المؤلفة].

(2) ميشيل روش (Michel Rouche)، «Petite histoire du couple et de la sexualité»، نشر (CLD éditions)، 2008. [المؤلفة].

يُظهر الشريطان بطريقة كاريكاتورية مراهقاتٍ غير ناضجات، يواصلن التدخين وشرب الخمر على الرغم من الحمل. تظهر الحوارات بينهن أيضا جهلا بأمور الحمل. يركز المنتجون على أنهن لن يستطعن إكمال دراستهن الجامعية، ولا حتى الحصول على الباكالوريا دون مساعدة خارجية من «الراشدين».

توجد أفلام أخرى في الموضوع نفسه، مثل «Juno»، الذي يحكي قصة مراهقة حامل عمرها 16 عاما، تقرر أخيرا أن تترك طفلها للتبني عند امرأة عاقر. القصة مبنية على تفكير الفتاة – والمحكوم عليها هنا بأنه «ناضج» – بأن الأفضل لطفلها أن تقدمه للتبني. وتمضي القصة إلى أبعد من ذلك، إذ أن الزوجين المتبنيين يطلّقان قبل ولادة الطفل، فتقرر الأم الشابة مع ذلك أن تعطي الطفل للمرأة التي صارت غير متزوجة. يريد الشريط أن يبرهن على أن الطفل مع امرأة عزبة سيكون أسعد منه مع زوجين مراهقين (في الشريط، تعيش المراهقة الحامل مع عشيقها والد الطفل، والمراهق يحب عشيقته جدا، ويساندها في هذه المغامرة).

توجد أيضا مسلسلات تلفزية في الموضوع. في الولايات المتحدة، يحكي مسلسل «الحياة السرية لمراهقة أمريكية The secret life of an American teenager» قصة المراهقة إيمي (Amy) الحامل وعمرها 16 سنة، والتي تكافح للحصول على الباكالوريا، ولكنها تضطر كل صيف إلى دروس استدراكية. في فرنسا، يروي مسلسل (Clem) قصة كلمانتين (Clémen-tine)، الحامل في سن 16 عاما أيضا. هذا المسلسل سخيف، إذ يبالغ في نشر الصور النمطية عن المراهقة الحامل. الفتاة كليمانتين تفشل مرتين في الحصول على الباكالوريا، وينتهي بها الأمر للتخلي في محاولتها الثالثة مع المرشحين الأحرار. فوق ذلك، فإن المسلسل يخبرنا بغرابة، بأن ولدها ذا الثلاث سنوات، لا يزال «غير نظيف»، ويمكن أن يُطرد من الحضانة. باختصار، الصورة النمطية المشهورة للأم المراهقة، العاجزة عن الاعتناء بطفلها، والفاشلة دراسيا. شيء مخيف بالنسبة لجميع الآباء، وجميع المراهقات!

قد يكون من نتائج هذه السيناريوهات[1]، أن فكرة الأم المراهقة السيئة، تنتشر إلى ما بعد المراهقة أيضا. يُنَدَّد أيضا بالأمهات الشابات في سن العشرين والخامسة والعشرين، لأنهن «صغيرات في السن»، خاصة إن كنّ لا يزلن يدرسن في الجامعة، أو لم يكنّ من حاملات الشهادات.

عندي إذن نبأ مهم لجميع الذين ينشرون هذه الأفكار: أنجبتُ باختياري طفلا في سن الثانية والعشرين، ثم استأنفت الدراسة لمدة ثلاث سنوات ونجحت في جميع امتحاناتي. حصلت على الإجازة، والماستر الأول والثاني، بميزة «حسن» دائما. بل درست في جورجتاون (Georgetown)، الجامعة الكبيرة المرموقة في واشنطن، في إطار شراكة مع جامعتي. ولأنني حصلت على هذه الشهادات وأنا في طور التدريب، فقد كنت مأجورة على عملي بالشركة، ولم أطلب العون من أي أحد. كان ابني - مثل جميع الأطفال الذين يعمل والدوهم - يذهب إلى المدرسة وإلى مركز الترفيه في حين أكون في الدراسة أو الشركة. كنت أنظم وقتي بحيث أدرس في المساء بعد أن ينام، أو في عطلة نهاية الأسبوع خلال قيلولته. في الواقع، لم يكن الأمر سهلا دائما، ولكنه ممكن تماما، خصوصا بالنسبة للواتي اخترْنَ الإنجاب دون الاستسلام! إضافة إلى ذلك، كان والده يعينني أيضا بأن يذهب به للتجول في عطلة نهاية الأسبوع لأستطيع أن أدرس.

لذلك أقول لجميع الحوامل: عليكن بالطمأنينة، فليس الحمل نهاية العالم! اتبعن فطرتكن، وانسَين الكلمات المسمومة لبعضهن .. قد يكنّ فقط حاسدات!

صار لدينا ظاهرة أخرى في طور الانتشار: إنكار الحمل.

---

(1) هل نحتاج إلى التأكيد على الأثر الجماهيري الهائل للأعمال الدرامية (الأفلام والمسلسلات) في تشكيل وعي الناس، وإعداد الرأي العام لما يريده منه المتحكمون في السياسة والاقتصاد والثقافة؟ إذا كانت الأبحاث الفلسفية العميقة تؤثر في النخب المثقفة، فإن الذي يؤثر في العامة والخاصة معا، إنما هو الدراما المتغولة في عصر الصورة الذي نعيش فيه. وقد صارت الدراما (خاصة المسلسلات الغربية) منذ بضع سنوات، تخوض حربا دون هوادة من أجل تفكيك جميع القيم التقليدية، وتطبّع المشاهد - ومنه المشاهد المسلم بالطبع - مع جميع القذارات الأخلاقية (الشذوذ الجنسي مثلا)، والمهالك العقدية (الإلحاد مثلا)، والتأصيلات العلمانية والليبرالية والحداثية وما بعد الحداثية في مجالات الدين والحرية والمرأة وغير ذلك. وما ذكرته المؤلفة لا يعدو أن يكون مثالا صغيرا، من ضمن منظومة ضخمة، نسأل الله السلامة من أثرها التدميري الهائل. [المترجم].

«يمكن تعريف إنكار الحمل بأنه عدم وعي المرأة الحامل بأنها حامل فعلا».

بعض النساء يكتشفن حملهن في لحظة الولادة. وقد أجريتْ دراسات كثيرة في الموضوع. بعضها يقول إنها ظاهرة حقيقية، ويزعم بعضها أن الأمر مستحيل.. لا أريد الدخول في هذا النقاش، ولكنني أكتفي بأن أقول إن وجود هذه الظاهرة مناسب للمرأة التي تريد الإنجاب، ولكنها تشعر بأنها «مجبرة» على أن لا يكون لديها أطفال. يسمح ادعاءُ المرأة كونَ الحمل حادثة لم تكن تعلم بها، بأن يعذرها الآخرون، ويقبلوا الحمل الذي كانوا يمنعونه (مثل الزوج الذي لا يريد الأطفال أو لا يريدهم مبكرا، أو الأسرة، أو المشغّل، أو المجتمع عموما). هذا أسهل من مواجهة النظرات الرافضة ومحاولة تسويغ رغبة مُحرِجة. بالنسبة للمرأة الشابة الحامل، أن تقول «نعم، إنها حادثة عرَضية» أسهل من شرح الاختيار المتعمد. الحوادث مقبولة في المجتمع؛ كما أن إنكار الحمل مقبول أيضا. إنه فقط نوع خاص من الحوادث.

لنختم هذا الموضوع، أود أن أنقل رأي «الفيلسوف» الفرنسي ميشيل أونفري، والذي يذكره بسذاجة كثير من الراشدين في مجتمعنا الاستهلاكي. يلقي هؤلاء نظرة احتقار على الأمهات - سواء أكن شابات أم لا - ثم يؤكدون - من أجل تمجيد حالة العزوبة التي يعيشون فيها والتي يفرضها مجتمع الاستهلاك - بأن «إنجاب الأطفال، نوع من الأنانية قبل كل شيء»! يشرح ميشيل أونفري إذن بأن ميلي (Millet) وطاليس (Thalès) امتنَعا عن أن يكون لهما نسل «حبا منهما للأطفال»: «لا أحتاج إلى أن أبيّن بأن عدم حب أطفاله هو الذي يمكن أن يدفع بالشخص إلى إخراجهم إلى هذا العالم. مَن هذا الذي يشعر بأن الواقع جيد لدرجة أن يلقّن ابنه أو ابنته حتمية الموت، وزيف العلاقات بين الناس، والمصالح التي تقود العالم، وإجبارية العمل المأجور. أي والد ساذج وأحمق يمكن أن يحب البؤس والمرض والفقر والشيخوخة والشقاء، لدرجة أن يهدي ذلك كله لنسله؟ أيمكن تسمية فنِّ نقل هذه الشرور إلى من هم من لحمه ودمه «حبا»؟»[1].

من حسن حظه أن أباه الذي كان عاملا زراعيا، وأمه التي كانت عاملة نظافة، لم يطرحا على أنفسهما مثل هذه الأسئلة الميتافيزيقية الغامضة والحمقاء.

---

(1) ميشيل أونفري (Michel Onfray)، «نظرية الأجساد العاشقة Théorie des corps amoureux»، نشر (Grasset&Fasquelle)، 2000. [المؤلفة].

المحور الخامس

الأنثوية وجسد المرأة

الإجهاض: اختراع حق – الأنثوية الإيديولوجية

من كتاب «وداعا آنستي» لأوجيني باستيي (ص129 - 141)

لم يعترض أحد قط – وزير الصحة أقل من غيره – على أن الإجهاض نوع من الفشل، إن لم يكن مأساة.

سيمون فيل.

عن التطبيع

نجد في عناوين الإعلام في أبريل 2014: «تجاوزات متطرفة في الثانوية الكاثوليكية في جرسون (Gerson)". ما تفاصيل الواقعة بالضبط؟ مسؤول بجمعية (Alliance Vita) تجرأ في أحد دروس لتعليم المسيحي، على أن يصف الإجهاض بأنه «جريمة قتل». هل هذا الموقف متطرف حقا؟ الجمعية المذكورة، والتي تهدف إلى «مساعدة الأشخاص الذي يواجهون اختبارات الحياة»، وإلى «توعية الجمهور وأصحاب القرار بحماية الحياة الإنسانية»، وتهتم بالأمومة والطفولة والإعاقة والهرم، هي جمعية مسجلة بشكل قانوني في مفوضية الشرطة. منذ 1959 وقانون دوبري (Debré)، يقرر نظام التعاقد بين الدولة ومؤسسات التعليم الكاثوليكي أن التعليم الديني خارج هذا التعاقد[1]. أما عن الموقف نفسه، فإنه هو الموقف الثابت والمعروف للكنيسة، والذي يكرره - منذ بولس السادس بعد مجلس الفاتيكان الثاني - جميعُ البابوات الذين أتوا بعده، ومنهم البابا الحالي فرانسيس الذي تمجده الصحافة نفسه، التي تفضل أن لا ترى من كلامه عن «الإيكولوجيا الكاملة» سوى حديث حماية طائر البطريق، وتتجاهل الكلام عن حماية الأجنة.

لا يهم. هنالك كلمات قاتلة؛ ومنها وصف الإجهاض بأنه «قتل». إنها فرصة ذهبية لإحداث فضيحة. تسارعت بلدية باريس إلى إصدار تصريح، يدعو إلى «حياد التعليم المدرسي». عجّل بونوا هامون (Benoît Hamon) الذي كان حينئذ وزيرا للتربية الوطنية، بإجراء تحقيق. علينا أن نقول إن العثور على هذه البؤرة الخفية للتطرف، والتي تهدد الجمهورية دون شك، يأتي في وقت مناسب. سيصوت مجلس المستشارين بعيد هذه الحركية الإعلامية على مقترح قانون

---

(1) تذكرنا هذه الصراعات بين بقايا الكاثوليكية ونظام الدولة العلمانية الحداثية، والتي ما تزال مستمرة على الرغم من قرون من نسف الوجود الديني في الثقافة والمجتمع، بالصراعات التي تثار في بلداننا بين المتغربين من أتباع الثقافة العلمانية العصرية والتيار الإسلامي أو المحافظ، والذي ما يزال غالبا عندنا. إن ملاحظة ما تؤول إليه الأمور في الغرب، يفيدنا كثيرا في نقاشاتنا مع الذين يتبعون الغرب حذو القذة بالقذة. [المترجم].

تقدمه نجاة فالو – بلقاسم حول المساواة الحقيقية بين الرجال والنساء، بعد إصداره الرمزي في 4 غشت 2014، في ذكرى إلغاء الفيودالية في تلك الليلة المشهورة من عام 1789. إشهار الفزّاعة الظلامية مرة أخرى، يسمح بالتسويغ الجدلي للبند المتعلق في هذا القانون بالغاية المعلنة: «التطبيع مع الإجهاض».

هذا ما تؤكده دون غموض الاشتراكية كاترين كوتيل (Catherine Coutelle)، رئيسة مندوبية المجلس الوطني لحقوق النساء، لجريدة لوفيجارو: «وراء الاحتجاجات التي تشكل تهديدا بسبب تحرر الكلمة المتطرفة، فإن المشرّع قد استطاع بالتأكيد أن يضمن حقا حقيقيا للنساء، ولكنه حق يحتاج إلى تدعيم». ثم تركز على هذا «التطرف»، الذي هو «إيديولوجي» بالطبع، والذي يعرف «تجددا» واضحا. هل يقع الاحتجاج على الإجهاض؟ إذن هذا دليل على أننا على حق، وأنه لا بد من المضي إلى ما هو أبعد. نتبين هنا الحركية المجرّبة للمقصلة التي تدّعي الديمقراطية، فتجبر على الحوار مع رفض أي اعتراض. توضح كاترين كوتيل: «إن الحق في الإجهاض ما يزال يُنظر إليه على أنه حق من نوع خاص. نريد أن نجعل منه حقا كاملا، وعملا كغيره». لا بد إذن من رفع الإجهاض إلى مرتبة المبدأ الأساسي، وفي الوقت نفسه صهره في قالب التطبيع، علما بأن الأمرين ليسا متعارضين، إذ القانون لم يعد له من دور سوى تقعيد التوجه العام. مع إضفاء مسحة مقدسة عليه.

عن اللبرلة

انطلق طموح التطبيع مع الإجهاض ابتداء من تقرير للمجلس الأعلى للمساواة بين النساء والرجال، عملت عليه رئيسة المجلس دانييل بوسكي، إضافة إلى كاترين كوتيل، قبل أن يسلّم في نونبر 2013 إلى نجاة فالو – بلقاسم، التي كانت حينئذ وزيرة حقوق النساء. تريد هؤلاء السيدات تسجيل أنفسهن في خط «عريضة العاهرات الـ343»، التي ساندتها سيمون دو بوفوار، والتي أعلنت فيها شخصيات عديدة من من عالم الفن والاستعراض: «لقد أجهضتُ من قبل»، ونشرت في جريدة «Le Nouvel Observateur» عام 1971، حين كان الإجهاض يؤدي إلى متابعة قانونية. بالطبع، كانت شهرة الموقّعات تحميهن من ذلك. ولكن – بحسب ما جاء في التقرير – وبعد أن مرت أربعون عاما على رفع التجريم عن الإجهاض، فإنه ما يزال يشبه «مضمار المحارب»، المليء بالعراقيل «العملية والرمزية». استغلت كوتيل وبوسكي

التصريحات الانتخابية الصادرة عن الحزب الشعبي الإسباني، الذي أراد التقاط المشتاقين إلى الحقبة الفرانكية بمنح وعود بتقليص الحق في الإجهاض، مع تجاهلهما الفروق بين الحالتين الفرنسية والإسبانية، فأطلقتا ما يشبه الحرب على الإسبان، مع إيهام وجود «خونة» داخل فرنسا، هم المسيحيون في ثانوية جرسون. إنهما تطمحان - متذرعتين باحتجاجات موسمية - إلى تيسير الحصول على الإجهاض، الذي تصفانه بأنه ما يزال «إشكاليا» في فرنسا. هذا خبر عجيب، إذا علمنا أن عدد عمليات الإجهاض هو مائتا ألف منذ عام 1976، وأنه ثابت لا يتقلص على الرغم من التطورات الهائلة في وسائل منع الحمل؛ وهو عجيب أكثر حين نرى أن كاتبتي التقرير قالتا في موضع آخر: «الإجهاض عمل شائع نسبيا في حياة النساء، بما أن ثلثهن تقمن به خلال حياتهن».

ليس الاتساق نقطة قوة هؤلاء الأنثويات الجديدات، ولا مركز اهتمامهن الأول، فهن يظهرن نوعا من الاعتقاد السحري في التقنقراطية كدواء أخير في الأسئلة الوجودية. من بين «العراقيل» المختلفة المذكورة في التقرير، ما يسمى «أماكن خالية طبيا»، والتي تجعل المرأة الراغبة في الإجهاض تقطع أحيانا مسافة 150 كيلومترا لرؤية طبيب نساء. هنالك أيضا «أزمة توجهات» عند الأطباء: نفس المرأة يمكن أن تقع عند طبيب من الجيل الجديد، الذي هو أقل «تورطا» في حق الإجهاض من الأجيال السابقة. ولكن أيضا - وعلى الخصوص - ، هنالك «الإحساس المخادع بالذنب»، الذي يمكن أن يجبر هذه المرأة على «تبرير لجوئها إلى الإجهاض».

للمرض الماكر، لا بد من علاج كثيف. عُوضت العبارة الحذرة لعام 1975، والتي تقول: «يمكن للمرأة الحامل التي تكون في حالة من المعاناة، أن تطلب من الطبيب إيقاف حملها»، بعبارة أخرى جديرة بالليبرالية الحقة: «يمكن للمرأة التي لا تتمنى استمرار حملها، أن تطلب من الطبيب إيقافه». تم طرد الإحساس بالذنب. يكفي محو لفظ «المعاناة» من قانون الصحة العمومية، لطرد المصيبة؛ كما أن إزالة لفظ «عِرق» من الدستور والتشريعات، مرادف لمحو العنصرية. دائما وأبدا خرافة الإرادوية والاسمية التي تؤدي إلى الخلط بين الحدث واللفظ!

إجراء آخر كان موجودا في القانون القديم، وتم إلغاؤه، لأنه يعدّ عقابيا ويعامل المرأة مثل الطفلة، وهو ضرورة وجود أجَلٍ للتفكير من سبعة أيام بين الموعدَين السابقين على عملية الإجهاض. وذلك لأنه بالنسبة لهؤلاء الأنثويات المتغذيات بنظرية الجندر، السيطرة رمزية أكثر مما هي عملية: الاحتجاج على الإجهاض - ولو كان محصورا في الدائرة الكاثوليكية،

ودون أي أثر - لا يزال يشكل ثقلا سلبيا على النساء المسكينات. ليسقط قاطنو الكنائس، ولو كان ذلك بطمس حقيقة أنهم مفيدون لسد ثغرات الدولة بعملهم الإحساني. حين يُحذف أجل التفكير، فإن النسويات الجديدات هنّ اللواتي يعاملن المرأة مثل الطفلة، بالحكم عليها بأنها قاصرة دائما، وعاجزة عن اتخاذ الاختيارات المتنورة عن قصد، وحساسة جدا لدرجة العجز عن الصمود أمام ضغط المجتمع.

وأخيرا، يدعو التقرير إلى حذف «بند الضمير» الذي يقرّه قانون الصحة العمومية للأطباء: «لا يكون الطبيب أبدا مجبرا على ممارسة عملية إجهاض». بالنسبة لهؤلاء الأنثويات، لا يصلح هذا الحق الأساسي سوى ليكون ذريعة لعرقلة حق آخر، أهم في نظرهن، ولا هدف له إذن سوى منع عدد غير محدد من النساء من الإجهاض. لن يتم تبني هذه التوصية. ستصبح إذن بطريقة مضاعفة، رأس الحربة للجمعيات الأنثوية التي ترى دون شك في تقديم حرية الضمير نوعا من الردة الرجعية.

اختفاء لفظ «المعاناة»، حذف أجل التفكير، إلغاء بند الضمير: كلها ضمانات مقررة في قانون فيل (Veil)[1]، من أجل منع أن يتحول الإجهاض إلى حق غير محدود. الغاية هي تفكيك التصور الأصلي لتشريع الإجهاض، والانتقال من السماح بحقٍّ معين بالنظر إلى الشخص، إلى إطلاقية الفرد من خلال حق معين. «نعم، علينا أن نعيد تأكيد الإجهاض كحق أساسي، والانتقال به نهائيا من وضع الحق «الممنوح» إلى وضع الحق الحقيقي»، هكذا تصر كاترين كوتيل، مستعملة تمييزا مستعملا في الخطاب القانوني، خاصا بالتراث المادي، وأجنبيا عن مزايدتها المجانية.

عن الأساسية

إن وصف «الأساسي» الملصق بالأفكار الدينية، يحولها بالضرورة إلى أن تكون مرادفا للتطرف. حين يجتمع بالأفكار التقدمية، فإنه يكون محصّنا ضد التعصب، ويوصف به كل إحسانٍ في التطور، يمنع طابعه المشروع من مساءلته أو الندم على فرضه. وهكذا فإن «الحق الأساسي» في الإجهاض، هو الذي طلب من النواب «إعادة تأكيده» يوم 26 نونبر 2014. ولكن، الحقيقة أنهم لن يقوموا بتعزيز هذا الحق، وإنما باختراعه!

(1) نسبة إلى الوزيرة سيمون فيل (اللام لا تقرأ)، التي قدّمت قانون رفع التجريم عن الإجهاض عام 1975. [المترجم].

في الواقع، الإجهاض ليس حقا من الحقوق. في خطابها أمام الجمعية الوطنية عام 1974، لم تنطق سيمون فيل بلفظ «حق» ولو مرة واحدة، ولكنها أكدت على ضرورة الاستجابة لأحد تحديات الصحة العمومية، وهو تحدي دفع خطر الموت عن آلاف النساء اللواتي يمارسن الإجهاض السري في ظروف مفزعة. «هذه الفوضى التي يجب أن نُنهي. هذا الظلم الذي ينبغي أن نوقف»، هكذا صرحت على منبر الجمعية الوطنية. لم يكن الأمر يتعلق بتحريض إيديولوجي، بقدر ما هو ملاحظة تنتمي لسياسة الواقع، ودعوة لأخلاق المسؤولية تجاه وضع كارثي، والتزام شخصي بالنظر إلى ما لا يمكن إصلاحه: «أقولها بكل اقتناع: إن الإجهاض يجب أن يبقى الاستثناء، والملجأ الأخير في أوضاع لا مخرج لها». وهذا ما يكرره ويوضحه نص القانون، منذ الجملة الأولى، واضعا المبدأ الذي يجب أن يفهم بالنظر إليه التفرد والظرف وحال الاستعجال: «يضمن القانون احترام كل إنسان منذ بدء الحياة». إنه قانون تنازل أمام الواقع، تحذر سيمون فيل بأنه لا ينبغي أن يكون موضوعا للمبالغة في التأويل. قانون للتوافق الأعلى يجبره على التحذير من التشويهات التي يمكن أن يتعرض لها. قانون للتأقلم والتكيف بالنظر إلى المفسدة الأقل، يجبره على الرجوع إلى حكمة الأجيال المستقبلية للاحتفاظ بروح القانون. «هذه الشبيبة شجاعة، وقادرة على الحماس والتضحية مثل من سبقها. لنتعلم أن نثق فيها لنحتفظ بالقيمة العليا للحياة».

أهي سذاجة؟ مقامرة؟ حسابات؟ حيلة؟ هي خطأ – في الحالات جميعها – في التصور المتفائل لتناقل الفكرة. بعد مرور أربعين سنة، تلك الشبيبة التي تمنّت سيمون فيل منحها الثقة، شاخت وأصبحت في السلطة. إنها لم تكتف بخيانة روح القانون بتزييفه، بل تعدت ذلك إلى إعادة كتابة مقاصد تلك التي وضعته. تفترض كاترين كوتيل الآتي: «في عام 1974، وفي مواجهة الأغلبية الذكورية جدا، والمحافظة جدا، اضطرت سيمون فيل – من أجل أن يصوَّت بالموافقة على رفع التجريم عن الإجهاض – أن تتنازل فتخص النساء في «وضعية معاناة» بإمكان الاستفادة من الإجهاض. بعبارة أخرى، لم تكن وزيرة الصحة تعتقد ما تقوله، ولم تكن تقول ما تعتقده. كانت تتقدم متخفية، لتخدع السلطة الباطرياركية القوية جدا حينئذ. أو في أسوأ الأحوال، بسبب الخوف.

هذه طريقة مجربة في سياقات أخرى: تعرض الأنثوية الجديدة للأنثوية لتُحررَها وتنقذها عن طريق تصحيحها. إن امرأة الأمس – وتدخل فيها سيمون فيل – لا بد من تطويرها دائما،

كما تملي ذلك نظرة تقدم لا يتناهى. إن الحدود التي كانت هذه المرأة تنظر إليها، لم تكن سوى حدودها الذاتية. يكفي لإتمام ما كان ناقصا - كما في رواية 1984 - إعادة كتابة الماضي، من أجل تحويل إجراء براجماتي إلى مبدأ إيديولوجي. سيمون فيل كانت تقرر أن الإجهاض يجب أن يكون استثناء؟ «الإجهاض: حق، اختياري، حريتنا»، هكذا تعلن اليوم ملصقات التخطيط العائلي التي تمدح ممارسةً، من المفروض أن تدعو أرقامُها العالية بشكل مأساوي في بلدٍ تحديدُ النسل فيه محرر، إلى إقامة حملات من أجل تقليصها. سيمون فيل كانت تتعلق باعتدالٍ بالوقائع، وبالطابع الملموس لمأساة متعلقة بالظروف النسوية، خاصة في حالات الفقر والتهميش؟ بشاعرية شديدة، تمجّد كريستين توبيرا (Christine Taubira) اليوم الحرية في صورها المغالية. سيمون فيل كانت تقرر أن الإجهاض لا يشكل حقا من حقوق المرأة لا يمكن التصرف فيه؟ تجيبها نجاة فالو - بلقاسم: «الإجهاض: بعد 37 سنة من قانون «فيل»، لا بد من خوض المعركة الإيديولوجية لضمان هذا الحق». لا خوف هذه المرة، فالمعركة ستخاض بقوة، وستُربح. في 26 نونبر عام 2014، في الجمعية العمومية، ومن أصل 151 مصوتا، اعترض سبعة فقط على ما سيقدم لهم على أنه «تغيير طفيف» في قانون «فيل»، والذي سينهي تدميرَه في الحرف كما في الروح.

درس باسوليني

«من يوافق على الإجهاض؟ لا أحد بالطبع. ينبغي أن يكون المرء معتوها ليوافق على الإجهاض». مَن كاتب هذه الكلمات التي تبدو كأنها خارجة من كهوف التطرف؟ البابا بنديكت السادس عشر؟ السياسية المسيحية كريستين بوتان؟ آية الله الخميني؟ كلا، بل بيير باولو باسوليني (Pier Paolo Pasolini)، الرجل ذو السمعة السيئة، الشاعر والسينمائي الذي مات مقتولا، والذي يعد ضمن الفنانين الأكثر تأثيرا في تغيير النظام السياسي والاجتماعي في القرن العشرين.

نحن في عام 1975. وقد مُرّر القانون في البرلمان الفرنسي. في إيطاليا، سيمر التشريع عبر استفتاء شعبي عما قريب. في 19 يناير، نشر باسوليني في جريدة (Corrierre della Sera) مقالا عنوانه: «أنا ضد الإجهاض»، استعمل فيه منهجية استدلالية مشابهة لمنهجية سيمون فيل، بطريقة أكثر جذرية. نعم، هو مع الاستفتاء الذي اقترحه الحزب الشيوعي عام 1975 لرفع

التجريم عن الإجهاض: «أنا ضد الإجهاض، ولكن مع إباحته قانونيا». لا، الأمر ليس بدهيا. «أنا مصدوم من الإباحة القانونية للإجهاض، لأنني أعده - مثل الكثيرين - إباحة للقتل».هكذا يتجرأ أن يكتب.

في هذا المقال، يضع باسوليني نفسه موضع المستكشف والداعية لأنثوية نقدية. ينتفض باسوليني ضد رؤية متباهية بالإجهاض. رفعُه إلى مقام الحق المطلق يساهم في تدهور الحياة، مما يؤدي - في آخر مرحلة - إلى انتفاع رأس المال، وتفاقم الحداثة، ويساهم في اختفاء هياكل المقاومة، وتعزيز السوق. يؤكد قائلا: «القول بأن الحياة ليست مقدسة، وأن المشاعر أمرٌ غبي، هو خدمة عظيمة تقدم لأصحاب الإنتاج». ويقول أيضا: «أن تكون مع الإجهاض بشكل غير مشروط يضمن لك شهادة العقلانية والذكاء المتنور والحداثة إلخ. هذا يضمن في الحالة نفسها نوعا من النقص «الأعلى» في الشعور، مما يملأ بالرضا المثقفين الذين يدعون أنهم تقدميون».

بعد أربعين سنة، تتردى الأنثويات الجديدات - اللواتي ينتسبن لليسار غالبا، ويدّعي أكثرهن مناهضة السيادة المالية للعولمة - في مفارقة لا يمكنهن حساب درجة لامعقوليتها: في حين يشجبن تسليع العالم، فإنهن يساهمن في جعل الجسد من الممتلكات بشكل مطلق. في حين يصرحن: «جسدي ملك لي !»، يردن مقاومة الحمل بالنيابة. في الوقت نفسه، حين تجعل نجاة فالو - بلقاسم الإجهاض حقا، والدعارة جريمة، فإنها توحي ضمنا بأن المرأة لا تمتلك مهبلها إلا حين تظهر الحياة فيه.

الطابوه الغربي الكبير – الأنثوية الصامتة

من كتاب «وداعا آنستي» لأوجيني باستيي (ص143 - 160)

لم نعد نقول «إجهاض» بل «إيقاف اختياري للحمل»، وذلك من أجل مراعاة شعور الجنين.

الكوميدي الفرنسي بيير ديبروج.

ثقافة النفايات في وضح النهار

يمكن أن نعتقد أن الأمر لا يتعلق سوى بمعركة ألفاظ لا غير. ليكن حقا أو ليس بحق، فعلى كل حال: إمكانيةُ الإجهاض مضمونة بقوة القانون. ولكن الألفاظ هي التي تعبر عن الفكر، وإغلاقها يعني إغلاق الحوار. إن التعبير بـ»الحق الأساسي» يمنع في ذاته كل مساءلة، وكل نقد، وكل احتجاج على ممارسة واقعية تكتسي قيمة تقديس غير محدودة. في فرنسا، وفي الوقت الذي يبدأ فيه الحوار حول نهاية الحياة المتخلى عنها دائما للغموض التقنوقراطي للمستشفيات، فإن هنالك طابوهين متناقضين يتعلقان بالولادة وبالموت. لا يمكن فتح الحوار حول هذا الأمر التبادلي الذي يؤدي بنا - بشكل معكوس - إلى إدماج الإجهاض دون نقاش، وإقصاء الإعدام دون عودة، كإشارتين مطلقتين على طرفي الديمقراطية: إمكان قتل الذي لم يولد بعد، وعدم إمكان قتل الذي قتَلَ غيره. من المؤكد أنه لا يوجد تماثل بين الصورتين. وفي الواقع، فعدم التماثل هو الذي لا يكفّ عن مساءلتي.

إذا كانت الأغلبية الساحقة للطبقة السياسية والإعلامية في فرنسا تتفق على مَأسسة الإجهاض على أنه حق لا يناقش، فإن الأمر مختلف في الولايات المتحدة حيث يتواجه "أنصار الحياة" و"أنصار الاختيار" - مهما تكن التسميات غير صحيحة - دون توقف، في إطار حرية الحوار التامة التي يضمنها لهم التعديل الأول للدستور. ولكن هذه الحرية الأمريكية الخالصة هي أيضا حرية المقاولة والسوق، واللذَين - وبعد سيطرتهما على الوجود كله - انتقلا إلى غزو مجال ما قبل الولادة.

يي هذا السياق، ظهرت في صيف 2015، فضيحة جمعية "الأبوة المخططة Planned Parenthood» المقابل الأمريكي «للتخطيط العائلي» عندنا. على مقاطع مصورة بالكاميرا الخفية من طرف مناضِلتين من «أنصار الحياة» زعمتا أنهما ممثلتان لإحدى شركات البيوتكنولوجيا، يمكن أن نرى ديبورا نوكاتولا (Deborah Nucatola) المسؤولة بالجمعية المذكورة وهي لا تكتفي بالنضال من أجل الإجهاض، بل هي توفّره في الواقع، وتصف مصيرَ الأجنة المجهَضة

التي يُتخلى عنها بشكل كثيف لصالح البحث العلمي. بين لقمتَي طعام وجرعتي خمر أحمر، تَذكر نوكاتولا السعرَ المقرر لكل عضو من الأعضاء، «ما بين 30 و 100 دولار» لكل «عيّنة»، ثم تتأسف لأن الأجنة في الغالب لا تكون كاملة بل مفصلة الأعضاء. تقول بشيء من التفصيل: «لقد صرنا متمرسين في تحصيل القلب والرئتين والكبد، لأننا نعلم، ونحاول أن لا نتلف هذه الأجزاء من الجسد». ثم تبين الطريقة الأنجع لأخذ الأعضاء من جنين سليم خلال الإجهاض. وتشرح قائلة: «كثير من الناس يطلبون القلوب. أمس، طُلبت مني رئتان. بعضهم يريدون الأطراف. هذا أسهل. لا أدري ما الذي يفعلون بها؛ أفترض أنهم يريدون العضلات».

هذا الفضح العلني لـ«ثقافة النفايات» المرتبطة بشكل وثيق بالإجهاض المكثف، سببت جدالا ضخما في الولايات المتحدة. وقد أثار بالطبع حماسةَ «أنصار الحياة». كما حرك الجمهوريين الذين – ومع اقتراب الانتخابات الأولية – أعادوا طرح مشروعهم القديم وغير المطبق، بسحب أي دعم عمومي من «الأبوة المخططة». وهو المقترح الذي سيذهب إلى حد الكونجرس، لكن سيجمّد بسبب فيتو الرئيس أوباما. كما أن الجدل وصل أخيرا إلى الدوائر الثقافية المحافظة.

فتح الأعين

موقف لا يمكن تخيله في فرنسا: الصحافية (Ross Douthat) تنشر في النيويورك تايمز مقالا يشبه البيان، سمته «غض الطرف عن الإجهاض»، وسأترجم هنا مقطعا مطولا منه بسبب قيمته الذاتية.

ففي كتابه «دروس قاتلة» والذي نشر عام 1976، يصف الفيزيائي ريتشارد سلزر (Rich-ard Selzer) حادثة غريبة وقعت في الضاحية. ذات صباح، اكتشف سكانُ حيّه عند خروجهم بعد مرورِ عمال جمع النفايات، شيئا رطبا غريبا على الرصيف. حين نظر سلزر في الأرض، ظن ابتداءً أن الأمر يتعلق بطيور ميتة، ثم بدمى ممزقة، قبل أن يفهم أن الشارع كان مليئا بأجنة بشرية مجهضة، صغيرة وعارية. بعد مرور وقت قليل، التقى مدير المستشفى القريب بسلزر وحاول أن يعطيه تفسيرا مرتبا لهذا المنظر المروع قائلا: «إنها مجرد حادثة بالطبع. لقد خلطت الأجساد الصغيرة دون قصد بالنفايات، بدلا من أن تحرق أو تدفن. هذا الأمر لا يقع كل يوم، بل مرة واحدة في العمر على أقصى تقدير». يحاول سلزر أن يبدي رأيه في الموضوع قائلا:

«أنتم ترون أن كل شيء صار منظما الآن. إنها مسألة حساسة. العالم ليس أحمق. نحن نعيش في مجتمع متحضر». «ولكن - ومرةٌ واحدة تكفي - أنتم تعلمون أن هذا غير صحيح. لقد رأيتم بأم أعينكم، وانطلاقا من الآن أنتم تعلمون».

ولكن الأنصار الحازمين للحق في الإجهاض ينبذون هذه المطالبة عن طريق العِلم. يقولون بأن الموت والأحشاء قبيحة دائمة، ولكن الشيء قد يكون مثيرا للغثيان دون أن يكون وحشيا. وهذا صحيح، ولكنه في هذه الحالة ليس صحيحا جدا. يتعلق الأمر باشمئزاز خاص، يؤكده الفهم والتجربة - الاستدلال يسجل أن بشرية هذه الأجنة هي ما ينشئ قيمة أعضائها - ، من كون مؤسسة معينة، في قلب المجتمع الليبرالي، تتخصص في نشاط يستحق أن يوصف بالوحشية.

إنه أمر يصعب القبول به. وهذا - بنسبة معينة - ما يجعل عددا من الناس مترددين في خط المفاصلة، على هامش تأييد الاختيار الحر. إنهم ضد الإجهاض، ويكثرون الكلام في نفس اتجاه من ينتقدونه .. ولكن لا يجرؤون على الالتحاق بهذا الاتجاه، لأن ذلك يستدعي إجراء أحكام متعلقة بمصالحهم وبلدهم وأصدقائهم، وحتى على أنفسهم. هذا التحفظ والتردد موقف إنساني يشترك فيه كثير من الناس. هذا هو السبب الذي جعل أهل الجنوب في أمريكا يقدمون أسطورةَ قضيتهم الخاسرة على واقع العبودية. وهو السبب الذي جعل الوطنيين الأمريكيين يرفضون الحديث عن مجزرة (My Lai)[1] أو معسكر (Manzanar)[2] أو القنبلة النووية على ناجازاكي. وهو السبب الذي جعلني - مثل كثير من المحافظين - أشمئز من التعلق بحقيقة ممارسات التعذيب ومنهجية التحقيق زمن رئاسة بوش.

ولكن التقزز من النظر عن قرب، لا يغير شيئا في حقيقة ما يمكن أن يُرى. إن الأمر يتعلق بكائنات بشرية ميتة في ذلك الشارع الذي يصفه ريتشارد سلزر منذ أربعين سنة؛ وبكائنات بشرية ميتة أيضا في تلك المقاطع المصورة: كائنات بشرية خَصّص الأعضاء اللطفاء والمثاليون

---

(1) إحدى المجازر الفظيعة التي ارتكبها الجنود الأمريكيون ضد مدنين في الفيتنام عام 1968. [المترجم].

(2) أشهر معسكرات الاعتقال في أمريكا للأمريكيين من أصول يابانية خلال الحرب العالمية الثانية. وقد بقي وصمة عار في التاريخ الأمريكي الحديث، لأن هؤلاء المدنيين اعتقلوا فيه لغير تهمة، بل فقط لأنهم من أصول يابانية، واليابان في حالة حرب مع أمريكا ! [المترجم].

للفريق الطبي في جمعية «الأبوة المخططة» حياتَهم المهنية لانتزاعها، وسحقها وتقطيعها إلى قطع صغيرة».)

بالنسبة للصحافية (Ross Douthat)، فإن الإجهاض كما أصبح في المجتمعات الليبرالية المتقدمة، أي: مكثفا وقابلا للتسويق، يقتضي الكذب بالإغفال، أو قل إن شئت: التعامي الجماعي المتعمد. في عام 1974، هتفت سيمون فيل على المنبر: «لِم لا يمكننا الاستمرار في إغلاق أعيننا؟ لأن الحالة الراهنة سيئة. بل يمكنني أن أقول إنها مأساوية ويُرثى لها». بعد أربعين سنة، يمكننا إعادة صياغة العبارة نفسها، ولكن في الاتجاه الآخر. في مقابل تعامي المحافظين الذين كانوا يرفضون اعتبار تحدّ مهم من تحديات الصحة العمومية عام 1974، يوجد اليوم تعامي الأنثويات اللواتي يرفضن اعتبار الاستعمال الأداتي المتزايد للإجهاض.

قانون الصمت

كان الشاعر الفرنسي بيجي (Péguy) يقول: «علينا أن نرى ما نراه». ولكن ما السبب الذي من أجله نصرِف نظرنا بالضبط؟ لِم نرفض أن نقبل فكرة كون الإجهاض فشلا دائما، ومأساة غالبا؟ لم تُنفى الآلام التي لا ينفك عنها أي إجهاض من طرف أولئك الذين يفترض أنهم يدافعون عن المرأة؟ هذه الأسئلة هي اللازمة المتكررة في الوثاقي المدهش الذي بثته قناة (Arte) يوم 17 مارس 2015، بمناسبة مرور أربعين عاما على قانون فيل.

«أجهضت المخرجة (Renate Gunther Greene) حين كان عمرها 25 سنة. بعد عقود من الكبت، عادت إلى مكان العملية، وملأها ذلك بالألم. قررت حينئذ أن تربط الاتصال بالنساء اللواتي مررن من المسار نفسه، ولكنها اصطدمت بجدار من الصمت. لم تشعر النساء بصعوبة في الإقرار باللجوء إلى الإجهاض، في حين كنّ يطالبن علنا وبقوة بالحق في التحكم في أجسادهن في سنوات 1970؟» هذا هو تقديم الوثائقي الذي عنوانه «الإجهاض، قانون الصمت» والذي يهدم هذا القانون بإعطائه الكلمة للنساء للحديث عن خصوصيتهن في هذا الموضوع.

«نحن معاشر النساء، طالبنا بتقنين الإجهاض في سنوات 1970، للتخلص من أفخاخ السرّية واستعمال إبَر الحياكة. هل عدمُ حديثنا عنه كان من أجل التخلص من النظام الأخلاقي، والفرار من التجريح؟ هل هذا ما يمنعنا من الحديث بلقب مفتوح عن ألم الإجهاض؟». هكذا تتساءل إحداهن في افتتاح الوثائقي.

ولكن – وكما تبينه بقية الوثائقي – هذا الألم بعيد عن أن يكون ذاتيا. إنه ليس ثمرة إحساس مخادع بالذنب. إنه كذلك ليس مجرد أثر من بقايا العالم القديم أو من أطلال الصور النمطية للنوع. النساء في الوثائقي لم ينشأن في أسر كاثوليكية برجوازية، بل أتين من أوساط ثورة 68، التي شُجّعن فيها على الإجهاض. كثير منهن تحسرن للنقص الذي كان في معلوماتهن حول مدى قرارهن. من أصل عشرة نساء تعرضن للإجهاض، فإن ما بين اثنتين وأربعة منهن – بحسب الأرقام المتوفرة – يعرفن حالة من إجهاد ما بعد الصدمة، مع الإصابة بمرض يُحوِجهن إلى متابعة نفسية للتعامل مع ما فقدنه.

هذا الكشف عن الوجه الحالك للإجهاض، بدلا من الاحتفاء المعهود بهذا التقدم المكتسب، أغضب الجمعيات التي تزعم احتكار الظروف النسائية. وهكذا غرد تجمّع «لنجرؤ على الأنثوية Osez le féminisme» تغريدة واضحة: «هذا عار على قناة أرتي Honte à Arte!». كما أن التخطيط العائلي أصدر بيانًا «يَعْجب من بث وثائقي يجعل الإجهاض ذنبا. ويذكّر بأنه لا توجد تجربة واحدة، ويحذر من خطابات من هذا النوع». نعم لا توجد تجربة واحدة، ولكن يجب أن توجد كلمة واحدة. علينا أن نُسكِت النساء اللواتي لم يعشن إجهاضهن على أنه «تجربة كغيرها من التجارب». لنكن من مناصري الاختيار الحر، ولا ندافع إلا عن اختيار واحد، هو خيار الإجهاض. ولنحارب آلام النساء، إلا إذا كانت ناتجة عن الإجهاض.

مع ذلك، فنحن لسنا في سنوات 1970، وكل شيء يجري كما لو أن «النظام الأخلاقي» قد غير معسكرَه. وخلافا للواتي يرَين في كل مكان «عراقيل أمام الإجهاض»، فإن أصابع الاتهام لا توجه اليوم للواتي يجهضن، وإنما للواتي يتجرأن على الاحتفاظ بأطفالهن، أو يفضلن لزوم بيوتهن للاعتناء بهم ! تخبرني إحدى الصديقات، أنها اكتشفت حملها بعد أربعة أشهر، وحين توجهت إلى المستشفى، أخبرها الطبيب – من تلقاء نفسه وقبل أي شيء – أنها يمكن أن تجهض خارج فرنسا. كانت صغيرة السن، ولم تكن تضع خاتم الزواج في يدها، ولم تكن مصحوبة بزوجها. لم يكن لديها إذن الصورة النمطية للمرأة التي تريد الاحتفاظ بجنينها. من هم المحافظون – في الحقيقة؟

الأنثويات الجديدات يتجاهلن هذه «السيطرة» الجديدة. إنهن يغضضن الطرف عن الفتيات اللواتي يجبرهن شريكهن الجنسي على الإجهاض، لرفضه تحمل مهمة الأبوة الثقيلة، ولم يعد بإمكانهم رفض الاعتراف بالولد الطبيعي. إنهن ينفين آلامهن. يتعمدن عدم رؤيتهن.

تقول إحدى النساء في الوثائقي: «كان عمري 17 عاما، حملت من أول علاقة جنسية لي. كان عمره 45 عاما، وكان متزوجا ووالدا لطفلين. تملص من مسؤوليته، ولم أجد حلا آخر». إذا كانت الباطرياركية التغايرية موجودة فعلا، فهنا تكمن حقا. ولكن الأنثويات الجديدات يفضلن ملاحقتها في الحملات الإعلانية لغسيل الملابس.

كلام سيمون فيل الحذِر وكلام باسوليني المتحمس لم يعبرا عن معنى آخر سوى هذا المعنى نفسه: الإجهاض ليس طريقة لتحرير النساء، بل لا يعدو أن يكون ضرورة مأساوية. ثم هو يترك في الذاكرة حسرة في أفضل الأحوال، وجرحا في أسوئها. ولكن تقنينه دون شروط يضع على عاتق المرأة حملا ثقيلا. إن الخيار لهن، ولهن وحدهن.

كذبة مزدوجة

يعتمد الحوار في الظاهر على بديل بسيط. إما أن نَعدّ الجنين بشكل ما إنسانا، والإجهاض - بالتالي - قتلا، فنمنعه، بقطع النظر عن واقع النساء اللواتي - إذا لم يردن الاحتفاظ بالجنين أو لم يستطعن ذلك - سيجهضن في كل حال و - في الغالب - بأسوأ الطرق، لأن مجتمعنا ناقص للدرجة التي لا يمكن معها أن يستقبل حياة جديدة تنشأ داخله. وإما أن نعد الجنين تجمّعا للخلايا، لا يختلف في معنى الكرامة عن أي ورم، وأن الإجهاض عمل طبي خالص، فنبيحه دون حدود، بغض النظر عن واقع الآلام التي تتعرض لها النساء اللواتي يجهضن، لأن مجتمعَنا حر إلى الدرجة التي يجعل منه وسيلة لتحديد النسل كغيرها من الوسائل. في الحالة الأولى، يُقر المنعُ المطلق فوضى في الواقع. في الحالة الثانية، يؤدي التحديد العشوائي - ومنه أجل الإباحة المحدد في 14 أسبوعا من الحمل - إلى حقٍّ غير محدود.

يتقابل هنا موقفان: أحدهما شمولي أو ميتافيزيقي، تَفرض فيه الوحدة والطابع المقدس للحياة من الإخصاب إلى الموت نفسَها على الشخص، قبل أي اعتبار آخر؛ والثاني مادي أو ليبرالي، ينتصر فيه الاختيار الحر للفرد على أي شكل من أشكال التمثل المتعالي للوجود، مهما يكن. إنهما موقفان لا يمكن أن يصطلحا، بسبب نفس الأنثروبولوجيا المتعارضة التي تحكم كل واحد منهما. ولذلك فإن المنطق الذي حكم رفع التجريم عن الإجهاض لا يمكنه أن يرضي لا هذا ولا ذاك. هذا المنطق يعتمد في الواقع على إخفاء أمرين اثنين: يدعي من جهة أنه يجهل أن الإجهاض ليس قتلا، ويتبنى من جهة أخرى العلم بأنه ليس عملا كغيره من الأعمال الطبية.

ونتيجةُ هذا الإخفاء المزدوج أن الإجهاض يصبح أحد الطابوهات. يفرض علينا أن نصرف أنظارنا عنه. لا أحد يجهل، والجميع يعلم في العمق، أن الأمر يتعلق بفشل ومأساة. إنكار ذلك مستحيل. الاعتراف به غير ممكن. سيعني ذلك الكشف - بشكل ساطع - بأن المجتمع الغربي انتهى إلى تقنين نوع دقيق من الوحشية من أجل إقامة إجراء ناقص. ولكن الرغبة في جعل هذا التوافق "أساسيا" وتقديسه، ونقل القداسة - بعد علمنتها - من الموقف الديني إلى الموقف الليبرالي، كل ذلك يجعل من هذا الإخفاء المزدوج كذبا مطلقا. هذا التحويل غير المقبول هو الذي يصدم العقل قبل الأخلاق.

من المؤكد أن هذه الرغبة في تحويل عمل مسموح به إلى حق من الحقوق، يدخل في الحذف الأعم لكل "سلبي" من مجتمعاتنا. فالحق لا يمكن أن يؤتى به لتسويغ ما يعد من قبيل تقليل المفسدة، أو حصر الضرر في حدود معقولة. لا، الحق هنا لترسيخ "الإيجابي"، للختم على كل تقدم تاريخي للفرد، للاحتفاء بالسير المحتوم نحو التقدم. الحق إما أن يكون مطلقا أو لا يكون. اللّا - حَق، كما يعرفه جون كاربونيي (Jean Carbonnier) القانونيُّ المعادي لتجاوزات السلطةِ، غيرُ موجود، وكل فضاء للحياة الإنسانية يتملص من سلطة القانون، مصيره الاختفاء. (..) الدعارة لا يمكن أن يعترف بها القانون، لا بد إذن من إلغائها؛ الإجهاض معترف به قانونيا، لا بد إذن من الاحتفاء به.

آلية مانوية تريد ألا يوجد الشر، وأن تكون الحلول كلها حلولا أخلاقية، مع أن الأمر لا يعدو أن يكون توافقا سياسيا. لأنهن يبالغن في التعامي، ويرفضن فهم هذه الدقة، وهذه المجالات الرمادية التي لا يوجد القانون فيها إلا لمنع الأسوأ لا لإملاء الأفضل، فإن الأنثويات حولن قانونا صحيا إلى معركة إيديولوجية، ليس في خدمة رفاهية النساء وإنما في خدمة رؤيتهن الخاصة للعالم.

أما أنا فأقتبس من باسوليني رفضَه التام لاحتقار التجربة الحقيقية، والصعوبات والمحن لعدد كثير من النساء. أنتفض معه ضد التصور الليبرالي المغالي للإجهاض، والذي يتجاهل آلامهن وتأنيب الضمير لديهن، استنادا إلى فردانية لا تُثقل نفسها بأعباء الضمير. أنتفض معه أيضا ضد تيار محافظ يميل إلى رجم المجهضات، استنادا إلى أخلاقية لا تنشغل بكون الإنسان غير قابل للاختزال. علينا أن نصل إلى درجة اعتبار الإجهاض ظاهرة اجتماعية، ونخلق نظاراتنا الإيديولوجية، ليبرالية كانت أو محافظة، لننتهي من هذا التعامي المزدوج، ونرى أخيرا واقع عمل عنيف، يمكن تفاديه أحيانا، ولا يكون ظافرا أبدا.

أن تكون بصدق مناصرا للاختيار الحر

«في مجتمع كلُّ شيء فيه ممنوع، يمكننا أن نفعل أي شيء؛ في مجتمع شيء ما فيه مباح، لا يمكننا أن نفعل سوى ذلك الشيء»، هذا الذي كتبه باسوليني. الألفاظ نفسها تستعصي على بداهة هذا الإكراه غير المعلن. تحت ستار رغبتهن في أن يكنّ مناصرات للاختيار الحر، لا تدافع الأنثويات الجديدات في الواقع سوى عن خيار واحد، هو الإجهاض. تحت ذريعة إعلان كونهم مناصرين للحياة، يتخفى المحافظون الجدد تحت ستار رؤية أحادية وغير ملائمة، وكاريكاتورية أحيانا. ينبغي حذف اللفظ لأن من الغلط الإيهام - كما يفعل البعض - بأن المعسكر الآخر فيه المناصرون للموت. قد يقع أن يكون أنصار الاختيار الحر الأكثر حماسة، ممن يمنحون الحياة.

لسنا "أنصار الحياة"، نحن لسنا سوى "أنصار الاختيار الحر" ولا يمكن أن نكون غير ذلك، ولكن بشرط أن تقدّم إمكانية الإجهاض وعدمه بطريقة متساوية، أن يوضع وجها لوجه خيار الموت وخيار الحياة، في ظل احترام تام لحرية الضمير لكل امرأة واحترام لظروفها الشخصية.

ما العمل إذن؟ أولا، لا بد من الاحتفاظ بعدم تجريم الإجهاض، ولكن مع رفض تسجيله كـ"حق أساسي"، إذ لا يؤدي ذلك إلا إلى منع أي فحص لضرورة وضع حدود له. من وجهة النظر هذه، فإن الحوار حول الاسترجاع الآلي والكامل لتكلفة الإجهاض من طرف الضمان الاجتماعي، يستحق أن يعاد فتحه. في الواقع، لا شيء يبرر إجبار مواطن معين على تمويل نشاط - عن طريق الضرائب - يمكن أن يكون رافضا له أخلاقيا. يتعلق الأمر ببُعد شخصي خاص لا يدخل في العقد الاجتماعي. ثانيا، لا بد من تقديم الخيارين علنا بشكل متوازن وبعيد عن كل نضالية، ولو كانت صادرة عن الدولة. نظرا لانتفاضها ضد "المواقع الالكترونية الخادعة التي تُشعر النساء بالذنب" وتقترح بدائل عن الإجهاض تحت عنوان "مناصرة الحياة"، أطلقت نجاة فالو - بلقاسم في شتنبر 2013 موقعا حكوميا مصنفا الأول على جوجل. على هذا الموقع، كما على موقع التخطيط العائلي، لن نجد أية شهادة لأية امرأة قررت الإجهاض أو الاحتفاظ بجنينها، يمكنها التشويش على خطاب التحفيز الموجود فيه. وثالثا وأخيرا، يجب أن يصبح تقليص عدد عمليات الإجهاض من أهداف السياسة العمومية. وذلك ليس من أجل اعتبارات ديمغرافية، لأن ذلك يؤدي إلى تناقص "القوى الحية القادرة على مواجهة سيل

الهجرة" أو لسداد أيام الهرم لدى المتقاعدين، ولكن لأن مائتي ألف إجهاض كل سنة ليست مأساة وطنية، بل هي مائتا ألف مأساة فردية.

بديل القلب

«الإجهاضُ الاختياري إذا قورن بتجريمه، هو أقل مفسدة؛ ولكنه مع ذلك ليس شيئا حسنا. بقدر حكمنا بأنه أمر مرعب، بقدر ما يجب أن نحكم بأن الاتهام الذي يلصقه بالمجتمع هو مرعب أيضا. إنه علامة فشل مجتمعي، ولا يختلف كثيرا من هذه الحيثية عن وجود السجون» هكذا يسجل الفيلسوف الأمريكي ستانلي كافيل (Stanley Cavell)، الناقد المتنور للنزعة الشكّية المعرفية والأخلاقية التي يؤدي إليها السوق العالمي للاستهلاك. ستوجد دائما عمليات إجهاض، كما ستوجد دائما السجون، لأن البشرية ناقصة، ولأن بناءها الاجتماعي انعكاس لهذا النقص. مع ذلك، ألا يجب على المجتمع الواعي بهذه العقبة أن يحارب أسباب هذا «الفشل المجتمعي» بدلا من الاحتفاء بنتائجه؟ أيكفي أن نعتقد بأننا إن حذفنا الجزء الظاهر من هذا «الفشل المجتمعي»، فإننا نقضي على أسبابه؟

في مقال نشره بعد فضيحة «الأبوة المخططة»، يشرح رون بول (Ron Paul) المرشح السابق للانتخابات الرئاسية الأمريكية، والخصم الحازم للإجهاض ولتمويله من طرف الدولة، لِم لا يمكن في نظره أن «يفوز مناصرو الحياة عن طريق السياسة»؛ ويعلق قائلا: «من المؤكد أن تغيير القانون يمكن أن يحد من الإجهاض، ولكن حركة «مناصري الحياة» لا يمكن أن تنتصر أبدا إلا إذا استطاعت تغيير نظرة الناس تجاه الأطفال قبل ولادتهم. في هذا الاتجاه، حققت مراكز الأزمات التي تقدم المساعدة والتعاطف للنساء اللواتي تواجهن حملا غير مرغوب فيه، لصالح قضية «مناصرة الحياة» ما لم يقدمه أي رجل سياسي. بتوضيحها للنساء وجود بدائل ممكنة عن الإجهاض، أنقذت هذه المراكز أرواحا كثيرة». بعبارة أخرى، بدلا من إشعار النساء بالإثم بعرض صور الأجنة الممزقة عليهم، أو بمحو الإحساس بالذنب عنهن بإلزامهن بالصمت؛ وبدلا من إضفاء القداسة على الموافقة على الإجهاض بجعله أمرا عاديا، أو تعزيز الاحتجاج على الإجهاض بجعله اتهاميا؛ بدلا من ذلك كله، المطلوب هو منح بديل حقيقي للنساء في وضعية معاناة. بعض هذه المراكز موجود في فرنسا، ولكن العرض يبقى سرّيا وطائفيا. لا بد إذن من تطويره.

على عكس «المعركة الإيديولوجية» التي تدعو إليها نجاة فالو - بلقاسم، فإن المجتمع المتقدم حقا ليس هو المجتمع الذي يُشرع فيه لكل امرأة أن تقضي – دون تفكير – على جزء من جسدها؛ بل هو المجتمع الذي يظهر ما يكفي من الكرم والإحسان لاستقبال الحياة، ليس فقط التي يُخشى منها، بل التي يُرغب فيها. يجب التوجه نحو إنشاء هذا المجتمع، برفض السيادة المتقلبة واللامحدودة للفرد - السيد، في هذه القضية كما في القضايا الأخرى.

نعترف اليوم بحقوقٍ للحيوانات، كانت ستُضحِك ديكارت وأغلبية فلاسفة الأنوار. هل فرضية مجيء يوم نكتشف فيه أننا كنا مخطئين حول وضع الأشخاص في بدء الحياة، هي فرضية لا يمكن تصورها حقا؟ لقد وقعتْ أخطاء من هذا القبيل عبر التاريخ، في مجتمعات شمولية، ولكن أيضا في مجتمعات ديمقراطية أو كانت تحسب نفسها كذلك، حيث رُفض إعطاء وصف «إنسان» لطائفة معينة من الناس. ربما سيأتي اليوم الذي ننظر فيه بحسرة وندم إلى الزمن الذي كان تدمير كائنات بشرية أُنزِلت إلى مرتبةِ تَجَمُّعٍ للخلايا، يشجَّع على أنه عمل «عادي». في انتظار ذلك، لن نقاوم «ثقافة الموت» هذه بتغيير القانون، ولكن بتحويل القلوب.

الرحم، حصان طروادة للفكر العابر للإنسانية – الأنثوية الآيلة إلى الزوال

من كتاب «وداعا آنستي» لأوجيني باستيي (ص161 – 179)

أنا مع جميع الحريات. ما الفرق بين تأجير الرحم لإنجاب طفل وتأجير اليدين للعمل في المصنع؟

بيير بيرجي.

الحمل بالنيابة المثيرُ للغثيان

كانت دوبوفوار تقول: «اصنعوا كتبا، لا أطفالا». تحولت هذه العبارة من أمر ثوري إلى عبارة مبتذلة. إن التقليعة الجديدة اليوم هي الأطفال. أطفال صغار للجميع! أطفال يتِمّ تبنيهم أو على المقاس، باستعمال الأنابيب، بالمساعدة الطبية، بتأجير الأرحام، بين الرجال أو بين النساء. كل ذلك: وفق الطلب. الرغبة في الأطفال صارت حاكمة. الرغبة الجنسية المتباهية لأبناء ثورة 68 صارت منحصرة في أنابيب الزجاج. كنّ يقلن: «طفل واحد، إذا شئتُ، ومتى شئتُ». صاروا يصيحون اليوم: «أطفال للجميع»، متسلحين بالوسائل التقنية الحديثة للوصول إلى تحقيق رغبتهم. يوجد على رأس الموضوعات الخطيرة التي تمتنع الأنثويات الجديدات من رؤيتها وتصورها، موضوعُ التقنية التي تهدد جسدَ المرأة وامتياز الأمومة الذي تختص به.

لنكن حذرين: أقول «امتياز» ولا أقول «واجب»: الأمومة إمكانية خاصة بالمرأة .. أو «كانت» كذلك، كما يقول الخبراء المعاصرون في الخلق، الذين يراهنون على الرحم الاصطناعي أو الأمومة الذكورية من أجل تخليص المرأة من هذه اللعنة، بما أن «بؤس المرأة يكمن في كونها مكرسة بيولوجيا لتكرار الحياة»، كما تقول سيمون دوبوفوار. يقع على عاتق العِلم تخليصُها من هذه الآفة! هذا الواقع النهائي للنضال من أجل «المساواة»: مساواتيةٌ مدمّرة لكل الفروق بفض السحر المفترض للتقنيات البيولوجية. ولكن بطون النساء ستكون تحديدا ضحية هذا التوسع الجديد لمجال النضال.

«لا يمكن إقامة تمييز في الحقوق، سواء الإنجاب بالمساعدة الطبية أو الحمل بالنيابة أو التبني. أنا مع جميع الحريات. ما الفرق بين تأجير الرحم لإنجاب طفل وتأجير اليدين للعمل في المصنع؟ إن التمييز بين الصورتين هو الصادم حقا». هذه الكلمة لبيير بيرجي (Pierre Bergé)[1]، على شاشة التلفزة في 16 دجنبر 2013، هي إحدى اللحظات النادرة

---

(1) رجل أعمال فرنسي مشهور، وصديق لمصمم الأزياء المشهور إيف سان لوران (Yves Saint Lau-rent)، له تدخل في كثير من النضالات الحقوقية (كحقوق المثليين) والإعلامية (صار مالكا لصحيفة لوموند). [المترجم].

التي ظهر فيها – ساطعا وخاليا من أي تزيين – ملخص التقدمية الليبرالية – الليبرتارية. حين جعل من الحمل «مهنة» كغيرها، فإن هذا المليونير المترَف وبطل الأناقة النخبوية أبرز إلى العلن الحقيقةَ المتسترة خلف المُثل الجميلة للمساواة في الحقوق: سيطرة السوق على مجالات كان مقصى منها من قبل، الأسرة، الأمومة، النسب.

بشجاعة ووضوح مثاليين، تعبر الفيلسوفة والأنثوية سيلفيان أجاسينكي (Sylviane Agacinki) عن المعنى المعاكس في كتابها «جسم محطم Corps en miettes»: «أجد نوعا من التقزز حين أضطر إلى الاستدلال على أنه من المُهين أن يُطلب من امرأة ما أن تعير بطنها لغيرها». على غرار أجاسينكي مؤلفة كتاب «ميتافيزيقا الجنسين La métaphysique des sexes»، والمعارِضة بشدة لتطبيق أي نوع «أخلاقي» من الحمل بالنيابة، فإنني لن أطيل في ذكر الأسباب التي تجعل إدراج الحمل في مجال التبادل أمرا غير مقبول. تذكر أجاسينسكي أن «الحمل لا يمكن التصرف فيه، بـ«إعطاء» أو «بيع»، دون أن يكون ذلك تصرفا في المرأة نفسها». من كان يشكك في هذه الفكرة، فلا يكمل القراءة، لن أعظ المطرودين من الحس السليم. ولكن ما هذه الآلية الجهنمية التي أدت بنا إلى أن يدخل مثل هذا الاقتراح إلى النقاش العمومي، ولِم يهيمن الصمت المذنب – إن لم نقل التواطؤ على الجريمة – للأنثوية الجديدة في هذا الموضوع، هذا هو سؤالي.

الاعتراض بأي افتراض كان، على هذا الاستعباد الجديد لجسم المرأة، الموجه بالدرجة الأولى للنساء الفقيرات، يعرّض صاحبه للوصم بنعوت قبيحة: «ليشتمني الرجعيون، لا يهمني الأمر. لقد هُزموا وستستمر هزيمتهم. نريد حملا بالنيابة أخلاقيا. وسنحصل عليه»، يقول بيير بيرجي على حسابه بتويتر، بثقة بالغة. «من هم هؤلاء التخليقيون الذين يزعمون العلم ويفرضون على الجميع ما يعدونه كرامة النساء. ما الكرامة؟» تقول في جريدة لوموند كارولين مركاري (Caroline Mercary) المحامية والمناضلة من أجل الأقليات الجنسية. وتقول أيضا: «السماح للنساء الراغبات في ذلك، وفي إطار قانوني، بإعطاء طفل لزوجين لا يمكنهما الحصول عليه، ألن يكون ذلك أكبر عملية تقويض أنثوي يمكن تخيلها: التحرر أخيرا من واجب الأمومة؟». لسنا نفهم إن كان «تحرر» المرأة هذا يمر عبر تفويض الحمل لامرأة أخرى، أم بالعكس عبر إعطائها طفلها. ولكن هذا المعنى السلبي للأمومة («التحرر من واجب الأمومة») يجسد انحرافا أنثويا كان في مرحلة البذرة لدى سيمون دوبوفوار، التي لم تكن تخفي احتقارها لـ«الأنثى التي تبيض».

فسخ الاتفاقية

تمثل نجاة فالو - بلقاسم بشكل جيد التناقض والعَمى اللذين يميزان الأنثوية الجديدة في قضية الأمهات البديلات. فهي تعلن منذ 2010 أنها لصالح الحمل بالنيابة، وتناصر التبرع «الإيثاري» الذي يمكن أن يكون «أداة إضافية في خدمة محاربة العقم». وتؤكد - معتمدة على مبدأ التراضي - بأن إتاحة جسد المرأة خلال مدة الحمل أمر ممكن ومطلوب. وتضيف: «أما حجة الكرامة، التي استُعملت كثيرا، فقد انتهى بها الأمر إلى الفتور». لكن في عام 2012، حين أصبحت وزيرة لحقوق المرأة، فقد أرادت أن تلغي الدعارة، وذلك «باسم الكرامة الإنسانية». ما هو صالح في المعاشرة الجنسية، ليس صالحا في الحمل. إنه من جديد كيل بمكيالين يترجم انصار الأنثوية «البظرية»، المتمحورة حول المتعة وهاجس الاغتصاب، على الأنثوية «الرَّحِمية»، المتمركزة على الحمل والأمومة.

إن التسارع نحو توسيع دائرة الحقوق الذاتية يؤدي إلى مجموعة من التناقضات، وذلك حين تصطدم مطالب البعض بمكتسبات الآخرين. إن الحمل بالنيابة يدمّر اتفاقية ظرفية وجدت في سنوات السبعينيات بين المثليين والأنثويات، من أجل مواجهة النظام الباطرياركي البرجوازي. من أجل التخلص من مصيرهم البيولوجي، فإن المثليين محتاجون إلى بطون النساء من أجل صنع الأطفال؛ هذه البطون ذاتها التي تريد الأنثويات تحريرها من كل سيطرة، خاصة إن كانت ذكورية. هذا التحالف "المقدس"، والذي جُدّد بمناسبة قضية "الزواج للجميع" لم يدم سوى ربيع واحد، فقد اصطدم مبدأُ التقاء النضالات بعقبة جسم المرأة.

تماما مثل قضية الحجاب، فإن قضية الحمل بالنيابة تؤدي إلى انقسام الجبهة الأنثوية الجديدة ما بين متعصبات الدفاع عن الأقليات الجنسية، الفاقدات للذاكرة اختيارا، والمناضلات اللواتي أصبحن فجأة مهتمات بالمبادئ التأسيسية. حين تبنّت "مسيرة الفخر" المنظمة بمدينة ليون عام 2014 شعار: "حقوق الخنثويين، الإنجاب بالمساعدة الطبية، الإجهاض، الحمل بالنيابة، الدعارة: أجسادنا، اختياراتنا"، جامعة بذلك بين نضالات مختلفة تحت راية حرية التصرف في الجسد، ألغت جمعية "لنجرؤ على الأنثوية Osez le féminisme» حضورَها التقليدي في المسيرة، متأسفة رسميا على «الخلط بين مطالب مشروعة وتقدمية، ومطالبات ذكورية بوضوح». ولو بالمرور على التناقض مرّ الكرام: إذا كان الحمل بالنيابة غير متلائم مع حقوق النساء، فإن شعار «جسدي ملك لي»، المستعمل في الإجهاض، يصبح باطلا. الاعتراض على أحدهما وتقديس الآخر يؤول إلى

الإقرار بأنه - في إحدى الحالتين -يُنسج بين الطفل والأم خلال الحمل رابط لا يمكن اختزاله في علاقة الحاضنة بمن تحضنه؛ وأنه - في الحالة الأخرى - يمكن للمرأة أن تتصرف بحرية في كل ما يقع داخل رحمها. باختصار، يمكن إيقاف الحمل، ولكن لا يمكن بيعه ولا منحه.

اليسار ضد التقدمية

هذه التناقض يقود النساء إلى مفارقة أخرى: في حين يُعمّم «الحق في الطفل»، فإن «واجب الأمومة» يُزدرى. الأم المتغايرة جنسيا العاملة في بيتها عرضة للاستهزاء، أما الأب المثلي جنسيا الجالس في البيت فإنه يستحق التمجيد. الأسرة يُحتفى بها ما دامت عصرية، أي حين تشبه أي شيء باستثناء الأسرة التقليدية. النسبوية تحتاج إلى الإقصاء من أجل تأكيد نفسها. ولذلك فإنها لا تتطابق مع التوزيع السياسي المعروف لدينا منذ 1789. بالنسبة لسيلفيان أجاسينسكي، فإن مطلب «الحق في الطفل» ليس مطلب «يسار» ولكنه «تقدمي». وهي بذلك توافق جون كلود ميشيا (Jean – Claude Michéa) الذي يرى بأن اليسار والتقدم لا يمكن الخلط بينهما، إذ هذا الأخير يخدم أكثر توسيع السوق إلى دوائر كانت من قبل خاصة بالتبرع. على الرغم من ذلك، فإن الحمل بالنيابة ينبع بتلقائية من السباق المحموم نحو الحقوق الذاتية، والذي يشكل أساس حياتنا الديمقراطية منذ أربعين سنة.

بدلا من الاستسلام للدوار الناتج عن تأمل الثمرات العفنة للثورة الليبرتارية لعام 1968، فإن من الأفضل القيام بعمل ما، وإن كان ذلك سيغضب بيير بيرجي. هذا ما فعله في ماي 2015، سيلفيان أجاسينسكي وجوزي بوفي وميشيل أونفري في مقال يشجب الحمل بالنيابة. مما قالوه: «نقرّ جميعا بقوة الرغبة في الأبوة. ولكن، كما في الرغبات جميعها، لا بد من وضع الحدود لذلك». يسار مضاد لليبرالية، أنثوي وإيكولوجي، يسار للكونية واللياقة، يعترف بضرورة وضع الحدود، ويرفض ممارسة اجتماعية تشبه الهزيمة الانتخابية ! لنسجل أخيرا أنه إذا كانت بعض الأنثويات يدافعن - على غرار إليزابث بادنتر - عن إمكانية «حمل بالنيابة أخلاقي»، فإنهن لا يجعلن من ذلك صراعا أولويا.

السياسيون عموما لا يتحمسون للقضية، ولكن يفضلون التهوين منها باسم «العدد القليل» من الأشخاص المعنيين بها. كانت هذه نفس الحجة في قضية زواج المثليين، قبل أن يصبح المؤشر الأكبر، والوحيد تقريبا، لليسار المجتمعي. يعِد الوزير الأول مانويل فالس (Manuel Valls)، على نفس النهج التضخمي، بأن «تدعم فرنسا مبادرة عالمية حول الحمل بالنيابة»، وذلك عشية التعبئة لأنصار الزواج المثلي في أكتوبر 2014. هذا الرجاء الذي أملته الظروف الخاصة، سيبقى رسالة دون رد. قبل ذلك بشهور، أي في شهر يونيو، أدانت المحكمة الأوروبية

لحقوق الإنسان فرنسا لرفضها تحويل عقود الولادة للأطفال الذين ولدوا من أمهات بديلات في الولايات المتحدة، إلى سجل الحالة المدنية. بالنسبة لماري - جو بوني (Marie – Jo Bonner)، الناشطة السحاقية والأنثوية المعارضة للأمهات البديلات، فإن الإجبار الناتج عن هذا الحكم يشي بالرجوع إلى «الخط الباطرياركي». وذلك أن المحكمة الأوروبية أدانت باريس لرفضها تسجيل الأب البيولوجي لطفل من أم بديلة، وليس أمه البيولوجية التي ليس لها وجود قضائي، وبالتالي ليس لها حق تطالب به. في حين تبقى فرنسا واحدة من الدول النادرة التي تشجب بحزم تجارة الأمهات البديلات، فإن هذا القرار من القضاة الأوروبيين يسمح بالاعتراف عمليا بالأطفال الناشئين عن هذه الممارسة غير القانونية، ويمنح الإفلات من العقاب للرجال المسؤولين عن هذا العمل الذي يمس بحرية النساء بشكل خطير.

في الواقع، ليست الفتيات الأنثويات من الأحياء الراقية هن من سيجعلن من بطونهن مصانع للأطفال، وإنما البنات الفقيرات من الهند وأوكرانيا. إن الحمل بالنيابة نوع من العنف غير المقبول الممارس على جسد المرأة الذي يختزل في مجرد قالب، وكان ينبغي إذن أن يكون قضية نضال أولوي عند اليسار. ولكن السلطة الاشتراكية المستقرة في قصر الرئاسة، فضلت أن تتخلى عنه بمهارة لليمين الكاثوليكي المتظاهر في الشوارع.

طفل متى أشاء .. حين أشاء

«إذا شئت، وحين أشاء»: من هذا الشعار الأنثوي القديم الذي كان يؤطر النضال من أجل الإجهاض وتحديد النسل، لم تُحقق النساء سوى الجزء الأول «إذا شئت»، لأن الرغبة صارت تقود التناسل، وكل «حادثة غير مرغوب فيها» يمكن أن تنتهي في أحد مراكز التخطيط العائلي. أما الجزء الآخر «حين أشاء»، فإنه يتكسر على حائط الساعة البيولوجية. تأتي مرحلة عمرية، لا يعود بإمكان المرأة أن يكون لها أطفال. إن سن اليأس يحطم حلم «الطفل تحت الطلب». يا له من ظلم! يا لها من عقبة لا تُحتمل أمام «حرية التصرف» في الجسد، هذا الجسد نفسه الذي يتمنع على الرغبة القوية للفرد! تقليص الرغبات؟ التضحية بالحياة المهنية من أجل الولادة في الوقت المناسب؟ لِم ذلك، ما دام العلم يمكنه أن يمنحك تقنية عجيبة تمكّنك من التخلص من هذا العبء البيولوجي؟ إذن، عاش تجميد البويضات! التقنية سهلة: يتعلق الأمر باستخراج بويضات «في حالة جيدة» من المبايض، لحفظها من أجل حمل متأخر. السن؟ الشيخوخة؟ هذه أشياء عتيقة بالية، ستصنف عما قريب في خزانة الكائن الإنساني المتخلف.

يتعلق الأمر حقا بإسقاط العبء الأخير. تقترح شركات مختلفة على النساء العاجزات عن التوفيق بين الحياة المهنية والرغبةِ في الأطفال، أن تتيح لهن توقيفا مرحليا. في الموقع الشبكي لإحدى هذه الشركات المتخصصة في تجميد البويضات، توجد شهادات لزبونات حول رغبتهن في التفلت من وضعيتهن. تقول إحداهن: «للنساء ساعة بيولوجية، وهذا شيء مخيف. من الظلم أن البيولوجيا لا تتلاءم مع الواقع. أتمنى أن يمكن لجميع النساء في يوم ما أن يخترن تجميد بويضاتهن، ليكون لكل واحدة الحرية في تقرير الوقت الملائم لذلك». وتقول أخرى في ما يشبه الموعظة: «هذه أفضل هدية يمكن أن تقدميها لنفسك. إن الثمن غال، ولكن الأمر يستحق ذلك. ابحثي عن قرض، اطلبي من والديك، استلفي من أصدقائك أو عائلتك، افعلي ما يجب فعله. هذا سيعطيك القدرة على التحكم في حياتك وجسدك. وحتى لو لم تستعملي بويضاتك أبدا، يمكنك رؤية الأمر كأنه ضمانة يمكن اللجوء إليها في الأخير». في مقابل القدرة الدائمة على الإنجاب عند الرجال، فإن المصير المنقطع للنساء يبدو كأنه ظلم، والفرق البيولوجي كأنه لامساواة عشوائية، يجب تصحيحها عبر التقنية الحديثة.

في فرنسا، لا يزال تجميد البويضات مسموحا به فقط في حالة العقم. ويشكل سعره القريب من عشرين ألف أورو، عائقا إضافيا. ولكن في منطقة السيليكون فالي (Silicon Valley)[1] حيث يُصنع إنسان الغد، فإن بعض الشركات متعددة الجنسيات الكبرى تتكفل بهذا العمل الطبي، لتتمكن أفضلُ العاملات من تكريس زهرة شبابهن لتطوير الشركة. هذه حالة شركتي «آبل Apple» و«فيسبوك Facebook» - من ضمن شركات أخرى - اللتين تتزينان بثياب الأنثوية غير المصلحية، وتؤكدان أنهما بذلك تعملان فقط على زيادة نسبة الإناث ضمن العاملين لديهما. هل يشكل هذا فضيحة في بلاد الغرائب الجنسية؟ كلا. تكتب جيسيكا بينيت في النيويورك تايمز، بكل صراحة: «لِم لا يكون هذا الإجراءُ المرادفَ العصري لحبوب منع الحمل؟ الإجراء الذي سيسمح بتحطيم الطابوه الأخير، العبء البيولوجي الأخير؟».

إن العلم يتبع رأس المال حذو القذة بالقذة، ولا شيء يمكن من الآن فصاعدا أن يمنع النساء من تكريس أنفسهن تماما للخضوع لنظام الأجرة. حين ستعمَّم هذه الممارسة وتصبح

(1) منطقة مشهورة في ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة، تتجمع فيها كبريات الشركات في التكنولوجيا العليا والتواصل الاجتماعي. [المترجم].

ديمقراطية أكثر، من ستستطيع من النساء أن تقاوم ضغطا مماثلا؟ كما في حالة الإجهاض، يمكن لتوسيع مجال الاختيار أن يعود على النساء بالأذى.

بدلا من تحذير النساء من أنهن لن يستطعن الإنجاب بعد سن معين، ومساعدتهن على ذلك ما دُمن قادرات عليه، أي باختصار تنظيم استقبال الحياة اجتماعيا؛ يفضلُ هؤلاء إيهامَ النساء أنه سيوجد دائما مختبر علمي متطور يمكنه حل مشاكل إحباطهن في الجسد والقلب.

الإنجاب بالمساعدة الطبية

من ضمن مجالات عمل الأنثوية الجديدة، توسيع دائرة «الإنجاب بالمساعدة الطبية» إلى النساء السحاقيات. من المؤكد أنهن قد يجدن أحيانا صعوبة في الدفاع عن الحمل بالنيابة، ولكن المطالبة بالإنجاب بالمساعدة الطبية لفائدة السحاقيات، لا يشكل لهن أدنى مشكلة. لِم التوقف في منتصف الطريق في النضال من أجل المساواة، وحرمان النساء المثليات من شيء يباح للنساء المتغايرات جنسيا في حالة العقم؟

في فرنسا، حيث المساعدة الطبية على الإنجاب مؤطَّرة، لا بد من ثلاثة شروط أساسية لإمكان الحصول عليها: أن تكون المرأة "في سن الإنجاب"، أن تكون مرتبطة برجل منذ عامين، وأن تكون في حالة عقم مرَضي معترَف به. ستحطم إباحة تجميد البويضات لتأخير سن الإنجاب، شرط سن معين للإنجاب مستلهم من الدورة الطبيعية. وفتحُ المجال أمام السحاقيات سيحطم القفلين المتبقيين: لن يكون حينئذ الإنجاب بالمساعدة الطبية نشاطا طبيا، ولن يكون إذن محجوزا للمتغايرين جنسيا المصابين بالعقم. هذا الانفتاح سيترجم الانتقال من إجراء طبي إلى تقنية اختيارية، أصبحت طريقةً للحمل كغيرها من الطرق. سيكون ذلك في الواقع خطوة أكبر من الزواج المثلي، في الاتجاه نحو إلغاء الفوارق بين الجنسين.

هل سنتجاوز يوما ما هذه العتبة بأن نضع في مستوى واحد الإخصاب الطبيعي والاصطناعي؟ ستكون العواقب وخيمة جدا. حذر جاك تستار (Jacques Testard) - أحد مخترعي «الإنجاب بالمساعدة الطبية» ووالد «أماندين»، أولِ طفل أنابيب - باكرا من الانحرافات النِّسالية التي يمكن أن تنتج عنه. دون أن يتأسف للتقدم العلمي للإخصاب عبر الأنابيب، فقد أنكر هذا العالِم المبالغةَ الحتمية في استعمال الطب في مجال التناسل، والقدرة الغامضة على انتقاء خصائص الأجيال المستقبلية. فقد كتب منذ عام 1986: «يوما ما، سيُنتقى أطفالكم بحيث يكونون سالمين من ضعف البصر». اليوم، في «أبناك المنيّ» بكاليفورنيا، يمكن اختيار لون عيون الطفل على القائمة، وبعضُ المانحين يؤدّى لهم من أجل جودة منيّهم. إن استعمال هذه التقنية الجديدة يجعل العقم لا يطاق أكثر مما كان عليه، إذ يصبح عيبا لا يُغتفر.

ولكن استعمالها المكثف سيؤدي بشكل خطير إلى تفاوت في الولادة بين الأطفال الطبيعيين وأطفال الأنابيب. تسجل أليكسيس إسكوديرو (Alexis Escudero) المعارِضة للنزعة التقنية في كتابها «التناسل الاصطناعي للإنسان La reproduction artificielle de l'humain»: «إن الإنجاب بالمساعدة الطبية هو إدراج للتفاوت الاجتماعي والاقتصادي داخل بطن المرأة: في الولايات المتحدة، بويضات صاحبة شهادة من جامعة ييل (Yale) أغلى بكثير من بويضات طالبة في جامعة أوكلاهوما».

غدا، الرحم الاصطناعية؟

تلاحظ سيمون دوبوفوار في «الجنس الثاني»: «الرجال والنساء من وجهة نظر البقاء الجماعي ضروريان بالتساوي». هذه الملحوظة البدهية قد يعاد النظر فيها، بقدر تطور العلم. إن البيو - تقنيات المدعومة بالنزعة العابرة للإنسانية، تسعى إلى زعزعة الحاجة الثابتة للتكامل بين الجنسين. لأنها تكمل النقص الموجود عند هذا أو ذاك، وتصلح أنواع الخلل المفترضة في الفروق بين الجنسين، فإن أسطورة التناسل عديم الجنس سينهي عما قريب أسطورة التحكم التام في الوجود الفردي.

"لست محتاجة للأنثوية، إن "التوالد البِكري parthénogenèse» يكفيني»: هل يمكن أن يتحول هذا الشعار للسحاقيات المتشددات يوما ما إلى واقع؟ التوالد البكري - الذي يعني نمطا للتوالد لا يحتاج إلى المشيج الذكري - يمثل بالنسبة للمثليات، ما تمثله الرحم الاصطناعية بالنسبة للمثليين: أفق تناسل «بِكر»، أي دون حاجة للآخر. تنتسب مناصِراتُه للتفكيك الثقافي، ولكنهن يستقين تمثلاتهن المتخيلة من البيولوجيا. الانقسام انطلاقا من مشيج أنثوي غير مخصب، والذي يشابه التناسل عديم الجنس، شائع عند الحشرات، ولكنه نادر عند الثدييات. ولكن في عام 2004، بُرهنت دراسة لمجموعة من الباحثين اليابانيين والكوريين، وحظيت بتغطية إعلامية مكثفة، على أن بويضتين يمكنهما إنشاء فأرة، رافعة بذلك المنع السابق. ولكن هؤلاء العلماء الأسيويين الطَّلِيعيين، بيّنوا بأن إقامة ذلك عند البشر مستحيل تقريبا.

أما الرحم الاصطناعية، التي يمكن أن توقّع على نهاية رحم المرأة، فهو أمر شديد الراهنية. الإخصاب الأنبوبي يمكّن من بقاء الجنين حتى خمسة أيام داخل الأنبوب. أقل أمد للطفل الخديج هو خمسة أشهر. بين المدتين، هنالك فراغ زمني لا تستطيع أية تقنية أن تملأه. تبقى رحم المرأة إذن المعبر اللازم لأي تطور للحياة. ولكن اليوم فقط. في رواية «عالَم جديد شجاع»، يتخيل ألدوس هكسلي صناعة الأطفال في مصانع ضخمة، بعيدا عن أي تدخل بشري. بعيدا عن أن تكون خيالا علميا، فإن المصفوفة التكنولوجية أصبحت موضوع بحث في المختبرات التي يُفترض أن تخترع الغد.

كان القرن العشرون، بالوسائل الاصطناعية لتحديد النسل، قرن الفصل بين الجنس والتناسل. يمكن أن يكون القرن الحادي والعشرون، بالتناسل الاصطناعي، قرن الفصل بين الإنجاب والأمومة. حسب السير العام لنضالات الأنثوية الجديدة، فإن الرحم الاصطناعية ستحقق الوعد بالتحكم الكامل في جسد المرأة. والانتقال من الفرضية إلى الواقع مؤكد، إذا استندنا إلى قانون جابور (Gabor) نسبة إلى الفيزيائي الهنغاري الذي أعلنها: «كل ما هو ممكن الوقوع تقنيا، لا بد أن يقع، دائما». إذا كان الاستنساخ البشري، الذي منعته الأمم المتحدة مع أنه ممكن ماديا، مثالا على المنع الأخلاقي الكابح للبحث العلمي، فليس الأمر كذلك بالنسبة للإنجاب خارج الرحم، أي إنتاج مشيمة صناعية، فإن ذلك - كما توقعه هنري أتلان (Henri Atlan) الطبيب البيولوجي وعضو المجلس الاستشاري الوطني للأخلاق - أمر حتمي الوقوع. إن استغلال هذه الإمكانية العلمية الثابتة لم يتأخر إلا بالنظر للوسوسات الأخلاقية التي تحيط بصنع الحياة. التبرير الرئيسي للأعمال الراهنة هو إنقاذ الأطفال الخدّج. كما في حالة القتل الرحيم، والبحث حول الأجنة، والإخصاب الأنبوبي، فإن إبراز هدف عادل أخلاقيا (تخفيف الألم، علاج الأمراض، حل مشكلة العقم) يتيح الفرصة لإزاحة أي تساؤل أخلاقي آخر.

ما الذي سيترجمه انتشار الإنجاب خارج الرحم؟ إضافة إلى السيناريو الكارثي لتناسل بشري صناعي (ولكن هل ستبدو مصانع الأطفال صادمة حقا في عصر أبناك المني؟)، فإن خلق الرحم الاصطناعية سيوقّع - بالنسبة للمرأة - على فقدانها النهائي لميزة الأمومة، والذي سينجزه التواطؤ بين السلطة الطبية والقوة الرأسمالية. سينهي ذلك بشكل نهائي التفاوت بين الجنسين، والذي يعد الحمل علامته الأكثر وضوحا.

نهاية المرأة

لنكرر الأمر: الوظيفة ليست بالضرورة هي نفسها الرسالة. النساء ليس واجبا عليهن أن يكنّ أمهات. ولكن هن فقط الوحيدات المالكات لهذه الإمكانية. إنه امتيازهن. اليوم، تُسرق منهم هذه الخصوصية، وتصبح ملكا للعلماء والتجار. تعد المبالغة في التطبيب في الولادة علامة على الأمر: العلاقة الجسدية الحميمية بين الأم والطفل في طريقها إلى الاندثار. سيطر العلم على جسد المرأة ليجعل منه هيكلا متقدما للخيوط والأنابيب والأقطاب الكهربائية. الإنجاب

صار عملية آلية، والقابلات عُوّضن بالأطباء[1]، ولم تعد الولادة سوى نوع من الإنجاز التقني والإحصائي. كما أن المرأة في مرحلة الولادة، صار لها مصطلح خاص، فإنها - مع والد الطفل - يصنفان على أنهما «والدان بيولوجيان»؛ بما أن هذا اللفظ يسمح - كما عند الفلاح الذي يستعمل الدفيئات البلاستيكية - بالتمايز عن الإنتاج الاصطناعي.

تحذر سيلفيان أجاسينسكي قائلة: «لأننا مهووسون بالجرائم القديمة، فإننا عاجزون عن رؤية ما يحدث أمام أعيننا: الوحشية «اللطيفة والناعمة» للتجاوزات البيو - تكنولوجية وإخضاع الجسم البشري». ولكن لِم تظهر الأنثوية الجديدة عمياء أمام المخاطر الجديدة التي تهدد مصير المرأة؟ بجعلها التحكم في الجسد معيارا للتحرر، فقد جعلت جسد المرأة حقل تجارب مستقبلية.

إن مرحلة ما بعد الحمل بالنيابة تحضّر الآن في المختبرات والجامعات. هل نريد عالَما يقع فيه لغز التناسل العجيب في الصمت الجليدي للغرف الباردة، بين خزائن الكاربون وأرصدة المني؟ ستفقد النساء حينئذ خصوصيتهن الحميمية. وستؤدين بذلك أيضا الضريبة الأثقل. وكما تكتب أجاسينسكي أيضا: «إن النساء هن اللواتي يتحملن دائما، وبشكل حتمي، النصيب الأوفر من العلاجات والعمليات». المرأة هي التي تتحمل عناء التناول اليومي للهرمونات، وتضع اللولب لتصبح غير مخّصبة، وتتعرض لعنف استخراج البويضات، وتتعرض للإجهاض، وتؤجر رحمها لغيرها، وتمنح جسدها للإخضاع التكنولوجي؛ في حين أن الرجل يحتفظ برفاهيته.

«بؤسُ المرأة يكمُن في كونها مكرَّسة بيولوجيًّا لتكرار الحياة»؟ كلا، بل هنا يكمُن حظها، ميزتها، سعادتها. ضعفها هو مصدر قوتها. لأجل ذلك تتعرض للابتلاء، ولأجل ذلك تستحق الثناء. في المكان الذي تنشأ فيه الحياة، يكمن سر الاختلاف بين الجنسين. الرحم، بطن المرأة، هو حصان طروادة للنزعة العابرة للإنسانية. على النساء أن يدافعن عنه.

---

(1) يقترب من هذا المعنى ما حذر منه بعض الأطباء من تزايد نِسب الولادة القيصرية في السنوات الأخيرة، دون حاجة حقيقية، وإنما يلتقي الجشع الرأسمالي في ميدان الطب الخاص، بالحرص النسائي الفطري على تفادي أوجاع الولادة. [المترجم].

الخاتمة

خاتمة كتاب وداعا آنستي» لأوجيني باستيي (ص219 – 220)

هنالك حقيقة لا يمكن أن ننساها. المرأة ليست من الأقليات في المجتمع. ومنحها هذا الوصف، يؤول إلى معاملتها كطفلة غير راشدة. وإذا كانت قد تعرضت للسحق في زمن غير بعيد في القدم، فإن حالة الخضوع هذه ليست ثابتة ولا كونية. يتعلق الأمر إذن بالبحث عن أسبابها الموضوعية ثم محاربتها، بدلا من تخفيف أثر مسؤولية الإخضاع بتعليقه على سلطة باطرياركية غامضة ومتعددة الأشكال.

إن الفرق بين الجنسين شيء ثمين، وغير قابل للتصرف فيه. إنه حد فاصل يقسم العالم إلى اثنين، منذ الأنفاس الأولى للبشرية. إنه الطابع الراسخ للوضع الإنساني. يمكننا محوه أو ستره، ولكن على حساب تفقير عام لطائفتنا الأنطروبولوجية. يمكننا انتهاكه، ولكن تحت خطر جعل مصيرنا بين أيدي نخبة عشوائية ومتقلبة ومستبدة. يمكننا الاستهزاء به ولكن سيؤدي ذلك إلى تزييفه من طرف التسويق الرأسمالي، وتحريفه بحصره في الأزرق والوردي الصناعيين. ويمكننا أيضا نصبه ورفعه وإخضاعه لمتطلبات العبقرية الإنسانية. وهذا ما يسمى «التمدين»، هذه الكلمة التي تمت خيانتها وتدنيسها من طرف أتباع النزعة العنصرية، التي تنتسب إليها الأنثويات الجديدات دون وعي.

هذه «المدنية» في مجال العلاقة بين الجنسين، بلغت أعلى مراتبها في الأدب والشعر الفرنسيين. لننظر كيف يحسن الشاعر ألفرد دو ميسي (Alfred de Musset) الحديث عن ذلك في قصيدته «إلى آنستي A mademoiselle»، وهو يرسم السلطات المقتسمة والمتعاكسة بين الرجل والمرأة:

«نعم، يبدو أن كبرياءك عظيم،
إذ – وبسبب جبننا –
لا شيء يساوي قوتك،
إن لم يكن: هشاشتك.
ولكن كل قوة في الأرض
تموت حين يساء استغلالها،
والذي يحسن المعاناة في صمت
يبتعد عنك وهو يبكي.
مهما يكن الألم الذي يكابده،
فإن مصيره الكئيب هو الأجمل.
أفَضّل عذابنا على مهنة الجلاد التي تتقمصينها».

بعد مرور 150 سنة تقريبا، يغني مطرب الراب بُوبا (Booba) قائلا: «آنستي، إنما أحبك من أجل مؤخرتك و..».

وبين هذا وذاك، كانت الأنثوية.

من خاتمة كتاب «خدعة الأنثوية الرهيبة» للوسي شوفي (ص197 – 207)

نواجه اليوم انفجارا في الفردانية. صار الطلاق والخيانة الزوجين معتادَين باسم الحرية، وصرنا متمركزين أكثر فأكثر على ذواتنا الصغيرة.

نضع أطفالنا منذ الصغر في مؤسسات لتربيتهم بدلا عنا، ونضع آباءنا الهرمين في دور العجزة لنتفادى الاعتناء بهم بأنفسنا.

يختار عدد كبير من الرجال والنساء عدم الزواج أو عدم الإنجاب لتفادي التشويش على نمط حياتهم: الخرجات والأسفار والحفلات والحياة المهنية والمقام الاجتماعي ..

لا نريد الانشغال بواجباتنا، ولكننا نطالب بقوة بحقوقنا.

الرابح الأكبر من الفردانية هو مجتمع الاستهلاك. حين تدمر قيمنا وتكسر الأسرة فإنها تجرنا نحو فخ الاستهلاك إلى حد الغلو. صار كل شيء قابلا للاقتناء اليوم: التراب والحجارة الصغيرة من أجل المزهريات، الوجبات الجاهزة، عقد طلاق، حفلة زواج، شقة من أجل الأب، شقة من أجل الأم، ساعة من المساعدة على الترتيب مع «مدربة»، ألعاب إلكترونية (من أجل العزاب، المراهقين إلى الأبد)، عاملة تنظيف، طباخة أو مربية أطفال (للآباء «المنشغلين جدا»)، طفل من العالم الثالث (للتبني من طرف زوجين مثليين)، عاهرة سنها أقل من 18 سنة، حيوانات منوية، رحم، وعما قريب أيضا .. الهواء الذي نستنشقه، ما دمنا معرّضين بشكل متزايد إلى التلوث في المدن الكبرى، والسحب السامة للمبيدات الحشرية في البادية، وعما قريب – كما في الولايات المتحدة – إلى الانبعاثات السامة لغاز الميثان والمواد الكيماوية الأخرى ..

يسبّب تدمير الأسرة وقيمها، مثل التضامن والتعاون المتبادل والحب وواجب الحماية، إلى معاناة عميقة عند الأفراد المحرومين من أي ملجأ في حالة المرض أو الأوضاع الاقتصادية الصعبة. أصبح الرجل والمرأة والأطفال يبدون اليوم مثل أناس مشتركين في سكن واحد، ينشغل كلٌّ منهم باهتماماته الخاصة، ثم يلتقون بين الفينة والأخرى في المساء بين برنامجين تلفزيين، أو في عطلة نهاية الأسبوع بين نشاطين رياضيين أو ثقافيين.

وهكذا نشهد منذ سنوات الستينيات - ودون أن يتجرأ أي واحد على ربط العلاقة بما سبق - تزايدا مستمرا في أعداد الانتحارات. يذكر تقرير المنظمة العالمية للصحة لعام 2012، أن نسبة الانتحار زادت بمقدار 60 ٪ على الصعيد العالمي خلال السنوات الخمس والأربعين الماضية. كل سنة، ينتحر قريب من مليون شخص، ويقوم قريب من 20 مليونا بمحاولة انتحار. نسبة الوفيات العالمية هي «16 من 100000، أي حالة وفاة كل 40 ثانية». يعد الانتحار ضمن «الأسباب الثلاثة الرئيسية للوفاة عند الأشخاص بين 15 و44 سنة في بعض البلدان، والسبب الثاني في المجموعة العمرية 10 - 24 سنة».

تقدر منظمة الصحة العالمية أيضا بأنه «على الرغم من أن أعلى معدلات الانتحار تسجل عادة لدى الأشخاص كبار السِن، فإن المعدل لدى الشباب زاد لدرجة أنهم صاروا يمثلون المجموعة الأكثر تعرضا لمخاطر الانتحار في ثلث بلاد العالم، ودون فرق بين الدول المتقدمة والتي في طور النمو».

إن العالم ليس بخير، وأنا متأكدة بأن نظرية النوع و«زواج المثليين» سيفاقمان المشكلة لدى الأجيال الآتية. هنالك نتائج مقلقة للدراسة التي أجراها البروفيسور مارك ريجنيروس (Mark Regnerus) في جامعة تكساس، والتي عنيت «بتتبع 3000 طفل أصبحوا راشدين، بعد تربية في ثمانية هياكل أسرية مختلفة انطلاقا من 40 معيارا اجتماعيا وعاطفيا». دلت الدراسة على أن «النتائج الأكثر إيجابية تأتي من الذين رُبّوا في أسر «تقليدية»، فهم يقولون إنهم أكثر سعادة، وفي صحة نفسية وبدنية أفضل، ويستهلكون مخدرات أقل من الآخرين». تُظهر الدراسة أيضا بأن «الأطفال الذين ربّتهم سحاقيات» يظهرون «تزايدا مقلقا لحالات الاكتئاب». وأخيرا، تخبرنا الدراسة بأن «الراشدين المستجوَبين تعرضوا أكثر للاعتداءات الجنسية (23 ٪ مقابل 2 ٪ فقط في الأسر التقليدية) ويعانون أكثر من الهشاشة الاقتصادية (69 ٪ محتاجون للإعانات الاجتماعية، مقابل 17 ٪ للذين رباهم أب وأم)».

ما الذي سيحدث إذا رفضت الفتيات اليوم إنجاب الأطفال، لأنهن يرين أنفسهن رجالا ويرين الأمومة تأخرا؟ تقول مارسيلا ياكوب (Marcela Iacub) الباحثة في المركز الوطني للبحث العلمي: «العدو الأكبر للنساء هو الطفل والأسرة، لأن النساء - من وجهة نظر النجاح المهني والمساواة الاجتماعية والنجاح إلخ - يجدن أنفسهن معاقات بالمكانة التي يحتلها الطفل في حياتهن».

وماذا عن اللواتي يرغبن في الأمومة، وفي تخصيص وقتهن لتربية أطفالهن ورفاهية الأسرة؟ هل هذه الفكرة رجعية إلى هذا الحد؟ أم أنها أمر طبيعي؟ تخيلوا معاناة امرأة عملت بمشقة بالغة خلال طفولتها ومراهقتها وجزء من حياتها كراشدة، من أجل تحصيل شهادة جامعية والوصول إلى مهنة ذات مستوى عال (لأنها دُفعت إلى ذلك منذ الصغر من خلال التربية والمجتمع والإعلام والأسرة)، ثم تكتشف حين تنجب أطفالا، أن ذلك كله سيكون على حساب دورها كأم وزوجة! سيكون عليها إذن أن تختار، وبألم عميق. كان بالإمكان استباق هذا الاختيار بشكل مبكر لو أنها رُبّيت على أنها امرأة لا رجل، وذلك بإدخال معطى «الأمومة» في اختياراتها الحياتية.

إن عمل ربة البيت عملٌ حقيقي، ولكن الكثيرين لا يعدونه نشاطا كاملا، لأن ربة البيت لا تستلم أجرا ماديا ولا تساهم في صندوق التقاعد ..

في الواقع، يشبه البيتُ مقاولة لها مسارات وأنشطة مختلفة، يجب تدبيرها على أفضل الوجوه، وتحسين عملها وخلق القيمة المضافة. يوجد في أغلب المقاولات موظفون مخصصون لتدبيرها: مسؤول عن العلميات، مسؤول إداري ومالي، مسؤول عن الجودة والأمن والبيئة، مسؤول عن الموارد البشرية .. تقوم ربة البيت بجميع هذه الأعمال الإدارية في بيتها. تسعى إلى التدبير الأفضل لموارد زوجها مع خلق قيمة مضافة: بيت يكون العيش فيه جميلا، سعادة الأسرة، تربية الأطفال على قيم الوالدين ..

يقول الكثيرون إن هذه تضحية كبيرة على الصعيد الشخصي، لأن ربة البيت لن يكون لديها تقاعد، وقد تجد نفسها فاقدة لكل شيء في حالة الطلاق. هذا صحيح، ولذلك من الضروري أن يكون بين الزوجين التزام متبادل مدى الحياة، وهذه فائدة الزواج: التزام بأن يعتني كل واحد بالآخر، «في الحلو والمر»، «إلى أن يفرق بينهما الموت»[1]. لا نتزوج من أجل الاحتفال أو إظهار الثراء خلال وليمة الزواج، ولا لإظهار جمال الشريك .. الزواج، عقد مبني على معنى التأبيد. (..)

على الصعيد الشخصي، ليس لربة البيت حياة مهنية ولا مقام اجتماعي مرموق، ولكن لها ميزة رؤية أطفالها يكبرون، ومعرفتهم وبناء أساس من القيم لديهم، تكون لهم مرشدا خلال حياتهم كلها. إنها تكون حاضرة لتسمعهم وتفهمهم وتطمئِنهم، خاصة في المراهقة وفي جميع الحالات الصعبة.

---

(1) تنطلق المؤلفة في هذه الإجابة من التصور النصراني الكاثوليكي الذي يحرم الطلاق مطلقا، وهو تصور لا يراعي جوانب أخرى من القضية، يمتنع معها القول بتحريم الانفصال مطلقا. الشرع الإسلامي أقرب إلى الفطرة والعقل، وأقدر على مراعاة حقوق الرجل والمرأة، وتماسك المجتمع. لكن تفصيل ذلك يطول جدا. [المترجم].

ربة البيت أيضا تمتلك حظوظا أوفر لإرضاع طفلها بهدوء أكبر ولمدة أطول. ومن المعلوم أن إرضاع الطفل «يساهم في صحة الأم وراحتها، ويعين على المباعدة بين الولادات، ويقلص مخاطر الإصابة بسرطان الرحم والثدي» - كما تقول منظمة الصحة العالمية. الإرضاع الطبيعي هو أيضا وسيلة اقتصادية لتغذية الطفل. تقدّر بعض الدراسات بأن الفرق بين الرضاع الطبيعي والصناعي هو تقريبا 1837 أورو للطفل في سنته الأولى.

يزعم بعض الناس أن ربة البيت هي امرأة منعزلة ومنغلقة وليست لها روابط اجتماعية. وهذا خطأ. تلتقي ربات البيوت في أماكن مختلفة: الحديقة العمومية، أماكن الألعاب، أنشطة الأطفال، أماكن العبادة، أبواب المدارس .. وبينهن روابط العون والنصح المتبادلين. كما أن لربات البيوت وقتا أكثر من النساء العاملات من أجل تنظيم أنشطتهن الشخصية: الجمعيات الرياضية والثقافية .. لا يوجد شيء روتيني، ما دام الأطفال يكبرون، والأسرة تتغير بالولادات المتعاقبة، والنشاط يُثريه اللقاء والتعلّم ..

لربات البيوت أيضا ميزة القدرة على العناية بالوالدَين في سن الشيخوخة، وتجنب التخلي عنهم في دور العجزة غير الصحية، وغالية الثمن، والتي يمكن أن يتعرضوا فيها لسوء المعاملة. علاوة على ذلك، تظهر الكثير من الدراسات أن كبار السن يعيشون أفضل إذا كانوا محاطين بالأطفال الصغار أو المراهقين؛ يزيد السياقُ مختلف الأجيال من المشاعر الإيجابية، واحترام الذات، والرضا عن الحياة، ويحفز الاشتغال الإدراكي للأشخاص المسنين. كما تمت البرهنة على أن لهذه العلاقات بين الأجيال المختلفة أثرا نافعا على عمل الذاكرة في الحياة اليومية، والمزاج الإيجابي ودرجة القلق لدى الأشخاص المسنين، حتى المصابين منهم بالخرف.

إن عمل ربة البيت ليس نشاطا سهلا، بل هو يحتاج إلى تضحيات كثيرة وقوة بدنية ونفسية كبيرة. ولكنه نشاط يخلق الحب ولحظات السعادة، ويؤدي بالتالي إلى استمرارية الأسرة وثباتها.

(..)

هذه صرخة أوجهها إلى جميع النساء والرجال من جيلي هذا. أقول لهم جميعا: «استيقظوا! لقد صار العالم أحمق!». صرنا نتحول إلى خِرفان خنثوية، نكون عبيدا في بعض حالاتنا، ونكون مستهلِكين مسعورين باسم الحرية الطوباوية، في حالات أخرى. هل يشعر الخرفان بأنهم أحرار داخل الحظيرة؟ هل هذه هي الحرية حقا؟ لقد صرنا نقبل أن نقتُل آخر القيم المتبقية لنا. ما هذا العالم الذي نريد أن نتركه لأبنائنا؟ عالم دون إيمان ولا قانون، يقود فيه تصور مخصوص للحرية إلى أسوإ الحماقات؟

أخواتي النساء: لنتجرأ على العودة إلى بيوتنا. لندبّر ذلك من أعماق قلوبنا. لنعمل على تربية أطفالنا على قيم حقيقية. (..) لنستفد من ديانة أسلافنا، سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين أو يهودا أو بوذيين! لنعد ربط علاقتنا بهذه القيم العريقة التي سمحت لأسلافنا بمقاومة الحماقة والشر.

لا تستمعْنَ للدعاية الإعلامية والمجتمعية التي تريد منكن أن تكنّ الإماء الصغيرات الطيبات المحبات لجلادهن الحقيقي: رئيس العمل! إن العمل رَبة بيت هو الدور المثالي للمرأة التي ترغب أن يكون لها أطفال وأن تربيهم على احترام قناعاتها.

إخوتي الرجال: تعلموا الاعتناء بأسرتكم، والتصرف كرجال مسؤولين، وحماية أسرتكم وتربية أطفالكم. احترموا زوجاتكم وعملهن اليومي. ابذلوا أقصى جهدكم في العمل من أجل ضمان عيش أسرتكم، ولا تحسبوا أن العمل في البيت ليس عملا حقيقيا وشاقا. إذا رجعتم إلى البيت ووجدتموه نظيفا، وأطفالكم مزدهرين والطعام جاهزا، فإن ذلك كله ثمرة عمل زوجاتكم، فكروا إذن في تشجيعهن وشكرهن. (..)

وأخيرا، لنعمل جميعا على حماية الذرة الأولى التي تكوّن مجتمعنا: الأسرة. علينا أن نحميها كما تحمى الجوهرة الثمينة، لأنها فعلا هي أغلى ما نملك.

لقد كان للأنثوية دون شك فائدة واحدة، هي أنها أطْلعَتْنا على ذلك الجانب المظلم الذي كان مغيّبا عنا من قبل. يمكننا الآن أن نرجع إلى بيوتنا لنزدهر في سكينة، تحت حماية الزوج، ومن أجل سعادة الأسرة .. ولكن بشرط أن نجد ذلك الرجل، الحقيقي، الذي يقدّر أهمية الالتزام والمسؤولية.

ولذلك فإن مستقبل الدفاع عن «قضية النساء» يتمثل ربما في إصلاح ما أفسدته الأنثوية، أي في إعادة الفحولة وحس المسؤولية إلى الأجيال المستقبلية من الرجال. (..) ومن أجل هذا لا بد من منع نظرية النوع والزواج المثلي إلى الأبد، وتركيز أولوياتنا على ما هو حيوي (الأسرة والبيئة)، وإعادة الاعتبار للقيم الدينية، وإحياء تعليم حقيقي في المدرسة. (..)

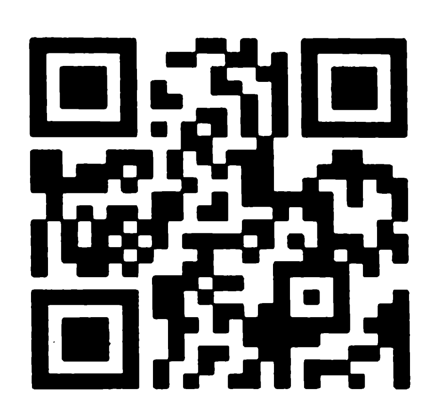
وعلينا أيضا العمل في سبيل الإرادة العامة (لضمان رفاهية المجتمع) لا الإرادة الخاصة (التي هي تجمّعٌ للمصالح الشخصية). وفي سبيل ذلك، علينا بشكل أولوي أن نقاوم بشراسة «دكتاتورية الأسواق المالية العالمية»، وننتفض ضد «وسائل التواصل الجماهيري» التي تتحكم فيها «مصالح خاصة».

مسـرد
لأهم المصطلحات الفلسفية والفكرية
المترجمة في هذا الكتاب

الترجمة العربية	اللفظ الفرنسي
الجنسوية	Sexisme
الأبوية، الباطرياركية	Paternalisme
المساواتية	Egalitarisme
الجوهرانية	Essentialisme
مَوضعة	Objectivation
التغاير الجنسي	Hétérosexualité
المذهب الاسمي	Nominalisme
أدائي	Performatif
لبرلة	Libéralisation
العابر للإنسانية	Transhumanisme
النسبوية	Relativisme
الحمل بالنيابة	GPA : Gestation pour autrui
الإنجاب بالمساعدة الطبية	PMA : Procréation médicalement assistée

Eugénisme	النسالة
Parthénogenèse	التوالد البكري
Manichéen	مانوي
Essentialisation	ماهوية
Parité	التساوي العددي
Fantasmatique	هوامي
Idiosyncratique	فُرادي
Pathos	التفخيم الدرامي
Psychologisation	نفسنة
Standardisation	تنميط معياري
Antéprédicatif	قبل - حملي
Humanisme	الإنسانوية
Conformisme	الامتثالية
Culturalisme	الثقافوية
Androgynat	الخنثوية
Gynocentrisme	التمركز على الأنثى
Hédonisme	المتَعية
Différentialiste	التفاضلي

للاطلاع على إصدارات المركز والشراء من متجر دلائل الإلكتروني :



https://dalail.center

لمتابعة جديد المركز وأخباره وعروض المبيعات :

- تليجرام - تويتر : (@Dalailcentre).

- واتساب : (00966539150340).

تتوفر كتبنا أيضاً في :

- جرير: (www.jarir.com).
- دار مفكرون - مصر :

- فيسبوك: (@mofakroun) - تويتر: (@mofakroun).

- تواصل: (00201110117447).

- جملون: (www.jamalon.com).
- النيل والفرات: (www.neelwafurat.com).